صلاح جواد شبر

يستعيد وقائع الذاكرة المكتوبة

أيام إعتقالي
في السجون الأمريكية



دكتور صـلاح شـــبر - مستشار وزارة الصحة العراقية
هاتـف: 1939812 790 964+
salah.shubber@yahoo.com

صلاح جواد شبر...

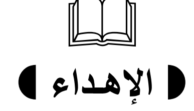
يستعيد وقائع الذاكرة المكتوبة

أيام إعتقالي

في السجون الأمريكية




بسم الله الرحمن الرحيم



الإهـداء

لم أشعر بعقدة يُتمي و خوفي

الاّ عندما واجهت كبرياء الغرب و مخابراته، و صقيع كندا و زمهريره

و قد افتقدتك كثيراً

و بدون أن أدري، انتقل عشقي

إلى ذات الحرف الذي طوّقك

و إلى الريشة التي رسمتك

وها أنا اكتب رسائلي إليك التي لم ترها، و لم تسمع بها يوماً،

فرحت أخترع في طريق عشقك الأفكار و أصبها بالدموع

إلى أبي الشهيد الخطيب جواد شبر ..أهدي ما كتبت



المقدمة

ليس بمستغرب أن يكون أدب السجون تجربة ضخمة و كبيرة في عالم صراع الأفكار، خصوصاً في جولات الصراع الأبدي ما بين الحق و الباطل، فما كان لهذا الأسلوب -أعني أسلوب السجون- من قِبل الجانب القوي (السجان) إلاّ نوعاً من العجز، أو الضعف أمام قدرات الجانب الآخر (السجين) الذي يقاوم ببندقية الفكر، و سيف المنطق و الصمود، و لم أرى في تاريخ ذلك الصراع -الحق و الباطل- المضني من مقاوم إلاّ و كان له حيز في حياته، أن يقضيها في تجربة السجن ليضيف الى تاريخ حياته وساماً آخراً من أوسمة الإنسان، و لا تقتصر تلك التجربة على الأفكار المبدئية السماوية التي تعتقد بالحياة الأخرى فقط، و إنما وجدته في الكثير من الأفكار الأخرى التي كانت قد صنعت الإنسان، ليبني له في هذا البلد أو ذاك تاريخاً و نظاماً يفتخر بقدرته على قيادة تلك البلدان.

و ليست بتجربة (نلسون مانديلا) ببعيدة عنا، و هو الشخصية المقدّرة عالمياً في تاريخ صراعها مع قوى الإنسان المتسلط، الذي قرر أنذاك أن يسجنه حتى الموت، أما هو فقد قرر أن يُحيي بسجنه الآخرين، و لم أجد أدباً من أدب السجون في قطر من أقطار العالم، إلاّ و وجدت إلى جنبه جذوة عملاقة من جذوات العطاء و الثروة، فما دام هنالك سجناء فهنالك ثورة تعتمر في النفوس و تنضج شيئاً فشيئاً إلى حتى تتحول إلى كيان ضخم و عملاق لا تقف أمامه لا البندقية و لا السيف، و لا حتى الصواريخ عابرة القارات..! إنه صراع مخيف جداً.

و قد لاحظت أيضاً أن رواد السجون من المناضلين، لم يسمح لهم الوقت لينعموا بنتائج صراعهم في فترة حياتهم، و إنما استفادت من تلك القوة الأجيال القادمة في ذلك المجتمع، كما هو حال التاريخ العميق لمسيرة السجون في العراق، و التي ربما لم تبتدئ في حقبة تاريخ البعث الذي جاء في عام 1968 إلى الحكم، و إنما يعود ربما

الى أكثر من 1300 عام إلى حين يوم التغيّير 9 نيسان من عام 2003 إذ عايش العراقيون ذلك التاريخ، من الرموز الشامخة التي ارتبطت شخصياتهم بالسجون الرهيبة التي سادت في فترات عمقها بعمق التاريخ الإسلامي لهذا البلد، و قد كان لهم أن يعتزوا بتلك الشخصيات أيما اعتزاز، لعرفانهم بما قدموا لهم من تاريخ زاهٍ و عامر بالعطاء.

و ما دمنا قد ذكرنا هنا المناضل (مانديلا) فإنه لمن الإنصاف أن نذكر إسم رائد المسيرة الفكرية الكبرى في العراق، الذي كان الشخصية المفجرة لتحرير العراق، و تغييره و تبدله نحو المسيرة الديمقراطية ذلك هو (الشهيد محمد باقر الصدر) الذي اعتقل مرات عديدة كان أولها و كما أتذكر في سنة 1971 ثم توالت فيما بعدها إلى أن كان آخرها في سنة 1979 و هي سنة خروجي من العراق، و قد قتل فيما بعد على يد عصابة البعث التي سقطت في نفس يوم مصرعه. و هو التاسع من نيسان عام 2003.

كما انه لمن الواجب و الإنصاف أن أشير إلى والدي الشهيد الخطيب السيد جواد شبر الذي كان لسان الحق و العقل، و العلم، الذي دخل السجن ثلاث مرات، و كذلك أفراد عائلتي الآخرين من الشباب و من النساء، و كذلك والدتي و قد استشهد على أثرها اثنان من إخوتي بالإضافة إلى والدي، في ذات الوقت فإنني أقف بكل شموخ مفتخراً بكل من داست رجله عتبة سجون العراق، أو وطأت قدمه سجون العالم الأخرى في كل التواريخ ابتداء من العقود الأولى لانطلاق التاريخ الهجري حتى وقتنا الحالي. و لا أرى أن هنالك شيئاً يعتز به العقل الإسلامي و العقل الإنساني أكبر من نفحات تلك المسيرة الكبرى، مسيرة العقل إن شئت أن تسميها، لأنها هي التي صنعت ذات الإنسان في كل عصر و زمان.

أما من ناحيتي أنا، فقد خضت فترات الصراع و السجون في الولايات المتحدة الأمريكية مع أنظمة المخابرات منذ أن وصلت إلى تلك الأرض، حتى حين طردي منها. و خصوصاً الفترة التي

انحصرت في عام 1985 و ان أحداث هذا الكتاب تدور حولها، إذ كانت تجربتي أنذاك مع الأجهزة المخابراتية المتمثلة بمكتب التحقيقات الفدرالية (FBI) و مكتب المخابرات الخارجية التي تسمى (CIA) بالإضافة إلى أجهزةٍ أخرى كانت أنذاك منطوية تحت تلك المكاتب. مثل: مكتب الأمن القومي الذي تحول إلى وزارة خاصة بعد أحداث أيلول 2001 حيث كانت أنذاك تعيش الرهبة من المارد الإسلامي الذي تعتقد خطئاً أو غفلة بأنه سيكون منطلقاً من إيران، أو بالتحديد العالم الشيعي (مع إنني أتردد في إطلاق هذا المسمى) بينما كان أصله يتجذر و يكبر في حيز المحيط العام غير المحيط الأول الذي ذكرته و الذي كان يتخذ له أسماء أخرى بعيدة عن المفهوم الثيولوجي، لكي يستقي أفكاره من تلك الموضوعات الدينية التي خلقوها لأنفسهم، و اعتقدوا خطئاً بأنها من أصول الدين.

كان صراعي مع المخابرات أنذاك لم يكن مباشراً، و إنما كان من جانب واحد، حيث كنت أرى ذلك الصراع في حدود الثمانينات أنه قابل للتغيير إلى العكس، و لكن لكل فترة طابع و شكل، و هو ما أدى بي أن اضطر الى دخول المعركة معهم قضائياً تارةً، و سياسيا تارةً أخرى، إذ كان إحساسي من النوع الذي يريد أن يحول المعركة إلى الساحة السياسية بدلاً من الساحة التجريمية، حيث كان الجانب الآخر يصر على دفعي إليها.
و قد تعاملت مع الجميع من أطراف القوى المتحكمة بجوانب الصراع. و قد كان آخرها مقدراً لي أن ادخل السجن، حيث انتقلت بين أقسامه و بين شدته و ضعفه، كما تغيرت بذلك طبيعة المحاكمات و القوانين و غيرها من الأمور التي شرحت البعض من مداخلاتها.

كنت أنذاك و في حمأة صراعي مع الأميركيين أرى ضرورة الاستفادة من النظرة الأمريكية التي تميل إلى الجانب البراغماتي في فلسفتها و نظرتها إلى الشعوب و القضايا، بعكس النظرة التي كنت أحملها سابقاً و هي نظرة مبدئية مبنية على الأساس الديني الثيولوجي أو لنقل الصليبي، التي لم أجد لها واقعاً أصلاً في ذلك الصراع، و إنما كانت البراغماتية هي الساحة المكشوفة للعمل و التخطيط، و قد

كنت أرى في ذلك الوقت أهمية نقل فلسفة نظرة الحركة الإسلامية للمعارضة العراقية إلى الأمريكان، التي كانت نظرتهم أسيرة للكثير من القيود التي وضعوها في داخلها. و خصوصاً النظرة الخليجية و النظرة لبعض البلدان العربية التي كانت تمد أنذاك الفكر الأمريكي بالكثير من الأفكار الخاطئة عن واقع المعارضة العراقية. و كانت الأردن و السعودية ثم مصر قد قامت بدور كبير في تشويه صورة هذا الخط العملاق من تاريخ العراق.

و قد كانت فترات الصراع مريرة بكل ما في الكلمة من معنى، لأنني أصارع على أرض أخرى غير أرض العراق. فعندما مررت بنفس التجربة في العراق كنت أشعر بالاستقرار النفسي لسبب ربما لا أعرفه، مع أن النتيجة التي كانت هنا في العراق أقسى بكثير من النتيجة التي كانت في أمريكا، و لكن مع ذلك كان الجانب النفسي أقرب إلى الاستقرار و أنت تصارع دكتاتوراً على أرضه، فكنت أقول لهم دوماً بأنني لا أرغب في الدخول في معترك المواجهة مع الولايات المتحدة، بل إنها معركة جانبية، و كان هذا التصور هو أكثر ما يقلقني في المدة التي قاومتها في فترات العمل حتى الطرد من البلاد.

كانت المعاناة غير مقتصرة على هذا الجانب فقط، و إنما كانت الظروف العائلية القاسية و ظروف الملاحقات، و المواجهات الجانبية مع العناصر البعثية التي كانت تتحين الفرصة للإنتقام هي الأصعب و الأقسى!!
لقد كنت حريصاً على أن أنقل هذه التجربة في هذا الوقت بالذات، و ليس قبلا. و ذلك بسبب توفر الظروف الواقعية لتفهم الحالة السياسية، و حالة الصراعات الدولية للواقع في العراق، و مراهقة الأطراف السياسية و الوجودات الحزبية في الوصول إلى أهدافها و متبنياتها التي تحتاج إلى أكثر من رؤية قبل اتخاذ أي موقف بهذا الاتجاه أو بذلك.

و قد حرصت أيضاً في كتابي على أن أطيل في بعض المواقف التي واجهتني في السجن، أو في حواراتي مع قوى المخابرات. و ذلك تأكيداً مني على ضرورة الإدراك المنفتح على تلك المواقف التي قد تكون خافية كثيراً على من أعوزته تلك التجربة، كما أنني ذكرت في هذا الكتاب البعض القليل من المواقف التي تعرضت لها بما يخص جانب الغرائز، و كنت في ذلك أريد التنبيه إلى خطورة هذا السلاح و صعوبته في عالم الغرب، و قد أستميح القارئ عذراً من الصراحة في بعض تلك العبارات، و لكنني على أية حال لم أكن أنوي أن أتعدى حدود الحشمة في هذا الكتاب.

و أعترف أيضاً هنا بأنني لم أذكر كل المواقف التي كان يجب عليّ أن أذكرها، و ذلك بسبب الوضع المعقد الذي يمر به العراق الآن، و بسبب العلاقة الخاصة التي تربط العراق بتلك الدولة الكبرى، التي من المحتمل أن يتم ذكرها ربما بعد تغير الظرف السياسي إلى ما هو أفضل، ليكون مشابهاً لوضع المخابرات البريطانية التي تسمح بكشف أسماء الأشخاص و التفاصيل بعد مرور 25 سنة على الحادثة، و لكننا هنا و في العصر الحالي و بعد التغير الكبير في أعمار الإنسان و ثورة التكنولوجيا، علينا أن نتريث في كشف قسم من تلك المواقف إلى الوقت الذي يكون لذكر تلك الحوادث نتيجة إيجابية لمسيرة المجتمع.

كتابي هذا لم يكن إلاّ تجربة يستفيد منها الكل، إذ أنني حرصت على أن أضع الكتاب بلغة سهلة و بسيطة، و آمل من كل المعارضين و المقاومين من الأحرار في كل أرض الله الواسعة إلى الاستفادة منه، لما ينطبق على وضعهم و على مسيرة مقاومتهم للباطل، التي لا أرى أن هنالك نهاية مرتقبة في العصر الحالي لذلك الصراع، إلاّ أن يكون هنالك فهم و وعي عام، و نظرية كبرى يعتمدها العالم، و تعتمدها المنظمات الدولية التي لا يمكن أن تتحقق إلاّ بقياده عالمية كبرى، و حيث لا أرى في تحقيقها من توفر أرضية حقيقية في بداية هذا القرن الواحد و العشرين، و هذا معناه أن الحق و الباطل

سيتصارعان إلى حين تحقيق العدل المطلق في فترة أعمارنا الآن و غداً.

لا أرى من ضير في أن يُبدي القارئ العزيز رأيه في أحداث الكتاب، كما لا أرى من ضير في انتقاد بعض المواقف التي بادرت إليها، و انتقد نفسي -أنا بالذات أحياناً-، و أرى هنا بأن الإنسان ابن بيئته. فهو متعلق بالتاريخ و الجغرافيا، و بعدمه تتحول الدول إلى كيان جامد، و هو ما يدعونا جميعاً إلى التحلل من مبدأ الإصرار على المواقف السياسية خصوصاً، و الإجتماعية عموماً، و أن نترك للعقل و العلم الدور الكبير و الأول في تحديد هذا الموقف أو ذاك.

أشكر مكرراً كل قرائي الأعزاء، و أتمنى أن أكون قد أديت ما فيه قدر القضية التي تحملناها، و آمل من الله القبول، لأنني أولاً و آخراً سأكون في ظله يوم لا ظل إلاّ ظله.

صلاح جواد شبر

مستشار في وزارة الصحة العراقية

- مارس من عام 2013 -

①

◖ الفصل الأول ◗

عملية الشاب الملتزم

The Decent Guy Operation



إنقض عليّ رجال مكتب التحقيقات الفدرالي (FBI) كالصقور الكاسرة الجائعة. و هم يصرخون بكلمتهم المعروفة: أف بي ااااييييي (FBI)...[1]

ضع يديك خلف رأسك وانبطح.... و إلاّ أطلقنا عليك النار.

كان المنظر مثيراً و مرعباً أتذكره و أنا أعيش عقدين من الزمن بعد تلك الحادثة..... كان الاقتحام مفاجئاً و مرعباً، رجال يلبسون البدلات الزرقاء الغامقة، معتمرين بقبعات سود يحملون المسدسات الخاصة المحشوة بالرصاص، و وجوه مكفهرة تختفي تحت القناع الأسود الذي يغطي الوجه، و لا تميز منه إلاّ العينين الزرقاوين و الفم و هو يصرخ بصوت واحد (أف بي آي)(FBI)[2]

لم أعرف من أين جاءوا.... ؟
و كيف دخلوا....؟
و من أين خرجوا....؟
و لماذا يفعلون كل هذا ...؟

و صار الوقت بالنسبة لي شيئاً خارج حدوده ..... و لم أكن على ثقة بأنه حلم أم حقيقة....؟

في تلك اللحظات لم أرى في نفسي قدرة كيف يجب أن أتصرف أمام هذه الطريقة المفاجئة، حيث يغيب فيها العقل عن التفكير و التصرف بما يجب أن يكون.
رفعت رأسي كي أرى مصدر الصوت و الصرخة المفاجئتين، و ما كادت عيناي تتحركان نحو مصدر الصوت، و رأسي يلتفت باتجاه الحركة و الضجة، حتى رأيت جيشاً ضخماً من القطط السوداء و الزرقاء تحيط بي من كل جانب.
إعتقدت في البداية بأنني في حلم، و أن ما يحدث هو فيلم سينمائي قد دبلجته الإستديوهات، لكي يبدو حقيقياً أمام عدسات المشاهدين.

---

[1] مكتب التحقيقات الفدرالية Federal Bureau Investigation
[2] كانوا يرتدون ملابس زرقاء غامقة مع قبعات بنفس اللون، وهم غالباً رجال الإقتحام الخاصة بتنفيذ عمليات الهجوم المباشر.

لم أتبين عددهم في البداية. و كان الوقت أمامي قدره كقدر حركة العين، و ربما جزء من الثانية، التي كان مقدارها هو حركة الرأس فقط، و لم أشاهد إلاّ مسدسات مشرعة، و رشاشات موجهة عليّ في موقف يعجز الإنسان أن يمتلك القدرة على اتخاذ أي قرار بشأن الرد الذي يجب أن يبادر إليه، لقد شل الدماغ تماماً عن التصرف أو الاستجابة أمام هذه الدراما المتحركة.

أفضل ما يمكن عمله في مثل هذه المواقف هو التحرر من العقل الواعي الإرادي أمام فعل و تصرف الجانب اللاإرادي، و هو أمر أحياناً ممكن أن يفلسف إلى الجانب الغيبي أو ما شابه، و لذلك و اعتماداً على المفاهيم التي تعلمناها في تأريخ حياتنا و تربيتنا المتعلقة بعالم الغيب تركت القضية بكل ثقلها للعقل اللاإرادي الذي كنت آمل له أن يكون القرار الصحيح .

لم يتمكن قلبي من زيادة نبضاته، أو أن يزيد عدد جرعات (الأدرينالين) في الضخ إلى الدم، فالهجوم كان فوق تصرفات مساحة حركة الإنسان و ردود فعله.
لم يكن أمامي طريق آخر أبداً، إما المواجهة و معناها الإنتحار و القتل الفوري ... أو الإستسلام، الأمر الذي لم أكن على علم بنتائجه أو مسبباته...[1]

أحاطت بي تلك الفرقة المدربة الخاصة التي جاءت لاعتقالي من (واشنطن) العاصمة و كانت قد قضت ليلتها على ما يبدو في ملاحقتي لحظة بلحظة، و من مكان إلى آخر في الوقت الذي لم أكن أدرك شيئاً ما إلاّ ماكان يحصل، و تبادر إلى ذهني فجأة الهدف الذي أعيشه نحو إنقاذ وطني، و إنقاذ أهلي من ماكينة الموت التي تحيط بهم.
هذا النوع من الفرق الخاصة التي يتم إعدادها في أقسام خاصة و في غرف العمليات التابعة إلى مكتب التحقيق الفدرالي، و تشترك معها السي آي أي (CIA) و هو يحدث غالباً في الحالات المعقدة التي تكون القضية تتناول الجانبين: الأمن الداخلي، و الأمن الخارجي، و الذي هو من اختصاص كلا المكتبين.

أحاط بي الجميع من كل جانب. في الوقت الذي لم أكن أملك الوقت لكي أقول لنفسي ماذا عليّ أن أفعل أو أن أتصرف.....! و هكذا تجمدت ماكينة الدماغ،

---

[1] لهذه الفرقة غالباً صلاحيات و اسعة في القتل و في إطلاق النار متى ما شعرو ا بأن المقابل في و ضع المقاومة

و تعطلت الإشارات التي تتحرك ما بين مراكز التصرفات. و في هذه اللحظات غالباً ما يشعر الإنسان بأنه منقاد باتجاه معين لا يدري أين هو...؟ و كيف هو....؟ و لماذا هو....؟ يستسلم للقدر و يربط مصيره بالمَثل الأعلى الذي يؤمن به سواء أكان ذلك المثل الأعلى هو الله الباري عز و جل، أم هو قوة أخرى. سواء أكانت مادية أم لا مادية[1] المهم إنني شعرت و أنا أمر بهذه اللحظات العصيبة بأنني اقترب كثيراً نحو تلك القوة: المثل الأعلى، و كأنني أريد أن أحاكيه أو أن أتناغم معه في شدة الظرف الذي أمرّ به الآن.

لم تغامرني مشاعر الخوف في البداية، و إنما غامرتي شدة المفاجئة التي لم أتوقعها كمثل إنسان يعثر بصخرة في طريق مظلم لا يسعه إلاّ أن يتفاعل مع عنصر المفاجآت.

قلت و بصوت لا يكاد يسمع في لحظات عصيبة بين أن أفكر بما يدور حولي، و بين أن ألتمس المخرج، رفعت رأسي لأتبين مصدر الصوت الصاعق الذي شلّ كل حواسي، و عطّل مصادر المعرفة في ذهني، حتى تتمكن أذناي من أن تلتقط أصوات رجال أل (FBI) شعرت بنفسي و أنا وسط قعقعة من سلاح و أقسام المسدسات و صراخ.

قلت و بصوت مسموع: ما هذا....؟ باللغة الانكليزية (What was going on)

و لم أكمل عبارتي حتى شعرت بفوهة المسدس خلف جمجمتي، و على جانبي رأسي.

حركت مقلتي فقط، وإذا بصوت قوي يزمجرمن خلفي و يصيح بكل قوته: إخفض رأسك، وضع يديك خلف رقبتك.

رفعت يدي و وضعتها خلف رأسي حسب توجيهات الصوت الذي صم أذنيً. ثم تجولت ببصري في أنحاء المكان لأتبين ماذا عليّ أن أفعل.....؟ و كيف أنجو من ورطة لا أدري أهي مدبرة....؟ أم أن هنالك فعلاً (أف بي آي).......؟

هل أن القادمين الجدد هم لصوص مثلا.....؟

أم عناصر حكومية....؟

أم مخابرات عراقية....؟

---

[1] تتفق النظريات الفلسفية النفسية في تفسير تدخل جانب المثل الأعلى في حياة الإنسان خصوصاً في لحظات الخطر،عبد علي الجسماني 1984 المدخل إلى علم النفس الحديث، المؤسسة العربية للدراسات

أم ماذا.؟......
و لكل من تلك الاحتمالات من ردود فعل، و من عمل يجب اتخاذه استجابة لذلك، لأنّ القضية كانت أكبر من أن نعرّضها إلى التفكير أو النظريات، فضياع جزء من الثانية معناه فقدان الحياة، و فقدان القدرة على النجاة، فالوقت هنا ثمين و عزيز بين اكتشاف تفتيشي، و بين اتخاذ القرار. رفعت ذراعي إلى الأعلى لكي أمكنهم من تفتيشي، بينما أحاول أن أتطلع إلى ذلك المنظر الجميل الرهيب، المنظر السينمائي الذي تعجز قيادات هوليود على الإتيان بمثله. و بطل ذلك الفلم هو أنا، و عليّ أن أشاهد نفسي، و أنا أؤدي دوري، و لكن في عملية مأساوية عصيبة فأجمل الأشياء في الحياة هي المأساوية التي يخرج بها الشعورعن المألوف.

كان الجمال الذي تكتنزه هذه الصورة هو أكبر من معاني الجمال المادية، و أوسع من حدود المحسوسات التي تعارفنا عليها، ليس بالضرورة أن تكون صور الجمال هي التي نألفها في حياتنا، و إنما الجمال هو الشيء الغائب عن حدود إحساسنا، و هو الذي يدركه العقل المخفي، أو الحاسة السادسة التي تسير مع النفس أقرب منها في مسايرتها إلى الحس المادي.

و كم مرة نستشعر بالراحة، لأننا خرجنا إلى ما وراء حدود الفكر و المألوف، و الكثير من الناس أسرى الواقع، و أسرى ما يقع نظرهم عليه، أما المخفيات فهي الأشياء التي تكمن فيها معاني الجمال بكل رونقه.

إن الجمال و الحب يكمنان تماماً في استيعاب المتناقضات: الألم و الراحة، الأبيض و الأسود، الكبير و الصغير، المحسوس بالميتافيزيقيا...

هذه التشكيلة الرائعة التي تتآلف هي أروع ما يمكن للإنسان أن يستشعره في لحظة من لحظات المعراج التي تعرج به روح الإنسان إلى ما وراء تفكيره و ما وراء ما ينتظره في جمال التوأمة بين المتناقضات.

و هكذا كنت أرى من خلف، و من زوايا الرؤية بأنني لا أمثل إلاّ معاني الإنسانية، و معاني المبدأ، و معاني التاريخ الطويل المملوء بالدماء و الدموع.

لم أشعر بفرح و غبطة ملأت كل جوانحي يوماً، كما شعرت بها في تلك اللحظة من افتراشي الأرض و تجمع رجال مكتب التحقيقات الفدرالية الأمريكية حولي و تجمع المسدسات السريعة الإطلاق فوق رأسي و رقبتي.

فالفرح هو بالأصل مجرد شعور ليس من المهم أن يكون ذلك حقيقياً، مع أنني في الحساب المادي كنت أضعف من ذبابة، إنها حركة أصبع واحد من شخصية سايكوباثولوجية[1] تحول دماغي إلى رذاذ لا و جود له و لا حياة فيه، بل بحركة خاطئة غير مقصودة قد تنطلق آلاف الرصاصات لتمزق جسدي، و تحوله إلى رماد لا يرى منه إلاّ الصبغ الأحمر القاني الذي يلون حب الحياة كما قيل سابقاً (إن الحسن أحمر)....

في دافعي الشخصي لست إنساناً شجاعاً، و لست مواجهاً[2]، أنا الآن في موقع الموت، موقع إطلاق النار من تلك المسدسات المصوبة نحوي، كنت أتوقع في أية لحظة أن أتلقى ضربة من إحدى تلك المسدسات، أو البنادق التي التفت حول رأسي و كأنها رسائل الموت، كما هي العادة عندما كنت أتلقاها في سجون العراق حيث في قبضة رجال المخابرات العراقية.

فالظروف كانت مناسبة لموت إنسان، و التخلص منه، فالأطراف المشتركة في هذا الهجوم كلها تتفق على إنهاء هذه الشخصية بطلقة و احدة لا غير على رأسي الصغير، بل ربما و بدون إثارة أي جلبة أو ضجيج خصوصاً إذا كانت هنالك أسلحة كاتمة للصوت.
كنت تماماً على استعداد لتلك الضربة، بل شعرت أن الأمر قد انتهى، و إنني الآن أسير الى الحتف الحقيقي الذي لم ترتسم مشاهده بعد، بل كنت أنا البطل الواقعي، و ليس التمثيلي الذي تجسد في مسيرة الأبطال العظام التي تزخر

---

[1] و الشخصية السيكوباتية هي شخصية مركبة من عنصرين أساسيين و هما: حب السيطرة و العدوانية، و تلك العناصر لا توجد كحالة غير سوية عادية و لكنها توجد بشدة في السيكوباتي. فحب السيطرة يصل الى مرض السيطرة، و العدوانية تصل الى درجة كبيرة يؤذي فيها السيكوباتي أسرته و جيرانه

[2] أنا نحيل الجسم، ضعيف البنية. لا يتجاوز وزني 62 كغم و ذو طول 186 سم، يداي ناعمتان أصابعي ضعيفة، ذو شعر غير مصفف تبدو علية علامات المحافظة و البساطة، بتسريحة الشعر و ترتيبه، و ذو لحية بسيطة تميل إلى اللون الأصفر الخفيف، و في تناسق لا بأس به في توزيع الشعر على جانبي الوجه، مع شارب يميل إلى صفرة في اللون أكثر من لون شعر الذقن، فالإسم الأخير لي (شبر، بتشديد الباء) و هو ترجمة عربية لأحد أسباط بني إسرائيل المعروفين، أو انه اسم ابن هارون أخي موسى عليه السلام، إذ استعاره العرب قديما ليترجموه إلى لغتهم العربية، و العائلة (شبر) حسينية الأصل من سلسلة متناسقة من العلماء والعظماء و المضحين يسكن ربما معظمها الآن في العراق، راجع كتاب ما ضي النجف و حاضرها لمحبوبة

بها كتبنا و أدبياتنا و نتعامل معها و كأنها تعيش في كل منعطف من مسيرة حياتنا، فالشهادة بالنسبة لنا لا تمثل لنا إلاّ تحفة أو أمثولة كانت هنا فانتقلت هنالك.

لم أتردد في الموت بل كنت أطلبه في تلك اللحظات، و لم تصدر مني أي كلمة أسف أو استغاثة، و لم أضعف، بل و خلال ما بعد الدقائق الأولى استجمعت إرادتي، و عاد تفكيري، و استشعرت أين أنا، و من أنا و ما الذي يدور حولي.

قام أحدهم بوضع رجله الثقيلة على رأسي فوضعه تحت رحمة ساقيه موجهاً سلاحه إلى رقبتي، بينما تولى الآخر الإمساك بقدمي، و ثالث اقترب مني و وضع يديه في جيب البنطلون يبحث عن سلاح قد أحمله أو سكين أو ما شابه، كانت في تلك اللحظات جبهتي ملتصقة على الأرض، و يدي خلف رأسي في طريقة المستسلم إلى القدر.

فكرت في أن استمر بمشاهدة فيلم المواجهة التي لا أدري ماذا ستكون نتيجتها، هل سينتفض كما يقول العراقيون (العِرق الهاشمي)[1] و تبدأ الدماء بالتطاير، و رائحة الموت تسد أنوف الجميع....؟ أم أن الأمر سيسير باتجاه التهدئة و العقلائية المعهودة...؟
لا أدري أنا المقصود بالذات...؟ ماذا تكون اللحظة القادمة...؟ و هل سأقفز في الهواء و أواجه الموت بيدي العزلاوتين، أم أنني سأبقي كما أنا عليه.... ؟
أدرت رأسي يميناً لأري ماذا في مسرح الأحداث، ثم يساراً لأتأكد من الأمر، و لكنني كنت أحرص جداً على أن لا أكون قد أبديت في مظهري إمارة من إمارات الخوف أو التردد أو الجبن.

في هذه الاثناء، جاء آخر أخذ يدي، و وضع فيهما (الكلبجة) وراء ظهري، عند ذلك تأكدت بأنني سأكون في مأمن من ثورة (العرق الهاشمي) و إنني سوف لا أكون أسيراً لكل مبادرة غير محسوبة من شجاعة أو مناورة.
شعرت بالأمان من نفسي، و من الآخرين. من نفسي في أن ارتكب حماقة، و من الآخرين في أن يطلقوا عليّ النار لأنني كنت عاجزاً تماماً عن الحركة.

---

[1] مصطلح يستعمل في في الأوساط الشعبية للدلالة على شدة وطأة المنتمين نسباً إلى سلالة الرسول (ص) في أوقات الأزمات

فكرت مجدداً في أنهم قد يضربونني، أو يهينونني، و أنا تحت رحمة القيود الحديدية التي أحاطت بمعصمي، و كنت عندها في أشد اللحظات جأشاً و قوة و صبراً، و كان تصميمي على المواجهة كبيراً لأنني سأواجه في خضمها إنساناً و ليس سلاحاً نارياً و شتان ما بين الشعورين، و أنت تواجه عدواً ملكك و سيطر على كيانك، و هكذا صككت أسناني، و قلت في نفسي: إن لم تكن الحياة كما أريد فليكن الموت كما أريد.

كنت أشعر من خلال حركة رأسي يمينا و شمالا و بعد أن قيدت يداي بالسلاسل بأنني الآن في مأمن من إطلاق النار، و لا يمنع في أن ألتفت إلى ما يجري حولي من حركة رجال المباحث الفدرالية الذين امتلأت بهم الدار، و تجمعت أعداد غفيرة من الجنود بملابس أخرى و شخصيات لا أدري من هم.
أعرف أن عناصرالسفارة العراقية كانوا على معرفة بالأمر، و أن الحكومة العراقية استعدت للأمر و للأحداث التي ستلي الإعتقال.

أعرف ذلك كما وصلتنا المعلومات، فهل أن العراقيين هنا بقواهم و حماقاتهم التي يرتكبونها يوماً بعد يوم كانوا قد دخلوا الولايات المتحدة الأمريكية تحت ستار الدراسة في الجامعات، و تحول الطلبة إلى قوى هجومية...؟ و أن المعركة الآن دائرة ما بين الأمريكان و بين العراقيين الذين جاؤوا لاختطافي و تسليمي إلى النظام العراقي....؟ لا أدري.. ربما...[1]
كانت أنذاك أجهزة اللاسلكي المحمولة من قبل القوه المهاجمة تعمل و باستمرار، و سمعت أحدهم يقول: بأن العملية المسماة أنذاك (Decent Guy) (الشاب الملتزم) قد تمت بهدوء و بدون مواجهات.

كان قائد المجموعة من رجال المباحث رجلاً مفتول العضلات قوي النبرة، هادي الطبع يأمر فيطاع، و يتحرك فتتبعه المجموعة بكاملها و كأنهم جسد واحد، و كان الكل ينجز مهماته بالشكل الذي لا يتطلب منه الشرح أو التوضيح، و كان هذا الشاب يرتدي الزي المدني فوق الدرع الرصاصي الداخلي، بينما كان بقية عناصر الهجوم و الشرطة و عناصر مكتب التحقيقات الفدرالية يرتدون زياً خاصاً بهم بعضه أزرق، و بعضه أسود، و بعضه بملابس مدنية مع قميص خاص و هكذا.

---

[1] لم تغب صور الاعتقالات التي واجهتها قبلاً في العراق عن بالي طوال هذه الفترة، و كان أكثر ما يؤرقني هو أن يكون المهاجمون على تعاون مع المخابرات العراقية المتسترة بثوب الطلبة

تقدم ذلك القائد مني، و أنا لازلت منبطحاً على الأرض، و جلس القرفصاء أمام رأسي و اضعاً يده على كتفي اليمنى، شعرت بوجوده إلى جنبي، رفعت رأسي تجاهه، و قلت له: أرجوك أن تفك ربطة العنق التي كنت أرتديها و كانت تخنقني، مد الرجل يده و أرخى الربطة على عنقي بكل لباقة و هدوء، و قال لي: هل هذا كل ما تريده....؟ لم أجبه بل أردت أن أستفزه، لكي أعرف ماذا يدور حولي في عالم الغموض، و ليس هنالك من شيء أكثر قلقاً للإنسان من أن يعيش في عالم الغموض و السرية.
ما اسمك...؟.؟ سألته، لأنني أعرف أنه سيسألني السؤال التقليدي نفسه، لم يجبني.

في تلك اللحظة وجدت نفسي أنه لمن المعيب أن أسمح لنفسي أن أظل مستسلماً إلى رجال المخابرات بهذه السهولة، إذ وجدت أن في ذلك بعضاً من الإذلال أمام كل القوى الأمريكية المتجمعة، و قد تكون هذه الحادثة هي الأولى في التاريخ الأمريكي، و التي ستسجل في تاريخ المخابرات على أنها نموذج عراقي، و على ضوئها تقاس الأخرى، في ذات الوقت كنت أحسب لكل من تلك الخطوات فوائدها في أنني إن تحركت في (الحركة الانتفاضية) فإن هويات المهاجمين ستظهر إن كانوا عراقيين...؟ أم خليط....؟ أم ماذا...؟ و هل أن هنالك من مخطط لتسليمي من هذا المكان إلى المخابرات العراقية مباشرة....؟ أو إرسالي إلى العراق في طائرة خاصة أعدتها الدولة العراقية مقابل قيمة من قيم المادة......؟ لا أدري.....؟

استجمعت قواي، و استدرت على ظهري بسرعة البرق، ثم انتفضت واقفاً، ثم تناولت رجل المخابرات الذي أمامي برفسة على صدره ترنح على أثرها إلى الخلف، ثم استدرت إلى الجهة الأخرى التي أتوقع أن يأتي الهجوم منها فوجدت خمسة رجال يتوجهون نحوي، و ما كدت أستدير حتى جاءتني ضربة من قدم أحدهم على رأسي فتراجعت إلى الوراء و تماسكت بقوة، و كانت يداي ما تؤلمانني من شدة القيد الذي كان يلف عظم الرسغ بقوة، و كنت أخشي أن أقع على يدي فتتكسر عظامي.

و لكن ما إن ضربني هذا الرجل نسيت أن لي يدين و أنهما تؤلمانني، بل توجهت مباشرة و بدون شعور إلى طاولة كانت إلى الجانب فضربتها برجلي فسقطت ثم استدار رجال المخابرات يريدون إمساكي لأنهم و في هذه الحالة تمنع القوانين من إشهار السلاح في وجهي ما دمت لا أملك القدرة على مسك أي سلاح بيدي المربوطتين، وعرفت جيداً بأن المعركة الآن هي معركة أيدٍ فقط، و قوة جسم و مناورة.

إنسحب قليلاً الرجال إلى الخلف لإنتظار ماذا عليّ أن أعمل، و ما قدر وقت المقاومة الذي أمتلكه للإستمرار..؟ و متى ينتهي.......؟

و أنا في غاية التعب و الإرهاق، لم أنتظرهم إلاّ ثوان و ظهري إلى الحائط، و أنا أصيح بهم: اعتقلتموني جبناً فلن أعطيكم يدي إلاّ حراً، ضربني رجل من الجنب على رجلي اليمنى فترنحت، ثم رفعتها لكي امتص الألم و صحت بهم يا جبناء... (Cowered) ابتعدوا عني فأنا وحيد، و أنتم ربما مائة، كونوا رجالا حقيقيين...(Real Men) و توقفوا عن الضرب.....

سحب أحدهم أقسام بندقيته و كان ذو ملابس خضراء، و يعتمر بقبعة و هو في الطرف الثاني من البيت سلاحاً عبارة عن رشاش صغير ربما (UZI) لا أدري، ثم قال سأهشم رأسك إن لم تستسلم، و انسحب الباقون إلى الجنب، لكي يعطوه الفرصة لإطلاق النار في أية لحظة، توجهت نحوه و حنيت رأسي لكي لا أشاهد عملية إطلاق الرصاص عليّ و لكي أموت هادئاً، فإذا كان الموت لم ينتظرني فأنا أنتظره، ثم ركضت و بدون شعور و أنا أصيح: أنت وحش يا قليل المرؤة، و أثناء عبوري لحافة الطاولة لم أدرك أن رجلي اليمنى التي ضربوني عليها غير قادرة على الحركة بشكل سليم فسقطت على وجهي، و ما شعرت إلاّ و الكل و قد انقض عليّ و رجلي لازالت على حافة الطاولة معلقة من الخلف فرفعوني، ثم شدوا رجلي أيضاً، و قال أحدهم لي: أنا لا أصدق أنك طالب دكتوراه و أنت تواجه هذا الجيش، قلت له الحمد لله أنك الآن علمت.

بقيت على الأرض، و كلما اقترب مني أحد منهم كنت أضربه برأسي، و أمنعه من أن يلمسني... جلس شخص على ظهري فشعرت بضيق نفس، و صحت بهم يا أولاد الكلاب، و يا وحوش، و يا أولاد العاهرات (عذرا على اللغة فذلك هو ما حدث) أنتم لا تملكون أخلاقاً. فأنا لا أحتمل هذا الوزن أجابني أحدهم: أنت من أردت ذلك، شعرت أنذاك بأن استعمال يدي ربما سيؤدي إلى احتكاك الحديد في الكلبجة على عظم الرسغ و هو مؤلم جداً.
صحت بهم دعونا نتوصل إلى نتيجة و إلاّ سأقاومكم حتى الموت، إما أن تقتلوني بإطلاق النار علي، و إما أن أموت من النزف .
اقترب مني رئيسهم، و كان كما ذكرت شاباً لطيفاً، فقلت له بالحرف الواحد: أجبني من أنتم.......؟
و هل بينكم مخابرات عراقية......؟ دعوني أراكم.....؟

تبسم الرجل و كان ذكياً جداً و يبدو أنه كان مطلعاً بشكل كبير على و اقع العراق، فقال لي: يا سيد شبر أنت في مأمن الآن، أنت بأيدينا نحن المخابرات الأمريكية، و من المستحيل قانونياً أن يكون هنا عناصر من أية دولة أخرى و خصوصاً من العراق، تأكد يا سيد شبر تأكد من كلامي ...
- كيف أتأكد...؟ إنكم سفاكوا دماء (Savage)
- صدقني إنها قضية غير قانونية...... ثم لسنا نحن السفاحين، و إنما السفاح هو من يقتل الملايين...(يقصد الارهابيين من المسلمين)
- من أولئك الواقفون في الخارج... ؟ صحت به و أنا لا أكاد أتمكن من ضبط سورة غضبي.
- إنهم الشرطة المحلية و الشرطة الفدرالية
- و من ذلك الجالس ذو البشرة البنية...؟
- إنه (جينو) الذي تعامل معك، ألاّ تتذكره...؟
- أوه.. صح.
- ماذا تريدون الآن...؟
- هدئ من روعك يا سيد شبر فأنت في أمان صدقني، فأنت رجل مثقف و عاقل و من عائلة معروفة أرجوك أن تثق بنا، لا أريد أن أسجل عليك بأنك قاومتنا أثناء الاعتقال، فتتحول الأمور إلى قضية معقدة.
- لذلك قاومتكم بعد أن شددتم يدي
- إذن تستسلم..؟
- إنه أمر واقعي فأنا جريح، و ليس لي القدرة على المقاومة، و لا و لن أسميه استسلاماً أبداً إعملوا ما شئتم.

اقتربوا مني و أجلسوني، و أنا خائر القوى، و خصوصاً يدي التي كنت أشعر فيها بألم لا يوصف، ثم رجلي اليمنى، ثم رقبتي ثم أزالوا الدم عن انفي الذي بدأ ينتزف من جراء سقوطي على الأرض، و كان رجل المخابرات في غاية التعاطف معي.

أبعد كل الرجال عني، و صرت فعلاً أسداً جريحاً لا حراك لي أبداً. رجلاي و يداي مشدودتان، و لو شاءوا أن يقتلوني لما تمكنت من أن أمنعهم من ذلك.

رفعوني عن الكرسي و سألوني إن كان بإمكاني أن أسير على رجلي، قلت لهم أرجعوني لمدة دقائق فأرجعوني، و كان ثقل رأسي بدأ شديداً، فتركته يتدلى إلى الأمام على صدري، و كنت أشعر بوجودهم حولي، و لكن دون أن أراهم و لا أدري هل غبت عن الوعي خلال هذه الفترة أم لا......؟

كنت أسمع وقع أحذية الجنود، و كنت أسمع أيضاً صرخات الأوامر، و قعقعة السلاح المحمول، و حركة عجلات السيارات في خارج الدار.
مرت إلى الآن ربما ساعة على بداية الهجوم، و أنا في شبه وعي بعد معركة يائسة، و بين الآونة و الأخرى أسمع قائد المجموعة مصدراً أوامره قائلاً: لا ليس الآن، لا ليس الآن.
اقترب مني أحدهم و وضع السلاسل بصورة صحيحة،ثم تقدم آخر و بدأ بأسئلته:

- أوه السيد شبر، هذا أنت.....(قالها بنوع من التشفي) أو ربما الإستغراب، نعم أجبته، و لكن بنوع من السخرية و عدم المبالاة، و قلت بشيء من الاستغراب...What is the problem ما هي المشكلة ...؟
- سيد شبر، تعلم بأنك الآن معتقل من قبل مكتب التحقيقات الفيدرالي...؟
- نعم
- و تعلم يا سيد شبر أن لك الحق في أن تبقى صامتاً و لن تبوح بكلمة لنا حتى حضور المحامي؟
- نعم
- و تعلم يا سيد شبر بأن أية حركة منك في المقاومة لاعتقالك قد تؤدي بك إلى أن يُطلق عليك النار؟
- نعم
- و تعلم يا سيد شبر بأننا اعتقلناك حسب المادة كذا، و الفقرة كذا.. الخ.
- لا أعلم بتلك المواد، و ليس لي اطلاع عليها.
- إذن هل ترغب أن تبقى على وضعك هذا حتى يحضر محاميك، و يشرح لك فقرات القانون التي ذكرتها....؟
- رفعت رأسي و ابتسمت في وجهه، فهم الرجل ابتسامتي و معناها، فلم يسكت بل استمر قائلاً إذن قرر...؟
- قررت و فهمت... قلتها بقوة

إنني أمام آلام شديدة خصوصاً في رسغ اليد الذي بدأ يؤلمني أكثر، و بشكل شديد إذ اشكر الله أن الشد كان من الخلف لكي لا أرى ما حل بها.

قلت لهم فهمت سبب الاعتقال، و إنني اعترف أمامكم بأنني معتقل الآن.
سمعت صوتا يقول بينهم لقد اعتقلنا الرجلين الآخرين و بدون مواجهة، قلت في نفسي من هم الرجلان، و من يكونان هما.....؟ رفعت رأسي فوجدت زميليَ الآخرين علي و نوري قد شد وثاقهما خلف ظهرهما، و هما واقفان عند محاذاة الباب.

رجع رئيسهم لي قائلاً:

- السيد شبر سنأخذك إلى الدائرة الآن، و كما قلت لك سابقاً بأن القانون يسمح لك بعدم الإدلاء بأي معلومة حتى حضور محاميك.
- أعلم ذلك

في هذه اللحظات قفز إلى ذهني مسألة عائلتي، و وضعها، و ابنتي الصغيرة، و مصير زوجتي، و ماذا عسى أن يحدث لهما في الوقت الذي أجد صعوبة كبرى في فهم النتيجة، كما قفز إلى ذهني موضوع والدتي، و أخواتي في العراق، أن مصيرهم سيكون سيئاً جداً من قبل الحاكم الظالم، و سيستعملهم نقاط ضغط عليّ في اعتقالهم و ربما أسواً من ذلك.

ألأم المسكينة التي لم يكن لها ذنب إلاّ لأنها أمي لا غير، إمرأة في الستيينات من العمر شبه مقعدة فما بالهم و بالها، و كيف يجرأن على أن يتناولوها بالأذى في سجونهم.

قلت في نفسي: هنا بدأت عوامل الضعف تتسرب إلى عقلي و تفكيري، و آثار الصراع ما بين العقل، و بين النفس يفتح جبهات على رأسي المستند على صدري.

حركت رأسي لأغير حالتي، و أطرد ما فتح الشيطان في رأسي من عوامل الضعف و الهوان، في الوقت الذي كنت حريصاً أشد الحرص على أن لا أبدو ضعيفاً منهاراً أمام عناصر المخابرات، لأنّ ذلك قد يعذبني أكثر، بل إنه الملف الذي سيبقى في مسيرة الحياة.
و في هذه الاثناء قادني اثنان من عناصر مكتب التحقيقات الفدرالية لأقف على رجليَ، ثم قادوني إلى ناحية السيارة لأصعد في مقعدها الخلفي.

②

◖ الفصل الثاني ◗

إستحقاق أم سياسة..؟



<u>نظام بلا حدود</u>: لقد تجاوز النظام في العراق كل قيم السياسة و قيم الإنسانية و ما يحيط بمصطلح الدولة من أعراف بعد ان حوّل هذا البلد إلى مسلخ كبير، تهدر فيه كرامة الإنسان و تقطع أوصاله، و تشتت عائلته في عملية منظمة تقودها فرق من المختصين للقيام بهذا الدور.

لقد ابتلى العالم بأنظمة دكتاتورية كثيرة، و خصوصاً في الفترة الواقعة ما بعد الحرب العالمية الثانية، و بعد ما دخل العالم مرحلة ما يسمى (الحرب الباردة)، و كانت تلك الأنظمة الدكتاتورية تمارس عملها في إزهاق الأرواح، و ذبح الإنسانية تحت ذرائع واهية مثل: محاربة الشيوعية، و محاربة الاستعمار، و محاربة الأصولية الدينية و غيرها من المصطلحات الكثيرة التي كانت في الواقع الغطاء الذي تمارس من خلاله الدولة سياسة الذبح و سياسة التسلط، في ذات الوقت كانت الدول العظمى تساند هذه الأنظمة و تشجعها، ربما بصورة مباشرة و أحياناً بصورة غير مباشرة لاستمرار السيطرة على تلك الدولة تحت تلك الذرائع.

فلقد اعتمد الغرب و ساند أنظمة متعددة في شتى أنحاء العالم باسم محاربة الشيوعية، و منعها من الوصول إلى حدود المد الغربي الديمقراطي الرأسمالي. في الوقت الذي كانت أدوات ذلك النظام عبارة عن عصابة مهمتها سحق الشعب، و قتل أحراره و انتهاك حرمات رجاله و مثقفيه مستعملين الشعارات التي تنادي بها الدولة التي ساندت ذلك النظام.

و كذلك ابتليت مناطقنا العربية الإسلامية بنوع جديد من الدكتاتورية التي لم يشهد لها التاريخ مثلاً في عمق وحشية القتل و الدمار، حيث بدأ بعد سقوط المعسكر الشرقي بأن الدول الباقية التي لا زالت تمارس إرهاب الدولة هي الدول الإسلامية، و ظهر بوضوح مدى عمق المأساة الإنسانية التي كانت ترزح تحت حكم تلك الدولة من التسلط و الوحشية.

وهنا أعتقد البعض بأن الهجوم على العراق في 2003 و تغيير الأنظمة في المنطقة فيما بعد، ربما كان وسيلة من وسائل الشعور بالذنب، ثم طلب الغفران على ما ارتكبه الغرب تجاه مساندته النظام الحاكم في العراق، بعد ما ظهر له عمق الوحشية التي كان العراق يتعامل بها مع المعارضين للحكم.
و بمقارنة بسيطة بين حالة النظام الدكتاتوري في العراق منذ تسلم البعث 1968 و حتى سقوطه في 9 نيسان 2003 مع غيره من أنظمة القمع الأخرى

في مناطق العالم المختلف، نجد أن وجه المقارنة يختفي، بل يكاد لا يتشابه لما لهذا النظام من تاريخ أسود في الانتقام من العراقيين.

لقد عشنا في الغرب من خلال عملنا في الولايات المتحدة الأمريكية التي جئت إليها طالباً لدراسة الدكتوراه، و وجدت فيها من الحركات النضالية و التحررية الشيء الكثير، فهنالك الإفريقي، و هنالك المسلم، و هنالك العربي، و هنالك الشيوعي وغيرها من نماذج تحررية متنوعة تختلف في مفاهيمها و فلسفتها نحو التغيير الذي ترميه تلك الحركات تجاه أقطارهم، و لكنني لم أجد و لم أسمع بأن هنالك قطراً من تلك الأقطار يعيش حالة من الإرهاب و الوحشية كما يعيشها العراق و شعبه، حيث بدأ ذلك واضحا للسياسيين الأمريكان فيما بعد في أن المعارضة العراقية كانت محقة في تقييمها للنظام بما يتعلق بغياب القيم الإنسانية في تعامله مع المعارضة و التي كانت تنكره قبلاً و بشكل خالٍ من التوثيق.[1]

فهنالك في مفاهيمنا التي نشأنا عليها خلال الحقب الزمنية منذ فترة الحرب العالمية الثانية و حتى سقوط المعسكر الاشتراكي، لم نكن ندرك أو نتفهم بأن الاختلاف السياسي، أو حتى الديني أو الاجتماعي ما هو إلاّ نوع من كينونة البشر في الحياة، و أنه ليس بالضرورة أن يكون الاختلاف عنصراً سلبياً في نهضة الشعوب، و إذ أننا لم نكن ندرك بأن الله خلق البشر إما أخاً لك في الدين، أو نظيراً لك في الخلق.

هذه المفاهيم نمت في أذهاننا في غفلة منا و تحت سطوة ممارسات الأنظمة التي علمتنا أن المخالف لك هو من كتب على نفسه القتل أو التشريد.
فعندما يعبر ذلك المعارض عن لغة الرفض فإنة يترجمها إلى حالة من حالات العنف اللغوي، أو العنف اليدوي، لأنه كان في أيامه الخوالي قد تشرب بلغة العنف و لغة المواجهة.

ففي بدايات تشكيل المعارضة العراقية و بحدود أوائل الثمانينيات كان المعارض العراقي للنظام غير موجود، بل ليس له من تعريف في قائمة

---

[1] كان معظم السياسيين الأمريكان و خصوصاً في وزارة الخارجية الأمريكية يعتبرون أن المعارضة العراقية لا تنقل أحداث الوحشية العراقية للبعث إلاّ من باب التهريج الإعلامي، و ليس من باب الحقيقة . مع أنها تعترف بالوحشية التي يمارسها النظام مع كل المعارضين العراقيين

المعارضين الآخرين لأنظمة الحكم في الدول الأخرى، فالنظام العراقي حرص على إرسال الطلبة المؤيدين للحكم لتكملة دراستهم في الولايات المتحدة، و كان هؤلاء الطلبة أدوات و عين المخابرات على الآخرين، و كان عليهم أن يمارسوا عمليات التجسس من ناحية، و من ناحية ثانية إظهار النظام العراقي إلى الشعوب الأخرى بصورة مختلفة عما هو في واقعه من إهدار لكرامه الشعب العراقي، و ليس من السهولة على الطلبة العراقيين أنذاك مقاومة طلبات النظام بهذا الشأن، في الوقت الذي كانت غالبيتهم تعيش حالات الخوف من انتهاك عوائلهم في العراق، أو الطمع في إمداد النظام إيراده المالي و هو ما سيؤدي بذلك الطالب إلى مواجهة كارثة كبيرة في الاستمرار لنيل شهادته العليا.

مراكز مخابراتية أم سياسية..؟ و قد كانت السفارة العراقية و من قبلها الملحقية العراقية المنضوية تحت السفارة الجزائرية تقوم بدور التنسيق ما بين الطلبة الذين زرع النظام عناصر المخابرات بينهم لإبقاء حالة الولاء للنظام، و عدم التأثر بما تقوله جهات المعارضة، و كان معظم الطلبة العراقيين في بداية الثمانينيات هم ممن حصلوا على بعثات الحكومة التي صدرت في سنة 1978 التي كانت تعد بالآلاف حيث اختير العدد الكبير منهم من الموالين، و ممن أظهر ولاءه لنظام البعث فضلاً عن الانتماء، و هذا لا يعني أن العدد الكلي ممن التحق بالبعثات في الولايات المتحدة الأمريكية هم من المنتمين، نعم هنالك من طلبة البعثات كان من غير المنتمين إلى نظام البعث من الذين يمتازون بالتفوق العلمي، كخطوة من قبل النظام لإظهار الأهمية العلمية لمن اختير لنيل البعثة فضلاً عن إظهار الحيادية في الاختيار.

و السفارة العراقية بتنوع فروعها كانت العرّاب الذي يدير عمليات التجمعات للطلبة العراقيين في الجامعة الواحدة سواء من المنتمين أم غير المنتمين للحزب الحاكم، يلتقون في اجتماعات تدعو إليها السفارة العراقية في مناسبات الحزب، و مناسبات مواجهة الطلبة الإيرانيين الذين كانوا يقفون أمام الطلبة العراقيين في المواجهات، و ذلك إبان فترة الحرب العراقية الإيرانية التي دامت ثماني سنوات.

و قد كانت السفارة العراقية في و اشنطن سخية في صرف تذاكر الطائرات، لانتقال الطلبة في المدن القريبة إلى حيث تجري الاحتفالات التأييدية أو المواجهة .

فطالب البعثة، و كما هو معروف عليه أن يرجع إلى العراق على الأقل مرة بالسنتين أو بالسنة في العطلة الصيفية، و هي الخطوة التي أعلن عنها النظام بأنها نوع من المواصلة الوطنية، و لكنها في الحقيقية مصيدة لمن يتوانى عن مساندة النظام في الخارج.
أما المعارضة العراقية التي بدأت حملتها الكبيرة في حدود بداية الثمانينيات، فكانت ترى بأن المراهنة على كسب طالب البعثة العراقي إلى صفوفها و استيعابه لا تخلو من الخطورة، و الصعوبة على مستقبلهم بسبب القسوة التي سوف يتلقاها من قبل النظام فيما لو تبين ذلك للعناصر المنتشرة و وصل أمرهم إلى قيادات المخابرات العراقية.

و كانت أولى نشاطات المعارضة العراقية في الولايات المتحدة تعتمد على عناصر شابة، و صلت إلى أمريكا للدراسة، و لكن ليس من خلال سياقات مديرية البعثات العامة التابعة لوزارة التعليم العالي و البحث العلمي في الصرف من أموال الدولة، و إنما من خلال الاعتماد على العائلة أو غيرها، و كان معظم أولئك الشباب قد رحل من أوروبا إلى الولايات المتحدة ليبدأ مستقبله في الدراسة و المعارضة.

بدايات و صعوبات: المشكلة الكبيرة هي أن الوجه العام للمعارضة العراقية أنذاك لم يكن و اضحاً بالصورة التي يجب أن يكون عليها من الناحية التنظيمية أو العددية بسبب اتساع الرقعة الجغرافية، و العدد الكبير للجامعات و المعاهد العلمية. فالعدد القليل لأولئك المعارضين من الشباب في ظل أرض واسعة، و مترامية الأطراف يجعل عملية الاتصال و التواصل صعبة جداً، هذا فضلاً عن القصص المروعة التي تصل العراقيين عن قسوة تعامل النظام مع عوائل المعارضين في الخارج، فكانت البدايات صعبة جداً في تهيئة كتلة من العاملين المعارضين.

و قد تمكن الإخوة المعارضين من الوصول إلى طريقة فعالة في اكتشاف المعارضون للنظام أو الوصول إليهم، لأننا كنا على ثقة كبيرة بأن العدد الأكبر من العراقيين سواء أكان من طلبة البعثات الحكومية أم ممن هم خارجها، أو الساكنين في أمريكا أكثرهم، بل جلهم هم ممن يعارض النظام. بسبب الطبيعة العدوانية و الدكتاتورية التي يحملها ذلك النظام، هذه الطريقة تتلخص بقيام المعارضة الطلابية العراقية بالقيام بسلسلة من المؤتمرات في

الجامعات الأمريكية بما يمكن القيام به، فمثلاً في (كنساس)[1] كان هنالك مجموعة من الجامعات متقاربة إحداهما مع الأخرى، و قد تحرك اثنان من قادة المعارضة العراقية و بمساعدة بعض الطلبة من دول الخليج للحصول على إذن لحجز قاعة للقيام بمؤتمر بذكرى استشهاد الصدر الأول في شهر نيسان، و تمكن الإخوة من توزيع المنشورات و إلصاقها في أنحاء الجامعات القريبة و هو ما حفز ليس فقط الطلبة العرب أو المسلمين و إنما الطلبة المرتبطين بالنظام لنقل صورة من ذلك المنشور.

و لم تكد ساعة بدء المؤتمر تنطلق حتى امتلأت القاعة بحشود من الطلبة العرب و المسلمين، و مجموعة من العراقيين الذين لا يصدر من مواقفهم شيئ من تأييدهم أو عدمه، و لم يكن و اضحاً هوية المشاركين، و تعاطفهم إلاّ بعد أن وزعت المنشورات التي كانت تحمل البرنامج العام لمشروع المعارضة العراقية في الخارج مع وجود المعلومات الكاملة للعنوان و رقم التلفون.
بالنسبة للعراقي في ذلك الوقت يرى بأم عينيه هنالك من يملك الشجاعة في انتمائه للمعارضة فإنه يعتبره نوعاً من التحدي الكبير، بل أحياناً الخوف لأنّ النظام سوف يعاقب أو لئك الذين اطّلعوا على المعارضة و لم يقدّموا تقريراً إلى السلطة.
في تلك الفترة كانت العملية لا تخلو من موقف انتحاري صعب يوجب على العاملين أن يتحملوا تبعاته من قبيل اعتقال الوالدين أو أفراد العائلة الآخرين.

فمن الأمور المهمة التي ينبغي على المعارضين للأنظمة الفاشية إدراكها هو وجوب كسر حاجز الخوف في نفوس المواطن، و هو ما يحرص النظام في نفس الوقت على تأصيله ببث الشائعات بقسوة الانتقام و خصوصاً اعتقال الأم و الأب و الأخوات و المسنين من أفراد العائلة، إذ كان ذلك عرفاً جارياً في ممارسة النظام العراقي.... في الوقت الذي كان هذا الأسلوب في اعتقال النساء و الأطفال و الشيخ الكبير أمراً ليس من عادة الأنظمة التي سبقت البعث أن تمارسها مع المعارضين فضلاً عن انسلاخ تلك الممارسات من الإنسانية و هي مما لم تتعوده الأعراف العربية، و لكنها أيآ شرائح المجتمع

---

[1] ولاية وسطية تتميز بالجو المشابه للعراق، و هنالك تنتشر جامعات الكليات الزراعية و الطب البيطري بالإضافة إلى جودة الجامعات و رخص المعيشة

التي كانت تستهجن تلك الوحشية من التعامل مع المعارضين كانت في نفس الوقت تلقي اللوم على المعارضين، بسبب اختيارهم في أنّ يكونوا معارضين لأنظمة بهذا الشكل من الوحشية، و كان كثير من أفراد المجتمع العراقي يقول للمعارضين السياسيين إنكم مخطئون في اختياركم المعارضة لهذا النوع من الأنظمة، في الوقت الذي لا يعتقد أفراد المجتمع بأن التغيير سيتحقق أمام قسوة و وحشية النظام، إذن من فكّر في المعارضة و فكّر في المواجهة فإنه ممن أصيب بلوثة عقلية، أو إنه يحمل أهدافاً أخرى ضمن أجندات غريبة، و في الحالتين فإن اللوم الأول سيقع عليهم.

كانت عملية المعارضة للنظام العراقي نوعاً من المحنة التي تواجه المعارض، فهو في و ضع المتهم و الملام من قبل كل الأطراف، الصديق و المحب و الأهل و رجل الشارع العادي. و كل من أولئك كان له سبب في إلقاء اللوم على الشخصية المعارضة، و كان ذلك من أشد ما يؤلم أولئك الشباب الذين و جدوا من القيم و من المبادئ أسلوباً إنسانياً لإنقاذ الإنسان في وطن اسمه العراق.[1]

و في تلك المناسبة بالذات في (كنساس) و بعد حدوث احتكاكات ما بين الطرفين اكتشفنا أثناء ذلك بأن السفارة العراقية قد أرسلت ما لا يقل عن أربعين شخصاً من الطلبة المرتبطين بالنظام لتخريب المؤتمر...[2]
و قبل بداية المؤتمر هاجم البعثيون الأخوة بالأيدي و الكلمات البذيئة، مما دعاهم إلى الاتصال بالبوليس الذي حضر إلى القاعة، و تمكن من إخراج تذاكر السفر التي زودها بهم النظام و سفارته و نشرته في اليوم الثاني في صحف تلك الولاية.

---

[1] كنا في بيتنا عندما يعتقل أحد أفراد العائلة و يأتي الجيران لزيارة و الدتي كانت و بسبب التعاطف معها أو معنا تقول لوالدتي و أهلي: لابد و أن إبنكم له مبررات الاعتقال من المعارضة أو السياسة، و إلاّ لماذا لم يعتقل أبناؤنا، و اقتصر الاعتقال على أبناءك..؟، و كان هذا الكلام مؤلماً جداً تشعر من خلاله تخلي المجتمع عن قضيتك، مع إدراكك بأن السبب وراء هذا الكلام ربما كان التعاطف أو النيات الحسنة، و لكنه يبطن نتيجة عدم اهتمام أفراد الأمة بقضايا المجاهدين

[2] و من الظريف أن كاتب هذه السطوركان قد أخفى نفسه بكوفية و هو ينظم دخول الحاضرين و كان أحدهم زميله في نفس القسم في جامعة بغداد الذي يعمل فيه...

و بعد كل مؤتمر من هذا القبيل تنهال على مراكز المعارضة نداءات عبر الهاتف أو رسائل طالبة تزويدهم بما نتمكن لتقوم بعملية المساعدة في توزيعها في مناطقهم... و للحق أقول لقد و قف الأخوة الخليجيون و خصوصاً البحرينيين و الكويتيين و الجزيريين (السعودية) موقفاً مشرفاً في مساندة حركة المعارضة الفتية، منذ بداية انطلاقها في الولايات المتحدة الأمريكية.

و هكذا بدأت المعارضة تتسع و تكبر و تستوعب جموعاً كبيرة من العراقيين في مختلف الولايات مما حدا بها إلى البدء بعمليات إصدار نشراتها الأولى و كانت (المقاتلون) و (صوت الرافدين) على شكل صحف شهرية، ثم تطورت حركة المعارضة و أنشأت داراً صغيرة للنشر و طبعت مجموعة من الكتب و المنشورات لتوزيعها على أكبر عدد من الطلبة العرب، لإظهار الوجه الآخر المخفي لنظام حكام العراق أنذاك.

و قد توالت المؤتمرات و الاجتماعات لتعم معظم الجامعات الأمريكية التي تضم عدداً- حتى و أن كان ضئيلاً - من العراقيين، لتتوسع رقعة المواجهة مع النظام بهذا الشكل الكبير، و قد و اجهت حركة المعارضة هذه وجهاً بارداً لم تكن تتوقعه من قبل الأكاديميين العراقيين القدماء الذين يعملون في الجامعات و في الشركات الكبيرة و هو ما يمكن تفهمه و لو بنسبة متفاوتة، في الوقت الذي كان القائمون على المسيرة يرون في عملية نمو المعارضة مشابهة لنمو المخلوق البشري و الذي لا يمكن له النمو إلاّ ضمن الحدود الطبيعية من الزمن، و إنما هي حركة تبدأ و تتجذر بمرورالزمن و تنمو و تتضخم كلما تقدمت سنون المواجهة مع النظام، و فعلاً تغيرت الصورة نحو الأفضل من قبل تلك الطاقات العلمية تجاه علاقتها الحسنة مع المعارضة، و بعد أن أدركوا أن موقف السكوت على الظلم الذي يمارسه الحكام في بغداد مناقض للمفاهيم الأكاديمية و العلمية التي يؤمنون بها، كما يناقض الوطنية التي يتميز بها العراقيون.

<u>الحسابات السياسية المتأرجحة...</u> و قد كانت فترات الثمانينيات مع إيجابيتها في القدرة على الانتشار و التجذر، كان في الجانب الآخر الوضع السياسي الأمريكي الذي تعامل معنا بأسلوب خال من التحضر، في الوقت الذي كانت السياسة الأمريكية تميل إلى مساندة النظام العراقي في حربه مع إيران، التي كانت معضلة كبيرة تواجه السياسة الأمريكية في المنطقة، و في موقف خالٍ من العقلائية في الحسابات السياسية، و الذي كما أعتقد أنه نابع من الضغط العربي من قبل الأنظمة العربية و خصوصاً الخليجية منها، لدوافع متعددة لم يكن التأزم الطائفي أقلها، و إنما العراق كان ينظر إليه من قبل أولئك بأنه

يمثل حالة خاصة في الوضع العربي و الوضع الدولي و هو محل ارتياب من قبل الكثير من الدول المحيطة به، و خصوصاً الخليجية، و دولته الكبرى السعودية التي لها حساباتها الخاصة في تعاملها مع الملف العراقي، الذي تتزاحم فيه أجندات كثيرة جداً، إذ ترى تلك الدولة أن الوضع الأفضل لها هو أن تكون الحاضنة لعراق المواجهة مع الآخرين خشية من أن يستقر العراق و يبني اقتصاده و يتحول إلى دولة مؤسسات مستقرة، و يكون هنالك فكر آخر يستقي من الوجه الديمقراطي نظامه و دستوره، و هذا هو بالحقيقة ما تعيشه السعودية من هواجس مع العراق في طيلة تاريخ غير مشرف، ابتدأ ربما منذ أكثر من قرن من الزمن.

<u>حرب شيعيّة المعارضة...</u> إذ كانت السعودية حريصة أن تبقي العراق ملتهباً و مشغولاً بالحروب و الصراعات و الثورات، و هو ما يفسر المساندة الكبرى التي كانت السعودية تقدمها إلى النظام البعثي العراقي بالرغم من الاختلاف العقائدي، و الاختلاف السياسي مع التوجهات التي يتبناها النظام، و كان من أغرب ما حدث هو: أن السعودية كانت البلد الذي رفض فكرة إزالة صدام في سنة 1991 و بعد حرب الخليج الثانية و بعد أن خسر العراق معظم قوته العسكرية في غزوه الكويت.

لقد سعى الأمريكان بسياستهم إلى إتباع طرق التضليل أو التسطيح بشأن و اقع المعارضة العراقية، و هو ترديد لما كانت تسوقه الدول العربية التي كانت شريكة مع النظام العراقي في الحرب المستعرة في المنطقة، وذلك بنعت حركة المعارضة العراقية بالحركة (الشيعية) أو أحياناً (الإيرانية) و هو ما أثر على الوضع العام في طرق التفاعل مع الآخرين من الحركات و الشعوب خصوصاً العربية منها، فلم نجد هنالك من تفاعل من قبل التجمعات العربية خصوصاً الدينية منها، مع أن المعارضة العراقية كانت الأقرب إلى الخط الديني، و هو ما يوجب أن تكون عوامل التقارب مع التجمعات العربية الدينية أقوى من أي تجمع آخر...[1]

---

[1] كانت الحرب الإعلامية الطائفية و السلاح الطائفي الذي رفعته تلك الدول ربما من أشد الحروب قدرة على التأثير فيما بين أوساط عموم الشعوب العربية، و كانت السعودية تعتقد و ربما ليست هي و حدها و إنما كل السياسيين الإسلاميين من المذاهب الأخرى بأن التعريب الشيعي لهو أخطر عليها من أي فكر آخر، باعتبار أن الانتماء للتشيع لو اقترن بالانتماء إلى آل الرسول (ص) لتمكنت الفكرة من انتزاع الكثير من المواقع التي تحتلها السعودية الآن سواء أكان ذلك في الحرمين أم في الإرث الإسلامي..... فالعروبة و التشيع أمران مهمان و خطران على مفاهيم القادة الآخرين من الخط الوهابي الأصولي

و لكن الأمر كان مختلفاً، و كان العرب بأجمعهم ما عدا ما ذكرته آنفاً من أطراف أبعد الناس عن مساندة المعارضة العراقية في أمريكا، و لكن الشئ الذي بدأ جليا لنا، و بعد سقوط النظام في 2003 و اتضاح موقف الدول العربية و الإسلامية، و حتى تلك التي كانت تناقض نظام صدام في اتخاذ موقف غير محمود من النظام الجديد في العراق، حتى من قبل الأنظمة التي تتفق مع التوجهات الأمريكية في المنطقة، مثل دول الخليج و مصر، ما عدا تركيا التي و قفت فعلاً موقفاً حيادياً و عقلائيا في توازنها السياسي حيال ما حدث في العراق ما بعد السقوط، و هذا إن دل على شئ بالنسبة للكثير من المحللين السياسيين الذين حاروا في تفسير هذا الأمر، فإنما يدل على القدرات السياسية التي يتمتع بها الأتراك في تفهم خيط الموازنة ما بين العراق و بين الغرب.

و أجد نفسي مضطراً إلى القول بأننا لا يمكننا أن نفكر بالأسباب التي دعت إخوتنا من العرب أو الحركات الإسلامية أن تتخذ ذلك الموقف السلبي بعيداً عن الموقف الطائفي الضيق، و هو ما يفسر الدعوات التي أطلقت هنا و هناك من قبل قادة تلك الدول مثل حكاية (الهلال الشيعي) و حكاية (التمدد الشيعي) و غيرها مما ساد أقوال أولئك السياسيين من العرب المحيطين بالعراق.
و لا أتمكن، و لا استطيع الجزم فيما إذا كانت الإدارة الأمريكية قد مارست هذا النوع من الدعاية (إيرانية المعارضة العراقية) بنوع من الإدراك أو عدمه، مع أن الاحداث و ملحقاتها، و خصوصاً أمام حقبة ما بعد أحداث 11سبتمبر سنة 2001 التي قدمت أدلة مناقضة على هذا الرأي، مع إنني أرى في السياسة الأمريكية الوجه البراغماتي على أتمه.

أما الشئ المفقود أنذاك فهو القراءة الناقصة في التناقضات ما بين المواقف المبدئية و المواقف البراغماتية السياسية، بمعنى آخر كنا نحن الشرقيين من الجيل الذي أسميه (جيل فلسطين و نكبة حزيران) نرى الأمور دائماً بمنظار الواقع المبدئي (الإيديولوجي) الذي أضفى عليه الصراع العربي الإسرائيلي بثقله على واقع تفسير الأحداث التي نقيسها بمقياس الدين، و بمقياس اليهودية و الإسلام، كما هي الأحداث التاريخية القديمة التي كانت تنعكس على مسيره تحليلاتنا التي نحللها و نعكسها على واقع اليوم.

<u>رمال متحركة في الأهداف السياسية:</u> فالاحداث التي أعقبت حرب الخليج الثانية لا تدل على واقعية التحليلات التي كنا نتبناها في قراءة المواقف الأمريكية، و تفسيرنا لها بأنها مواقف تنطلق من النظرة الأيديولوجية الثيولوجية، و لم نكن ندرك بأننا أمام دولة براغماتية بكل ما في الكلمة من

معنى، فليس لها موقف ينطلق من نظرة مسبقة، و إنما المواقف ترسم كما هي المصالح.
و لكن السؤال: الذي يطرح نفسه هل أن الولايات المتحدة كانت بسياستها و نظرتها للمعارضة العراقية ترى فيها حقيقة الترديد للسياسة الإيرانية، أو أنها جزء من التوجه الإيراني....؟ و هل أن ذلك الرأي كان منطلقا للفهم الواقعي لما تراه....؟ أم أنها جزء من الحرب الإعلامية ضد كلا الطرفين....؟

مع أننا لسنا بصدد رفضنا للعلاقة الحميمة التي ربطت قوى المعارضة العراقية بشتى أطيافها و تنوعاتها مع الوجود الإسلامي الإيراني الجديد، و لكن حينما تطرح المسألة على المستوى الإعلامي بصيغة الذيليّة فإنها لا تخدم كلا الطرفين لا الطرف الإيراني، و لا الطرف العراقي، و إنما هي موجهة أصلاً لفك حالة الارتباط ما بين الطرفين، خصوصاً في إبان تورط السياسة الأمريكية في المساندة المكشوفة للنظام العراقي، مع جهد كبير من قبل كلا الطرفين العراقي و الإيراني في فضح السياسة غير الأخلاقية لذلك التورط، و هو ما يوجب على السياسة الأمريكية الدخول في الحرب الإعلامية لسحب المصداقية من الجانب العراقي و هي في مهدها على الأرض الأمريكية... و لا يخفى على أحد حيثيات الموقف الأمريكي تجاه السياسة الإيرانية، خصوصاً بعد أزمة الرهائن التي هيأ لها الإعلام الأمريكي جميع طاقاته لتشويه صورة إيران، و صورة رجل الدين الإيراني، و صورة المسلم، و صورة الرمز الديني، مهما كان ذلك الرمز.[1]

و لم تتغير نظرة المواطن الأمريكي في احترامه لشخصية الأمام الراحل إلاّ بعد أن حدثت و اقعة الرهائن الأمريكان التي لا يمكن لرجل الشارع العادي أن يفهم الذنب الذي ارتكبه ذلك الموظف الأمريكي في سفارته في طهران، ليدفع ثمنا كبيراً في احتجازه...[2]

---

[1] في الوقت الذي كان الشعب الأمريكي قبل أزمة الرهائن يرى في شخصية الرمز الإمام الخميني ظاهرة فريدة في عالم القرن العشرين لما يمتلك هذا الرجل من صور ملائكية، أضف إلى ذلك الحب الذي يكنه رجل الشارع الأمريكي للشخصية الدينية بمجمل تنوعاتها، مع فهمه بأن الفصل ما بين السياسة و الدين هو عملية قد تتغير حسب الموقع الجغرافي و الوازع الديني

[2] فالأمريكي يدرك بأن الموظف في أي سفارة في العالم عليه أن يخدم مصالح و طنه. فلماذا يحتجز ذلك الموظف بالطريقة الذليلة تلك في عالم السياسة الدولية الراهنة، حيث لم يكن الشعب الأمريكي أنذاك و في بداية الثمانينيات مطلعاً بشكل واضح على أحوال الشعوب المسلمة كالتي يملكها الآن، خصوصاً في أعقاب إحداث سبتمبر ...

لقد عكست حالة الأزمة ما بين الوضع الأمريكي و بين الإيرانيين ظلالها على موقع المعارضة العراقية التي بدأت الاتهامات توجه تجاهها و بمساعدة السفارة العراقية و مؤيدي نظام بغداد في عدم عراقية المعارضة، و بأن الحركة التي بدأت في الولايات المتحدة ما هي إلاّ جزء من الحملة الإيرانية، في الوقت الذي كانت الحرب مستعرة ما بين الطرفين، و وقوف الجانب الأمريكي إلى الصف العراقي في المواجهة.

استمرت هذه الحالة فترة ليست بالطويلة حتى سمحت الأمم المتحدة لممثل المعارضة العراقية في إدارة مؤتمر صحفي في قاعة المؤتمرات، ليجيب على أسئلة الصحفيين في نيويورك[1] إذ بدى بعدها أن هنالك توجها من قبل إدارة الرئيس (كارتر) أنذاك في فهم هوية المعارضة على حقيقتها و تفهم أهدافها في الوقت الذي كان النظام العراقي يوحي لدول العالم بعدم و جود معارضة لنظامه.

و لكن الإشكال الكبير في هذه القضية، و التهمة الكبرى التي يجب على المعارضة العراقية الانتباه لها و عدم الوقوع في فخها هو أحادية الانتماء للمعارضة و بالتحديد (شيعيّة المعارضة) و هذا له دلالات كثيرة دولية و محلية أهمها هو أن النظام العراقي يعيش في أزمة مع فئة محددة من فئات الشعب العراقي، و ليس كل العراقيين، مع أن الواقع يقول العكس تماماً، فالنظام العراقي إن كان عادلاً في شيء ما فإن ذلك الشيء هو في اضطهاده لأفراد الشعب العراقي بكل انتماءاته و طوائفه و قومياته. و هي حقيقة لم يكن الغرب على علم بها، بل كانت معلوماته مبنية على مفاهيم قدمت له من تلك الدول العربية التي تعمل جاهدة على عدم وصول القوى الديمقراطية إلى الحكم، تلك القوى التي ستكون البداية لتغيير كبير في المنطقة برمتها...[2]

فليس من السهولة أن تصادر إرادة شعب، و استغفال كفاح أمة بتنوعاتها و تعدد انتماءاتها، و تتهمها بالتبعية أو الذيلية، و العراقي يدرك جيداً حجم

---

[1] كان الذي أدار المؤتمر هو الاخ الدكتور ليث كبة

[2] كان الكثير من القادة الأمريكان عندما نلتقي بهم يسألوننا بأننا يجب أن نكون شيعة، و ليس بيننا من هو سني أليس كذلك..؟ و كانوا يؤكدون بأن الواقع العراقي ليس منطلقا من مشكلة النظام، بل هو مشكلة الشيعة الأقلية التي ترفض في أن تعترف بعراقيتها و عروبتها، و إنما تريد أن تلتحق بجذورها غير العربية يعني الإيرانية، ثم يضيف السياسي قائلاً: بأنه ليس من المتوقع أن يتعامل صدام مع فئة تريد الانتماء إلى عدوه بطريقة شفافة و ديمقراطية

الصراع الذي قادته فئات الشعب العراقي المختلفة، و ضحت بالكثير من أجل أن يعود العراق إلى قيادته في تقديم الصورة الديمقراطية إلى أمم الأرض، و لم نكن و نحن في المعارضة العراقية يؤلمنا شيء أكثر من ألم نعت المعارضة العراقية برمتها بأنها معارضة شيعية أو طائفية أو فئوية. في الوقت الذي لم نكن نعطي لهذه النقطة من إهتمام في مسيرة العمل، و لكنني الآن في معرض الرد على ما تردده أجهزه المخابرات العربية في تنكيلها بالمعارضة العراقية عموماً، التي آمل و في هذه الأوقات أن و صلت الصورة كما ينبغي لها أن تكون و خصوصاً في هذه الأوقات و بعد تحول العراق إلى كيان كبير عالمي ضخم يحسب له الف حساب في تعدد استيعابه للآخرين بدلاً من أن يكون العكس.

العلاقة ما بين المعارضة العراقية المتمثلة بأجنحتها الإسلامية و بين الأمريكان لم تكن في شهر عسل، بل كانت تمر بأزمة كبرى وعدم ثقة، بل اتهام صريح من قبل الأمريكان بإرهابية الإسلاميين من أجنحة المعارضة العراقية و على رأسها الحزب الكبير الذي يتصدر المعارضة العراقية أنذاك وذلك هو (حزب الدعوة) و االذي كان معظم قواعده في داخل الأراضي الإيرانية، و كانت انفجارات الكويت و تفجيرات وزارة التخطيط العراقية و السفارة البريطانية في بغداد قد أخذت حيّزاً و اسعاً من الاقتراب من الفهم الذي كان الأمريكان يتبنونه في وضع تلك الحركات و بالذات (الدعوة) في قائمة الحركات الإرهابية التي توجب التعامل معها سياسياً.

و ظهر (حزب الدعوة) الذي تبنّى عملية تفجير السفارة البريطانية، و وزارة التخطيط في بغداد، فضلاً عن إقدام عناصر من الحزب المذكورعلى محاولة تفجير مقر السفارة الفرنسية في الكويت حزباً من الأحزاب المراهقة التي لا يتوافق تاريخها مع أعمالها، فلقد كانت الولايات المتحدة برأيها المنفرد ترى في ذلك التشكيل الذي يحمل معاني العقلائية في تفهم مجريات الصراع في حرب الخليج الأولى، و أنه من الأحزاب الإسلامية العراقية التي حافظت على مسافة و واقعية تعاملها مع الأطراف الأخرى.

و لكن هذه المفاهيم التي كان الأمريكان يملكونها لم يكن لها تطبيق على أرض الواقع الذي كان الرأي العربي الذي تتبناه كل الدول العربية (ربما ماعدا سوريا) و تشاركهم في ذلك النظرة الإسرائيلية، بأنه حزب أصولي متشنج يشارك الإيرانيين في التطلعات إلى مستقبل المنطقة هذا بالإضافة إلى

باطنيّته في القيادات و السرية الكبرى التي يمارس بها أعماله. و هو ما يثير الكثير من الشكوك في أهدافه و رأيه بالسياسات الأمريكية في المنطقة..[1]
كل ذلك أثار الكثير من الشكوك و الرفض للتطلعات نحو الاسلاميين.و هو ما أكده المسؤولون الأمريكان الذين كانوا يعتقدون بأن اليد الإيرانية هي التي تتخفى وراء تلك العمليات. و هي نفس اليد التي تدير المعارضة في الولايات المتحدة، و مما أكد ذلك هو المشاركة الفعالة للمعارضة العراقية مع التحرك الإيراني الإعلامي في مجالات المظاهرات و الإعتصامات، و غيرها و خصوصاً في (يوم القدس العالمي) و غيره من المناسبات التي يشترك فيها العراقيون ضد الحرب التي قادها صدام رافضين إيران.

و لم يكن أمام المعارضة العراقية في ظل هذه الحالة إلاّ المضي في عملها السياسي، و نشاطها المنسق لفضح جرائم النظام و إظهار مظلومية الشعب العراقي بتنوعاته، و لم يتخلف عن هذا الركب أي من فئات المعارضة. فالأكراد و التركمان و السنة و الشيعة و غيرهم من الفئات كان لهم حضور مستمر في إذكاء روح المعارضة و استمرارها.

الأسلوب القديم: في ظل هذه الظروف كان النظام العراقي يعد العدة لتتبع تحركات و استراتيجية المعارضة في الولايات المتحدة للحد و الانتقاص منها، و قد كان ذلك من خلال محاولاته إرسال عدد كبير من مخابراته يطوفون في الولايات المتحدة الأمريكية المختلفة لتحديد قادة المعارضة ولتشخيصهم ثم ملاحقتهم، و ملاحقة عوائلهم في الداخل.

و قد استفاد النظام العراقي من فشل تجربته الأوربية في التعامل مع الحالة الطلابية المعارضة التي سادت الشارع و الوسط الطلابي في عموم المملكة المتحدة، و التي كانت تستند على عوامل الإرهاب و التخويف و الاغتيالات و منع المعارضين من تجديد و ثائق سفرهم و كل معاملات علاقتهم بالدولة، و هو ما حوّل الوسط العام من الطلبة إلى معارضين للنظام، حتى شبه المؤيدين منهم، الذين حينما سنحت لهم الفرصة قرروا البقاء في الغرب و عدم الرجوع

---

[1] كانت التفجيرات و عمليات العنف التي أقدم الحزب على تبنيها حتى مع أعدائه أي مع صدام لم يكن لها تأثير إيجابي على فكر الحزب الذي يحمل في عمقه الابتعاد بقدر الإمكان عن كل ما هو مندرج تحت عنوان استعمال القوة ضد الآخرين

إلى العراق مع التحفظ في إعلان معارضتهم العلنية بسبب الخوف من تناول أقاربهم في العراق.
هذا الظرف بدأ و اضحاً و جليا للنظام العراقي و بدى أنه المخطط الذي و ضعته المخابرات في الملاحقة لعناصر المعارضة. و هو ما أدى به إلى نقل المعركة من أوربا إلى أمريكا.

كان قرار منازلة المعارضة العراقية على الأرض الأمريكية من قبل المخابرات العراقية أمراً وارداً بل تحول إلى فعل بعد أن تمكنت المعارضة من أن تكتسح الاتحادات الطلابية و التجمعات و بدأت تسير نحو السياسيين و أعضاء البرلمان الأمريكان في أن يتخذوا موقفاً من النظام البعثي.

وصلتنا أكثر من معلومة عن عزم المخابرات العراقية الدخول في المواجهة في اغتيال البعض من العناصر النشطة المعارضة، و ربما كان هنالك إسم أو إسمان يراد تصفيتهما، لكي يستتب الأمر للجهات العراقية المخابراتية المسنودة من قبل الدول العربية و خصوصاً الخليجية، و كان الرأي في سلوك هذا الطريق هو اختبار الساحة، و دراسة ردود الفعل الأمريكية التي تصدر تجاه ذلك الفعل، فقد كان رد الفعل البريطاني أمام عمليات الاغتيال للمعارضين العراقيين باهتا جداً، بل كان يبدو أن هنالك تنسيقاً طفيفاً ما بين الطرفين على مستوى ما للقيام بتلك العمليات، كذلك في أقطار أخرى آسيوية و أوربية و عربية، كتلك التي تم اغتيال رموز للمعارضة على أراضيها.

③

◖ الفصل الثالث ◗

صِراعُ الإرادات



و لازلت أتذكر بينما كانت المعارضة تعقد اجتماعا مصغراً في ولاية (لويزيانا)[1] قرر الأخوة في اللحظة الأخيرة تغيير مكان الاجتماع من مدينة (نيو أورليانز) إلى عاصمة الولاية (باتون روج) لسبب لا نعرفه نحن، و لم يعرفه صاحب الاقتراح الذي- و بدون مقدمات - اقترح ذلك، و الغرابة هو أن الجميع وافق عليه و بدون مناقشته و كأنّ هنالك يداً و أسباب غيبيه خلف تلك المبادرة.

تم الاجتماع في (باتون روج) لمدة يومين، ثم عدنا راجعين إلى (نيواوليانز) التي تبعد ساعة و نصف، و في الطريق حاولت الاتصال بزوجتي لإخبارهم بموعد وصولنا لتهيئة طعام الغداء، أخبرتني زوجتي بأن هنالك طارقاً على الباب يسأل عني (بالاسم) و لم تعرف زوجتي أن ليس هنالك من الأصدقاء أو المعارف أو كل الذين نعرفهم من يناديني بهذا الاسم أي إسمي الحقيقي (صلاح)[2]
استفسرت منها إن كان الطارق من العرب أو غير العرب أو الأمريكان أو من زملائي الطلبة في المنظمات الأخرى...؟ أكدت لي أن المتحدث كان

---

[1] تقع ولاية لويزيانا Louisiana في وسط جنوب الولايات المتحدة الأمريكية، و تطل على خليج المكسيك، و يعود اسم الولاية إلي اسم ملك فرنسا لويس الرابع عشر. و هي الولاية الثامنة عشرة، تحتوي الولاية علي نسبة 5% من الأمريكيين ذوي الأصل العربي، و تبلغ نسبة المسلمين 2% من إجمالي عدد السكان، أهم معالم الولاية :القبة الكبيرة (Super Dome) في مدينة نيو أورليانز و المنطقة الريفية التي تقع في دلتا نهر الميسيسيبي و من أهم مشاهير الولاية الممثلة دونا دوجلاس و المغني جيري لويس والموسيقي لويس ارمسترونج، و قد أصاب ولاية لويزيانا عدد من الأعاصير منها إعصار (كاترينا) في 2004 مسببا أكبر كارثة طبيعية في تاريخ الولايات المتحدة .ونتج عن الاعصار دمارشامل أصاب مدينة نيو أورليانز و المناطق المحيطة بها، و تقدر الخسائر المبدئية بما يقرب من 150 مليار دولار وعدة ألاف من القتلى. عاصمة الولاية هي مدينة باتون روج، تعد مدينة نيو أورليانز اكبر مدن الولاية، و يبلغ عدد سكانها469 ،032 نسمة حسب أرقام عام.2003 ، تاريخ لويزيانا أول من اكتشف هذه الولاية هم المستكشفون الأسبان الفار نونية Alvar Nunez و هيرناندو دي سوتو Hernando De Soto و ذلك في الفترة مابين 1519 إلى .1528، و قد أصبحت لويزيانا مستعمرة فرنسية عام 1731، و لكن تم التنازل عنها للأسبان بعد الحرب بين الفرنسيين و الهنود الحمر، بيد أن شرق نهر المسيسبي أصبح تحت سيطرة البريطانيين عام 1764، و قد رجعت ملكية لويزيانا للفرنسيين عام 1800 حتى باعها نابليون للأمريكيين عام 1803و مع مجيء القرن العشرين و اكتشاف البترول و الغاز الطبيعي أصبحت لويزيانا رائدة في هذا المجال

[2] كان الكل يستعمل أسماء مستعارة لغرض التخفي عن عيون و مسامع النظام، فاسمي و ربما أسماء الكثير من العاملين على الساحة في المعارضة ربما غير معروف للآخرين، أول ما ابتدأت باسم (فتحي) ثم أ(بو حيدر) ثم (علي إبراهيم) و هكذا

عراقي اللهجة، و ليس ممن عرفتهم سابقاً، لم اتخذ الأمر بمحمل الجديّة، و إنما تصورت أن الحادثة قد يكون لها أكثر من مخرج لتفسيرها.
أقترحت على الإخوة أن نزور إحدى المعالم السياحية المعروفة (لنيوأوليانز) و هو الحي الفرنسي (Frnech quarter) ثم نذهب إلى البيت، رحب الجميع ثم سرنا نحو قلب المدينة، ثم انقسمنا إلى مجموعتين، و كان الرأي أن يترافق كل ثلاث أو أربعة معاً، و ذلك حسب رغباتهم في رؤية نوعية المعالم السياحية.

و بينما نحن- أنا و زميلي الذي رافقني- نتحدث في مطعم للشاي كان مجلسنا قرب النافذة، و إذا بنا نشاهد ثلاثة عناصر من عصابات البعث الذين أعرفهم من بغداد، و أعرف سوابقهم و مهماتهم، و كان أحدهم قد أتهم باغتيال شخصية عراقية في الباكستان، قفزت إلى ذهني و من دون أية مقدمات بأن الفرقة البعثية تتابعنا، و تتابع و جودنا لارتكاب حماقة في الاغتيال، اثنان تذكرت أسميهما، و ثالث آخر لا أتذكر إسمه بل أعرفه بالوجه.[1]

في هذا الظرف المفاجئ كان أمامي أمران مهمان عليّ القيام بهما مباشرة، الأمر الأول: هو الوصول إلى الأخوة الأربعة الآخرين و نصحهم بالاختفاء أو الابتعاد. الأمر الآخر: هو طلب النجدة من أصدقاء لإنقاذ الموقف و مواجهة الأمر إن كان بهذا الاتجاه أو بغيره.

اتصلت مباشرة بصديق لي من الجالية الإسلامية السوداء الذين اشتركنا معهم في مناسبات كثيرة. و هو إنسان طيب دخل الإسلام و تحسن خلقه و سلوكه كما نقل الإسلام إلى عائلته و إلى أخوه الأصغر، اسم هذا الشاب هو (Larry Smith) و اسمه الإسلامي الذي سمى به نفسه هو (مبين)، أما أخيه الأصغر فقد سماه على نفس الوزن و التفعيلة و لكن بدون معرفة المعنى له (مميت)، و كان فعلاً اسم على مسمى[2]، و ما هي إلاّ خمس عشرة دقيقة و إذا بسيارة نزل منها مبين و مميت بالمسدسات ظاهرة من خلال ملابسهم يرافقهم ثلاثة آخرون كأنهم زبانية جهنم، دخلوا مباشرة المقهى الذي أجلس فيه و أحاطوا بالمكان تماما، و بدأوا يقتربون من الجالسين لإرهابهم، و لكنني هدأتهم و

---

[1] لازال هذا العنصر مسجون في العراق في السجون التي يشرف عليها قوات التحالف
[2] مميت كان تاجر مخدرات و سارق للبنوك و شكله يوحي بالإجرام فعلا، فعيناه مفتوحتان نصف اغماضة، و أسنانه مكسرة، طويل ضخم الجثة لا يتورع عن القتل أو ما شابه، أما مبين فإنه تحول إلى شخصية هادئة طيبة

قلت بأن التهديد لي ليس من هؤلاء و إنما من عناصر بعثية تلاحقنا في الشارع، خرج مميت و اقفاً على باب المقهى، بينما بقي مبين ملاصقاً لي مع زميلي الذي بدى عليه الخوف ظاهراً بشكل و اضح فأخذه مبين و ادخلني إلى داخل المقهى لكي يتصرف بعقلائية.[1]

هكذا مدينة من السهولة القيام بعملية الاغتيال للمعارضين عندما فكرت المخابرات العراقية بذلك، لأنّ شراء السلاح سهل و من الممكن الحصول عليه من مخازن كثيرة منتشرة في المدينة، و ما على القاتل إلاّ تحديد المكان، ثم شراء السلاح، و من ثم تنفيذ العملية و الهروب إلى ولاية أخرى أو الوصول إلى السفارة العراقية في واشنطن.... قبض مميت على أحد الثلاثة من الذين رأيناهم من العناصر المخابراتية و لكن يبدو بأن الأمر لم يكن مقتصراً على هؤلاء الثلاثة فقط بل إن معهم عناصر استطلاعية من اليمنيين من منطقة (ديترويت)، و عندما اقترب منه مميت من العنصر العراقي المخابراتي، و كنت أنا في ذلك الوقت في السيارة التي جاؤا بها، و لم أترجل اقترب منه مميت و صاح به (نترجمه للعربية).

- من أنت..؟
- و من أنت لكي تسألني؟
- اقول لك من أنت و إلاّ حطمتك الآن..؟
- سأحطمك أنا أولاً يا أسود..... يا و سخ

و كنت قد رجوتهم أن يتمسكوا بكامل القدرة في عدم الدخول في مواجهات مع الجهات المخابراتية، أو العراك معهم أو استفزازهم.
في هذه الأثناء أحاطت المجموعة التي كانت هناك بالشخص الاسود ثم دفعوا مميتاً إلى الخلف، فما كان من مميت إلاّ أن كشف عن جنبه فظهر لهم السلاح الناري الذي يحمله.[2]

---

[1] المشكلة في هذه الولاية ان حيازة و حمل السلاح مسموح قانونياً و ذلك بسبب ارتفاع نسبة الجرائم التي احتلت الأولى في أمريكا في السنة ما قبل الوصول إليها أي في عام 1978، فالناس هنا تحمل السلاح علناً و لكن على شرط أن لا يكون مخفيا تحت الثياب أو في مخازن السيارة، و إنما يسمح القانون في إظهاره فقط على مقدمة السيارة أو إلى جنب طاولة مالك الدكان أو مكشوفاً في حزام من يحمله

[2] هذا هو جزء من الإجراءات القانونية في تلك الولاية في وجوب إعلام أو إشعار عدوك بأنك تحمل سلاحاً نارياً و عن نوعه، لكي أما يتوقف عن المواجهة و يستسلم، أو أنه يتحمل نتائج عمله و اعتدائه أو غيرها

تراجع الجميع إلى الخلف خوفاً من القتل الذي بدى أمامهم شيئاً و اقعياً في مدينة هي الأولى في العالم في عدد الجرائم، صاح بهم مبين بأن يرفعوا أيديهم و إلاّ يطلق عليهم النار من الخلف، رفع الكل يده، و بسرعة فتش مبين اثنين منهم، و لم يكمل الآخرين في الوقت الذي وصلت الشرطة إلى المكان قبل حدوث الاحتكاك و سحب الأسلحة، فرق البوليس الجميع، حيث كان رئيس المجموعة يخفي شيئاً في قاعدة ساقه ربما كان مسدساً صغيراً أو ما شابه كما رأيته، سألهم البوليس من أين هم...؟ قالوا: سواح، قال لهم إما أن اعتقلكم الآن و إما أن تتفرقوا، ثم منع مبين و مميت من التحرك لأكثر من ساعتين، و أن يجلسا في نفس المقهى إلى أن يختفي أولئك.

من جملة ما حدث في تلك الأثناء هو أن مبين سأل رئيس المجموعة من أية مدينة أنت..؟ من بغداد ؟ قال له نعم، و عندما سأله عن هويته لم يخرجها له، بل قال له:لا تتحرش بنا و إلاّ اتصلت بالجهة الدبلوماسية، سألهم مبين إن كانوا جاؤا لاغتيال أحداً من المعارضة هنا أو ما شابه....؟ ضحك رئيس المجموعة، و تكلم بكلام فحش على مبين، و لكن مبين لم يرد عليه بشيء، و إنما قال له: إن رأيتك خلال هذه الأمسية في (نيو أورليانز) فانك ستعرف مصيرك و سألاحقك أنت و هؤلاء و ستجد جيش من المسلمين السود يتابعك أينما حللت.

و الذي فهمته فيما بعد أن هؤلاء الثلاثة كانوا في مهمة استطلاع تساندهم مجموعة أخرى من عرب اليمن جاؤا معهم من (ديترويت) لتنفيذ مهام تأديبية (كما كانوا يسمونها) هدفهم الرئيس تصفية رموز المعارضة في أمريكا، و خصوصاً أن الرياح السياسية تسير بجانب النظام العراقي في تنفيذ جريمة الاغتيال، أو ربما تدخل الولايات المتحدة ليست بصفتها الحكومية، و إنما بصفة مخابراتها في التعاون الخفي لهذا الأمر.

مع أن البديهي في مثل هذه المواقف هو تفاني الحكومة الأمريكية في عدم السماح لتنفيذ عملية الاغتيالات على أراضيها، و لكن النظام العراقي أنذاك كان له موقع خاص في إضبارة المخابرات الأمريكية، بسبب الوضع الإيراني و وضع الحرب و الخوف من انتشار ظاهرة الأسلمة على الطريقة الإيرانية (كما يسمونها) في كل مناطق الشرق الأوسط.

لقد كانت هذه الحادثة مؤشراً كبيراً على توجهات النظام العراقي تجاه المعارضة في الخارج، و بدى و اضحاً لنا ان الأمريكان ربما بعلم أو بدون علم الجهات الرسمية المخابراتية قد سهلوا أمر دخول عناصر المخابرات

هذه... من جانبنا كان هنالك حذر كبير في المواجهة و هو أمر في غاية التعقيد، و غاية الخطورة لأننا معارضون بالكلمة و معارضون بالفكر و ليس لنا من أمر المواجهة المسلحة أو الاغتيالات من رغبه في التفكير بها، و قد كان رأي البعض أن يتم تسليمهم إلى البوليس أو إخبار السلطات المحلية عن أمرهم، و لكن تبقى الأمور في مثل تلك الظروف الحرجة و في ظل الحرب الإيرانية العراقية و انحياز الولايات المتحدة إلى الجانب العراقي قضية فيها شك، و فيها تبعات كثيرة.

④

◖ الفصل الرابع ◗

فكرة الدولة الأيديولوجية



صعوبة فهم فلسفة الدولة الأمريكية: الإدارة الأمريكية بوجهها الرسمي الذي تمثله الحكومة التي يقودها الرئيس الأمريكي المنتخب من قبل الشعب غالباً لا يملك كل مستلزمات القوة و القرار، مع انه يحتل موقع القائد العام للقوات المسلحة فهنالك قوى أخرى تعمل و لكن ليس لصالح الإدارة الأمريكية فحسب بل لصالح أمريكا (كفكرة) و (وجود)، و لذلك ترى أن الاختلافات تظهر دائماً في كثير من الأزمات ما بين تلك القوى التي تتجاوز صلاحيات الرئيس في بعض الأحايين، و بين الإدارة التي تتخذ من البيت الأبيض مقراً لها.

فالشعب الأمريكي لا يملك اطلاعاً واضحاً عن هوية تلك القوى التي تملك قدرة الفيتو على القرار الرئاسي، فالغالبية منهم ينعتون تلك القوى ب (CIA) مع أنهم يعلمون أنها ليست منضوية تحت هذا الاسم، و البعض الآخر من المثقفين يسمونها القوى غير المرئية (Invisible power)، و لكن الواقع و كما أعتقد و حسب اطلاعي فإن للولايات المتحدة قيادة أخرى تسير جنباً إلى جنب مع قيادة الرئيس، بل تمثل قيادة الرئيس طرفاً فيها، ثم الكونغرس ثم مجلس الشيوخ ثم CIA لتكون عبارة عن أركان لتلك القوه التي غالباً ما تنظر إلى المصالح الأمريكية العليا أولاً قبل أن تنظر إلى مصلحة الإدارة الأمريكية بالذات أو لرئيسها[1] و نجد الشيء نفسه في تركيبة النظام الإسرائيلي، و لعلنا في المستقبل قد نفتح هذا الملف بكتاب أخر.

هذا المفهوم الجديد للدولة العصرية في الحفاظ على الأمن القومي لها يعتبر من عناصر التحضر الذي تسير عليه دول العالم للحفاظ على وجودها، و إلاّ فإن الدولة ستكون فريسة مطامع الناس من المحبين، بل من الوطنيين الذين تختلط فيهم الرغبات الشخصية بالرغبات الوطنية و ذلك هو أمر طبيعي في مسيرة الإنسان الذي تتحكم به الأهواء و الشهوات، و تسيّره أحياناً انفعالات الآخرين.

في الوضع الواقعي لحرب الخليج الأولى الدامية الناشبة بين الدولتين، و ظهور و اقع التغيرات الجديدة التي كانت تنذر بمستقبل لم يألفه العالم إلاّ في

---

[1] فصل السلطات فكرة مهمة و عملية، بل إنها تطبق في الكثير من مفاصل الحياة الأمريكية، و هكذا نرى ان القوى الخفية - إن سميناها كذلك- ما هي إلاّ انعكاس لهذا المفهوم الذي أعتقد أنه من أقوى الأسباب التي أعطت للولايات المتحدة تلك المنعة و القوة و النفوذ

القرون الوسطى في أوروبا، و الذي كان الغرب يعتقد بأن عصر الدول الدينية الأيديولوجية سيبدأ في هذه المنطقة من العالم بعد أن تمكنت أوروبا من إزاحة فكرة الدولة الدينية الكاثوليكية و التوجه نحو الدولة العلمانية القومية.
مجرد ظهور (فكرة الدولة الدينية) في عقول القادة الدوليين و الغربيين خصوصاً معناه مزيد من القتل و الدماء و استمرار الحروب، كما هي تجربة القرون الوسطى الأوروبية، و هذا معناه أن الغرب و ليس فقط أمريكا كان مصمماً على أن يقتل فكرة الدولة الدينية في الشرق من خلال التخلص من النظام الإيراني الذي أعلن هويته الدينية و هويته المشابهة لتوجهات أوروبا في القرون الوسطى...[1]

و هذا هو الذي دفع بالغربيين و الأوربيين إلى الوقوف و بكل و ضوح ضد إيران، لمنعها من أن تسير باتجاه دينيّة الدولة التي لا تتفق مع منطق دول العالم في القرن العشرين، هذا المنطق هو ما يمكن أن نفسر به طريقة التعامل الأمريكية و الغربية مع مجريات الحرب العراقية الإيرانية و كل تبعاتها و ملحقاتها، إذ لم تتعامل الولايات المتحدة الأمريكية و الغرب بنفس المنظار الذي تعاملت به مع أحداث العالم الأخرى كقضية فيتنام و قضية فلسطين و غيرها من الأمور الساخنة التي مر بها العالم.
و لم تكن القضية العراقية بمنأى من تلك التأثيرات، لأنّ الإدارة الأمريكية اعتبرت أن نقاط الالتقاء ما بين القضيتين لا يمكن لهما الانفصال بسبب الترابط الوثيق و القوي الذي تحكمت به القوى الجغرافية و التاريخية، بالإضافة إلى التقارير التي اجتهدت الدول العربية و على رأسها السعودية في تثبيت هذه النظرية، التي هي في الواقع لم تكن إلاّ فخاً كبيراً و قعت فيه الإدارة الأمريكية و سيّرتها باتجاه القضية العراقية.

فالمفاهيم السياسية المعقّدة التي تحكمت في عقلية صانعوا القرار الامريكي و التي كانت ترى في (التشيع العراقي) كما يسميه السياسيون (إيرانيو العراق) لعب دوراً كبيراً في تخلخل الإدراك الواعي لعمق القضية العراقية الصحيح، فالولايات المتحدة كانت ترى أن معنى (الشيعة) هو (إيران) و معنى إيران هو الشيعة، فليس هنالك من شيء اسمه الشيعة العرب أو الشيعة العراقيون

---

[1] إيران مع أنها في تلك الأوقات كانت ترفع شعار الدين كدستور لها في إبان بداية تحقق فكرة نظرية و لاية الفقيه للإمام الراحل الخميني، و لكنها الآن و بعد أكثر من ثلاثة عقود على انطلاقها ظهر بأن الفكرة الدينية لم تتمكن من أن تجد طريقها خصوصاً فيما يتعلق بتغيير محتوى الإنسان الداخلي، و بذلك و جدت إيران لنفسها طريقاً مختلطاً ما بين الدين و القومية و الواقع. و هو حل عملي، بل علمي لمعالجة و جودها الدولي المهم

(المفهوم الذي سوقته الدول العربية السعودية خصوصاً) و تعاملت الإدارة الأمريكية إيجابياً مع هذا المفهوم على انه مفهوم مسلّم به إلى حين فترة بداية الغزو العراقي للكويت أو على أكثر الاحتمالات و أدقها في بداية 2001 إذ ظهر النظام العراقي على حقيقته و ظهرت المعارضة العراقية أيضاً على حقيقتها و مصداقيتها.

و قد وجد الأمريكان ان الكم الهائل من الأدبيات و البحوث الصادرة خلال عقود من الزمن لا يمكن نقضها خلال مدة قصيرة من التجربة و الأحداث...

لقد اجتهدت السعودية و دول الخليج فضلاً عن النظام العراقي في تثبيت الصورة غير الواقعية لتركيبة المجتمع العراقي و خصوصاً الجانب الطائفي و التركيبة العددية و الإنتمائية للطوائف العراقية الأصلية، و هو ما يفسر الفشل الكبير لتخبطات السياسة الأمريكية في العراق بعد دخول قوات التحالف، و بعد أن قررت الإدارة الأمريكية أخذ زمام المبادرة في بناء العراق السياسي و تشكيل الحكومة، و قد كان أهم عوامل و أسباب الفشل هو الخلفية الخاطئة التي يمتلكها القادة الأمريكان و المعلومات التي تواصلت كل الأطراف المعادية للعراق في زرعها و تثبيتها في عقول القيادة الأمريكية، و المخططين السياسيين من الذين تستعين برأيهم الإدارة الأمريكية في صنع قراراتها.

و مع أن الكثير من العراقيين و من أطراف المعارضة المختلفة عندما يقرأون ملف التعامل الأمريكي مع القضية العراقية منذ عقد السبعينيات يتوصلون و بسرعة كبيرة، و يقفزون إلى التصور غير المحسوب (حسب رأيي) ذلك أن صدام هو صنيعة أمريكية، و أن أمريكا تدافع عنه، و هي التي و فرت له الحماية في كل تحركاته، و مع أننا لسنا بصدد مناقشة هذا الأمر في هذا الكتاب، و إنما نقول أن ذلك استنتاج قد يخدم قضيتنا العراقية على المستوى الآني، و لكنه أثّر سلبياً على المدى البعيد، و خصوصاً عندما التقت المصالح الأمريكية مع مصالح المعارضة في التوجه نحو التخلص من النظام العراقي الذي يرأسه صدام و إزالته من الحكم.

لهذا و بعجالة يجب أن أقول: ان الولايات المتحدة الأمريكية دولة (غير إيديولوجية) أي لا تملك مبدأ مسبّق في تعاملها مع الآخرين، بل تتحكم بها أولاً مصلحتها الاقتصادية و مصلحتها في ضمن مفهوم الديمقراطية، لذلك فليس هنالك من قول ثابت في موضوع التوجه الأمريكي نحو التزام دولة أو شخص ما، و مساندتها بالسلاح و المال، و إنما يتحقق ذلك إذا كانت تلك الجهة تخدم، أو على الأقل لا تتقاطع مع التوجه و المصلحة الأمريكية... و هذه النقطة لو فهمها العرب بصورة مسهبة و دقيقة لتمكنوا من أن يتجنبوا الكثير من الويلات و المشاكل التي حلت بهم و تحل بهم الآن.

فأمريكا عبارة عن كنز ضخم تحيط به عدة أسيجة تتراوح هذه القلاع ما بين الحجر العالي الضخم و ما بين نهر هادئ إلى سياج الكتروني إلى جنود مجندة إلى سياج من تكنولوجيا عالية... فإذا أراد الإنسان أن يستفيد من هذا الكنز لخدمة أغراضه عليه أن يتعامل مع هذه القلاع كلها كل حسب وضعه و حسب إمكانية اجتيازه، في الوقت الذي تمكن البعض من اكتشافه و الاستفادة منه و تناول جزءا من ذلك الكنز كإسرائيل مثلاً و السعودية و كوريا الجنوبية و غيرها من بلدان العالم الأخرى.... تلك النقطة الجوهرية في التعامل مع أمريكا يتوجب أن تبدأها تفهم فلسفة مبدأ فصل السلطات التي تلتزم به الإدارة الأمريكية بل كل دول العالم الديمقراطي.[1]

فلقد كان الوضع في الولايات المتحدة الأمريكية في إبان الحرب العراقية الإيرانية و في بداية الثمانينيات لم يكن يتجه لصالح المعارضة العراقية الموجودة على الأرض الأمريكية لأسباب عدة و كثيرة، بعضها ذكرته و بعضها لم اذكره، حداثة المعارضة كان من أحد الأسباب، العدد و التوزع من قبل الطلبة، و الاعتماد عليهم في تكون الجسم الأكبر للعمل و النشاطات ترك بصماته على نوعية الانجازات التي تتوخاها تلك المعارضة، فضلاً عن غياب قيادة (ثابتة) عارفة بواقع البلد غير المجموعة الطلابية التي كنا فيها، و بالرغم من ذلك فان الخبرة و العمل أضافا نقاطاً مشرقة على المسيرة، و بدأت النتائج تبدو واضحة إلى الآخرين،هذا بالإضافة إلى فقدانها للغطاء القُطري الذي تستعين به معظم رموز المعارضة في العالم التي تركن في أعمالها إلى مساندة دولة ما، تلك التي توفر لها التعامل مع الدول الكبرى بنسج و طريقة يفهمها الطرفان، و هذه هي التي كانت المعارضة العراقية تفتقدها في حركتها على الساحة الأمريكية، و هو ما دفع بطاقات المعارضة العراقية إلى الاعتماد على الذات، و على القدرات التي تمتلكها من خلال تاريخها.

---

[1] فصل السلطات هو مصطلح صاغه المفكر السياسي الفرنسي مونتسكيو، و هو أحد مبادِئ الديمقراطية فهو نموذج للحكم الديمقراطي للدول، هذا النموذج هو الذي يعرف أيضاً Trias Politica....تم تأسيس أول نموذج من الفصل بين السلطات من قبل الرومان القدماء و دخل حيز الاستخدام الواسع النطاق في الجزء الأول من الجمهورية الرومانية، في إطار هذا النموذج فان الدولة مقسمة إلى فروع أو سلطات، كل سلطة منفصلة و مستقلة في صلاحيات و مجالات المسؤولية، المتعارف عليه هو تقسيم السلطات إلى السلطة التنفيذية، و السلطة التشريعية، و السلطة القضائية

⑤

◖ الفصل الخامس ◗

ألحِسّ المخاباراتي



بداية : في سنة 1982 وصلت حركة المعارضة العراقية في أمريكا أوج نشاطها، كانت المخابرات الأمريكية تتتبع مصادر تلك الموجة المفاجئة و لكن بحذر و حيطة و بدون إثارة شكوك حول عملية المراقبة، في ذلك الوقت أصبحت ولاية (لويزيانا) مركزاً للعراقيين المعارضين للنظام، فبدأت التحركات الاستخباراتية لمعرفة هوية العاملين من قبل السلطات الأمريكية، و هذه المهمة المخابراتية هي من مسؤولية جهاز مكتب التحقيقات الفدرالية FBI .

و في صباح أحدى الأيام بينما أنا في طريقي إلى الجامعة التي كنت أحضر فيها شهادة الدكتوراه اقترب مني شخص ذو سحنة لاتينية و طلب التحدث معي، فاعتذرت منه، و لكن بنوع من الشدة[1]، فأخرج ذلك الشاب لي بطاقة الهوية التي تشير إلى انتمائه لجهاز المخابرات الأمريكية عندئذ قررت أن استوعب الصدمة، فقلت له: إنني مشغول الآن، و عليّ أن أصل إلى المحاضرة و التي ستبدأ خلال خمس دقائق، و لا يسعني الوقت في التحدث معك الآن و يمكنك القدوم في يوم آخر للتحدث في الكافتريا، أعطاني اسمه و رقم تلفونه.[2] أنهيت المحاضرة ومن الجامعة اتصلت به و أخبرته بأنني مشغول خلال الأيام المقبلة و لا أرغب باللقاء غداً ثم قلت له: أنني سأتصل بك متى ما سنحت لي الفرصة في اللقاء...[3]

---

[1] مع اعترافي بخطأ هذا الأسلوب إذ أفكر به الآن و في هذا الوقت و بعد التجارب التي مررنا بها

[2] بالنسبة لي كعراقي اكتوى من نظام البعث و دخل سجونه و أقبيته المظلمة... كنت في شك لو كان جهاز ال FBI ... له قدرة و الشجاعة في تسليمي إلى صدام، كانت مشكلة التسليم إلى المخابرات العراقية ربما هي الهم الكبير الذي يعيشه المعارض العراقي، و مع أنه لم يتحقق في الولايات المتحدة الأمريكية، مع تحققه في أقطار أخرى مثل فرنسا و مصر و تهديد البريطانيين للمعارضين بذلك، إذ سلّم شيراك الطالبين العراقيين فوزي و خير الدين إلى النظام العراقي، و هي مسألة يعتبر التفكير بها أزمة بحد ذاتها، فالمسألة المخابراتية تعني مشاركة المخابرات الصدامية مع المخابرات الغربية و هو الذي يقود بالتالي إلى احتمال تسليم المعارض للنظام، أي بمعنى آخر أن عملية تسليمي إلى صدام ليست بغائبة عن ذهني، مع أنني لو تفحصتها جيداً في هذا اليوم لو جدت أن تفكيري في ذلك الأمر كان نوعاً من اللاواقعية، و ربما كان نوعاً من التشنج و الرعب السياسي، و لكن الإنسان و الفرد إبن بيئة و ظروفه.

[3] كان رجل المخابرات هذا لا يفقه عن العراق و عن المنطقة اي شئ، مثلا كان عندما يريد أن ينطق كلمة العراق فانه يتوقف عند الحرف الأخير القاف و لا يدري أيها ينطقها قافاً أو ينطقها نوناً كما في كلمة إيران، و كأنه لا يعرف بأن هنالك قطراً إسمه العراق و هنالك قطراً إسمه إيران، و كنت في المكالمة و بتعمد أحياناً أقلب أو أؤخر الكلمات مثلا: أسمّي (العراق) (يراك) أو (إيران) (ياران) و بشكل استفزازي كنت أحاول من خلاله أن أشككه في المعلومات التي جاء بها للحديث معي

و عندما أدركت أميّة هذا الرجل في تاريخ المنطقة قررت تجاهله و السخرية منه لذلك تساهلت في لقائه في البداية، و لكن و جدت فيما بعد أنه لمن الحكمة أن أفكر بلقائه بأسرع و قت لا لشيء، و إنما لمعرفة تفكير الجانب الآخر و هو الجانب الأمني ألمخابراتي الأمريكي أو ربما الحكومة الأمريكية.

و لكن الشيء الذي حدث خلال هذه الفترة ما بعد التحدث مع المخابرات إنني بدأت استمع منذ ذلك اليوم إلى أصوات غريبة في جهاز التلفون، الذي كان أنذاك هو الوسيلة الوحيدة للاتصالات.

و في خلال الليالي التي تليت ذلك اللقاء كنت أسمع أصوات الموسيقية الصاخبة من مركز لم أتبينه و كانت إلى الدرجة التي كانت فعلاً تقض مضجعي و تمنعني من النوم، حاولت معرفة مصدر الصوت لم أتمكن أطللت براسي من الشقة التي تقع في الطابق الثاني أي الأول ما بعد الأرضي فكنت أشاهد هنالك سيارة تقف في الشارع مقابل نافذة الشقة خمس ليالي، غامقة اللون في داخلها ضوء خافت تقف حوالي الساعة أو أكثر ثم تغادر، كان الصوت مزعجاً إلى الدرجة التي منعني من النوم تماماً، استيقظت لكي استفيد من وقتي بدلاً من أن أبقى متقلباً على الفراش، و إذا بجرس الهاتف يدق.... استغربت من رنّة التلفون فالوقت الثالثة و النصف ليلاً فقلت في نفسي لعل المكالمة من العراق، و هم مضطرون للاتصال بي في هذا الوقت لأمر مهم، رفعت السماعة و إذا بي أسمع ذات الموسيقى التي أسمعها أنا الآن في شقتي، قلت: ربما هنالك في الأمر مزحة، أو أنها صدفة أو أن الراديو أحياناً ينقل إلى التلفون نفس الأغنية التي أسمعها، لم يكن هنالك جواب من الطرف الآخر.

بعد أن تأكدت بأن جميع الأبواب مغلقة و كذلك الشبابيك نمت حتى اليوم الثاني. عندما ذهبت إلى الجامعة لمواصلة دراستي التي كانت تتطلب جهداً استثنائيا في التركيز و التحضير و المواصلة،عدت إلى البيت فأخبرتني زوجتي بأن شخصاً طرق الباب يقول إنه من مكتب التحقيقات الفيدرالية FBI و هو يرغب في تفتيش الشقة، لأنّ هنالك معلومات حول أخفاء أسلحة، سمعت الخبر و كدت أجن من هول الصدمة فصحت في و جهها ماذا حدث...؟
أجابت زوجتي لم أسمح لهم في الدخول، تنفست الصعداء ثم سألتها: و ماذا قالوا ... قالت إنهم سوف يتصلون ثانية، و أن أحدهم ترك بطاقة التعريف، و طلب مني أن أخبرك بالاتصال به.

جلست في الشقة أفكر ملياً، فالمسألة تعدت حدود العمل السياسي، إنهم الآن في طريقهم إلى اتهامي بحيازة أسلحة، و هذه القضية خطيرة جداً و دقيقة، و لها تبعات بعيدة المدى مع أن السلاح في تلك الولاية (لويزيانا) مرخص حمله من قبل الشعب. على شرط أن يكون حامله لا ينوي إخفاءه عن الآخرين.

و هكذا و للمرة الثانية اتصلت بعميل مكتب التحقيقات الفيدرالية و كان اسمه مختلفا عن الأول، و أخبرته بأنني فلان ابن فلان، و انك جئت إلى الشقة و قلت لزوجتي بأن هنالك سلاحاً في الشقة، و انك ترغب في الحديث معي و ها أنذا أتصل بك لمعرفة الأمر.
فكر الرجل ثم قال أنه لم يقل لزوجتي بأن في الشقة سلاحاً، و إنما زوجتك لم تفهم جيداً (عرفت انه كذب) ثم قلت له حسنا ما الأمر اخبرني، ماذا حدث؟ و كنت أتحدث بنوع من الانفعال، و بلهجة متشنجة لحدٍ ما، و هو أيضاً نوع من الخلفية التي ورثناها في تعاملنا مع المخابرات العراقية، طلب الرجل مني أن نجلس للحوار و الحديث، فاعتذرت له آنيا و لكنني أوعدته بأنني سأنفذ ذلك في المستقبل القريب، سألني ماذا يعني المستقبل القريب (أسبوع، شهر، سنة... أكثر) ثم قال لي: أنك تملك الحق في عدم الحضور، كما قال لي: يمكن لك أيضاً أن تخبر محاميك بالأمر أو أن تدعوه إلى الحضور و التحدث معنا فيما إذا كنت أشك في نياتهم، لم استمر في الحوار أكثر من ذلك، و أخبرتهم بأنني مشغول بدراستي، و احتاج إلى جزء من الوقت.
حاولت أن أعرف أنسب الطرق للتصرف في مثل هذه الحالات فقررت الذهاب إلى المكتبة (مكتبة الجامعة) لمعرفة حقوقي في هذا البلد و في هذه الظروف، توصلت إلى كتاب جيد كان كاتبه أحد مؤسسي حركة المجتمع المدني الغربي الذي كان (مارتن لوثر كنغ) يترأسها في الستينيات[1]

---

[1] مارتن لوثر كنج جونيور بالإنكليزية: (Martin Luther King JR). ولد في 15 يناير عام 1929 و توفي في 4 أبريل 1968، زعيم أمريكي من أصول إفريقية، قس و ناشط سياسي إنساني، من المطالبين بإنهاء التمييز العنصري ضد بني جلدته، في عام 1964 حصل على جائزة نوبل للسلام، و كان أصغر من يحوز عليها، اعتبر مارتن لوثر كنج من أهم الشخصيات التي دعت إلى الحرية و حقوق الإنسان، و في الرابع من شهر نيسان عام 1968 اغتيلت أحلام مارتن لوثر كينج ببندقية أحد المتعصبين البيض و يدعى جيمس إرل راي - James Earl Ray – و كان قبل موته يتأهب لقيادة مسيرة في (ولاية ممفيس) لتأيد إضراب (جامعي النفايات) الذي كاد يتفجر في مائة مدينة أمريكية، و قد حكم على القاتل بالسجن 99 عاما، غير أن التحقيقات أشارت إلى احتمال كون الاغتيال كان مدبراً، و أن جيمس كان مجرد أداة.

طُعُم المرأة و المخابرات: و في عطلة نهاية الأسبوع و بعد الثانية عشرة بعد منتصف الليل بدأت الموسيقى الصاخبة تأكل رأسي من شدتها و إزعاجها فنزلت إلى مسئول البناية لأخبره بالأمر، فقال لي: بأن القانون يسمح في ليلتي عطلة نهاية الأسبوع بذلك، فرجعت إلى شقتي و حاولت أن أتكيف مع الصوت و مع اللحن، و لكن هيهات إذ بقيت منزعجاً أشد الانزعاج بحيث لم أتمكن من مواصلة مذاكرتي، أو النوم أو ترك الشقة إلى مكان أخر، و بعد أن نامت زوجتي و ابنتي على ضجيج الموسيقى قررت - و مهما كانت العواقب- أن أطرق الباب على كل الجيران من الجهات الثلاث و أترجاهم بنوع من الأخلاق في مراعاة وضعي العائلي، و بعد التفكير تحركت إلى الجار اليمين فلم اسمع أية أصوات منه و كانت شقتي في طرف الممر فلم يكن أمامي إلاّ الصعود إلى الطابق الأعلى محاولاً أن اربط الحادث،[1]

---

[1] لبست بنطلون خفيف و قميص، طرقت الباب طرقة و احدة، فتحت الباب شابة تخفي جسدها خلف الباب فابتسمت في وجهها محاولاً تلطيف الجو، و حاولت مباشرة إلى أن اخبرها عن سبب طرقي الباب في هذه الساعة المتأخرة، و قبل أن انهي كلمتين من حديثي أشارت لي بالدخول إلى الداخل فاعتقدت بأنها ربما لا تريد أن تحادثني أمام الآخرين فيما لو احتد النقاش، فدخلت و أغلقت الشابة الباب خلفي، و إذا بها بنت عارية تلف حول جسدها غطاء الفراش الذي يستعمله الإنسان عندما ينام، عندئذ فأول ما تبادر إلى ذهني هو أن الخمر قد لعب في رأسها مما دعاها للتصرف بهذه الطريقة، أشارت علي بالجلوس، قلت: لا بأس لعلها تدخل الغرفة و ترتدي ملابسها ثم نتحدث بموضوع الأصوات المنطلقة من شقتها، دخلت الفتاة إلى الغرفة و في أثناء غيابها رن جرس التلفون سمعتها تتناول السماعة، و بسبب نظرية المؤامرة التي أعيشها قررت الضغط على زر التلفون في صالة الجلوس، و هو الزر الذي يمكنك الاستماع إلى الطرف الآخر (Hands Free) و بدون أن تشعر الجانب الآخر برفع السماعة، سمعت رجلاً من الطرف الآخر يقول لها فرصة جيدة، أعطه ما يريد - أو بهذا المعنى- إننا نحتاجه، و اللغة التي كانت انكليزية بنبرات بريطانية سريعة جداً، ثم ما أكد ذلك هو قوله لها تأكدي من انه هو من العراق، إذن بالضبط هذا هو اللغز، قلت في نفسي بعد أن ضغطت على الزر ثانية و حاولت أن أفكر بأنسب التصرفات، هل أغادر مباشرة إلى الخارج، هل انهرها أم ماذا...؟

جاءت إلى الصالة هذه الفتاة، ارتبكت و حاولت أن اخفي ارتباكي أمامها، ثم الإسراع بفتح الحوار حول الموضوع الذي أتيت من أجله ثم عرفت أيضاً بأن هنالك فتاة أخرى في الغرفة، و هكذا أخبرتها مباشرة بأن هذه الموسيقى الصاخبة تزعجني و تزعج عائلتي و تمنعني من النوم و من المذاكرة، ثم أخبرتها بأنني ذهبت إلى مسؤول البناية، و بين اللحظة و الأخرى أسحب نفساً عميقا لتكملة كل جملة من كلامي ثم مددت يدي على رأسي فوجدته قد غرق في العرق فازداد عندئذ إحراجي، و بعد محاولات دبلوماسية فيما بيني و بينها و أنا في طريقي إلى الباب و التي كانت تحاول أن تمنع ذلك قائلة دعنا نتحدث عن الصوت و إزعاجه، ثم قفزت إلى جهاز الصوت تخفضه و تقول أهذا جيد، أهذا جيد...؟ ثم سألتني هل أنت من العراق...؟ أجبت نعم، و لكن بتثاقل، ثم قالت دعني أعرف شيئاً عن العراق، و قبل أن أبدأ حديثي صاحت على صديقتها (جنيفر) بأن تصنع لنا القهوة بعد أن استأذنتني في ذلك قلت: لا

فأجهزة المخابرات العالمية برمتها تستعمل جانب الغريزة بشكل ما لخدمة أغراضها، و طريقاً لتحقيق ما تصبو إليه في الحياة، فالمال و المرأة و الجاه و الشهرة جوانب مهمة في حياة الإنسان و في تطلعاته نحو العيش.[1]

نمت تلك الليلة نوماً قلقاً مرعوباً و كأنني في يقظة، و الرعب المتأتي من الضعف الذي اكتشفته في نفسي أمام شهوات الجسد، و كأنني عبد لحالة شهوانية لا تتجاوز فترتها بضع دقائق أو حتى بضع ساعات.[2]

استيقظت صباحاً و كأنني شبح خرج من القبر، إستحممت ثم شددت العزم على اجتياز المحنة بأي ثمن كان، دخلت الجامعة فناداني رئيس القسم للتحدث معي، و كان هذا الرجل إنساناً طيباً عالي الهمة ذو أخلاق و أدب رفيع، دعاني إلى غرفته فجلست ظناً مني أنه يريد التحدث عن أمور الدراسة، أو أحياناً عن الوضع في العراق كنوع من زيادة المعلومات، جلست و أنا مبتسم في الحديث معه، و عندما بدأ يتحدث لمست أن نبرته مختلفة تماما، إنه غير الإنسان الأول الذي أعرفه في وسع الأفق و قوة الشخصية، بدأ

بأس، خرجت جنيفر من الغرفة إلى صالة الجلوس أدرت راسي فوجدتها مثل صاحبتها في الوضع و الشكل، قلت في نفسي: يا الهي ما هذا...؟ إلهي اعصمني من الخطأ و جنبني المعصية.... حملت جسمي و سرت باتجاه الباب قائلاً : إذا لم تخفضوا الصوت فاني سوف أشكوكم إلى الشرطة قلتها بعصبية ثم فتحت الباب، و قبل أن أغادر أدرت راسي لهما و قلت عليكما أن تستحيا.... ضحكت الفتاتان ثم قالت إحدهما (Poor Iraqi) مسكين هذا العراقي.... نزلت إلى شقتي و أنا أتصفح و جهي في المرآة، و انظر إلى جوانب جسدي كمن يخرج من حادثة اصطدام لا يدري أياً من أعضائه قد أصابه الأذى، انزويت إلى فراشي و أنا أقرأ (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة..) عرفت بعدها نقطة ضعفي، و نقطة تفادي الشيطان، و وجدت بأن الدين عبارة عن ممارسة، هذه الممارسة تخلق في ذات الإنسان -ليس فقط- في الجانب اللاشعوري، بل الشعوري أيضاً قدرة تجنب الممنوعات، أما أنا فعرفت أن ممارستي لتعاليم الدين لم تكن نابعة من ذلك المفهوم الآخر و قد تحمل شيئاً منه. فالوراثة و الوضع الاجتماعي وغيرها من العوامل هي المحرك الكبير في التزامنا بالدين.

[1] و من يقرا كتاب فيكتور اوستروفسكي (The way of Deception) و الذي يمكن ترجمته إلى العربية (طرق الخداع) و الذي يتحدث فيه الكاتب الذي كان أحد عملاء مخابرات الموساد الإسرائيلية ثم قرر الابتعاد و الهروب إلى كندا، أو العيش فيها و هو من الكتب المهمة جداً، التي يجب على المثقف العربي قراءتها

[2] عندها يمكن للإنسان أن يتحول من قدرة هائلة في مقاومته للظلم في العالم و مقاومته طاغوت بغداد و أجهزة المخابرات العالمية إلى شخص تتقاذفه شهوات جسدية رخيصة تودي، به بالتالي إلى أن يتحول من طاقة معطاءة الى رماد تذروه الرياح، ثم قلت في نفسي و أنا أحدثها: إذا كنت لم أقدر على مقاومة هذه الشهوات فكيف لي أن أقاوم ما هو اكبر...؟

يتحدث معي حول علاقتي مع الحكومة العراقية طبعاً تحت عنوان البعثة التي كانت الحكومة توفرها لي، ثم قال: إذا لم تدفع الحكومة ما يلزم على دراستك فانك يجب عليك المغادرة خلال أسبوعين.
سكت و أخذت نفساً عميقاً حائراً، ماذا يمكن لي أن أجيبه...؟
قلت له: لقد قطعت الحكومة العراقية مخصصات البعثة، فهل يمكن للقسم و الجامعة أن توفر لي عملاً لكي أتمكن من تسديد الأقساط أسوة ببقية الطلبة....؟
قال:عليك أن تدبر أمرك، سكت برهة ثم قال لي: أين كنت قبل شهر أو قبل عشرة أيام...؟ و أين سافرت في العطلة....؟ طبعاً كان يتحدث عن ذلك بحجة أنك لم تخبرنا بمغادرتك، و عندما أخبرته بأنني كتبت رسالة إلى المرشد الذي يشرف على دراستي، قال لي: و لكن هذا ليس كاف، ثم قال: بعد مناقشة استمرت نصف ساعة، و ما هي مشكلتك مع أجهزة الأمن...؟ قالها بعمومية، و لم يشر الى أي جهاز مخابراتي يقصد العراقي أم الأمريكي.
صحت: أجهزة الأمن.....؟ و ما هي مشكلتي معها......؟ أريد أن أعرف.... ثم قال: إن ذلك ليس من اختصاصه، ثم تحرك محاولاً الخروج كإشارة لي في انتهاء المقابلة.

فهمت جيداً أن مكتب التحقيقات الفدرالية قد أو صلوا له الأخبار بصورة مضخمة كجزء من الحرب النفسية التي تمارس ضدي، و هكذا تجمعت الآن كل خيوط اللعبة، اللعبة هدفها إيقافي عن مواصلة عملي، و مواصلة نشاطي في أجواء القضية العراقية، فهي في مرحلة شراء الذمم و شراء النفوس، و بدايتها هي الضغوط النفسية و الضغوط الإجتماعية لتحقيق ذلك الهدف.

نزلت من القسم، و توجهت مباشرة إلى مركز التلفونات، و كنت أنذاك قد اقتنيت دراجة هوائية لأسمح لنفسي بتوفير مصاريف النقل، نزلت عند مكتب التلفون و أخبرتهم بأنني أسمع أصواتاً غير عادية في الجهاز لذلك جئت لأتأكد من صدق ما أسمع...[1]

---

[1] قال الموظف انتظر حتى يقابلك موظف متخصص في الأمر، و بعد خمسة دقائق جاء الموظف، و جلست وأخبرته بالأمر وقلت له: بأنني و لمدة شهرين عندما أتناول سماعة الهاتف أشعر بأن هنالك ما يشبه جهاز التسجيل على الطرف الآخر، ثم أخبرته عن حادثة الموسيقى بالتلفون، فقال: إننا يجب أن نجري بعض التحريات بهذا الشأن، ثم قال: بأن أجهزة المخابرات قد تقوم بذلك عن طريق وضع جهاز ما في مركز (الكيبل) المحلي الذي يقع في الشارع، و هم يقومون بذلك بطريقة غير قانونية، و نحن كموظفي شركة تلفون أهلية يجب علينا قانونياً إذا استلمنا شكوى بهذا الأمر أن نذهب للتحقق من ذلك، و هكذا قدمت جميع

و قد فهمت فيما بعد، و بعد مرور أكثر من 20 سنه على تلك الحادثة أن الكثير من الطلبة الخليجيين و السعوديين و بعض الآخرين ممن كان يساند قضيتنا. قد استدعوا إلى التحقيق في أقطارهم و أظهروا أمامهم المعلومات المجموعة عنهم، و جاء ذكر إسمي معهم بعد أن سؤلوا عن العلاقة معي و مع المعارضة العراقية، و هكذا و بعد ذلك قررت أن لا تكون المكالمات من البيت، بل من التلفونات العمومية خارج البيت.

في هذه الإثناء اشتدت حدة المعارك ما بين العراق و إيران، و بدأت إيران تزيد من تهديداتها ضد الولايات المتحدة، و ضد الدول التي تساعد العراق، كما بدأ الرئيس الأمريكي (ريغان) يزيد من قدرات الولايات المتحدة الأمريكية بشأن استئصال الإسلاميين و لكن بدون تسميتهم، و ذلك بسبب الوضع الأفغاني الذي كانت المخابرات الأمريكية هي الراعية الأساسية في تزويد فصائل المجاهدين المسلمين بالسلاح و العتاد و المال لمحاربة الاتحاد السوفيتي. حتى تحولت تلك القوى إلى قدرات كبيرة و بأطوار متنوعة كان آخرها ظاهرة طالبان، ثم أحداث 11 سبتمبر 2001، و لذلك فقد كانت مصطلحات التشدد الإسلامي و غيرها مما يستعمل اليوم قضية غير مؤثرة سياسياً آنذاك.
في نفس الوقت كان الأخوة العاملون قد صعدوا في عملهم في مواجهة النظام العراقي بالمنشورات و التظاهرات، و كذلك مهاجمة ما وراء النظام العراقي إعلامياً و هي الولايات المتحدة و حلفاؤها، و تحولت المواجهة إلى أن يكون طرفا الصراع يتكونان من جبهة أولى تضم النظام العراقي و الولايات المتحدة و الدول العربية و الأوربية ضد الطرف الثاني، الذي تمثله إيران و

المعلومات و أخبرني بأن اتصل به بعد أسبوع، اتصلت به بعد أسبوع و سألته عن الأمر فأخبرني بأن تلفوني كان مراقباً فعلاً و انه لا يعرف من الذي فعل ذلك. ربما المخابرات أو ربما شخص من أعدائي أو ربما أجهزة أخرى و هكذا.. فسألته: ما العمل....؟ قال: إننا أبطلنا مفعول المراقبة، ثم سألته: فيما إذا أعادوا الأمر في اختراق الخط، قال: تخبرنا ثانية و نذهب للتحقيق مرة أخرى، أو يمكنك الذهاب إلى المحكمة لرفع دعوى قضائية على الجهة التي وضعت أجهزة التنصت تلك،و لكي تعرف ذلك عليك أن تستعين بخبراء في معرفة تلك الجهة، و بعدمها فإن القضاء سوف لا يستمع إلى شكواك.
والشيء بالشيء يذكر بعد أحداث أيلول 2001 قررت المحكمة الأمريكية السماح قانونياً بمراقبة بعض التلفونات لبعض الأشخاص و قد كان قبل ذلك التاريخ عملاً غير قانوني.
عرفت بعدها أن المكالمات مع أعضاء المعارضة العراقية، و ما تحويه تلك المكالمات من معلومات قد وصلت إلى أيدي الفاعل في هذا الأمر، و معرفة هذا الشيء مهم لأنك في مثل هذه الحالات يجب عليك أن تتصرف بالطريقة التي تعلم بها ما يملكه عدوك من معلومات عنك.

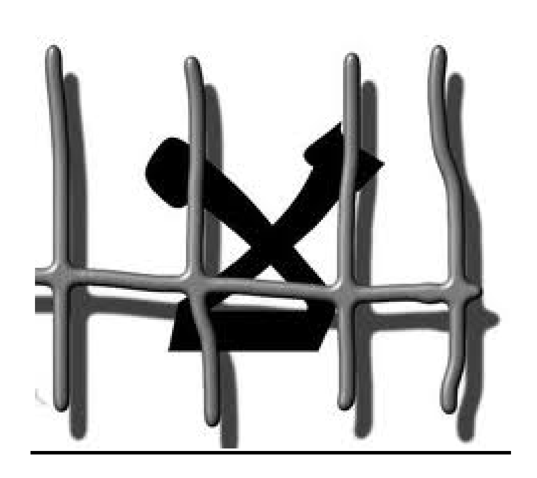
المعارضة العراقية، هذا هو التقسيم الاصطناعي للوضع على أرض الصراع.
الولايات المتحدة تعتقد -و بأدلتها الخاصة بها- و ترى أن المعارضة العراقية مخترقة من قبل الإيرانيين، و خصوصاً بما يتعلق بقصة اغتيال أمير الكويت، بل كانت ترى أكثر من ذلك فيما يتعلق بضرب مصالح أمريكا في الخارج، و قد لعبت أنذاك الدول الخليجية دوراً ضخماً و كبيراً في تثبيت هذا الرأي و التأثير على القرار الأمريكي في اعتبار المعارضة العراقية جزءاً من منظمات التخريب و الأصولية التي يجب مراقبتها و القضاء عليها، و هو تصور بل رأي أبعد ما يكون عن الواقع الحقيقي[1]

[1] كما حاولت تلك الدول أن تربط ما بين الفكر الإسلامي الإمامي(الشيعة) و بين إيران، و بين الإرهاب بطريقة تظهر للغرب بأن الإمامية فكر يتولد و يتفرخ منه الإرهاب على مدى العصور. و منذ أن تأسس و على مدى حقبة طويلة من السنين، حيث يؤكدون حجتهم هذه باستعمال كلمة (روافض) التي تعني الرفض الدائم للأنظمة الحاكمة و مقاومتها و الثورة على كل أنظمة الحكم في المنطقة، و كانت السعودية الدولة التي كانت تحمل هذا التوجه، و يساندها في ذلك منظمات إسلامية سياسية متمولة كثيرة. تم ذلك من خلال بحوث و كتابات و تقارير و رصد أموال هائلة في سبيل تحقيق هذا الغرض، كما أقدمت تلك الدول على رعاية مؤتمرات ضخمة في القارة الأمريكية و في دول أخرى من العالم هدفها الرئيس إذكاء روح الطائفية و روح المعاداة للطائفة الإمامية و التي تصب أخيراً في تأزم المواقف ضد إيران.

⑥

◖ الفصل السادس ◗

و المُخابرات الأمريكيّةُ كانت هنالك



إسلوب المخابرات : و في سنة 1982 زارنا الشهيد السيد مهدي الحكيم[1] في سفرته السنوية لعلاج شبكية العين التي كان قد أجراها قبل سنوات و التي بالصدفة كان الدكتور (Dr. Diamond) الذي أجرى له تلك العملية في نفس الجامعة التي كنت أحضّر فيها شهادة الدكتوراه، و مع أن السيد الحكيم رحمه الله لم يكن يستعمل اسمه الصريح في تحركاته و علاجاته، و لكنه يبدو أن المخابرات الأمريكية كانت ترصد حركاته.

و بعد الزيارة تلك اتصلت بي المخابرات الأمريكية طالبة التحدث معي عن أمر مُهم -كما قالوا- يخص سلامتي أنا، و بما أنهم حريصون على توفير الأمان للجميع، و أنا من ضمنهم فإنهم يرغبون في ذلك اللقاء المستعجل، في تلك الفترة و في زحمة العمل و الدراسة كان هنالك أمر مهم عليّ القيام به ذلك هو السفر في الغد فجراً لحضور مظاهرة كبيرة أمام السفارة العراقية في و اشنطن العاصمة، ثم بعدها السفر إلى ولايات شرقية أخرى لإلقاء محاضرات في بعض الجامعات، و لذلك اعتذرت من تلبية الطلب و تأجيل

---

[1] السيد محمد مهدي الحكيم نجل الإمام السيد محسن الحكيم (قدس سره)، و لد عام (1353 هـ) في مدينة النجف الأشرف و توفي عام 1408 هـ كان الشهيد (قدس سره) مبدعاً في نشاطه و فعالياته و قد عرف بذلك منذ أيام شبابه، و لحماسه في العمل فقد كانت لديه علاقات و طيدة وعديدة مع العديد من الشخصيات الإسلامية في العراق و خارجه، و كان يهدف إلى تشكيل حركة إسلامية تحضر للثورة ضد نظام صدام حسين، بعد أن قرر أن يستقل في عمله السياسي عن الحركة التنظيمية الحزبية التي كان أحد مؤسسيها، حيث كان يمتلك رؤية براغماتية و اقعية في التعامل مع الواقع السياسي والاجتماعي، أرسله والده الإمام الحكيم قدس سره و كيلاً له في بغداد، فنشط في مناطق مختلفة من العاصمة، و كانت له برامج عديدة في أكثر مناطقها التي تحظى بأهمية خاصة في مجال العمل و النشاط الإسلامي. من الخطوات التي قام بها في تلك الفترة تأسيسه المراكز الدينية من قبيل الحسينيات و المساجد لتكون مراكز للتجمعات الإسلامية. كان عضواً فاعلاً في جماعة العلماء ببغداد و الكاظمية، و بسبب نشاطه الواسع و تأثيره في الأوساط الشعبية لفّق له النظام البعثي تهمة و اهية حول علاقة الشهيد بجهات أجنبية و أنه يتجسس لصالح تلك الجهات؛ فقام نظام صدام حسين بمصادرة أمواله المنقولة و غير المنقولة، و لوحق، و رصدت جائزة لمن يقدم معلومات تساعد في القبض عليه و قدرها (5.000) دينار عراقي أي ما يعادل في هذا اليوم سبعة عشر ألف دولار أمريكي!...و أخيراً و جاء اليوم الموعود في عام (1408 هـ) وفيما كان الشهيد السيد محمد مهدي الحكيم يشارك في المؤتمر الثاني للجبهة الوطنية الإسلامية في الخرطوم عاصمة السودان، و بعد انتهاء المؤتمر كان في طريقه إلى محل إقامته قامت عناصر من حزب البعث التابع للنظام الصدامي باغتياله فهوى صريعاً مضمّخاً بدماء الشهادة

الأمر لحين العودة، رجعت من سفري و أمضيت أسبوعين منشغلاً في الدراسة، ثم اتصلت به تلفونياً و كان المتكلم نفس الشخص، بل أجابني مباشرة و مرحباً بي بالاسم، مع أن تكنولوجيا ظهور الأرقام على الشاشة في جهاز المستلم لم تكن أنذاك معروفة.

و بعد الترحيب -أحدنا بالآخر- قررنا أن نلتقي في (كافتريا) الجامعة بعد أن فكرت كثيراً في تحديد المكان، و لتأكدي من أنهم على معرفة بصورتي و شكلي، فمن الأهمية بمكان أن تعرف كم من المعلومات يملكها عنك الجانب المخابراتي.

صباحاً قبل أن تبدأ المحاضرات بثلاثة أرباع الساعة لكي اختصر اللقاء بأقل و قت ممكن، و كان من المفترض أن نلتقي في الفناء الأمامي المواجه إلى الكافتريا، و أن نذهب معاً إلى الداخل، دخلت بناية الجامعة من الباب الآخر ثم و قفت بمسافة قصيرة عن مكان انتظارهم لكي أستوعب حركاتهم أو انفعالاتهم أو ربما إن كانوا فعلاً يعرفونني بالشكل ثم تمشيت من أمامهم مبدياً عدم اكتراثي، و بينما أنا أسير توجه أحدهم و كانا اثنين و صاح باسمي، فأدرت رأسي و صافحتهم، ابتسمت في وجههم لكي ألطف الأجواء ثم استدعيتهم إلى حيث تقع الكافتريا، ذهبنا و جلسنا و اخرجا كليهما هوياتهم للتعريف بأنهم من مكتب التحقيقات الفيدرالية ثم اعتذرا بأدب عن إزعاجي في هذه الفترة.

بدأ الرجل حديثة قائلاً: بأن أمن البلاد مهم، و بما إنك عراقي و معارض و معروف، لذلك فان لقاءنا هو فقط لكي تشعر أنك تعيش في أجواء الأمان فإذا كان هنالك من يهدد حياتك أو استقرار حريتك فما لك إلاّ أن تخبرنا، لكي نقوم بواجبنا لحمايتك، طبعاً هذا الأسلوب و هو كما يقال (الكليشة) التي يبدأ بها جميع رجال المخابرات في العالم.
قلت لهم: لا أبداً ليس هنالك من يزعجنا أو يهددنا و أنني أعيش ضمن حقوقي التي يضمنها لي القانون الأمريكي، مقارنة بالنظام الصدامي في إبداء الرأي و المظاهرات و الاعتصام، (و كنت أعني ما أقول)
فقالوا لي: هي هكذا دولتنا.
و بعد مجاملات عامة و كلام عن الوضع السياسي في العراق و نتائج الحرب، تحول الحديث إلى بيت القصيد الذي جاءا من أجله.
من نحن؟ و ما علاقتنا بإيران؟
هذان السؤالان المهمان اللذان يبحثان عنهما عناصر المخابرات الأمريكية.

لم يمضي أكثر من نصف ساعة من بداية اللقاء أخبرتهم: بأن عليّ أن أغادر إلى المحاضرة التي ستبدأ بعد ربع ساعة، فطلبا أن نتابع الحديث إذا كان هنالك متسع من الوقت لهذا اليوم، و دعتهما ثم غادرت إلى عملي، و بعد حوالي ساعتين نزلت ثانية أملاً في أن أتمكن من أن اكتشف بعضاً من المعلومات التي في حوزتهما عن قضيتنا.

و بعد الحديث القصير الذي تخلله بعض النكات و بعض التفكير (عن وضع العراق و أهلي و وضع (نيوأوليانز) المدينة و غيرها التفت أحدهما قائلاً و بصورة مثيرة: هل لك مشكلة مع الساكنين في الشقة التي تعلو شقتك؟ (يقصد حادثة البنتين اللعوبتن) استوعبت الصدمة باحتساء شيئ من الشاي، لكي أتمكن من التفكير، و بعد انتهائي من احتساء الجرعة قلت: إنها بنت جميلة.... و لكن كيف تجرأتم أن تضعوا لي هذه المصيدة، و أنا متزوج و لي طفلة و تعرفون عن عاداتنا نحن الشرقيين نرفض مثل هذه الأمور و هي غير مقبولة فضلاً عن التزامي تجاه ديني، و تجاه عائلتي....؟
أجاب الأخر: هذا هو نمط المتزوجين في أمريكا.
- قلت: ماذا تعني...؟
- قال: أعني أن الكثير منا نحن الرجال نعطي لأنفسنا الحرية لكي نتمتع في حياتنا بالصورة التي لا تؤثر على عوائلنا.
- فسألته: و لكن أخبروني بربكم هل لكم ضلع في تلك الحادثة.....؟ لأنني و لحد تلك اللحظة لم امتلك الثقة الكاملة بان تلك القضية هي من صنع المخابرات.
أجاب احدهما: أنظر سيد شبر، كما أنه يحق لك عدم الإجابة عن أي سؤال يطرح عليك من قبلنا، فلنا الحق في عدم الإجابة أيضاً عما نراه غير مناسب، ثم ضحك.
و لكنني لم أترك الأمر، بل و اصلت سؤالي لأحدهم قائلاً: أعتقد أنني رايتك في تلك الليلة.......؟ (مع أنني لم أره) ضحك، ثم سكت.
ثم سألت ثانية: هل هاتان البنتان اللعوبان لا زالتا في نفس الشقة......؟
- أجاب أحدهما: إذهب بنفسك و تأكد.
- قلت: و لكن هذه المصيدة ليست من قبيل فاتحة التعارف ما بين الأصدقاء (أعني ما بيني و بينهم)... ثم أضفت أرجو أن تبحثوا عن أفضل السبل للتعارف...[1]

---

[1] تأكدت بأن حادثة الموسيقى و الغناء و التلفون ما هي إلاّ محاولات للإيقاع بي في رذيلة الجنس لكي يتمكنوا من تحقيق عدة مآرب، أهمها هو استعمال هذه الورقة لتقديمي إلى

- سألني احدهما مباشرة قائلاً: أنت من مو اليد النجف....؟
- قلت نعم إنه في جواز سفري
- قال: ماذا تعرف عن أية الله الخميني (نطقها بالعربية بلكنة انكليزية)
- قلت: ماذا تعني؟... لا أعرف عنه أكثر مما نعرف كلنا
- قال: لا، ما هي علاقتك معه؟
- قلت: علاقة أي إنسان مع رجل عالم بالدين الإسلامي
- سألني: هل حادثته يوماً ما؟
- أجبت: بنعم
قام الرجل من كرسيه و بصورة محاولاً عدم اكتراثه بهذه المعلومة.
أعاد السؤال قائلاً: و كم مرة تحدثت معه؟
- و ماذا تعني بسؤالك.......؟ أنتم تسألون ما ليس هو في صلب الموضوع، لقد أخبرتموني بأن الوضع الأمني هو الذي يهمكم، و اجتماعنا كان لدراسة الأمر بهذا الإتجاه.
قال نفس الرجل: نعم.. نعم.. و لكن يا سيد شبر دعني أكن صريحاً معك..... صحت و بضحكة مسترسلاً قائلاً: (صريحاً معي.....) هذا ما أريد أن تكونا واضحين معي ثم أضفت: و ما دمتما ستكونان واضحين من الآن، فدعوني اشتري لكم مرة أخرى قدحاً من القهوة، ثم قمت و توجهت حيث تباع القهوة و جلبت ثلاث أكواب و قدمتها لهم.
ثم قلت مباشرة: الصراحة رجاءاً، فأجاب نفس الرجل:
- يا سيد شبر نحن نعلم عنك كذا.. و كذا، و بينما هو يتحدث كنت أراقب كل معلومة و بدقة هائلة، و أبحث عن مصدرها فيما إذا كانت من قبل السفارة العراقية أو من أصدقائنا المحيطين بنا أم أنهما وصلا إلى ذلك من خلال جهودهما....؟

و استمر الرجل يتحدث عن معلومات تخصني أنا شخصياً متعلقة بنشاطي السياسي في العراق و خارج العراق، و هذه المعلومات مع أنها ليست من النوع الذي يعتبر غنيمة مخابراتية خصوصاً السياسيين العراقيين، و لكن توفر هكذا معلومات ليس من السهولة الحصول عليها من قبل الأمريكان، فإذا

المحكمة خصوصاً إذا شهدت نفس البنت بأنني دخلت شقتها للاغتصاب. وعند ذلك ليس هنالك مخرج للتخلص من هذه التهمة التي تعتبر من الجرائم في القانون الأمريكي، فإذا حدث ذلك فإنهم عندئذ سوف يساومونني إما بالطرد من البلاد أو التعاون معهم، قلت في نفسي الحمد لله الذي عصمني من الزلل و التسديد بالترفع عن الموبقات

توفرت فان ذلك يعني وجود خط معلومات يربط ما بين العراقيين و بين الأمريكان في هذا الأمر.

كانت المعلومات التي قدمها فيها بعض الصحة، و لكن مع شكوك كثيرة وعدم ثقة في حاملها، لسبب بسيط و هو أن ناقل المعلومة حسب سياقات التسلسل هو المخابرات العراقية و السفارة بالذات، لأنّ المعلومات كانت تدور حول الجانب الأكاديمي و الجانب العائلي، و بقية المعلومات الكلاسيكية التي تملكها الدولة العراقية باعتباري مواطناً في العراق.
مثلاً إحدى معلوماتهم هو رقم الدار الذي كنا نسكنه في العراق في النجف، و هو نفس البيت الذي لازال مسجلاً لدى السلطات العراقية، و هو البيت القريب من مكان سكن الإمام الخميني آنذاك، بينما الربط الاصطناعي ما بين التوجه السياسي و بين التأييد الشخصي لم يكن موفقاً من قبل المصادر التي زودت المخابرات الأمريكية.

و حينما تحدثوا عن علاقاتي و وضعي في العراق و غيرها من الأمور التي تعكس عدد المرات التي اعتقلت بها في العراق، كانت المعلومات التي في حوزتهم صحيحة بنسبة تقترب إلى الخطأ أكثر منه إلى الصحيح، ثم بدء عنصر المخابرات يتحدث عن قضية لم أفهمها أبداً و كأنه يتحدث عن عالم أخر، و ذلك بأنني أرأس تنظيماً إسلامياً، قسم كبير من أفراده من السعودية، و القسم الآخر من بريطانيا، ثم بدأ يتكلم عن نقل أموال وغيرها في الوقت الذي لم يكن بهذه المعلومات أية صحة حتى 1% منها، و عندما كان يتحدث لم أنف أو أثبت ما قال و إنما كنت استمع و أحلل في ذهني ماذا يريد بالضبط أن يقول....؟

<u>مساحة الحركة الثورية في الفكر الإمامي:</u> و لكن الشيء الذي أثار انتباهي هو معلوماتهم عن علاقتي بتنظيم إسلامي عراقي ذلك هو (الدعوة) فالأمريكان في هذا الوقت لا يفهمون عن هذا الاسم في عالم التنظيمات العراقية الشيعية الإسلامية إلاّ الصورة السيئة السوداء كما هي صورة (القاعدة) مع الفرق في التشبيه ما بين الاثنين و ذلك بسبب ما أعلنته الحكومة الأمريكية في اعتبار الدعوة حزباً إرهابياً. و ذلك من خلال مهاجمته للمصالح البريطانية في العراق، و من ثم تفجيرات الكويت.[1]

---

[1] مع أن الدعوة لم تتبن رسميا أياً من تلك العمليات التي حدثت في الكويت و في بيروت في عام 1983

و ببساطة حاولت أن أقاطعه و لكنني فضلت أن يبقي كما هو على معلوماته المشوشة مع بعض التوضيحات التي أحببت أن أقولها له.

و لتغيير حالة النقاش قلت له: من فضلك يا سيد فلان إنني لست في موضع لأنّ أناقشك فيما قلته فلك الحق أن تعتقد ما تعتقده، و لعل مسؤوليك قد زودوك بهذه المعلومات التي مصدرها العراق بمخابراته، و أوصلها إلى مراكز المعلومات لأكبر و أقوى دولة في العالم و للأسف أقول لك بأنكم أذا بقيتم على هذه العفوية في التفكير تجاه الآخرين و بطريقة أفضل ما يمكن أن نقول عنها أنها ساذجة (Naive) فأنكم ستواجهون يوماً أحمراً في تعاملكم مع الشعوب العربية و الإسلامية ذلك إذا فكرتم أن تتعاملوا معها مستقبلاً، كنت أتحدث و أنا ممتلئ بالحيوية، و الثقة بالنفس.

ثم حولت وجهت حوارنا و قلت له: هل لك يا سيد فلان أن تخبرني ماذا تريد أن تعرف.......؟ أو ماذا تريد مني أن أعرف.......؟ هل تريدني أن أحفظ ما قلته لي ؟ أو انك تريد أن تعرف ماذا يجب أن يكون و ما هي الحقيقة........؟ اجبني يا سيد فلان بكلمات موجزه حتى نجد للحوار طريقاً هادئا، فوقتي ثمين و وقتكم أثمن دعونا نحدد ما نريد...؟

أجاب عنصر المخابرات الآخر و سألني: و أنت ماذا تريد أن تقول؟

قلت عظيم اسمعوني، و اعرفوا رأيي، و لكم الحق في أن تنقلوه إلى مسئوليكم من خلال جهاز التسجيل الذي ربما تحملانه ......!! و سأكون مسروراً إذا نقلتم آرائي إلى الآخرين من المسئولين الأمريكان ممن يعمل في هذه الجانب من القضية.

قلت له و قد وضعت يدي على كتفه: أنا رجل معارض للنظام الصدامي و سأبقى معارضاً، و سأواصل عملي حتى أرى بلدي و قد عادت إليه الديمقراطية التي نحلم بها منذ قرون من الزمن و التي راح ضحيتها آلاف من الناس و سفكت في طريقها دماء المفكرين و الوطنيين من أحرار العراق، ثم بدأت اشرح له ماذا عمل صدام بالشعب العراقي و بالمنطقة، ثم قلت له: أنا سعيد باللقاء لأنكم يجب أن تفهمون من نحن.... أيها السيد فلان: نحن معارضة عراقية، أنا عراقي الأصل و جميع أجدادي من المضحين العظام و ليس آخرهم هو شيخ الشهداء السيد قاسم شبر 91 سنة الذي عذبوه حتى الموت، و صعدت روحه إلى بارئها في سنه 1980.[1]

---

[1] الشهيد السيّد قاسم شبّر، ينتهي نسبه إلى الإمام زين العابدين (عليه السلام)، و قال البحَّاثة جعفر آل محبوبة : آل شبر أسرة عراقية قديمة في الهجرة، و كان مقرّها الأصلي في

و لم يحركنا في عملنا المعارض إلاّ الواقع الدكتاتوري للنظام القائم الآن في العراق، و نحن نعارض السياسة الأمريكية أيضاً لأنها تقف إلى جانب النظام الفاشي، و لأنكم تشاركون الآن في ذبح أطفالنا و سبي نسائنا و إبادة رجالنا و لا يصح لدولة عظمى لها هذا الباع الطويل في الديمقراطية من أن تخطو نحو هذا المطب الصعب، قاطعني قائلاً: و الخميني....؟
قلت له: حدد سؤالك....؟
قال: الخميني يريد أن يأخذ العراق هل توافقون على ذلك.....؟
ابتسمت ثم واصلت الهجوم المؤدب عليه و سألته: أسألك بربك هل تعتقد أنت الآن بما تقول..... ؟
قال: كل شيء جائز في عالم السياسية..
قلت له: لم تجب على سؤالي.....؟
سكت، ثم طلبت منه أن يتفهم ظروف المعارضة العراقية و أهدافها و تعقيداتها، و أن لا تكون المصادر لذلك الفهم هي منشورات أو إصدارات السفارة العراقية، و إنما لكم طرقكم الخاصة بفهم واقع تلك المعارضة، و أضفت: و تأكد أننا لسنا دعاة عنف و إنما نحن دعاة سلام و ديمقراطية و تأكد فأنني و جميع من يعمل ضمن المعارضة هم من الطلبة المجدين الذين لا تجد في تاريخ حياتهم أي جناية أو مخالفة قانونية.

سكت الرجل ثم قال: و لكنكم تريدون السوء لأمريكا.
سألته: كيف...؟
انظروا إلى كتبكم و أدبياتكم، وكل منشوراتكم، ثم أخرج بعضاً من إصداراتنا التي كنا نصدرها في أمريكا باللغة العربية، و قال: هذه هي كلها تهاجم السياسة الأمريكية و تهاجم الإدارة و تصفنا بالشيطان، فكيف لنا أن نؤمن جانبكم، و انتم تعيشون في بلدنا و تحملون عنا هذه النظرة السوداء...؟

الحلّة الفيحاء، و لم تزل بقيّتهم بها حتّى اليوم، و بها عرفت، و منها تفرَّعت، ولد السيّد شبر عام 1308 هـ بمدينة النجف الأشرف، في الأربعين من عمره انتقل إلى مدينة النعمانية بوكالة من السيّد أبي الحسن الموسوي الإصفهاني عام 1935 م، ثمّ أصبح وكيلاً للسيّد محسن الطباطبائي الحكيم بعد وفاة السيّد الأصفهاني، مؤلفاته:المؤمنون في القرآن، المنافقون في القران، شرح نهج البلاغة، تقريرات لبعض أساتذته في الفقه و الأُصول، استُشهد السيّد قاسم شبر (قدس سره) في السادس من شعبان 1399 هـ، بأمر الإعدام بالرصاص الذي أصدره الحاكم المجرم مسلم هادي الجبوري، هذا و لم يُعلم في أيِّ مكان دفن لعدم تسليم جثّته

حداثة فكر المعارضة العراقية: حاولت أن أجيب عن السؤال بشكل دبلوماسي فقلت له: إن كل ذلك هو للاستهلاك الإعلامي المحلي، ثم و ماذا تنتظر من شعب تعاونت دولتكم على تأصيل قتله و الانتقام منه...؟ هل تنتظر أن نقول لكم عملتم جيداً و صنعتم حسناً...؟
قال لي رأسا: إذن ما هي الحقيقة....؟ هل لك أن تقول لي ما هي نظرتكم للسياسة الأمريكية...؟
قلت له: دعني أخبرك عن نفسي فأنا لا يمكن لي إلاّ أن أنقل ما أؤمن به أنا، أما إذا أردت أن تعرف أراء التشكيلات و الأحزاب العراقية فتلك كتبها فاذهب و أفهم منها موقفها منكم.
أجاب: لماذا لا تخبرني بالحقيقة...؟
أجبت: الحقيقة....؟ ماذا تعني......؟ تعني إنني أمثل حركة المعارضة، و لا أريد أن أخبرك...؟ أو أنني أمثّل فصيلاً من فصائل المعارضة و أنا أخفي ذلك عنك...؟
أشار برأسه، و كأنه يريد أن يؤكد ذلك.
قلت له: أخبرك ثانية أنني معارض و مقاوم و عندما أريد أن أتكلم بما نؤمن به نحن في أمريكا في عملنا السياسي و الاجتماعي، نحن نرفض كل عون و مساندة مالية أو إعلامية أو سياسية أو أي شكل آخر من أشكال المساندة للنظام تقدمها الولايات المتحدة، و نحتج عليها أشد الاحتجاج، و إذا كان هنالك من أمل في محاسبة الإدارة الأمريكية أمام جهات دولية أو قضائية فإننا سنفعل، و نطالب كل القوى المحبة للسلام في الولايات المتحدة أن تتعاطف معنا، و أن تضغط على هذه الإدارة في وقف دعمها للنظام الصدامي الجائر، تحت أي مبرر و أي مسمى من المسميات السياسية أو غير السياسية، و إننا سوف نوصل هذه الرسالة إلى شعوبكم.

ثم أضفت: و لكي تجد الإدارة الأمريكية أصدقاء لها في الشرق الأوسط عليها أن تحسب حساباً للتاريخ، لأنّ المواقف الحالية التي تتخذها لمساندة صدام سوف تكون عائقاً في توطيد و تقوية أواصر الصداقة في المستقبل.

استمر الحديث لساعتين و أنا أحاول أن أنقل لهم صورة مختلفة عما يحملونها، و أن أوحي لهم بأن موقفهم من النظام الصدامي لن يخدم مصالحهم في الشرق الأوسط، بينما كان هذا الرجل يعكس تصوراً آخر، ألا و هو القبول بواقع السياسة الأمريكية الحالية و عدم الركض وراء ما يسميه (بمطامع الخميني).

وهكذا انتهت الجلسة بمصافحة بين الطرفين، ثم قلت له معاتباً مع ابتسامة صغيرة : إنه ليس من الشهامة و الاحترام أن تطرق باب شقتي، مع علمكم بعدم وجودي آنذاك، ضحك و قال: سوف نتعلم الأسلوب الشرقي، قلت أيضاً بسخرية: و لكنني لن أتعلم الأسلوب الغربي كالذي شاهدته مع تلك البنتين اللعوبتين، أجابني: لا تهتم بذلك ثم افترقنا.

عدت إلى البيت و مباشرة كتبت كل ما جرى بيننا، و تذكرت معلومة بسيطة كنت قد ذكرتها يوماً إلى رئيس القسم في أول يوم لوصولي إلى الولايات المتحدة في 5 سبتمبر 1979 عندما سألني من أي مدينة أنت في العراق قلت من النجف، و كان رئيس القسم هذا يهودياً ملتزماً دينياً، فقارن بين النقب في فلسطين المحتلة التي تسمى (بنجف) و بين (مدينة النجف الأشرف) في العراق، ثم قال لي لعلك تعرف أن (آية الله) كان هنالك، أم انه لا علم لك بالأمر...؟ قلت له نعم أعرف ذلك فأنا من عائلة دينية و نحن نحترم رجال الدين و الإمام الخميني كان أحد أولئك العلماء، فعرفت أن هذه المعلومة قد نقلت إلى مكتب التحقيقات الفيدرالية.
و عندما سألني عن علاقتي بالسيد الخميني أراد أن يسمع نفس الكلام و لكنني لم أربط ما بين المادتين إلاّ بعد أن غادرت، و كان عليّ أن أوثق كلامي معه و أن لا أبين له بأنني أراوغ في الكلام، و أدركت أن زرع الثقة في نفوس الآخرين حتى الأعداء هو أمر مهم و ضروري في حياة السياسي أو الداعية صاحب المبدأ.

⑦

◖ الفصل السابع ◗

عضُّ الأصابع
العُنصُّر النسائي... و الوالدة



أكثر من مشكلة و أقل من حل: في صيف 1983 اشتدت الأزمة بيني و بين السفارة العراقية وعملائها في الولايات المتحدة، فاتصلوا بي يطلبون مني الرجوع إلى العراق و إلاّ فإن الجامعة ستوقف المساعدة المالية بشكل كلي. و هذا فعلاً ما حصل، و صرت أعاني العوز، فانشغالي بالدراسة بالصورة المستمرة، بالإضافة إلى عملي السياسي و صرامة القانون الأمريكي الذي يمنع الطالب من العمل أثناء دراسته جعلني أواجه وضعاً صعباً، و لم أكن قد تعودت أن أطلب المساعدة من أحد في مختلف مراحل حياتي، و لم أكن أبالي بما سيحدث غداً.

و مع الوقت لم أعد قادراً على دفع أجور الشقة التي أسكن فيها و هي بناء تابع للجامعة فأنذروني بالإخلاء خلال شهر (تقع البناية في شارع رئيسي (Claiborne Ave. South
وبعد جهد وجدت ما يشبه البيت...[1]

و في نفس الوقت ازدادت المسؤوليات و الاهتمامات تجاه القضية العراقية عندما تسربت أنباء عن إحتمال أن تقوم الولايات المتحدة باستبدال صدام ضمن خطة انقلاب يقودها بعثيون من داخل العراق، و كان رد الفعل القوي لصدام إذ قام بعمليات القتل و الذبح بصورة أبشع مما في السابق، و استباح الكثير من أحرار العراق في حملات منظمة دقيقة شملت مناطق كثيرة و من ضمنها المنطقة الغربية التي كان صدام يعتمد عليها في الجهاز المخابراتي.

و كانت كما أعتقد الحملة التي اقترنت بالدعاية التي تسربت، التي كنت لا أرى فيها من الصحة شيئاً، و إنما هي توجهات مخابراتية عراقية لإيجاد الذريعة للمزيد من القتل، و ممن يعارض الحرب مع إيران، و عدم جدواها في المنطقة، و لكن الخبر الذي ساقته (جريدة نيويورك تايمس) حول وجود توجه لدى البعض من أن يتحول صدام إلى رئيس، و أن تعطى السلطة التنفيذية إلى برلمان منتخب، و ربما كان كل ذلك من باب التمني، لا من باب

---

[1] كان بيتاً صغيراً يقع في مؤخرة قطعة أرض، و كان مكونا من قطع خشبية محمولة على أعمدة كونكرتية لتجنب الفيضانات التي كانت تضرب تلك المدينة، كان ذلك البيت في الصيف حاراً جداً و في الشتاء بارداً جداً لا تنفع معه في الصيف مروحة و لا في الشتاء مدفأة، خالياً من أي نوع من أنواع العوازل (insulation) و هكذا كان قراري استئجاره لعدة أسباب منها إمكانية استعمال الدراجة للتنقل. فهو يبعد عن الجامعة أربعة كيلو مترات تقريباً، سكنت في هذا البيت و تمكنت من أن أوفر شيئاً من الإيجار و أن استعين بكوبونات الغذاء لطعامنا، يقع البيت في شارع Neily St.

الواقعية، أو التخطيط له من قبل المخابرات العالمية، فاستبدال صدام كان قراراً لم تفكر به الإدارة الأمريكية في ذلك الوقت، لأنه الرجل الوحيد القوي للوقوف ضد إيران و ضد ما يسمونها (المطامع الإيرانية) في الخليج، كما أنه الوحيد القادر على ضبط المنطقة و تخويف البقية من القادة العرب في التحول نحو الغزل مع السوفيت.

اعتقال العائلة: في ذات الوقت وصلني خبر اعتقال أخوين لي: السيد حامد و السيد زيد، ثم بعدها بشهر إعتقال والدي الذي كان أنذاك يناهز 79 سنة من العمر، و في أقل من ستة أشهر سمعت أنهم جاؤوا إلى البيت و اعتقلوا والدتي العجوز، ثم أرسلوا على ثلاث أخوات لي للتحقيق معهن...[1] و لم يسلم منهم عائلة زوجتي فاعتقلوا والدها ورموه في سجونهم المظلمة.[2] فكرت ملياً بالأمر و كم آلمني و أدمى قلبي أن لا أرى عائلتي بعد ذلك إذا قدر لي الله وعدت إلى العراق في يوم من الأيام، ماذا عساي أن افعل، و أنا أرى أفراد عائلتي مشتتين هنا وهناك و والدي يتعذب في غياهب السجون البعثية، كم كان كل ذلك صعباً و أنا في بلاد الغربة بعيداً عن عائلتي وأخواني و أحبائي[3]

كنت دائماً أفكر بعمل ما للتخلص من كابوس ذلك النظام الجائر الذي انفرد من بين أنظمة العالم في طغيانه و ظلمه و شدة بطشه، التي كانت الى أبعد من حدود العراق، و حتى حدود التاريخ، فقد أخّر هذا النظام الكثير من المشاريع الإنسانية في البلدان المحيطة بالعراق فهو لا يظلم و يقتل العراقيين فحسب، بل تعدى طغيانه البلدان التي تحيط به يحارب و يلاحق الأفكار البناءة في كل مكان و يهدم كل ما هو إنساني و ثقافي، و يؤصّل حالات الدكتاتوريات في المنطقة، في الوقت الذي امتلك هذا النظام قدراً هائلاً من أموال و مصادر و قدرات وجهها نحو الشر و نحو إذكاء روح الرذيلة، فقد أنشأ جهازاً ضخماً

---

[1] زيد مواليد 1952 خريج المستنصرية، و حامد مواليد 1954 طالب في المعهد التكنولوجي، الأول فُقد بظروف غامضة، و الآخر قاد المقاومة العراقية إلى حين استشهاده، أما الأخوات الثلاث فقد اعتقلن كلهن البعض منهن مع أبنائهن و قد أصدرت مؤسسة السجناء السياسيين قراراً يوثق ذلك

[2] وهو المربي المعروف الأستاذ المرحوم عبد الله العبيدي مدير مدرسة العرفان في الكرادة الشرقية

[3] الشهيد الوالد السيد جواد شبر مواليد 1909 خطيب كبير من علماء الطائفة الإمامية و مؤلف له أكثر من عشرة كتب و يمكن مراجعة ترجمته في الكثير من الدوريات العلمية و الأدبية و خصوصاً معجم الخطباء للسيد داخل الحسن

من أسلحة الدمار الشامل الجرثومية و الكيماوية و البيولوجية بالإضافة إلى النووية.
لقد وجه النظام أبناء العراق و مثقفيه من الشباب نحو الاكتشافات و البحوث التي كانت تصب في تدمير الإنسانية. فالمؤسسات العلمية و الجامعات و عقول الناشطين من الطلبة وجهت نحو اكتشاف ما هو من شأنه تدمير البشر كمؤسسة (الحسن ابن الهيثم) و غيرها.

إن ما قالته الأمم المتحدة بخلو العراق من أسلحة الدمار فهو قرار فيه الكثير من الإجحاف لأبناء العراق و لشعبه، فليس هنالك من عاقل لم يعرف أو يسمع (بحلبجة)[1] أو الأهوار أو غيرها من المدن التي استعمل النظام معها تلك الأسلحة المحرمة، فأين ذهبت تلك الترسانة الهائلة من الأسلحة التي كان يملكها النظام....؟ و أين صارت الأسلحة النووية التي كان يعدها النظام منذ السبعينيات في مراكز الطاقة الذرية....؟ و هل يعقل بأن ذلك جاء عبثاً.......؟
إننا نعتقد بأن النظام البعثي قد سرب كل تلك الأسلحة أو باعها إلى إحدى دول الجوار، و ربما تكون السعودية هي الأقرب إلى ذلك بدلائل لا مجال لحصرها في هذه المقالات.

كذلك استفاد صدام من واقع الحكام الجدد في القرن العشرين، كدكتاتور ألمانيا الشرقية الذي كانت تربطه علاقات قوية مع نظامه، كذلك نظام (سوموزا في نيكاراغوا)، و نظام (بينوشيت في التشيلي) و أنظمة أخرى في مناطقنا العربية الإسلامية. و قد كان صدام قد شكّل لجاناً متنوعة تقدم دراسات اجتماعية، و نفسية من خلال قراءة تجارب السنين الماضية. و هو ما مكنه من السيطرة على الكثير من مقومات إدارة ما حوله، و التلاعب بالمجتمع

---

(1) الهجوم الكيماوي على حلبجة) بالكردية :كيمیابارانی هەڵەبجە *Kîmyabarana* (*Helebce*هو هجوم حدث في الأيام الأخيرة للحرب العراقية ـ الإيرانية، حيث كانت مدينة حلبجة محتلة من قبل الجيش الإيراني، وعندما تقدم إليها الجيش العراقي تراجع الإيرانيون إلى الخلف، و قام الجيش العراقي قبل دخولها بقصفها بغاز السيانيد، مما أدى إلى مقتل أكثر من 5500 من الأكراد العراقيين من أهالي المدينة. إدعى العراق أن الهجوم قامت به القوات الإيرانية على السكان الأكراد ببلدة حلبجة الكردية، قامت القوات بالهجوم الكيميائي في آخر أيام حرب الخليج الأولى بين العراق وإيران، من 16-17 مارس 1988. قُتل من سكان البلدة فوراً 3200-5000 وأصيب منهم 7000-10000 كان أغلبهم مدنيين، و قد مات ألاف من سكان البلدة في السنة التي تلت من المضاعفات الصحية و الأمراض و العيوب الخلقية .كانت الهجمة التي تعرّف أحياناً بـ(الإبادة جماعية)، أكبر هجمة كيماوية وُجّهت ضد سكان مدنيين عراقيين و هم الأكراد حتى اليوم، و هو أمر يتفق مع وصف الإبادة الجماعية في القانون الدولي التي يجب أن تكون موجهة ضد جماعة، أو عرق بعينه بقصد الانتقام أو العقوبة.

كيفما شاء و متى ما شاء... و لولا خطأه الكبير في غزو الكويت سنة 1990 و إثارة الرأي العام العالمي ضده، لتمكن صدام في العشرين السنة التي تلت الغزو من أن يبني جهازاً عالمياً متطوراً و بمساعدة الولايات المتحدة و دول الغرب الأخرى، هدفه أن يتحول هذا الرجل إلى ملجأ تلجأ إليه دول العالم فيما إذا حدثت مشكلة داخلية في تلك الدول، كما هو الحال في القدرات الإسرائيلية و التقنية و التي تستفيد منها دول العالم إذا تغيرت الظروف و قلّت الحيل.

⑧

◗ الفصل الثامن ◖

ألنظام الفرديّ



خيارات المعارضة و قدمها: تبادر إلى ذهني و أنا في الولايات المتحدة الأمريكية أن أوجه كل طاقتي للتخلص من نظام صدام حسين بطريقة تقترب أو تبتعد عن عمليات لعبة المصالح، و قد ناقشت هذه الفكرة مع عدد ممن يتفقون معي بالرأي من زعماء المعارضة باختلاف أطيافها و من ضمنها الشهيد السيد مهدي الحكيم، و كان السيد الحكيم يرى أن عملية التخلص من النظام ليست بالعملية المستحيلة التي لا يمكن تحقيقها، و كان يستند في رأيه على أن ضعف النظام يأتي من الفردية المطلقة لشخصية صدام.

و عندما يتم إضعاف أو قتل تلك الشخصية فإن النظام برمته يتساقط و يهوى، هذه الفرضية بالتأكيد تقبل الوجهين وجهة النظر التي تقول بإمكانية التغيير بعد إقناع شخصية واحده فقط، تلك هي صدام حسين، أما من خلال هذه الطريقة أو تلك، لأنّ تغيير عقلية الفرد الواحد أسهل كثيراً من تغيير نظام و دستور و قانون، و لذلك سلك البعض من أطياف المعارضة العراقية الطريق هذا و فتح حواراً مباشراً مع صدام بالذات أو ربما مع أركان حكمه، و لكن المعارضة بجسمها الكبير كانت ترى في الرأي الثاني مهزلة أو ضياعاً للوقت بعد أن قطعت في المواجهة شوطاً طويلاً مملوءاً بالدماء و الآهات، فمن الصعوبة أن تفكر في الطريق الثاني، لأنه من العجز عن تفكير رموز المعارضة تصوره فضلاً عن التفكير به.

و لكن أين يكمن الخطر في هذه الفرضية فرضية الديكتاتور الأوحد.....؟ يكمن الخطر في أن تلك الشخصية شخصية صدام قد خلقت شخصيات أخرى ارتبطت حياتها و مصالحها ببقاء النظام. فهي تتصرف كما يتصرف صدام تماماً. فإذا ما سقط رأس النظام فليس من الضرورة أن تتساقط تلك الأسماء الصدامية الصغيرة، و لكن السيد الحكيم كان يرى أن ذلك ممكن حدوثه في يوم من الأيام، و أن الأمر متعلقاً كلياً بالتخلص من شخصية الصنم!

أما أطراف المعارضة العراقية في الخارج في إيران و سوريا و الغرب فإنها كانت ترى أن تكاتف و قوة المعارضة كفيلة بتغييرالنظام حتى و لو كان ذلك على المدى الطويل جداً، و ليس هنالك من سبيل لإسقاط النظام إلاّ الانتظار، ربما السلبي في عمومه بدلالة غياب المشروع الواقعي لإسقاط رأس النظام، فلم أر من خطة أو برنامج من قبل قوى المعارضة العراقية لإسقاط النظام، أو التفكير بإسقاطه على مدى السنين المقبلة، و كان الرهان كما ذكرت هو التغيرات الدولية، بالإضافة إلى نظرية المؤامرة و اختلاف المصالح مما يستدعي إزالة النظام كما كان الحال في العصور السالفة و في الخمسينيات من القرن الفائت، و قد كانت المعارضة أيضاً ترى أن هذا النظام ما هو إلاّ

كتلة كبيرة من الضعف تساندها الولايات المتحدة الأمريكية بكل ثقلها، و تتبعها دول المنطقة و أن إزالة نظام صدام لا يؤثر على مجرى الأحداث، لأنّ الولايات المتحدة هي التي تملك مفاتيح الحكم، و يفسرون ظاهرة المناوشات و الاختلافات ما بين الطرفين على إنها لعبة لكسب الوقت ضد الشعب العراقي و هي تماماً بهذا المفهوم تطبق نظرية المؤامرة السفسطائية بمجمل تفاصيلها.

و من الطريف أن نذكر بأن هذه النظرية لازالت هي السائدة في أوساط الكثير من زعماء المعارضة و حتى بعد إزالة صدام من الحكم، إذ يبدو بأن معظم أولئك الذين كانوا قد بنوا معظم تصوراتهم على هذا الجانب يجدون صعوبة في أن يغيّروا أساسيات أفكارهم، و بما تحمله هذه النقطة في مفهوم نظرية المؤامرة، و هذا جانب سيكولوجي ممكن أن نلحظ الكثير من حملة تلك الأفكار في العالم يعتز أصحابها بمفردات فكره، و يدافع عن تلك المفردات بشكل قوي.

أما رأيي الشخصي فكنت دائماً أعتقد إن إمكانية إزالة صدام من قبل القوى الكبرى مثل الولايات المتحدة الأمريكية على سبيل الفرض هو خيار جيد ممكن حدوثه و لكن الدول العظمى مثل أمريكا كدولة براغماتية ليس من مصلحتها القضاء على دولة معترف بها دولياً، و لها مقعد في الأمم المتحدة. و ربما تختلف معها في بعض المصالح، و لكنها تتفق في مساحات كثيرة من العمل السياسي، و في النظرة الدولية لمساحات المبادلة النفعية، و لذلك فإن الولايات المتحدة -جدلا- لو فكرت في إزالة نظام، أي نظام فإنها تحسب حساباً للربح و الخسارة من منطقها هي، لا من منطق المعارضة، فإذا اقتنعت بالفكرة و هو أمر صعب جداً في حالة مثل حالة النظام العراقي، فإن عملية إزالة تلك الشخصية لها مخارج متنوعة، و مختلفة يمكن تحقيقها على المستوى العام، و أهم مستلزمات تحقق هذا الهدف هو أن تكون هنالك رؤية واضحة للمستقبل المقبل، مستقبل من يحكم البلد..؟ الولايات المتحدة لو فكرت في إزالة النظام مع تشكيكي بإقدامها على هذا الأمر فإنها سوف تأتي بنظام بعثي لا يختلف كلياً عن الشكل الصدامي، و كل ما سوف تعمله هو إجراء عملية تجميلية على وجه النظام، بل من الممكن فانه ليس بالضرورة أن يكون بإزالة صدام، و إنما ربما إقناعه بأن يتحول إلى رمز لرئاسة البلد، و يدار العراق من قبل مجلس برلماني شكلي.(النموذج السوفيتي بعد اسقاطه)
و هنا تكمن النقطة المهمة في أن تلك القوى الكبرى التي افترضناها (الولايات المتحدة) التي التقت مصلحتها نظرياً مع مصلحة المعارضة

العراقية، فإن عليها أن تتفهم واقع المعارضة في الداخل من خلال علاقات سياسية مع معرفة كاملة بأهداف تلك المعارضة، و برنامجها العملي في إدارة البلاد، و النظرة الواقعية للتعامل مع متغيرات ما بعد التغيير، و لكنني أنذاك لم أكن متفائلاً بهذا الشأن، أقصد مسار الحوار ما بين المعارضة و الدول الكبرى و خصوصاً أمريكا.
في الوقت الذي كانت كل أدبيات الحركات الإسلامية و غير الإسلامية تعلن موقف العداء من أمريكا، و اتهام النظام بأنه صنيعة استعمارية أمريكية لضرب الحركات الدينية التغييرية، بسبب الحقد الصليبي المتأصل في كيان أمريكا و الغرب، هذا رأي المعارضة الإسلامية ربما بكل أطيافها و هو ما تصرح به أدبياتهم و أفكارهم، وهو بالتأكيد رأي لا أتفق معه، و لا أرى فيه من الواقعية من شيء، بل إنه تراث قديم و أفكار قديمة، قدمها ربما تعود إلى القرن الثامن عشر.
كنت أرى أن التصور هذا قد لا يخدم المصلحة و الهدف الكبير الذي تسعى إليه المعارضة بأي شكل من الأشكال، بل كان يتوجب أن تكون هنالك قنوات متنوعة من العلاقات مع كل الأطراف، و إبقاء تلك القنوات مفتوحة دوماً لكل مستحدث جديد قد يطرأ على الساحة، و أن معاداة أمريكا المطلق أمر لا يعبر عن واقع سياسي ناضج، بل إنه نابع من خلفيات إيديولوجية غير واقعية.

هذا التصور غير المتوازن للمعارضة العراقية في الفهم السياسي للواقع العراقي في السياسة الامريكية كان قاصراً، و ربما كان إرثاً استورثته التشكيلات العراقية من جراء حالة القمع السياسي، و قلة الاطلاع على مجريات التغيرات في العالم.
إنني أرى من منطلقي أنذاك و من منطلقي الآن، و فيما بعد التحرير أن القراءة الواعية للأحداث السياسية يجب أن تكون بعيدة عن المفاهيم الأصولية المثالية الفكرية، بل يجب على كل الأطراف السياسية أن يتفهم أحدهما الآخر، سواء أكان ذلك الآخر عدواً أم صديقاً أو ما بينهما، لأنّ معرفة الآخر مهم جداً، فإذا كان عدواً فعليك أن تعرف عدوك، و إن كان صديقاً فالأحرى أن تعرف دواخل نفسه، و إن كان ما بينهما عليك أن تحاول أن تكسب صداقته بمعرفة أفكاره.

تحفظي على الوجودات العراقية إسلامييها أو غيرها في امتناعها من الدخول في باب الحوار مع الولايات المتحدة، أو مع غيرها من الدول الكبرى، أو الدول الأخرى التي لها مصالح مع القضية العراقية، و دعوتي للحوار لا تعني أن يدخل في صداقة معهم، و إنما أدعو إلى معرفة المقابل، و لا يمكن

معرفة الإنسان إلاّ بالحوار و تبادل الآراء و تناقل المعلومات، أما القطيعة فإنها موقف سياسي غير ناضج.

إن زعماء المعارضة العراقية بشتى أطيافها كانت ترفض أي حديث -أنذاك- عن لغة التفاهم مع الولايات المتحدة، حتى و إن كانت تلك اللغة للمجاملات، كما أنه من الناحية الأخرى فإن الولايات المتحدة كانت على علم بذلك، و لذلك فليس هنالك من أمل في خوض هذا الموضوع أبداً، ما دامت الأدوات التفعيلية غير متوفرة، والآلية الفعلية و الإرادة الفكرية مفقودة، و كانت الولايات المتحدة و كما سأذكر لاحقاً ترى بأن المواقف التي تتخذها المعارضة و خصوصاً الإسلامية منها يعوزها الكثير من النضج السياسي، بل إنها ربما كانت تعتقد بأنها أسيرة الدولتين سوريا و إيران.

<u>تركيبة السياسة الأمريكية أو المانوفيست</u>: إن الولايات المتحدة الأمريكية بالذات دولة ينبغي على العراقيين أن يفهموا تركيبها السياسي و الاقتصادي، و أن يطلعوا على مراحل صناعة القرار، و هذه الوجوبية التي أقول بها تنطلق من احتمالين: الإحتمال الأول: هو أن الذين يؤمنون بنظرية المؤامرة، و الذين يرون في الولايات المتحدة الأمريكية عدواً فكرياً للعراق و للمنطقة و للإسلام عموماً يتطلب منهم ذلك منطقاً عقلياً كي يفهموا عدوهم على حقيقته و ذلك من خلال اطلاعهم على نظامه و على أسسه و ساسته، أما أولئك الذين لا يتخذون من نظرية المؤامرة مبدءاً لهم في تقييم الدول العظمى، فعليهم أيضاً أن يتعرفوا عليها لكي يتمكنوا من فتح قنوات الحوار، لنيل أكبر قدر ممكن من أهدافهم المنشودة.

و في الحالتين، و الولايات المتحدة اليوم و بكل ثقلها و وجودها في داخل العراق. علينا أن نتعرف أكثر و أكثر على واقع هذه الدولة الكبيرة، و أن نتعرف على عملية صناعة القرار السياسي فيها و هذا لا يمكن تحقيقه إذا لم ننظر إلى تلك الدولة بمنظار آخر غير المنظار الذي تعودنا وضعه أمام أعيننا و تفكيرنا، لأننا عشنا و منذ -ربما- أواسط القرن الماضي بالحساسية و البغض لهذه الدولة، مع عدم التفكير بإمكانية التغيرات السياسية التي من الممكن أن تحدث في العالم، و في مصالح الدول، فالعدو ينظر دائماً للجانب السيئ من ممارسات عدوه و يخفي ما أمكنه من محاسن تلك الدول لتشويه الصورة. فمثلاً كتاب (لعبة الأمم)، و كتاب (من يجرؤ على الكلام) أو كتاب (حكومة العالم الخفية) فهذه الكتب لا تعبر عن حقيقة النظام الأمريكي، بل ربما تعبّر عن جزء من الحقيقة و في زمن من الأزمنة، و لكنها لا تنقلها صحيحة كلها.

التجرد السياسي: و إنني إذ أنقل رأيي، أتمنى من القارئ الكريم أن لا يتبادر إلى ذهنه بأنني لا أتفق كلياً مع مبادئ أعداء الولايات المتحدة في مواقفهم، و إنما أقول أنه من مصلحتنا -نحن العراقيين- أن نطلع على أدبيات سياسة و استراتيجية الولايات المتحدة التي تبدو واضحة بعض الشيء لنا و ذلك من خلال دراستنا لواقعها، و طريقة تعاملها مع أحداث بلدان العالم من حولها بما هي عامة، لا بما هي خاصة، على شرط أن تكون تلك الدراسة دراسة محايدة، و منطلقة من الفهم المصطلحي البراغماتي لتلك الدولة، لا المبدأ الفكري أو الثيولوجي أو الأصولي الذي قد نؤمن به فيما يتعلق برؤيتنا للأشياء و لحركة الدولة.

هذه الدولة الكبرى، و الآن انقل رأيهم و ليس بالضرورة أن أتفق مع ما يقولونه كلياً) تعتقد أن الثورة الأمريكية بدأت في القرن السابع عشر، وهذه الثورة التي تسير بنظام ديمقراطي تعددي، و هي لا زالت في مسيرتها نحو إشاعة مفاهيم الديمقراطية و الحرية الأمريكية إلى إقرار نظام الحكم فيها، إن مفكري هذه الدولة يرون أن النظام القائم فعلاً هو من أقل أنظمة العالم سوءاً، و هو نظام أثبت قدرته على الإبداع العلمي، و على تأمين الراحة و الرفاهية للإنسان، و لذلك فالمصلحة الكبرى للولايات المتحدة هي تطبيق الديمقراطية ضمن النظام الحر الاقتصادي الرأسمالي، و هو ما ينعكس بالتالي على مجمل الاقتصاد في العالم الذي سيكون المستفيد الأكبر فيه هو الدولة العظمى، باعتبارها الدولة التي تملك وسائل الإنتاج التكنولوجية و غير التكنولوجية.

و ترى هذه الدولة أيضاً بأن الدين يجب أن ينفصل عن السياسة و هذا لا يعني -في عرفهم- التقليل من أهمية الدين، و إنما احترام الدين، باعتبار أن مبادئ السماء جاءت لتهذيب الرذائل في داخل نفس الإنسان، و الذي ينعكس بالتالي على إنتاجية وطن خال من الجرائم، و مواطن يخدم البلد بطاقته العلمية التي توفرها له الدولة.

و يرى أولئك الذين يلتزمون خط الثورة الأمريكية أن هنالك واجباً أخلاقياً ملقى على عاتقهم، يدعوهم إلى نصرة الشعوب الأخرى التي ترزح تحت حكومات تغيب عنها مبادئ تمثيل الفرد في الحياة السياسية و الاجتماعية.... كما يقولون أيضاً بأن الديمقراطية التي سوف تطبق في تلك الدول سوف تفتح لهم أسواقاً تجارية هائلة تعود بالنفع على الطرفين، فالطرف الأمريكي يستفيد من جانب التصريف و العائدات، ثم اكتشاف أعلى التقنيات لتوفير سعادة الإنسان، و في الدول المتأخرة ستكون الاستفادة من كل خبرات التكنولوجيا و خبرات الاكتشافات، بالإضافة إلى الفائض الهائل من الغذاء الذي تزخر به

الولايات المتحدة، و الذي سيصل إليهم حتى يعتمدوا على وضعهم و حالهم في تسيير أمور حياتهم .

وعندما نسأل أولئك الأمريكان أصحاب تلك النظرية، عن أسباب مساندتهم للدكتاتوريات في العالم كنظام (الشاه) و نظام (بنيوشت) و (سوموزا) و (صدام) و دكتاتوريات العالم العربي، يجيبون بكل بساطة: أن ذلك كان أيام الحرب الباردة عندما كان الاتحاد السوفيتي قوة كبرى منافسة لنا.

و عندما نتحدث معهم عن المبدأ فأنهم يرون أن المبدأ يسير مع حاجة الإنسان، و حاجة الإنسان هي الأساس الذي ننطلق منها لتكوين سياستنا[1] و عندما تثار تساؤلات إرتفاع حالات القتل و الإجرام في داخل الولايات المتحدة، و من ثم العلاقات و حركات الشذوذ و غيرها، فيجيبون: بأن هذا هو الخيار الذي اختاره البعض من الناس، فإن كان ذلك مضراً و سيئاً لهم فهم الذين سيتضررون بالنهاية، بغض النظر عن انتمائهم أو دينهم، و إن كان ذلك مفيداً لهم فأنهم سيجنون ثماره من خلال عملهم هم فقط لا عمل الآخرين.

و لذلك فان الولايات المتحدة الأمريكية، و لكي ترفع من قدرات أفرادها على حسن الاختيار تشجع الجميع على مواصلة طلب العلم في الجامعات، و المعاهد و مراكز التأهيل الأخرى التي تثري تفكير الإنسان و تغنيه، كما و يرى المفكرون الأمريكان بأن سعادة المجتمع مبنية على المعرفة و العلم، و إن التناسب الطردي ما بين الرخاء الاجتماعي و العلمي و الاقتصادي و بين المعرفة قضية محسومة في كل تاريخ البشرية.

<u>اليهود العقبة الكأداء لهم و لنا و للعالم</u>: و لكن السؤال الكبير هو هل إن الخلفيّة الفكرية للولايات المتحدة الأمريكية نابعة من الجذور الرئيسة للمسيحية و اليهودية ؟
و الجواب عن هذا السؤال هو بنعم، لأنّ معظم سكنة هذه الدولة هم من المسيحيين أولاً، و من اليهود حيث تختلط مفاهيم الديانتين بشكل كبير، و لكن هذا التأثير لا يختلف في مبادئه كثيراً عن تعاليم الإسلام، فالأديان الثلاثة متفقة على الكثير من أساسيات تربية الإنسان في الصدق و العدل، و إنصاف الآخر و الإبتعاد عن الجريمة و مساعدة الضعفاء و مجانبة الزنا و الخمر و

---

[1] (الديمقراطية في أمريكا)، الكسيس دي توكفيل، إصدار عالم الكتب 2004

الرذائل، و الجميع أيضاً يتفق على يوم الميعاد يوم يحشر الناس، و لكن الفرق الجوهري في الإسلام كنظرية و أؤكد كنظرية فإنه يرى أن الجانب السياسي يجب أن يقع تحت طائلة القانون الديني (لا أدري إن كان كل المسلمين يتفقون على هذه الرؤية أو لا، و لا أدري فيما إذا كانت الحركات العراقية الأيديولوجية تؤمن بهذا المنحى القانوني أو لا)[1] بينما يرى المسيحيون و اليهود أن السياسة متغيرة بتغير الظروف و الدين ثابت منذ الأزل، فلا يمكن أن يحكم الثابت المتغير.

أما السؤال الكبير الذي يشغل عقول مجتمعاتنا العربية، و المتعلقة بالسيطرة الإسرائيلية زمام ذلك القرار الأمريكي، الذي يفهم البعض بأنه تعاطف ديني مع إسرائيل باعتبارها دولة يهودية، و أن ذلك نابع من عداوة اليهود للمسلمين مثل المذابح التي جرت في فلسطين و تجري الآن إلاّ تفسيراً و تعبيراً لحالة التوافق بين الفكرين المسيحي و اليهودي للانتقام من المسلمين، هذا السؤال عندما نوجهه إلى الساسة الأمريكان، أو إلى أي رجل عادي فإنه يجيبك بشيء من الاستياء و التأسف، عندما أصبح القرار الأمريكي أسيراً بيد الإسرائيلي، و يفسرون ذلك بالقدرات الهائلة لليهود التي سيطرت خلال السنين الماضية على معظم المرافق الأمريكية السياسية و التجارية، و صار اليهود جزاءاً مهماً من السياسة الأمريكية و من المجتمع الأمريكي أيضاً، و لا يمكن التخلص من وجودهم القوي هذا بسبب إمساكهم بخيوط القوى في المجتمع ككل، ثم يقولون أيضاً: بأن صاحب النفوذ هو الذي يقرر، و القضية ليست قضية أديان و إنما قضية نفوذ.

فالواقع اليوم هو أن هنالك قوى يهودية تمسك بزمام المال و السياسة و الإعلام. و من يملك زمام ذلك فان الدولة تنصاع له. و هذا ما حدث بالفعل للولايات المتحدة الأمريكية التي -كما اعتقد- أنها الشغل الشاغل اليوم للمواطن الأمريكي و للقادة الأمريكان، فالمواطن يتحدث دوماً عن هذه السيطرة، و يرفضها و يريد الإنعتاق و التخلص منها، ويكن الكره لأولئك

---

[1] الإمامية مختلفون في شرعية الفكرة ما عدى قلائل من الفقهاء منهم: صاحب نظرية ولاية الفقيه الإمام الخميني، و منهم ربما شخص أو شخصان آخران لم أطلّع على أدبياتهم و لكنهم ليسوا من المراجع، أما غير الإمامية من الجمهور فليس هنالك من يرى ذلك الرأي و إنما ينظرون له من باب الإستحسان و ليس الواجب، الزيدية و الخوارج لا يختلفون عن الرأي العام للجمهور

الذين يفرضون سيطرتهم سواءاً كانوا من اليهود أم من غير اليهود، و تراهم يتحدثون بذلك أحياناً جهاراً و أحياناً سراً.[1]

و لقد حاول بعض الرؤساء المتميزين من الأمريكان كسر تلك السيطرة، و تحرير القرار الأمريكي من سطوة القرار الإسرائيلي و اليهودي، و لكنهم باؤوا بالفشل الكبير أمام الوقوف ضد ذلك القانون العالمي، فالرئيس (نيكسون)[2]

---

[1] إسرائيل هي ديمقراطية برلمانية متعددة الأحزاب، بشكل مماثل للأنظمة الديمقراطية في أوروبا الوسطى، أي أن المؤسسة المركزية هي البرلمان الذي يؤدي دور المجلس التشريعي، كما ينتخب أعضاؤه الحكومة، و رئيس الدولة، و يراقب أعمال المؤسسات الحكومية، يطلق على البرلمان الإسرائيلي اسم الكنيست، و اليهود يدّعون بأنهم قوم جاؤوا من أصول أبيهم يعقوب و هو إسرائيل كما جئنا نحن العرب من أبينا إسماعيل ولدا إبراهيم عليه السلام، و هؤلاء القوم كوّنوا قومية تحكمهم لغة و هي اللغة العبرية و مصير مشترك، و ان هذه القومية تدين بالدين اليهودي باعتبار أنهم مصادفة جاؤوا من عائلة واحدة هي عائلة إسرائيل. و بذلك تنطبق عليها سمة القومية. و بذلك كانت دولتهم هي دولة قومية علمانية و ليست دولة دينية كما أعتقد البعض من العرب

[2] هذه المحادثة التلفونية هي التي أسقطت (نيكسون) و أنا أرغب بنشرها هنا لأهميتها.....

President Nixon and his personal staff talk about the Jewish Problem

Nixon: I hope to God - he's not Jewish is he?، Ziegler: [Laughing] I'm sure he is - Ellsberg?،Nixon: I hope not، I hope not. Haldeman: [unclear] is Jewish. Why the hell wouldn't he be? Nixon: Oh yeah، I know، I know، I know، but it's، it's، it's، it's a bad thing for us. It's a bad thing for us. It's a bad thing. Maybe we'll be lucky for once. Many Jews in the Communist conspiracy. . . . Chambers and Hiss were the only non-Jews. . . . Many thought that Hiss was. He could have been a half. . . . Every other one was a Jew - and it raised hell for us. But in this case، I hope to God he's not a Jew. Haldeman: [Laughing] Well، I suspect he is. Nixon: You can't tell by the name. Haldeman: Or Halperin. . . . Gelb is - Nixon: Gelb's a Jew.

July 2، 1971: Nixon، Haldeman، and Rose Mary Woods، 12:25 P.M.، Oval Office Conversation #535-23; cassette #867

Nixon: Halperin was a genius. And so is this son-of-a-bitch who stole the documents - a genius. Everybody says that Ellsberg. . . very bright. Woods: That might be، but I mean، I think، part of it - Hitler was a genius. Nixon: Undoubtedly. Haldeman: Sure was. Nixon: So was Judas. Woods: Sure. Nixon: That's right. Woods: But that doesn't make what they do right. . . .

July 3، 1971: Nixon and Haldeman، 10:41 A.M.، Oval Office Conversation #536-16; cassette #871

Nixon: Colson، he's a clever bastard. He had his office call the Bureau of Labor Statistics. . . . Goldstein. . . . I said، "Were they all Jews?" He said،

"Yes. Every one of them was a Jew." Malek's not Jewish is he? Haldeman: No. Nixon: I want to look at any sensitive areas around‹ where Jews are involved‹ Bob. See‹ the Jews are all through the government. And we have got to get in those areas‹ we've got to get the man in charge‹ who is not Jewish‹ to patrol the Jewish - Haldeman: [unclear] Nixon: . . . full of Jews. Second‹ most Jews are [unclear]. You know what I mean? You have Garment and Kissinger. Haldeman: And thankfully Safire. Nixon: But by God‹ they're exceptions. But Bob‹ generally speaking‹ you can't trust the bastards. They turn on us. Haldeman: And their whole orientation is against this administration anyway. . . . And they're smart. They have the ability to do what they want to do. Which is‹ to hurt us. . . .Nixon: Henry doesn't have many Jews. Got this one. . . . .< Haldeman: He's got quite a few. . . . He had Halperin. Nixon: Yeah‹ I know. But‹ you know. . . he's got Haig‹ his secretary is not Jewish. . . . . Haldeman: None of his aides have ever been Jewish‹ even Tony Lake who turned on us. . . . Nixon: That's right. Haldeman: But his. . . the young guys‹ that he's always had. . . . Nixon: Well Tony Lake always seemed Jewish. Haldeman: I don't think so. I wondered about that. Nixon: He looked it. Haldeman: I know.

July 5‹ 1971: Nixon‹ Haldeman‹ and Ziegler‹ 4:03 P.M.‹ Oval Office Conversation #537-4; cassette #876

Nixon: Jewish families are close‹ but there's this strange malignancy that seems to creep among them - radicalism. I can imagine how the fact that Ellsberg is in this must really tear a fella like Henry to pieces - or Garment. Just like the Rosenbergs and all that. It just has to kill them. I feel horrible about it. Ziegler: Could make up an English name. Haldeman: . . . Rosenstein could change his name. . . . [general laughter] Ziegler: It is right. It's always an Ellsberg. Nixon: Every one's a Jew. Ellsberg's a Jew. Halperin's a Jew. Haldeman: Gelb's a Jew. Nixon: But there are [unclear] - Hiss was not a Jew. Very interesting thing. So few of those who engage in espionage - are Negroes. . . . In fact‹ very few of them become Communists. If they do‹ they like‹ they get into Angela Davis - they're more the capitalist type. And they throw bombs and this and that. But the Negroes. - have you ever noticed? . . . . Any Negro spies? Haldeman: Not intellectual enough‹ not smart enough. . . not smart enough to be spies. Nixon: The Jews - the Jews are‹ are born spies. You notice how many of them are just in up to their necks? Haldeman: A basic deviousness.

Nixon: You can never put‹ John‹ any person who is a Jew on a civil rights kind of case‹ or freedom of the press kind of case‹ and get even a ten percent chance. . . . Basically‹ who the hell are these people that stole the papers? It's too bad. I'm sorry. I was hoping one of them would be a gentile. [laughter] [unclear] The three Jews - Gelb - the three suspects. . . . All Jews."

Mitchell: [laughing] Well‹ at least the Supreme Court yesterday ruled that the Jews couldn't get into a golf club

مثلا، و الرئيس (بوش) الأب كانا من الرؤساء الأمريكان الشجعان ممن حاول كسر طوق القانون، و تحديده و عدم توسيعه في أن يتحول إلى قميص عثمان في شأن ضرب كل من يقف موقفاً غير مؤيد للمصالح اليهودية، فقد أسقطت الصهيونية العالمية الرئيس نيكسون خلال فترة حكمه الثانية، و منعوا الرئيس بوش الأب من الفوز برئاسة ثانية، مع أن هذين الاسمين هما من ألمع الرؤساء الأمريكان الذين وصلوا إلى البيت الأبيض[1]

و انطلاقا من ذلك و من كل ما قدمته كنت أرى أن المعارضة العراقية يمكن لها أن تؤدي دوراً حيوياً في إقناع السادة الأمريكان بخطورة صدام، و استمرار بقائه على سدة الحكم، و أن يطمئنوا هذه الدولة على ضرورة تغيير مسارها تجاه الديمقراطية و حقوق الإنسان، و ذلك في أثناء حكم (كارتر) ثم بعده (ريغان)، و لكن قرار المعارضة العراقية أنذاك لم يكن قراراً مستقلاً، و إنما كان محكوماً بالكثير من التبعات التي لا تؤهله للإقدام على مثل هذه الخطوة......

و لذلك قررت أن أخوض غمار هذه القضية بشكل شخصي (اعني القناعة الشخصية) و ذلك لسببين: أولهما: هو غياب المشروع الواضح لدى المعارضة في إسقاط النظام. و ثانيهما: هو حراجة وضع المعارضة في وجودها ضيفاً على دو ل الجوار.

كانت أولى خطواتي هي العمل بجد بين أركان القادة السياسيين الأمريكان في فضح النظام و بشكل يقترب أكثر من العمل المبرمج في نقل الأفكار السياسية، و أن تكون البدايات من حيث يسكن الإنسان في تلك الولاية ثم ينتقل تدريجياً إلى صناع القرار الآخرين في العاصمة واشنطن.
و كنت مهتما لأنّ تكون الخطوة الأولى هي تقديم دلائل وحشية النظام، و إظهار الوجه الواقعي الذي يفهمه السياسي الأمريكي. فاتصلت بمجموعة من

---

[1] And then there was Secretary of State James Baker's infamous "fuck the Jews" remark. In a private conversation with a colleague about Israel، Baker reportedly uttered the vulgarity، noting that Jews "didn't vote for us anyway." This was more or less true—Bush got 27 percent of the Jewish vote، compared with 73 percent for Dukakis، in 1988. And thanks in part to Baker، it was even truer in 1992، when Bill Clinton got 78 percent of the Jewish vote and Bush got only 15 percent—the poorest showing by a Republican candidate since Barry Goldwater in 1964

أعضاء البرلمان و محرري الصحف في الولاية التي كنت أعيش فيها و في العاصمة واشنطن.

مراحل الوصول إلى صانع القرار الأمريكي يحتاج إلى تدرج كما هو الحال في كل القضايا السياسة في العالم. وهذا التدرج يتطلب مجهوداً و وقتاً تشترك فيه اختصاصات متنوعة، فالقضية الكردية بالنسبة لأولئك السادة قضية مهمة و لا يجب إهمالها..... قضية العلاقة مع دول الجوار و خصوصاً إيران و موقفنا منها، قضية مشاركة المرأة سياسياً، كلها نقاط ضرورية في كل محاولة للحوار السياسي مع صانع القرار.
القضية الأكثر أهمية هو أن الأمريكان لا يهتمون بالإنسان إذا كان يمثل نفسه أو أنه رقم مهمل في الساحة، و يهتمون غاية الاهتمام إذا فهموا أن الجهد صادر من خلال تشكيل أو حزب أو مجموعة سياسة لها سجل إنجازي في بناء الدولة.
و كانت أولى استفساراتهم عن السّنة، القوميين، الإسلاميين.. الخ...؟ و ما الاسم الذي نعمل تحت عنوانه..؟ و من يمثلها على واقع الساحة العراقية أو الشرق الأوسط..؟، فإذا وجدوا أن المحاور الذي طلب اللقاء معهم لا يمثل إلاّ نفسه أو مجموعة صغيره فإنهم قد لا يجتمعون معه، و إذا اجتمعوا معه فإنهم سيتكلمون بالعموميات باعتبارها نوعاً من المجاملة.

أما أنا فقد كنت أعاني الحيرة منهم مع أنهم يعلمون حق العلم بأنني أعمل ضمن التشكيلات الإسلامية. و هم كما ذكرت كانوا يصرون و بشكل منفتح على (الدعوة) فيتساءلون في أنفسهم عن رفضي المستمر عن واقع من هو خلفي...؟ أو حقيقة انتمائي إلى تلك المجموعة المبهمة بالنسبة لهم....؟ و ربما المجموعة التي تهمهم بشكل أو بآخر في فتح الطريق للوصول إلى صناعة القرار.
و هكذا لم يكن أمامي إلاّ أن أستشير الإخوة في بريطانيا، و في الشرق الأوسط، أسألهم أن يفكروا بموضوع التمثيل على الأرض الأمريكية سواء أكان التمثيل مكتباً أم شخصاً أو محامياً أو غيره، و أن تتوجه تلك الفئات إلى الاتفاق على إنجاز هذا الطلب لأنه قضية ملحّة لتقديم الصورة الواقعية لحالة المعارضة العراقية، إضافة إلى وضع برنامج العمل على إسقاط صدام، و لم تلق هذه الدعوة آذاناً صاغية لدى جميع الإخوة العاملين الإسلاميين، الذي كنت أتفهم جيداً وضعهم أنذاك في ظل الحرب المستعرة بين إيران و العراق، و صعوبة التفكير في حل آخر غير خيار الحرب و رفض كل أشكال الحوار مع الغرب عموماً و أمريكا خصوصاً، في الوقت الذي كان الجانب الأمريكي

يرى أن القضية الأساسية في الحوار هي قصة الحرب العراقية الإيرانية، و التشنج الهائل الذي يحكم العلاقات الإيرانية الأمريكية، في الوقت الذي كانت المعارضة العراقية تتخذ لها من إيران أرضاً رئيسية لمواجهة صدام و النظام البعثي[1]

فالمبرر يمكن تفهمه و تفسيره، و لكن النتائج إذا نظرنا إليها في ضوء التوقعات كان يجب أن يكون القرار إيجابياً نحو عملية تمثيل الحركات الإسلامية، أو حتى غير الإسلامية في كيان واحد سياسي يهدف إلى نقطة واحدة فقط تلك هي فضح و رفع البرقع عن وجه النظام العراقي.

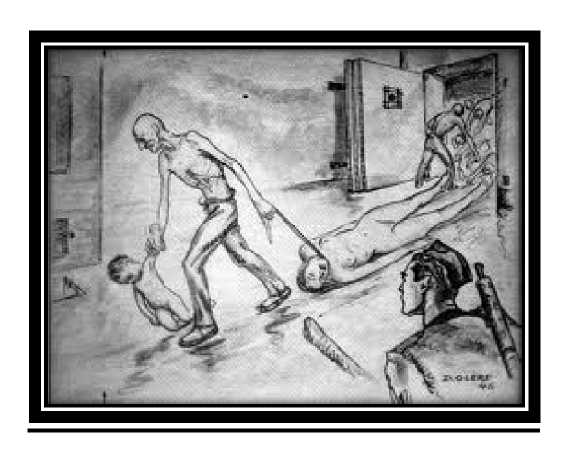
---

[1] صورة (الدعوة) في عموم الفكرة التي تبرز من خلال الحزب الديني و هي ليست بالصورة التي يحسد عليها، و الأمريكان غالباً يستغربون من أن يكون الحزب السياسي دينياُ، لان الدين غالباً لا يخدم الحزب السياسي، بل يقيّده و يعطل الكثير من مشاريعه، نعم من الممكن أن يكون الحزب يستمد مبادئه الأخلاقية من الدين، أو من تشكيلة معينة دينية، ففكرة الحوزة في العراق و فكرة (بكركي) في لبنان و الفاتيكان عند الكاثوليك، قضايا من السهولة تفهمها و إدراكها، أما الحزب الإسلامي ذو النظرية الإيديولوجية فهو أمر في غاية الغرابة بالنسبة لهم

⑨

الفصل التاسع

صراعُ المعلومةُ و الحزب



الخطة الانقلابية: كانت أفكار السيد مهدي الحكيم في خطة إسقاط النظام هي التخلص من شخصية صدام، التي تتضمن أساساً في دخول ألفي مسلح من الفدائيين المتدربين على حرب العصابات من الذين يملكون القدرات العسكرية الدقيقة إلى العراق على أن يكون الدخول من مناطق مختلفة من الحدود[1] يدخلون باعتبارهم أشخاصاً عاديين يحملون معهم جوازات السفر و هويات الخدمة العسكرية لسهولة تنقلهم، بالإضافة إلى عناوين مختلفة في مناطق العراق المختلفة، هذا العدد يذوب في المجتمع العراقي و يقوم بممارسة أمور معيشته، و التي معظمها ضمن سائقي التاكسيات أو سيارات الحمل أو السيارات الضخمة لسهولة النوم و الراحة و الابتعاد عن توفير الأوكار الجهادية.

مهمة هذا العدد هو الانقضاض في لحظة واحدة على مكان تواجد رأس النظام، إما عند زيارته إلى مدن العراق أو غيرها من الأماكن، و يمكن لهذا الحشد من المقاتلين تهيئة عدتهم خلال ست أو سبع ساعات للوصول إلى مكان الزيارة حيث تقسم المجاميع إلى ثلاث فئات الفئة الأولى الإجهاز، و الفئة الثانية مشاغلة الحماية الموجودة في المنطقة، و الفئة الثالثة منع وصول الإمدادات حتى انتهاء العملية.

للخطة تفاصيل كثيرة، و لكن هذا مجملها بعد أن أبدى أعداد كبيرة من ضباط و ضباط صف الجيش العراقي في داخل العراق التزامهم بالتنفيذ، و توفير السلاح بالإضافة إلى طائرتي هيلوكبتر من إحدى الدول المجاورة للعراق مهام هذه الطائرات نقل أعداد الفدائيين إذا لم يتمكنوا من الوصول إلى مكان العملية، و كان الحديث يدور عن إمكانية توفير كل الوثائق المتعلقة بالتحرك من قبيل جوازات السفر و الهويات و دفاتر الخدمة و غيرها مما يتطلب توفره لدى تلك المجموعة، فصار القرار هو العمل على توفير تلك الوثائق ليس فقط للجانب العسكري و الهجومي، و إنما للكثير من العوائل و من المواطنين المطلوبين من قبل النظام في الداخل للانتقام منهم.

فالحكومة العراقية ترفض تزويد من تشك في ولائه بجواز السفر. حتى لو حصل على البعض فإن إذن الخروج قد يكون عائقاً، بالإضافة إلى الهويات و دفاتر الخدمة وغيرها مما يمنع تحرك الفرد العراقي في داخل العراق، أو هروبه إلى الخارج.

---

[1] هنالك تجارب كثيرة بهذا الشأن أدت إلى سقوط النظام أو التخلص من رئيس النظام، و ربما هي من الأساليب الناجحة و العملية في التعامل مع الدول الديكتاتورية

طرحت الفكرة على البعض و ممن لهم القدرة على تغطية العملية بالمال، فيما لو توفرت الظروف لطبع تلك الوثائق في الولايات المتحدة الأمريكية، و كان أول من فاتحته بالموضوع هو الدكتور حسان و قد تحمس للفكرة، و قررنا أن نسير معاً في إنجاز المهمة و مساعدة عوائلنا و الآخرين ممن يتابعهم النظام لقتلهم، و قد فاتحنا الأخوة من الحركات الإسلامية بالأمر فأبدوا استعدادهم للاستفادة من ذلك في مواصلة إرسال الإخوة المجاهدين إلى داخل العراق، لضرب أركان النظام بالإضافة إلى المساندة المالية، أما السيد مهدي الحكيم رحمه الله فإنه أبدى استعداده لتنفيذ خطة الهجوم المقترحة التي شرحتها آنفاً إذا توفرت مستلزمات الدخول إلى العراق.

كانت الخطوة الأولى التي قمنا بها هو أخذ رأي المحامي، فجانب القضية القانونية مهم جداً في بلد القانون، و لذلك فأي تحرك من هذا النوع من الأعمال يتوجب على الإنسان أن يلتزم بالقانون بكل أبعاده.

<u>رأي القانون الأمريكي</u>: أخبرنا المحامي بأنه لم يجد هنالك مادة قانونية تقر هذا النوع من الأعمال أو تحرمه، وهذا معناه أن القانون سوف يقرر قانونيته العمل من عدمه تبعاً إلى نوعية الخلفيات التي تسبق القائم بذلك العمل، أو إلى الدافع الرئيسي، أو النية التي تقف خلف الإقدام على هكذا عمل[1]

و هنا ليس من حق المحامي أن يسألنا عن الهدف من وراء هذا العمل، إلاّ إذا أخبرناه نحن بذلك، و لكننا أخبرناه عن هدفنا و الدوافع التي جعلتنا نتخذ هذه الخطوة الجريئة، و شرحنا له كيف فقدنا عوائلنا في العراق، و كيف أن صداماً مارس الذبح تجاه شعبنا، ثم أخبرناه كيف اعدم النظام والدي و إخواني و اعتقل والدتي، و أنا الآن حريص على إنقاذ بقية أفراد أسرتي، فالنظام الآن يساومني إما بقتل الجميع أو أن أسلم له رأسي، فتأثر المحامي أشد التأثير و لم يجب أكثر مما قاله لنا في السابق.

كان علينا هنا في الولايات المتحدة أن نماشي القانون في رؤيته إلى المشاريع العالمية الدولية التي تتحرك باتجاه إسقاط الأنظمة في العالم،

---

[1] فهنالك أكثر من شركة تعمل في الولايات المتحدة تصدر جوازات و وثائق مزورة أمريكية إلى الأشخاص الذين يخشون على حياتهم من القتل وهم خارج أمريكا، و هذه الشركات تتعامل معها أحياناً الحكومة الأمريكية ذاتها في حماية البعض من منتسبيها

فالحرية التي يمنحها النظام الأمريكي لمواطنيه كبيرة و واسعة و هي تصب في نهايتها في تفهم غايتين أولاهما: هي النيّة في العمل و الثانية هي الوضوح في التنفيذ، فالحركات في معظمها و خصوصاً المقاومة للأنظمة الديكتاتورية كلها تفكر في موضوع إسقاط أنظمة بلدانها، و لكن الفرق فيما بيننا و بينهم هو أن الحركات الأخرى و التي نجحت مساعيها في إسقاط أنظمة تلك الدول كانت بسبب بيع أنفسها لقمة سائغة إلى أجهزة المخابرات الأمريكية و هي كما هو معروف جهاز (CIA) حيث تبدأ عمليات التنسيق ما بين الطرفين، و غالباً ما تكون خارج الأرض الأمريكية، أما نحن من جانبنا فان الموقف الصريح و الواضح لتحركنا هو الابتعاد عن السقوط في فخ المخابرات الأمريكية التي غالباً ما تمكنت من أن تستوعب ربما أكثر الحركات المقاومة لأنظمتها مثل: المعارضة في نيكاراغوا ضد الحكومة اليسارية (الساندياستية) و التي سقطت على أيدي النيكاراغويين (الكونترا) الذين تعاونوا مع المخابرات المركزية إلى أن تمكنوا من إسقاط النظام.[1]

و تتداخل المصالح الأمريكية الشخصية بالمصالح السياسية و بالمصالح المخابراتية، ثم الاقتصادية لتتمكن من أن تخرج نوعاً من التركيبة التي تتناسب مع كل تلك الأطراف المستفيدة من كل عملية انقلابية أو ما شابه، و لكي يجد الإنسان الاستعداد ما بين تلك الأطراف عليه أن يبحث بجد عن المشتركات التي تجمع ما بينها و هي بالنهاية تصب في خانة الوضع التغييري لذلك البلد.

---

[1] في مطلع الثمانينيات تعرضت نيكاراجوا لتدخل عسكري من قبل الولايات المتحدة بحجة مساعدتها للثوار في السلفادور، ورفعت نيكاراجوا النزاع إلى محكمة العدل الدولية التي قضت في ما عرف بـ "قضية نيكاراغوا" ضد أمريكا لصالح نيكاراجوا و تم تغريم الولايات المتحدة ما قدره 12 مليار دولار رفضت أمريكا القرار و امتنعت عن تنفيذه، و سحبت اعترافها الملزم بالمحكمة، الجبهة الساندينية للتحرير الوطني بالإسبانية : Frente Sandinista de Liberación Nacional، أو FSLN هو حزب سياسي نيكاراغوياني، تمسك بزمام السلطة في نيكاراغوا من العام 1979 حتى .1990 سمي الحزب بهذا الاسم تيمناً بسزار أوغسطينو ساندينو(1895-1934) ،أحد أبطال المقاومة النيكاراغويانية ضد الاحتلال الأمريكي 1927إلى 1933.(تأسس الحزب في عام 1962، معادياً لدكتاتورية عائلة سوموزا .هاجموا الحرس الوطني النيكاراغوياني من قواعدهم المنتشرة من هندوراس حتى كوستاريكا .انقسم الحزب لعدة فئات في منتصف العقد 1970، ولكنهم توحدوا مرة أخرى إبان ثورة 1978 - 1979، ونجحوا في الإطاحة بالرئيس أناستاسيو سوموزا .خسر الحزب الكثير من الدعم مع حلول العام 1990 حتى فقد السلطة. لكن الحزب عاد للسلطة مع فوز دانييل أورتيغا بالانتخابات، وهو رئيس نيكاراغوا الحالي

في الولايات المتحدة الموضوع العراقي في الثمانينات لم يكن من المرغوبات فيما يخص الجانب الاقتصادي و الجانب المخابراتي، فضلاً عن الجانب الإعلامي، فالعراق أنذاك هو عبارة عن دولة متأخرة تعشق الحرب و القتل و الدمار، فيها من المشاكل ما يغني عن التفكير فيها، أو الاستفادة من مستقبل العلاقة مع أمريكا، و هذا الرأي هو رأي الجهاز المخابراتي، و هو وضع مختلف عما هو عليه ما بعد 2003 الذي تحول العراق إلى نقطة مركزية في عالم السياسة الأمريكية في مجاليها المخابراتي و الاقتصادي.

أخبرنا المحامي بعدئذ بأنه و لكي يتأكد من الاستشارة القانونية فإن أمامه طريق الاتصال بالجهات الأمنية الأمريكية التي سيكون لها رأي في موضوع قانونية العمل الذي نعد له، تلك الجهة هي مخابرات أمريكا الداخلية أي (FBI).
لم يمانع أي منا ذلك ما دمنا نحتمي بظل القانون، لأنّ المخابرات من النادر أن تعطي موقفاً مخالفاً للقانون، إلاّ في حالات نادرة، و يعتمد عليها الكثير من التبعات و التعقيدات، و هو موقف يختلف كثيراً عن الوضع المخابراتي في الدول العربية التي يكون فيها رأيها فوق القانون القطري أو الدستور. فالقانون مثلما يحكم المؤسسات الحكومية الأخرى فانه في ذات الوقت يفرض سيطرته القانونية على أجهزة المخابرات و الأمن.

لم نمانع في مفاتحة المحامي لعناصر المخابرات الأمريكية لأنّ الصورة عندئذ ستتخذ قانونيتها، و مجراها الواقعي خصوصاً بعد وضوح النية و هو العامل الحاسم في تقرير المشروعية من عدمها، كما ينص القانون الأمريكي.

قابل المحامي مكتب المخابرات في الولاية، فقالوا له: أولاً إن موضوع السلاح إن كان هنالك ما يثبت تسريبه أو سوء استعماله، أو دخوله إلى أي بلد آخر غير البلد الذي يقاتل به أولئك المعارضين فإننا نعتبره خرقاً للقانون الدولي، أما إذا كانت تلك الجهة تريد أن تقاتل بسلاح داخل بلدها فانه بالتأكيد ليس من اختصاصنا، و لا يقع ضمن مواد القانون الأمريكي.
أما بالنسبة إلى الوثائق المهمة و جوازات السفر فإنها إن لم تستعمل على الأرض الأمريكية فانه ليس من اختصاصنا في منع إنتاجها، و أضافوا أن المخابرات الداخلية التي هي (FBI) يبدأ دورها بعد تلك المرحلة، فالكثير من الدول و المنظمات تقوم بنفس العمل لحساب أو لفائدة غير الفائدة التي تجنيها من إستعمالها على الأرض الأمريكية، و قالوا أيضاً: بأن الوضع في المنطقة

العربية و حرب الخليج المشتعلة غالباً ما يدعونا أن نضع علامات الاستفهام على مثل هذه الإعمال.
فرجع لنا المحامي و أخبرنا بالمعلومات الجديدة فتأكد لنا بأن ما نقوم به لا يعارض أصل القانون الأمريكي، و هي بالنسبة لنا معلومة مهمة جداً، بل حيوية و أساسية لعملنا كله، و هكذا كان ذلك ضوءاً أخضراً للعملية و التي كان على ضوئها أن قررنا المواصلة .

<u>الصراع الخفي و الخطر :</u> من الصعوبة جداً أن نتمكن من اختراق الجانب الأمني للمخابرات، و أن نفكر بصورة استقلالية عن عمل و واقع المخابرات الأمريكية، فالمخابرات تلك قد لا تتفق معك في أهداف العمل و ربما مبدئياً، و لكنها تلزمك ان تتعاون معها فيما يخص المعلومات، أي أنها تريد أن تعرف كل ما تقوم به، و إلاّ فإن الأعمال ستتخذ طابعاً آخر و سيجدون الطريقة المثلى (القذرة) في التعامل معك، و بما يتناسب مع الظرف المسموح به في حدود مخابراتية خارج حدود القانون....
لو افترضنا بأننا طلبنا من المخابرات الأمريكية التعامل معها بهذه القضية: قضية إسقاط النظام العراقي، و اغتيال رأس النظام بشروط التنفيذ التي وضعناها، فإنها سوف لا تقول لا، بل إنها سوف لا تتدخل في شؤوننا ما دمنا ننقل لها الأخبار ساعة بساعة، و لكننا هنا و في هذه القضية لم نر أن الجانب المبدئي يحتم علينا أن نكون ذيليين لأي إنسان مهما كان ذلك الإنسان، و ذلك بلحاظ نصاعة المبدأ الذي عملنا باتجاهه، و هنا أمام هذا الواقع يجب أن ندفع الاستحقاق غير المتوقع.

لم يصلني أنا شخصياً تهديداً مباشراً مكتوباً أو على التلفون، و إنما كنت أرى تحركات، و أتحسس مناورات تدور حولي أينما ذهبت، و كأنهم يريدون أن يقولوا لي: إننا هنا موجودون و عليك أن تعرف من نحن و أن لا تستهين بقدراتنا لأنك تحت أنظارنا... ففي إحدى السفرات كنت راجعا من كاليفورنيا من مؤتمر كبير دعت إليه مجموعة من أصناف المعارضة العربية، و كان للمعارضة العراقية حضور فيه، و كان عليّ أن أغير طائرتي عبر مدينة (الباسو) في ولاية تكساس على الحدود المكسيكية، لكي انتقل إلى الطائرة الأخرى، و بينما أنا أهرول للوصول إلى الطائرة أوقفني رجل مباحث يسأل عن هويتي[1]

---

[1] لم أتوقف، و لم انصع له و أشرت له بأصبعي أن يركض معي كما أركض أنا، فبدأنا نركض معاً في داخل المطار و هو يسألني و أنا أجيبه، و كلما وجه لي سؤالاً أجبته بالعكس،

و من الوسائل الأخرى التي كانت المخابرات تستعملها: هو إشعارك بأن جهاز تلفونك مراقب، و كان يساورني شك فيما إذا كانت عناصر المخابرات تدخل بيتي أثناء غيابي عن البيت أثناء زيارة لصديق أو إحياء مناسبة في الجامع أو غيرها، المسالة التي كانت تقلقني أكثر هي الوضع العائلي، و وضع زوجتي و ابنتي، و ما عسى ما يحدث لهما لو حصل مكروه لي أو أن الحكومة الأمريكية أقدمت على عمل أحمق كطردي من الولايات المتحدة الأمريكية أو اغتيالي، و خصوصاً الحالة الأولى التي قد تكون أكثر الاحتمالات حدوثاً....؟ فإن حدث ذلك فان الزوجة ستكون معلقة قانونياً لأنّ إقامتها في الهجرة مرتبطة بوضعي القانوني.

و على ضوء ذلك قررت أن أغير من حالي القانوني و أن أجعل زوجتي لها وضعها القانوني الخاص بها، لكي تتمكن هي من البقاء في الولايات المتحدة فيما لو حدث مكروه لي في الطرد أو الاغتيال أو السجن أو غيره مما يتوقعه الإنسان في ظل هذه الظروف، بالإضافة أيضاً، و هي مشكلتنا نحن الشرقيين المسلمين نتفاعل مع المسألة العائلية بصورة ملتزمة و متحفظة و بشكل يتجاوز حدود الذات بدرجة هائلة.
فالوضع العائلي و سلامة الزوجة و الأولاد في بلد مثل (نيو أورليانز) بلد الجرائم و السرقات و القتل يحسب له ألف حساب عندما يقرر الإنسان الإقدام على أي عمل سياسي في مواجهة المخابرات .

فقد كانت خيارات إغتيالي ليست بغائبة عن ذهني و ذهن عائلتي كما كانت احتمالات طردي من البلد بعد اعتقالي خياراً يقوى على الخيار الأول. و هو لا يستبعد حدوثه إذا أراد الطرف المعني الإقدام على هذه الخطوة، مع ضبط حساباتها المستقبلية بدقة، و عندما يريد هذا الطرف ان يتجرأ بهذا الاتجاه فهنالك مؤشرات عملية يمارسها ضد الشخص المعني مثلاً عملية الاعتقال في المحلات العامة و الاتهام بالسرقة قضية متعارف عليها في خطوات المحاربة السياسة ضد الأشخاص أو السياسيين، و قد مارستها أمريكا ضد الكثير من

لكي أثيره، ثم أغير الموضوع بضحكة ثم أقدم الجواب الصحيح، فالسؤال عن الهوية في المطارات أو في الشارع حالة غير عادية بل استفزازية، و كان رجل المباحث ذلك في معظم الأحايين يحتج عليّ بأنك سافرت باسم رجل آخر ليس اسمك الحقيقي، فليس من قبيل المخالفة أن تستعمل بطاقة طائرة بإسم آخر، و لكنها في الواقع مثيرة للتساؤل

سفراء البلدان الأخرى مثل السفير الإيراني و السفير الفنزويلي و السفير السعودي و قد حاولوا استعمال نفس الأسلوب و هو أسلوب الضبط بالسرقة[1]

أما الحادثة الثانية و التي كادت أن تودي بحياتي. فقد كنت أقود دراجتي الهوائية أثناء رجوعي من الجامعة و كان الوقت أنذاك شتاءاً، و أنا على الرصيف الذي يسير فيه المارة، و بعيداً عن الشارع العام بثلاثة أو بأربعة أمتار تقريباً في قسم من شارع يستدير ثم يضم عبور سكة حديد، و غالباً في هكذا أماكن يخلو الشارع من المحلات التجارية أو البيوت قبل السكة و بعدها بمسافة قد تصل إلى كيلومتر واحد[2]

رجعت إلى الدراجة فوجدتها قد تحولت إلى قطعة من الحديد مكسرة على الرصيف، فكرت مباشرة بأن عملية قتلي كانت مقصودة، و أنهم قد يطلقون النار نحوي من نفس السيارة، فانزويت خلف تلك الأعمدة الحديدية العريضة لمدة تزيد عن العشر دقائق، حتى تأكدت من خلو المنطقة من تلك السيارة، نزلت ثانية و اتخذت طريق الشارع من الجهة الأخرى راكضاً حول المنطقة التجارية التي يتواجد فيها التلفون، فاتصلت بالشرطة لأعلمهم بالخبر، و ما هي إلاّ ربع ساعة حتى حضرت سيارة البوليس و ذهبنا سوية إلى مكان الحادث حيث تقع الدراجة الهوائية، فسألني رجل الشرطة إذا كان هنالك لي

---

[1] دخلت مع زوجتي المحل لشراء معطف رجالي، قسته في الغرفة الصغيرة المعدة لقياس الحجم فوجدته جيد، قلت للبائعة العاملة في ذلك المحل أن تضعه في الكيس لأدفع ثمنه، أخذته و وضعته في عربة التسوق ثم اشتريت أشياء أخرى، و توجهت إلى موظفة دفع الحساب و وضعت الأشياء على الطاولة، و أثناء تمرير الجهازعلى المعطف ظهر أن في داخله شيئاً آخر ذلك الشئ هو قلادة يلبسها الرجال المراهقون كبيرة الحجم، استوقفتني المرأة و اعتبرت الأمر سرقة من قبلي، و نادت على رجل الأمن، جاء رجل الأمن فشرحت له الأمر فذهبنا إلى المرأة الأولى الموظفة التي وضعت المعطف في الكيس فلم نرها انتظرناها لم تأتي، ذهبنا إلى رئيس هؤلاء الموظفين و أخبرناه بأوصاف المرأة قال ليس هنا من تعمل في هذا المحل بهذه الأوصاف، فأخبرت رجل الأمن و قلت له بأنني أولاً لا أستعمل هذا النوع من القلادات، أنها لمراهقين، و ليس لدي ابن أو أنني من هذا النوع، كما أنني لو أردت السرقة لسرقت ما هو اصغر من ذلك و اغلي منه، فوثق بي الرجل و أطلق سراحي، و إلاّ لكنت أدخلت السجن و نشرت و التصقت القضية في ملفي الأمني

[2] و بمجرد عبور سكة الحديد شعرت بأن هنالك سيارة كبيرة خرجت من الفتحة التي تركتها خلفي متوجهة إلى الشارع التفت فوجدتها قد توقفت قليلاً ثم رجعت إلى الخلف، ثم بعدها استدارت يمينا و كأنها متوجهة نحوي من الخلف، لم أجازف فيما إذا كانت السيارة تقصدني أم لا، بل قررت أن اتخذ أسوء الاحتمالات فترجلت من الدراجة و رميتها في مكانها، و كان على يميني أعمدة حديدية و بينها فتحة تسمح لدخول إنسان، و فعلاً دخلت و بسرعة كبيرة الفتحة و أنا إركض بعكس اتجاه الشارع بينما جاءت تلك السيارة الكبيرة و سحقت دراجتي و نزلت الشارع العام و كأن شيئاً لم يكن ..

من أعداء يتربصون بي الدوائر، فقلت له لا أعداء لي إلاّ الشيطان، و لكن أين أجد الشيطان ...؟ سجّل رجل البوليس الحادث على انه حادث سير و انتهى الأمر.
و قد كانت توجهاتي أنذاك في الظرف الآني هو الدقة في التعامل مع الوضع المعقد، و خصوصاً الجانب القانوني و الجانب الأمني و لا انسى أن أشير إلى أن الوضع المالي و مشاكله التي يفرضها الوضع القانوني لفيزة الطالب لما له من أثر كبيرعلى حالة العوز التي أعاني منها، مع أن فرص العمل كانت متوفرة هنالك، و أعني الفرص التي يتمكن بها الإنسان من التهرب من الضرائب و المراقبة.
فقضية الكثير من المعارضين لأنظمة بعض الأقطار العربية و الإسلامية يتعرضون إلى السجن. فان القضية الأساسية لذلك السجن هو كما يبدو ظاهراً ارتكابه ما يخالف القانون لكنه في الواقع السبب هو سبب سياسي من خلال تدبير مؤامرة القبض عليهم[1]

<u>الوضع العائلي للمعارض السياسي نقطة ضعف دوماً:</u> و عندما نعود إلى وضعي الخاص فان ارتباطي بعمل للارتزاق لابد و أن يؤدي بي إلى السجن بعد إلقاء القبض علي، و هذا بالتالي سوف لا يخدم قضية المعارضة و مواصلة النضال ضد حكم صدام، و لا يخدم عائلتي أو جذور الفكر التي أومن بها.
كانت زوجتي[2] تقرأ على وجهي علامات الإعياء و التعب و التفكير و كانت تسألني عما دهاني و ماذا غير من ملامح و جهي...؟ فكنت ابتسم في وجهها و أقول لها إنني ذو صحة جيده و لكنني متعب جسدياً فقط لا تقلقي، و كانت زوجتي من النوع الذي لا يلح في السؤال، و كانت تقبل الإجابة قبل أن انتهي من الشرح.

و بعد فتره جلست مع زوجتي لأتحسس منها كيف يمكن لي أن أتناول هذا الأمر بالنقاش، و في أثناء الحديث قفزت إلى فكرينا معاً مشكلة أن الحكومة الأمريكية قد تنهي و توقف صلاحية الإقامة بالنسبة لي، و ما دامت الزوجة ترتبط بزوجها فكلانا قد نفقد مميزات الإقامة، لذلك اقترحت زوجتي أن

---

[1] مثل ممثل جبهة الإنقاذ الجزائرية د. أنور هدام، و الدكتور مازن النجار، و كذلك ربما قضية أبو مرزوق الفلسطيني الجنسية..
[2] هي الدكتورة طبيبة الأسنان السيدة أثمار العبيدي خريجة جامعة بوسطن و متخصصة في طب تقويم الأسنان، تعمل حاليا طبيبة ناجحة و معروفة في تورنتو كندا

تلتحق بإحدى الجامعات. عندها يمكن أن تكون إقامتها منفصلة عن إقامتي، ففيما لو حدث مكروه ما فبإمكانها مساعدتي. و هذا ما حدث فعلاً حيث بدأت تدرس في إحدى الجامعات هنالك، و لكن دائرة الهجرة لم تبدل من واقع الفيزة، و أبقتها كما هي إلى أن تنتهي مدة دراستي، و كأنّ الأمر ليس فيه قانون، و إنما تابع إلى اقتناع موظف الهجرة، أو إلى الوضع السياسي.

و بعد مرور شهر على ذلك وجدت أن الفرصة مناسبة لكي أطرح مع زوجتي موضوع المخاطر التي تنتظرني كالاغتيال أو الطرد أو غيرها و إن ذلك لابد و أن يؤثر سلبياً على وضعها، لذلك قررنا كلانا أن نطلّق أحدنا الآخر (الرسمي فقط) حتى لا تتعرض المرأة للملاحقة أو التساؤل أو غيرها، و فيما إذا تم طردي لأي قطر من الأقطار فإن القانون لا يسمح بترحيلها معي، و قد كانت هذه الخطوة من أصعب القرارات التي اتخذتها في حياتي و أشدها على النفس ألماً مع أن القرار كان قراراً شكلياً ليس له أثر على علاقتي مع زوجتي، و لكنه قرار يحمل تبعات بعيدة الأثر لا تعرف نتائجها.
فكرت ملياً ثم ملياً و استشرت آخرين و كان الجميع يرون في ذلك قراراً غير صائب و غير حكيم و أنه لا يخدم شخصاً من أشخاص المعارضة العراقية في الخارج، و بعد مداولات مستمرة قررت الرجوع إلى الله في الأمر[1]

فخطوات الطلاق الرسمي صعبة في ولاية (لويزيانا) و هو يلزم الزوجين قبل الأقدام على طلب الطلاق أن يكونا منفصلين عن أحدهما الآخر لمدة سنة أي يعيش كل منهما في عنوان مختلف، ثانياً: يجب أن يقدم طالب الطلاق الزوج أو الزوجة عذراً مشروعاً للطلاق أمام القاضي في المحكمة، لكي يقبل عذره، أما إذا رفض ذلك فلا يتحقق الطلاق، ثم تطلب الدولة من كلا الطرفين أن يتقاسما ما يملكانه، و إذا كان هنالك أولاد عليهما أن يقدّما إلى المحكمة طلباً رسمياً إلى أي منهما يعود الأولاد، و هكذا تتم العملية بصورة معقدة جداً قد تستمر بين سنة إلى سنتين.

و هكذا ذهبت إلى المحامي المتخصص بالأمر لأعرض عليه الأمر، فقال لي المحامي هذه أول حالة من المسلمين أراها في هذه الولاية، فمن المعروف إن الطلاق بين المسلمين نادر جداً، فتألمت لأقواله و وجدت نفسي بأنني قد

[1] في أوقات الشدة غالباً ما يجد الإنسان بأن هنالك علاقة خاصة مع قوة الخالق عز و جل فلا يجد غير أن يطلب من الله أن يفتح أمامه طريق القرار الصحيح و هو ما فعلته في ذلك، انظر نتائج عملية الطلاق فيما بعد 12 سنة في الفصل الأخير من هذا الكتاب

عكست صورة غير حسنة عن المسلمين أمام الآخرين، ثم حددت المحكمة يوماً لي للحضور أمام القاضي للإدلاء بشهادتي في طلب طلاق زوجتي، و لكنني قبل أن أحضر أمام القاضي درست الأمر بشكل موسع، و عرفت محاسنه و مساوئه و أبعاده على المدى القصير، فوجدت أن الطلاق الرسمي سوف يؤثر عليّ في إمكانية حرية الحركة، و في إمكانية مواصلة حالة المعارضة. و لزوجتي القدرة على مواصلة الحياة فيما لو حدث لي مكروه كالاغتيال أو السجن أو الترحيل.

و لكن مع ذلك قلت في نفسي لأرجع الأمر إلى الله في عملية تفاؤل قرآنية لأرى ماذا يخبرني الله[1]

ذهبت إلى المحكمة و كانت القاضية إمرأة بعمر خمسين سنة سوداء اللون و كان الحضور في قضايا الطلاق ما يقارب (30) شخصا.

جاء دوري و نودي باسمي.

وقفت أمام القاضية في الحوار التالي:

- سألت القاضية: هل ترغب بطلاق زوجتك... ؟
- قلت نعم
- لماذا ..؟
- قلت إن لي ظروفي الخاصة

ضحكت القاضية و ضحك معها المحامي و ضحك جميع من كان بالقاعة، و بدأ أحدهم ينظر في وجه الآخر و كأنّ أحدهم يقول للآخر ماذا دهى هذا المغفل....؟

سألتني: و ما هي الظروف....؟

قلت: أنا رجل معارض للنظام الظالم في العراق، ضحكت القاضية مستهزئة و كأنها تريد أن تقول وما دخل ذلك في الطلاق، ثم التفتت القاضية إلى المحامي الذي كان يرافقني و قالت له: هل هيئت مدعيك قبل أن يأتي إلى القاعة......؟ فهذا واجبك، إما أن تتكلم أنت عنه، أو تهيئه لكي يتكلم ما يناسب القضية.

---

(1) أؤمن أنا شخصياً إيماناً قاطعاً بأن الله أقرب إلى العبد من حبل الوريد، خصوصاً في أوقات الشدة و أوقات ظلم الإنسان، وهكذا و أنا في أشد حالات الحاجة إليه و إلى تسديده كانت الآية الشريفة و التي لا أتذكر مضمونها تبشرني بمصاعب جمة في بداية الطريق مع خير كثير في آخره، و مع أن هذه العملية أي التفاؤل بالقرآن ليست من أصول الإسلام و لكنني شخصياً أتفهم معنى العلاقة مع الباري عز وجل من خلال استكشافي لقدراته و موقعه في عقلي، مع إنني قد أكون غير محق

التفتُّ إلى المحامي فوجدته قد احتقن وجهه بالدم من الخجل و الاستياء، فخرج من قاعة المحكمة وهو يوبخني بأدب عن عدم معرفتي بوضع المحكمة في الغرب، لم أرد على توبيخه، فقد تفهمت موقفه جيداً، ثم قال لي: فقط قل للقاضية بأنك لا تحب زوجتك و لا تتمكن من العيش معها، لم أجبه بالإيجاب أو بالسلب فتأكد المحامي بأن جوابي سيكون ما أخبرني به.

و حوالي الساعة الواحدة بعد الظهر نودي باسمي، فحضرت و وقفت أمام القاضية.
فسألتني نفس السؤال، و الغريب أنني أجبت نفس الأجوبة،[1]

و قبل أن تنطق القاضية بطردي ثانية قلت: يا أيتها السيدة المحترمة (Your honor) هل لي الحق بأن أتكلم...؟ و هل يسمح لي القضاء في ذلك... ؟ شعرت عندما تكلمت بهذه الكلمة أن صوتي ينطلق فعلاً من ألم خزين حيث رافقت صوتي حشرجة ذلك الألم و بدون تكلّف.

قالت القاضية بعد أن استوت في جلستها: نعم .... نعم
بلعت ريقي ثم طأطأت رأسي، و خلال ثوانٍ خزنت في لساني ماذا يجب عليّ أن أفعل لكي أخدم به قضيتي التي أعيش من أجلها.... ثم بدأت كلامي، و ها أنا أقدمه للقارئ بشيء من الإيجاز بعد أن وضعته باللغة العربية.

قلت: أيتها السيدة الفاضلة اعتقلت في سنة 1977 في العراق لأنني كنت من المعارضين السياسيين، كان سبب اعتقالي أنني شاركت في مظاهرة، أودعوني مع عشرة آلاف سجين آخر مثلي سجناً رهيباً (سجن رقم 1) و في السجن كان أحد المعتقلين رجلاً بعمر الأربعين، و صادف أن تم اعتقاله مع ولده البالغ من العمر ثلاث سنوات، جمعونا في باحة السجن، و جاؤا بالرجل مع ولده فسألوه عن الدافع وراء مشاركته في التظاهرة بكى ابنه و صرخ و بكى لصراخه كل الحاضرين . استشاط الجلاوزة فضربوا الأب بأخمص البندقية على رأسه سقط، أخذ خمسة من الجلاوزة الابن من يديه و رجليه. و في هذه الإثناء شعرت بأن دموعي تتساقط مع عدم القدرة على الكلام[2] توقفت أدرت رأسي في أرجاء القاعة لأرى وقع كلامي على وجوه

---

[1] فكيف لي أن أقول بأنني لا أحب زوجتي، إنه الكفر بعينه بل إنه الجنون و كيف ينطق لساني بهذه الكلمة الموحشة، و هل لي القدرة على أن أفكر بها فقط..؟
[2] كنت شاهداً على هذه الحادثة و قد رأيتها بأم عيني

الحاضرين، ثم مسحت عيني التي اغرورقت بالدموع و ركزتها بعيني القاضية فوجدتها في موقف عاطفي شبيه بما أنها فيه و قد نزعت نظارتها، ثم قلت: بعد أن سحبت نفساً عميقاً و لئلا تخونني الكلمات في تلك اللحظات ثم قلت: قررت إذا رزقني الله بولد سأعمل المستحيل بأن لا أسلّمه بيد أولئك الأوباش، و أنا الآن أطلق زوجتي لهذا السبب الذي لو أمسكوا بي فلن يتمكنوا منها لأنّ قانون هذا البلد سوف يحميها... و سكتت.

تعجبت المرأة و اندهشت و أشغلت نفسها في الأوراق التي أمامها محاولة الخروج من مأزق الثقل العاطفي و المأساوي الذي لم انهيه بمصير ذلك الطفل، و بدأت المرأة تحرك نظارتها كمن يبحث عن مخرج لورطتها.

ثم سألتني ألك طفل....؟ أجبت نعم إنها بنت
أجابت تعدني أن ترعاها....؟ ابتسمت... و قلت نعم
و قبل أن تنطق بكلمتها التفتُّ إلى صاحبي المحامي الذي كان متسمّراً إلى جانبي ألماً و إعجاباً فوجدته و قد بدأ وجهه كقطعة حمراء لا يلوي على شيء، ناظراً إلي بنظرة مختلطة المعاني، ثم رفعت القاضية رأسها قائلة:
أنا أرى إيقاع الطلاق من صالحها و صالح الطفلة..... فالقانون لا يسمح للأم أن تغادر القطر لأي سبب من الأسباب ما دامت طفلتها أمريكية، و ما دامت هنالك خطورة على الأم، نعم يحق للأب ذلك.

شكرتها و غادرت القاعة . عندها صاحت الموظفة المسؤلة عن المحكمة بأن ترفع الجلسة، فخرجت إلى الباحة و لحقني الناس و تحولق حولي ثلاث نساء يردن أن يسألن عن وضع العراق و وضعي، فأخبرني المحامي بأن من الصالح أن لا تتكلم مع الآخرين و هكذا غادرت.

⓪①

◖ الفصل العاشر ◗

مُلآحقة



قيمة الفكر كانت الدراسة في الجامعة على مشارفها الأخيرة، فقد كتبت الأطروحة، و هيئتها، ثم قدمتها إلى الأستاذ المشرف، ثم أخبرته بأنني سوف أذهب في إجازة قبل بدء فصل الدفاع عنها، و لم يسألني أستاذي عن الجهة التي سأقضي فيها إجازتي، و إنما قال لي: حاول أن تتصل بسفارة العراق لأنهم اتصلوا بي و أرادوا بعض المعلومات حول سير الدراسة، قلت له: ما المعلومات التي أعطيتها إياهم..؟ قال لقد قدمت تقريراً مفصلاً حول سير دراستك و تقديمك الامتحانات و غيرها، ثم أضاف: و لكنهم يبدو غير مهتمين بتلك المعلومات إنهم يريدون مقابلتك شخصياً، حتى قالوا إنهم يحتاجون منك أن توقع على أوراق، كما أخبروني أن أقنعك في الذهاب إلى العراق لزيارة أهلك و مناقشة الأمور المتعلقة بالدراسة، و أضاف الاستاذ قائلاً: أن ذلك كما أعتقد سوف يقلل من حجم الضغط النفسي عليك لأنك منذ سنوات لم تسافر لزيارة الأهل....

ابتسمت، ثم حرصت أن لا يدرك مدى ألمي من هذه الكلمات الجوفاء وعدم مبالاته لما يدور في العراق و لعائلتي، فوجدته انه لم يتحرك ضميره و لا أحاسيسه، فقلت له: و لكن يا أيها الأستاذ المحترم انهم قتلوا و سجنوا و شردوا كل أفراد عائلتي.. و كنت آمل فيه أن يتحرك ضميره، تجاه قضية إنسانية منفصلة عن السياسة و السياسيين و الحرب، و جدته لم يعبأ بما قلته و أتخذ الأمر ببرود، فقلت له: لماذا لم تخبر الملحق الثقافي الذي اتصل بك عن سبب إيقاف مخصصات البعثة، و ما علاقة حقوقي الوظيفية بما يدور في جبهات الحرب...؟
قال: ماذا تعني.....؟
قلت: إن المخصصات التي يدفعونها لي هي مخصصات عملي في الجامعة.... ثم قلت: له دعنا نتكلم مع السفارة غداً.

جئت في اليوم الثاني و في الساعة العاشرة و النصف صباحاً كما اتفقنا، ثم اتصلنا بالسفارة العراقية في واشنطن و حضر الملحق الثقافي على الخط، فأخبره الدكتور المشرف بأنني أجلس إلى جانبه و إننا بصدد المراحل الأخيرة لإنهاء متطلبات الدراسة، و أن قطع مخصصات البعثه عن الطالب سوف يدفعنا أن نوقف انتماءه إلى الجامعة.
و بعد أن أنهى المشرف الحديث مع الملحق لم يجبه الرجل من الطرف الثاني و إنما قال له هل السيد شبر يقف إلى جنبك..؟ قال: نعم، قال: دعني أكلمه، أعطاني سماعة التلفون، قال لي: يا سيد صلاح لا تخاف من الرجوع إلى العراق.

أجبته ماذا تعني (تخاف)....؟ لم نتكلم عن الخوف، و إنما نتكلم عن مستحقات مالية تطالبني بها الجامعة أن أدفعها كجزء من متطلبات إنهاء متطلبات الالتزام الدراسي مع الجامعة...... لم يعبأ بكلامي كثيراً و استمر قائلاً: إن الكثير من طلبة البعثات يترددون في زيارة أهلهم و أريد أن أطمئنك كما طمأنت بقية الطلبة الآخرين في أن ذلك الخوف ليس له من داعٍ ... قلت له: يا أستاذ القضية ليست خوف، و رهبة و رجوع، إن الأمر يتطلّب ستة أشهر لأنهي متطلبات الشهادة.

أجاب: و لكن كما تعلم إن قوانين البعثات تلزم الطالب بأن يعود سنوياً لزيارة أهله . و هذا ما يفعله كل الطلبة، ثم أضاف: إرجع، إرجع

لم أجبه..... ثم قال ستصلك بطاقة السفر خلال يومين أنت و زوجتك و طفلتك و خلال أسبوع واحد من استلامك البطاقة تتهيأ للسفر و سترى فيها مواعيد المغادرة و مواعيد الرجوع

(.......................) !!!!.

أضاف: زين يا سيد صلاح...؟

أجبت: زين .

ثم أنهيت المكالمة مودعاً أحدنا الآخر

سألني الأستاذ: ماذا...؟

قلت : أنهم مصرون على الرجوع إلى العراق، و لا يرغبون في مناقشة موضوع الدراسة و البعثة و الأموال المترتبة عليها

قال: و ماذا أنت صانع...؟ :قلت : أنا راجع إلى العراق فقد قررت

أجاب مستغرباً: أمتأكد أنت....؟

قلت: هكذا يبدو

قال: تقول إن ذلك خطر عليك

قلت: ليس بيدي حيلة

قال: لماذا ربع مليون سجين في العراق؟ لقد أستمعت بالأمس إلى تقرير على التلفزيون[1] فيه وثائق على مدى فداحة الدكتاتورية في العراق و كيف أن صداماً قتل اقرب معاونيه و أصدقائه، ثم أضاف الأستاذ: إن التقرير يقول بأن منظمات حقوق الإنسان تقدر عدد المعتقلين بربع مليون سجين رأي، ثم استمر يشرح لي تفاصيل البرنامج الذي سمعته أنا أيضاً بالأمس.

قلت : و لكن ماذا عساي أن أعمل...؟ في الوقت الذي لا تسمح الهجرة لي بالعمل هنا للإرتزاق.... تألم الرجل و تناول سماعة التلفون متصلاً المشرف

---

[1] (McNeil – Lehrer News Hour) وهو من البرامج التي تقدمه الحكومة على قناتها التابعة PBC لها أي الجانب الحكومي فقط، مع أنها محايدة جداً و علمية

على الطلبة الأجانب[1] في الجامعة، فقال له: هل من الممكن . إصدار إجازة عمل للطالب من العراق....؟ أجابه بأن ذلك ممكن و ذلك عن طريق تحرير رسالة إلى دوائر الهجرة موقعة من الأستاذ المشرف تطمئنهم بأن العمل لا يتعارض مع دراسة الطالب كذا فترة، ثم قال: و لكن دائرة الهجرة لها الحق في القبول أو عدم قبول طلبك.... و هكذا حرر لي الأستاذ الرسالة فأخذتها في نفس اليوم إلى دائرة الهجرة التي لا تبعد عن الجامعة كثيراً، ثم صعدت الى الطابق السابع كما أذكر فأعطيتهم الورقة.... أخذ الموظف الورقة ثم أشار لي بالجلوس حتى يدرسها الشخص المعني[2]

جاء الموظف و من مسافة عشرة أمتار أشار لي بسبابته أن اقبل إليه، كما يشار إلى الطفل عندما يحرك الإنسان إبهامه، قمت و سرت باتجاهه، أمعن النظر في الورقة التي في يده ثم قال هل أنت السيد شبر.....؟ قلت: و هل هنالك اختلاف ما بين الورقة و بين شكلي...؟

- أعطني هويتك......

أخرجت له هوية الجامعة.

- لا زلت طالبا ؟ سأل....
- نعم
- تريد أن تعمل ....؟
- أحاول
- و ماذا تعمل....؟
- لا أدري ... ربما منظف صحون في المطعم، أو بائع آيس كريم في الشارع.
- هل أنت معوز....؟
- نعم ... الآن...
- ماذا تعني الآن.....؟
- اقصد إنني لم أذق العوز طيلة حياتي فأنا من عائلة ميسورة معروفة بقيمتها الاجتماعية في العراق، ثم إنني كنت أستاذاً في جامعة

---

[1] و هو مركز يعطى إلى شخصية تقوم بمهمة الطلبة الأجانب منهم و احتياجاتهم من الناحية الرسمية كمعاملات الهجرة و غيرها

[2] دوائر الهجرة في أمريكا هي من أتعس دوائر الدولة على شتى المستويات، معاملتهم جافة مع الأجانب، و تتميز بطابع الحدة و الغلظة، الموظفون في هذه الدوائر هم من الأمريكان الأصليين الذين يحملون نوعاً من التمييز العنصري مع عدم الاحترام للأجانب، و هو أمر مستغرب بالنسبة لي، و لكنني وجدت ذلك ربما في كل دوائر الهجرة، و خصوصاً على منافذ الدخول إلى الولايات المتحدة

بغداد، جئت لأكمل شهادة الدكتوراه، و لكن الحكومة العراقية أوقفت الإمداد المالي

- لماذا...؟
- لأنني معارض سياسي لنظام بلدي المخالف لقوانين حقوق الإنسان.
- لم أفهم الأمر جيداً، فكل حكومات العالم التي ترسل طلبتها إلى الولايات المتحدة لا تقدم على قطع مخصصات الدراسة مهما كانت الظروف السياسية التي يمارسها الطالب، ثم أضاف: و لا يبدو أن حكومة العراق من الدول الدكتاتورية بحيث يصل بها الحد إلى هذا الأمر، و أعتقد بأنك لا تريد إخباري بالحقيقة، ثم قال: انظر يا سيد شبر..(بنوع من الحدة) لا يمكنني أن أعدك بالنفي و لا بالإيجاب، أن ذلك يتطلب معاملة مطولة تُرفق مع الرسالة، ثم نرسلها إلى (أوكلاهوما) لإعطاء رأيهم النهائي، و لكن اتصل بعد أسبوع، و اجلب معك جواز سفرك لنتحدث قليلاً، ثم نرى ماذا يمكننا أن نعمل.
- ماذا تصنعون بجواز سفري......؟
- لنرى ما إذا كان صالحاً للاستعمال.
- ثم ماذا لو كان الجواز منتهي المفعول، ستطردونني من البلد...؟
- لا.. لا ليس بهذه السرعة.
- إذن ماذا....؟
- لم يجب.....

و أدركت رأساً الموقف و سألته: بالمناسبة هل تملكون الصلاحية في إخراج الأجانب و طردهم، و متى يكون ذلك ؟

- أجاب... لا يمكن، و بسرعة قال: لا نُسلّمك لصدام

ضحكت و ابتسمت و قلت له: هذا رأيك، أم أن مدرائك يختلفون معك في هذا الرأي في تسليمي لصدام كما سلمت الدول العربية و بعض الدول الأوربية بعض المعارضين إلى النظام العراقي.....؟

سكت هنيئة ثم قال بعد أن رفع رأسه واضعاً وجهه أمام وجهي: يوم الاثنين تأتي مع جوازك، ثم قال: لماذا لم تجلبه معك اليوم.... ؟ قالها بلهجة فيها نوع من عدم الأدب.

أجبته: لم يخطر ببالي... ثم ودعته و خرجت و أنا أفكر في الأمر و هل من الحكمة أن أذهب يوم الاثنين مع جوازي؟ و هل هنالك من إحتمال ترحيلي إلى العراق؟ و هل لهم الحق في ذلك؟

و من له الحق......؟ و من المخول بذلك.....؟ و كنت أتحدث مع نفسي.

و هكذا قررت أن لا أذهب يوم الاثنين للمطالبة برخصة العمل، و يوم الثلاثاء قابلني أستاذي طالباً مني الذهاب إلى الهجرة لأنهم اتصلوا به يسألونه عني و قالوا له: إننا سوف ندرس طلبه و إنه كان عليّه أن يحضر الاثنين و لم يحضر، ثم سألني أستاذي عن سبب عدم ذهابي فقدمت له عذراً لانشغالي بالدراسة.. فطلب مني الذهاب حالاً لأنهم كما قالوا له سيعطونني رخصة العمل، فقلت له: هل تتمكن من الاتصال بهم فإذا رغبوا في ذلك فإنني سوف أذهب حالاً.

اتصل المشرف بدائرة الهجرة، فأخبره بأن الموظف على استعداد لاستقبالي الخميس المقبل الساعة الحادية عشرة.

المخابرات تعني المعلومات... و هكذا يوم الخميس أخذت جوازي، و جواز زوجتي و كانت لازالت ضمن نفس سمة الدخول (F-1)[1] و قررت أن أطرح قضيتي بكل شجاعة و قوة و رأيت بأنه لمن العقل أن أخبر مشرف الطلبة الأجانب في الجامعة، ثم المحامية مخبراً أياها الأمر، فقالت المحامية خذ مني رسالة لهم تشرح فيها: بأنني وكلتها لتدافع عني في قضايا القانون.

دخلت على موظف الهجرة فأخبرني بأن انتظر، فانتظرته لمدة نصف ساعة، ثم نادى عليّ فدخلت إلى غرفة فيها منضدة و كراسي مرتبة بصورة جيدة و معدة للاجتماعات، جلست و أنا كلي ثقة في قدرتي على الخروج من الأمر بنتائج أحسن، و قبل بدء الاجتماع سألت الموظف الذي قابلته قبلاً: إذا كانت هذه الإجراءات هي المتّبعة مع كل المتقدمين للحصول على إذن العمل؟
لم يجبني، حاول أن يتجاهل سؤالي، أعدت عليه السؤال، حار بعينيه في سقف الغرفة، ثم أجاب نعم.......لا.......!!

- نعم إذا كانت هنالك حاجة، و لا إذا لم تكن هنالك حاجة.
- ماذا تعني ؟ سألته و لكن بنوع من التحدي
- أجاب بصلافة: لا تكن مغفلاً يا سيد
- يبدو أنني كما ذكرت.... مغفل..... و المغفل على الآخرين تعليمه، ثم قلت له بشدة: و لولا إنك كنت في هذا الموقع لسمعت مني أشد من ذلك، يا أفضل موظف في أعرق حكومة ديمقراطية ما بين حكومات العالم......!!...

---

[1] فيزة الطالب هي كما تسمى في العرف القانوني F-1، أما الزوجة فهي F-2 و متى ما انتهت الأولى تنتهي الثانية

ثم و كما أخبرتني المحامية قدمت له الورقة.....
نظر إلى الورقة، و قال إذن ذهبت إلى المحامي.....؟

- نعم
- لماذا.....؟
- لأنه بلد قانون، إن مماطلتكم و طريقة كلامكم معي بهذا الشكل الملتوي دعاني أن استعين بالقانون و إنني الآن أعتقد بأنكم تبيّتون شيئاً ما خارج حدود إجازة العمل و تريدون أن تلعبوا بالورقة السياسية أليس كذلك...؟

ثم سأل: لماذا تقول عن نفسك مغفل...؟
لان ذلك معايير حكمكم، ثم بادرت و سألته: ماذا في الأمر...؟
أجاب: انظر سيد شبر هنالك مسؤول في الدولة يريد أن يقابلك هل توافق ...؟ إنه هنا.....
قلت مستهجناً: مسؤول هجرة، أم مسؤول مخابرات ؟
أجاب: الحكومة

- ماذا تعني...؟
- انه مهتم بشؤون أمن البلد منكم أنتم الأجانب....!!
- و إذا وافقت على مقابلته هل تعطوني أجازة العمل.....؟ قلتها أريد أن اختبره فيما إذا كان هنالك محاولة للابتزاز.
- أجاب.. نعم .... نعم
- قلت أذن القضية ليست متعلقة بالقانون، إنها قضية مساومات، أليس كذلك....؟
- لك أن تقول ذلك، و سمها ما تسمها

قمت من كرسيي و جمعت أوراقي في حقيبة صغيرة كانت بيدي ثم مددت يدي مصافحاً له لأغادرالغرفة قائلاً له: شكراً على المساعدة، ثم أضفت: إننا لا يمكن أن نتفق (No Deal)

و في طريقي إلى الباب دخل ثلاث رجال بوجوه صبوحة و أغلقوا الباب خلفهم ثم توجهوا نحوي و بكل أدب قدموا أنفسهم بأسماء لا أتذكرها صافحتهم بعدم اكتراث، و لكن بأدب، بقيت واقفاً و أنا ملح في الانصراف، طلب مني أحدهم و عمره ربما في أواسط الستينيات ذو شعر أشيب حسن الكلام مهذب ذو ابتسامة هادئة بأن نتحدث قليلاً إذا لم يكن لدي مانع....؟
جلست، و لكن أبقيت جسمي منتصباً على الكرسي لكي أبيّن لهم أن الوقت للحديث سيكون قصيراً، و أن استجابتي لهم كان من باب الإلتزام الأدبي.

قال موظف الهجرة موجهاً كلامه لي: دعني آخذ المعاملة إلى الداخل لعلي أعمل شيئاً لك في منحك إجازة العمل.

لم أجبه إلاّ بالتفاتة غضب بعد قناعتي بأنهم سوف لا يمنحونني تلك الإجازة لحاجتهم في إبقاء تلك الورقة عاملاً من عوامل الضغط فيما يريدون...

سألني الرجل الوقور إذا كنت أنا مرتاحاً في أمريكا بعيداً عن وطني و أهلي، ثم قال لي: بأنه متعاطف معي جداً لما سمعه عني من حسن سيرتي الدراسية ثم عدم إخلالي بقانون الدولة أثناء وجودي خلال السنوات الثلاث الماضية، كان يتحدث و الآخرين يهزون رؤوسهم دلالة الموافقة، ثم سألني فيما إذا كان لدي مانع في الحديث.
قلت: أي حديث...؟ حديث إجازة العمل ...؟ أم حديث أمريكا....؟ أم حديث العراق....؟
قال لي: مثلما ترغب.
أبعدت حقيبتي من أمامي ثم اعتدلت في جلستي، و لكن قبل أن اجلس استأذنت أن اذهب إلى الحمام فرافقني أحدهم ليدلني على دورة المياه ثم رجعت.
بدأ الرجل حديثه مع إشعاري باني لم أجلس مع عناصر مخابراتية، و أن هدف هذه الجلسة ليس هو التحقيق.
تكلم كلاماً عاماً حول وضع الحرب العراقية الإيرانية و تأثيراتها على المنطقة و انعكاساتها على الاقتصاد العالمي و على السلام في الشرق الأوسط، ثم قال إنه يعتقد أن السيد الأمام الخميني (يسميه هو آية الله خميني) هو الذي يقف وراء الحرب و عدم إيقافها، ثم أسهب لعشر دقائق أخرى في أسباب مساندة الولايات المتحدة لصدام ثم انتقل خمس دقائق أخرى يتحدث عن جرائم صدام و خطر دكتاتوريته، ثم خطورته على المنطقة، ثم أشار بشكل أثار انتباهي و جعلني أنتبه جيداً لعل اللغة قد تكون هي الحاجزفي عدم قدرتي على فهم ذلك المعنى، و قال: أن (الولايات المتحدة تخشى من حماقة صدام من منطق الضعف......!!)

طلبت منه إعادة الكلام الأخير، فأعاده، ثم نظرت في وجهي الشخصين الآخرين فلم أجد رفضاً لما قال، سألته :هل أن ذلك بعينه ما تعنيه......؟ قال نعم... ثم حول الحديث إلي السيد الإمام الخميني مباشرة قائلاً لي: أنت تعرف الأمام الخميني ......؟ سكتت لأرى ماذا بعد، لم أقل شيئاً و لم أحرك رأساً

بالإيجاب، و لا بالسلب ثم استمر قائلاً: و أنت كنت قد التقيت به مرات في بيته أيضاً[1]

لم أقل شيئاً و لم أظهر تعجبي أو استغرابي و تركت له الوقت لينهي ما يريد قوله و بين الحين و الآخر يظهر إعجابه بالإمام و بقدراته السياسية و الشخصية، ثم يرجع ثانية إلى الموضوع الأساسي، و كان يتحدث و كأنه يقرأ في ورقة، له قدرة عجيبة على السرد و اختيار العبارات مع وضوح في المعنى.

لقد تبادر الى ذهني أن هذه الشخصية بقوتها و إدراكها تمثل مركزاً متقدماً في عالم السياسة و عالم الأمن في أمريكا، و هو كما يبدو في طريقة تقدير الآخرين له ربما يحتل موقعاً في القرار في المخابرات.

ثم سألني: رأيي بالسيد الأمام الخميني...؟

- أجبت: و هل ذلك مهم.؟
- أجاب: بالتأكيد.
- لماذا...؟
- لان الأمام الخميني ينوي احتلال العراق، كما صرح بذلك القادة الإيرانيون.

و من باب البديهية أن نعرف رأي الشعب العراقي بذلك[2]

سألته.. هل تريد رأيي...؟ أم رأي الشعب العراقي؟

- بالتأكيد رأيك يُعبّر عن فئة من الشعب
- كيف لك أن تقول ذلك......؟

---

[1] الإمام الكبير قدس سره أول مجيئه كان يسكن في النجف في محلة الحويش في دار متواضعة و كان لا يبعد عن بيتنا في محلة الجديدة ربما أقل من كيلومترين، و كنا نلتقيه في ذهابنا إلى السوق أو إلى الجامع. هذا بالإضافة إلى لقائنا معه من خلال زيارات والدي المرحوم له و علاقته الوثيقة به، و انتقل السيد الكبير في ثلاثة بيوتاً أو ما شابه و كانت كلها بيوت مستأجرة و ليست ملكاً له، إلى أن كان آخر بيت عند مغادرته و البيت المعروف في شارع الرسول و الذي لا تتعدى مساحته ربما مائة متر مربع فقط، و هو بيت مستأجر أيضاً. و هو البيت الذي قضى فيه معظم وقته خلال إقامته في النجف إلى أن غادر إلى الكويت أولاً، ثم منع من عبور حدود صفوان ثم رجوعه إلى بغداد و طيرانه إلى (نوفيل لو شاتو) في فرنسا ليقود الثورة من هنالك

[2] لم يكن ذلك من باب المعلومة الصحيحة، فلم يصرح لا السيد الإمام ولا القادة العسكريون بمثل هذا التصريح، لا خلال الحرب و لا قبل الحرب، و إنما كان جل هدفه من الحرب هو معاقبة النظام، بل إسقاطه لأنه كان يعرف خطره على المنطقة و على الأوضاع العالمية. في الوقت الذي لم تتمكن أمريكا من إدراك بعد تلك النظرة

- نعم ... هنالك وقائع على الأرض تؤكد أن المعارضة المقاومة لصدام في الولايات المتحدة منقسمة على نفسها في طبيعة العلاقة مع إيران و معرفتنا بتلك الحقيقة تجعلنا و تجعل موقفنا أكثر مصداقية.

فكرت في الأمر ملياً فوجدت انه من المناسب في هذه الحالة أن أطرح تصورات الحركة الإسلامية المعارضة من الجانب الفكري الديني، ثم من الجانب السياسي، مع أن الرجل يريد أن يتحدث عن الإمام الخميني و إيران، و أنا أريد أن أتحدث عن المعارضة العراقية و همومها، و أخيراً قلت في نفسي لأبدأ بما يريدون و أنتهى بما أريد أنا.

بدأت حديثي بنقاط عن السيد الإمام. تلك التي يعتبرها الغربيون و يفتخرون بمن يلتزم بها مثل الوضوح في الفكر وعدم اللف و الدوران، و الذي كان السيد الأمام يلتزم بهذا الجانب في عالم السياسة و الاجتماع... كذلك جانب الشجاعة المتناهية التي تكمن في نفس السيد الأمام و هي خصلة يعتز بها الرجل الغربي أيضاً و يراها طاقة هائلة يمتلكها الإنسان.

و رويت لهم حوادث كنت قد عايشتها مع السيد الإمام في مدينتنا، ثم أخبرتهم بأن إرتباط المسلمين الإماميين عموماً بفكرة الرفض للديكتاتور و لم تكن ثورة 1979 إلاّ ترديداً لمفاهيم الفكر الإسلامي الإمامي و الاجتماعي، و إنما هو متجذر في صلب الفكر الإمامي و أخبرتهم بمشاركتي في توزيع المنشورات في النجف و أنا في عمر 12 سنة و في غمرة اعتقال الحكومة الإيرانية للسيد الإمام في ثورة خوردار 1963 و حكم عليه بالإعدام في إيران، ثم أودع في السجن بانتظار إعدامه...[1]

ثم سألني أحد الثلاث الجالسين: أنت تؤيد الأمام الخميني ؟

أجبت ماذا تعني تؤيد ...؟ لهذه الكلمة معاني كثيرة، هل تعني أؤيد سياسياً أم دينياً، أم إجتماعياً أم ماذا...؟

ثم قلت الإمام الخميني قائد ديني إضافة إلى كونه قائداً سياسياً و هو من

---

[1] تأثر الغرب أيما تأثر بثورة السيد الإمام في البداية، و شعر المجتمع الأمريكي بأن شخصيته لا تفترق كثيراً عن شخصيات القديسين و شخصيات الأنبياء لان النبي في عرفهم و في مفاهيمهم إنسان مرتبط بالأرض، و ان هذه الشخصية ربما جاءت لإنقاذ العالم و ليس فقط إيران، و كان من أكثر الأمور التي تفاعل معها الغرب هو صدقه في الأقوال و الأفعال، و عدم المماطلة أو التسويف كما هي عادة السياسيين الآخرين، و كان لوقع شخصيته دور كبير. إذ بدأت موجة العودة إلى الدين في أمريكا و الغرب منذ ذلك التاريخ

مراجع التقليد (ثم شرحت لهم معنى التقليد)
قال الرجل الوقور: و لكن يا سيد شبر إن الإمام الخميني قد سمى وطني، وسمى رئيسي بالشيطان الأكبر، فكيف تتوقع مني أن أتقبل أفكار من يصفني بالشيطان؟

قلت له: إن من اطلع على أحوال إيران، و تأريخها في كيفية ممارسة نظام الشاه و مخابراته (السافاك)[1]
و مارس شتى ضروب القتل و التعذيب و التشريد تجاه الأحرار من الشعب الإيراني سيعرف جيداً لماذا كانت ردود فعل ما بعد الثورة عنيفة و شديدة، ثم قلت: بأنكم ربما أكثر من غيركم تعلمون أن نظام الشاه كان نظاماً أقامته مخابراتكم و ضخختموه بأموالكم، ثم قلت له: إنني أطرح عليكم هذا المنطق، فماذا عسى الإمام الخميني أن يقول... ؟
ثم علقت: قد أوافق الإمام أو لا أوافقه على هذا التعبير، و لكن الشيء المهم إن هذا التعبير لم يأت من فراغ....

ثم ساد صمت فيما بيننا قاطعته في مبادرتي بسؤال استنكاري و قلت: هل لي ان أعرف من حضراتكم عن سبب إلقاء أمريكا بثقلها في الحرب إلى

---

[1] أسس جهاز السافاك في إيران بمساعدة وكالة المخابرات الأمريكية (C.I.A) في عام 1957 و كانت مهمة هذا الجهاز هو قمع المعارضين لشاه إيران، و وضعهم تحت المراقبة، و استخدموا أيضاً ضد المعارضين من أبناء الشعب الإيراني أنواع التعذيب و التجويع كافة داخل السجون، بالإضافة إلى التصفية الجسدية لقادة المعارضة، كان الجنرال "تيمور بختيار" هو أول مدير للسافاك، ثم أستبدل بالجنرال "حسن بكراوان" الذي تم إعدامه على يد الحرس الثوري الإيراني بعد الثورة، تم استبدال الجنرال "بكراوان" عام 1965 بالجنرال "نعمت الله نصيري" المقرب من الشاه و هو الذي قام السافاك تحت إدارته بتصعيد القمع و الإرهاب ضد الحركات الإسلامية و الشيوعية داخل البلاد، لقد كان السافاك جهازاً ذا سلطات واسعة النطاق، حيث كان بالإضافة إلى مهمته كجهاز مخابرات أخضع الكثير من المعتقلين للتعذيب البدني داخل السجون. و منها سجن "أوين" أو "أفين" سيء السمعة، كان جهازاً للأمن الداخلي مما سمح له من مراقبة الإيرانيين، خاصة الطلبة الجامعيين داخل و خارج إيران، كما اعتاد عملاء السافاك بالتربص ببعضهم البعض. فقد قام بعض عملاء السافاك باغتيال الجنرال "تيمور بختيار" أول مدير للسافاك عام 1970، و منصور رافع زاده مدير فرع السافاك بالولايات المتحدة اغتيل أيضاً، لأنه ذكر في أحد التقارير أن تليفون الجنرال "نصيري" مراقب، تمت ترقية الجنرال "حسين فردوست" زميل الشاه الأسبق و نائب مدير السافاك لمنصب رئيس المخابرات الإمبراطورية الخاصة "سافاما" و هي نسخه من جهاز السافاك و لكن "السافاما" جهاز مخابرات مختص بمراقبة كبار المسؤولين في الدولة. بعد مغادرة الشاه في يناير 1979، استهدف الحرس الثوري 3000 من موظفي السافاك الأقوياء، فقد أعدم العديد من المسئولين الكبار بالجهاز، ثم تم حل السافاك نهائياً عندما نجحت الثورة في إيران في فبراير 1979 واستبدل فيما بعد بجهاز "فافاك" أي وزارة المخابرات

جانب صدام ضد إيران...؟ تجاهلوا السؤال تماماً، ثم سألني أحد هؤلاء الثلاثة قائلاً: إن الأمام الخميني صرح بأنه سينسف أمريكا من الداخل فإذا وجه لك او لكم طلباً في القيام بعملية ما ضد أمريكا هل ستطيعونه ..؟ ابتسمت ثم سكتُّ هنيئة و قلت له: أنا أعتقد أن هذا السؤال عندما يوجه لي فإنه استفزاز كبيراً، لأنه يتضمن معانٍ كثيرة منافية لما نعتقد به من إحترام الإنسان و تقدير للآخرين لذلك فأنا و بكل بساطة أدعوكم لسحب هذا السؤال..؟

اعتذر الجميع و قالوا: نرجو أن تقدر ما مرت به الولايات المتحدة من تهديدات لأمنها الداخلي فالسؤال لا يحمل معاني مبطنة، ناقشتهم مطولاً حول وضع السؤال..

أصروا هم على موقفهم، و أصررت على موقفي إلى أن قلت في النهاية دعوني أقل لكم بصريح العبارة ما نؤمن به: نحن حركة ترمي أساساً لإتاحة الديمقراطية ضمن نظام برلماني متعدد التشكيلات الحزبية في العراق، باستعمال أساليب الإقناع و الاعتماد على الأصوات الانتخابية مع قصوى محاولاتنا في الابتعاد عن العنف و الحرب و المواجهات و هنا عليّ أن أخبركم و بوضوح بأن موقفكم في مساندة النظام العراقي مرفوضة من قبلنا و من قبل شعبنا، أما إذا سألتم مباشرة هل تؤيدون الإمام الخميني ؟ جوابي واضح لكم نحن نؤيد كل من يمد يد العون لنا في وقت الضيق، و نحن الآن في وقت الضيق، ولا نطلب منكم المساعدة المباشرة و إنما نطلب منكم أن لا تساعدوا الظالم على المظلوم.

أما موقفنا من الحرب العراقية الإيرانية.......؟ فإنها حرب ظالمة شنها صدام بمساعدتكم و لا يمكن التغافل عن ذلك أبداً و انتم الآن تساعدون في ذبح الشعبين الإيراني و العراقي، و نأمل منكم باعتباركم دولة عظمى أن تعتبروا شخصية صدام شخصية خطرة على السلام العالمي، فلذلك يجب عليكم التدخل لإزاحة نظامه و استبداله بنظام ديمقراطي حر.

كان الكلام كله كلاماً هادئاً ضمن شواهد دقيقة جعلت الرجال الثلاثة يستمعون تفاصيله، و كأننا رجال أعمال جئنا في مهمة نريد إنجازها....

بعدها وجه أحدهم سؤالاً لي قائلاً: ما علاقتك بابن الأمام الخميني؟[1] إبتسمت أولا، ثم قلت: ليس لي أية علاقة به و لم ألتق به، ثم سألته: و ما

---

[1] يقصد المرحوم سيد أحمد

معنى السؤال...؟ قال إنه يعتقد أن أبن الأمام الخميني كان من أصدقائك، أجبت بالنفي و لم اعلق أكثر من ذلك.
ثم بدأ الرجل الوقور يتحدث ثم سألني: هل هنالك من مخاطر تشعر بها ؟ أو هل هنالك من شيء تريد أن تقوله، أو تطلبه...؟
عرفت أنهم الآن سيدخلون في حديث الصفقات، و أنهم سوف يعملون كذا لي إن أنا فعلت كذا و كذا، كما هي عادة كل مخابرات العالم.
أجبت: أبداً و أنا مرتاح جداً و أواصل عملي الدراسي و السياسي بكل حرية، و تعمدت أن لا أذكر لهم الحوادث السابقة التي تعرضت إليها فيما ذكرته سابقاً لأنّ ذلك سوف يحولنا إلى الدخول في المماطلة، و هو ما لا أريده[1]...
ثم قمنا جميعا و تصافحنا، و في الباب قبل أن أخرج إلى الخارج جاءني الموظف الأول و طلب مني الورقة ليعطيني إجازة العمل كما توقعت، و لكن خطرت في ذهني خاطرة في أن الطلب من هؤلاء و في مثل هذه المرحلة لابد و أن يكون نوعاً من الضعف أو الركون إلى المصالح الشخصية و هكذا قررت أن أنسى الموضوع و أواجه معاناتي بالتصبر و الحكمة، و عندما طلب مني موظف الهجرة تلك الورقة قلت له: و أنا في طريقي نحو الباب، غيّرت رأيي و لا حاجة لي بإجازة العمل ثم صافحته و خرجت.

ألم عميق و جرح دامي: و صلت الأخبار إليّ من الأردن بأن المخابرات العراقية قد اعتقلت والدتي و إنها الآن في السجن و أنهم يطلبون عودتي إلى العراق و بخلافه فإنهم سوف يعتقلون كل أفراد العائلة من النساء و الأطفال أيضاً.
و كانت تلك الأخبار التي نقلها أحد أقربائي بأن هنالك محظوراً في الإتصال التلفوني بأهلي أو بأقاربي أو بالآخرين لأنّ التلفونات مراقبة و أنهم يبحثون عن كل معلومة عني، لكي تكون ذريعة لاعتقال الآخرين من بقية أسرتي.

---

[1] أنا أعلم أن للمخابرات الأمريكية أقساماً و كلها تنضوي تحت FBI و كل قسم لا يعلم بما يعمله القسم الآخر إلاّ بحدود ضيقة، فالقسم الأول الذي التقيته في الماضي هو غير هذا القسم، فهؤلاء سياسيون جيدون و ذو قدرات معلوماتية، بينما القسم الأول الذي التقيت بهم في الكافتريا يبدو أنهم من الصنف العام، الذي هدفه جمع المعلومات و تقديمها إلى هؤلاء، و كما يبدو أيضاً أن هنالك قسماً أخرى هدفه التخويف و الابتزاز ..

ملأ قلبي الألم فالحرب الدائرة بيني و بين المخابرات العراقية الآن هي حرب صامتة هدفها الضغط عليّ بالعودة إلى العراق و قد يكون لتلك الحرب من نتائج في بعض الحالات و التي فرضت على الكثير من المعارضين الرجوع إلى العراق و مواجهة المصير المخابراتي خصوصاً و أن الأمر هنا متعلق بامرأة، و أية امرأة ...؟ أنها والدتي ذو الستين سنة[1] و في أيدي أشرس البشر من عناصر المخابرات أولئك الذي تخلو قلوبهم من الذمم و الضمائر، و لم أتمكن من الانتظار قبل أن أتصل لأعرف الخبر اليقين لأنّ ضبابية المعلومات تزيدني ألماً و وحشة، فاتصلت بأحد أرحامي في بغداد و كان على معرفة بوضع الوالدة و كانت المكالمة عبارة عن مصطلحات يفهمها بعضنا[2] اخبرني هذا الرجل بأنهم قبل سنة و بحدود 1982 اعتقلوا والدي الرجل صاحب المواقف الجهادية الكثيرة و الخطيب المعروف الفذ الذي تفتخر به محافل العراق الأدبية و العلمية و الدينية....[3]

و بعد اعتقال والدي بدأ رجال المخابرات البعثية تأتي إلى البيت و تستفسر من والدتي و أختي الصغيرة و عن الأخوة الأربعة الذكور، الذين استشهد اثنان منهم، بينما كان الثالث أصغرنا ملتحقاً بالخدمة الإجبارية في الجيش، ثم بدأوا بالضغط على والدتي حتى تعطيهم معلومات عن أرقام تلفوناتي و مكان سكني و غيرها كما طلبوا صوراً شخصية منهم، فكانت والدتي تجيب بأنها لم تتكلم معي منذ أكثر من سنة و نصف، ثم أحضرت ما تمتلك من صور وأعطتها إياهم، و هكذا بعدها أقدموا على احتجازها مع أختي الصغيرة التي

---

[1] هي السيدة الفاضلة حليمة شبر (أم صلاح) من السلالة العلوية الطاهرة التي أنجبت شهيدين فضلاً عن بقية أبنائها من الذكور و الإناث الذين واصلوا و صبروا في طريق الجهاد و الصراع، كان من المفترض أن يعتقل جميع أفراد العنصر النسوي من عائلتي و هن ثلاث أخوات مع الوالدة، و كانت الأخوات كلهن إما في حمل أو في وضع رعاية أطفالهن الرضع، و قد ساوموا العائلة إما بعودة الذكور أوالبقاء في السجن، و هي الآن بعد تلك المآسي و بعد أن قضت سنة و نصف السنة في السجن خرجت ثم هاجرت إلى كندا، و منها إلى سوريا إلى أن عادت الآن إلى النجف و هي -و لله الحمد- إمرأة تمثل تاريخاً مشرفاً و شخصية جهادية يعتز بها

[2] كان بدل من أن نقول السجن نقول المستشفى، أو بدل من أن نقول رجال الأمن نقول نسيبها أي أهل زوجها و هكذا..

[3] الوالد الخطيب صاحب المؤلفات و المصنفات المعروفة و لسان الثورة و متكلمها الذي دوخ أساطين التعذيب البعثية في جرأته و في منطقه، راجع ترجمته في كتاب (خطيب الأمة) و في كتب أخرى كثيرة منها (معجم الخطباء)، و منها (ماضي النجف و حاضرها) وغيرها مما نشر خلال بعد التحرير و قبله

كانت في أيام زواجها الأولى[1] و بعد جهود حثيثة مضنية قام بها أقارب زوج أختي أطلقوا سراحها و أبقوا والدتي رهن الاعتقال في غرفة صغيرة لا تتعدى 6x6 أمتار فيها خمسون إمرأة بعضهن مع أطفالهم الصغار و هؤلاء النسوة هن اللائي كان نظام بغداد يساوم أزواجهن أو أبناءهن على العودة من الخارج..[2]

---

[1] هي الأخت الأصغر أم محمد سلوى شبر و زوجها الأخ الفاضل قاسم محي الدين

[2] من المؤسف أن تلك الفترة لم تؤرخ و إلى الآن، فيما يتعلق باعتقال العنصر النسوي و مواجهته للنظام الديكتاتوري، و هي ربما مأساة أكبر من كل مآسي العراق، و لعل السبب في ذلك هو عمق الجرح الذي من الصعوبة الحديث عنه، و لكنني أؤكد أهمية ذلك و أن يتم تاريخه و كتابته من قبل الذين سايروا تلك الفترة المظلمة من حكم العراق

①①

◗ الفصل الحادي عشر ◖

رِحلةُ الموت -1-



حصارٌ في حصار.... بعدما تمت إجراءت الطلاق الرسمية بيني و بين زوجتي وجدت نفسي أن حركتي صارت أكثر حرية من السابق، و ذلك بأن ما سيصيبني سوف لن يلحق بزوجتي شيئاً ولا بطفلتي، و خصوصاً فإن التحاقها بالجامعة في أي وقت لن يعيق حصولها على فيزة الطالب و إن كان مؤقتاً.

و في هذه الإثناء وصلت بطاقات السفارة العراقية لي و لزوجتي و إبنتي. و قد حجزوا ثلاث مقاعد في الخطوط الجوية، اتصلت بالقنصلية البريطانية في (دالاس)[1] و طلبت منهم تأشيرة الدخول إلى بريطانيا فسألتني إذا كنت سأبقى أكثر من 24 ساعة قلت لهم لا مجرد توقف بسيط ثم أواصل رحلتي إلى الشرق الأوسط، أخبروني بأن إدارة الجوازات في المطار قد تسمح لك بدخول بريطانيا ضمن مدة محددة أو لا، فإذا لم يسمح بذلك فاني أبقى في المطار حوالي 6 ساعات حتى أطير على الطائرة السورية إلى دمشق.

و هكذا حزمت حقائبي و غادرت مطار (نيو أورليانز) لأنزل في مطار (هيثرو) و هنالك قلت للموظف ما أخبرني به القنصل في (دالاس) فختم لي الموظف بالخروج لـ 24 ساعة ثم العودة ثانية للطيران إلى الشرق الأوسط، و بعد تجاوزي الحاجز الخاص بالمسافرين لحقني الموظف و طلب مني الجواز ثانية لمراجعته و كان جواز سفري عراقياً فيه إقامة الطالب في الولايات المتحدة فأخذ الجواز ثم شطب الختم الذي ختمه للمرور في الأرض البريطانية ثم أمرني أن أجلس في غرفة جانبية...

جلست هنالك مع حقيبتين كانتا معي و كان هنالك في الغرفة مجموعة من الناس أحدهم إمرأة إيرانية سألتني عن قصتي أخبرتها بالأمر، قالت: إن هؤلاء وحوش و ليس في قلوبهم رحمة و هم مستعدون لتسليمك للنظام العراقي.

و خلال أقل من ساعة جاء رجل المباحث البريطاني[2] تعلو وجهه علامات اللؤم و الشر كبير العمر و بدأ يسألني عن إسمي و اسم زوجتي و معلومات

---

[1] إحدى مدن ولاية تكساس المجاورة إلى ولاية لويزيانا

[2] خدمة الاستخبارات السرية أو الإس آي إس) بالإنجليزية Secret Intelligence : Service (SIS))، تعرف بصورة عامة باسم أم آي-6، MI6 استخبارات عسكرية، قسم 6 هي مكتب الاستخبارات الخارجية للمملكة المتحدة تحت إدارة هيئة المملكة المتحدة المشتركة للاستخبارات(UK Joint Intelligence Committee)، تعمل بجانب خدمة الأمن(أم آي

كثيرة عن سبب رحلتي و لماذا لم أرافق زوجتي معي...؟ و أين تذهب و لماذا تركت دراستك في أمريكا و أنت على أبواب التخرج...؟ ثم لماذا لا تذهب إلى العراق... و هكذا، ثم أسئلة تتعلق بوضعي في الولايات المتحدة و التي عرفت أن مصادرها جهاز المخابرات الأمريكية...

و عندما انتهى التحقيق معي قال لي المحقق بكل وقاحة: أنا لا أصدقك، قلت له ذلك تابع لك. ثم جاء محقق آخر و سألني نفس الأسئلة محاولاً أن يكتشف الضعف في أجوبتي، ثم جاء الثالث و في كل مرة تعاد نفس الأسئلة و بشكل مزعج حتى إذا انتهى ثالثهم.

كانت المرأة الإيرانية تستمع إلى ما أقوله و ما يقولونه، فاقتربت مني ثانية و قالت: أذا ضغطوا عليك قل لهم إني أطلب اللجوء السياسي. عندئذ سيجبرون في التوقف على الاستمرار في الاستجواب...

كل تلك المعلومات كنت لا أعلمها، فلا أدري كيف سخر الله هذه المرأة الغريبة لمساعدتي في هذه الظروف العصيبة.

البريطانيون سباقون في تسليم المعارضين: بعد ذلك جاء رجل الأمن البريطاني و قال: انه يجب ترحيلي إلى العراق فالطائرة العراقية في انتظارك.

و بعد نصف ساعة تقريباً اقترب مني ثلاثة رجال ليحملوني إلى مكان لا أعلم أين....؟ سببتهم بهدوء و بدون التناوش بالأيدي و كانوا يصيحون و يتوعدون ثم يهددون بأنهم إذا تطلب الأمر سيحملونني إلى الطائرة العراقية التي كانت تنتظرني في المدرج و ذلك تقريباً بحدود الثانية عشرة ظهراً[1] و

---

5)، اتصالات الحكومة، المركز الرئيسي (GCHQ) و موظفوا الاستخبارات الدفاعية.(DIS) ، تكون الإس آي إس مسؤولة عن نشاطات التجسس للمملكة المتحدة خارج المملكة عبر الدول المختلفة. يقع المبنى الرئيسي للإس آي إس الحالي في تقاطع فوكسهول في لندن منذ1995

[1] و الظاهر هو أن المخابرات البريطانية كانت قد اتصلت بالسفارة العراقية في لندن قاعدة الإرهاب في الغرب و تمكنت من جمع المعلومات عن شخصيتي، كما اتصلت أيضاً بوزارة الخارجية العراقية ثم بجهاز الأمن الأمريكي، و كان الجميع يرون في الإسراع بإلقاء القبض علي و نقلي إلى الطائرة العراقية التي تأخرت نصف ساعة عن موعد إقلاعها، و قد كانت تلك الفرصة هي الفرصة الذهبية التي تنتظرها المخابرات الأمريكية، قاومتهم دفعتهم، صحت في وجوهم، سببتهم قلت لهم: انتم أنذال... عديموا الرحمة، أما تستحون في مساندتكم لنظام هذا المجرم، أهذه هي ديمقراطيتكم ...؟ أهذا ما تنشدون به......؟ لماذا هذا العمل غير الإنساني..؟ إذا كنت غير بي مرغوب في أرضكم، فدعوني آخذ طريقي في أي مكان أختاره،

في هذه الإثناء و إذا بي أجد أخي الكبير[1] الذي يقيم في بريطانيا أمامي في الغرفة، يبدو أنهم في بداية التحقيق سألوني من تعرف قلت أخي الكبير و إنه ربما ينتظرني في الخارج فنادوا عليه من خلال مكبر الصوت ثم بدأوا التحقيق معه حول الأمور التي دارت بيني و بينهم.

و لكن الشيء المدهش أنهم سمحوا له في تلك اللحظة من المواجهة ما بيني و بين الأمن البريطاني، و لكن كيف سمحوا له في أن يدخل الغرفة، مع أنني أعزو كل ذلك إلى إرادة الله في نصرة عبده، ثم قال مسؤول الهجرة لأخي: هل تضمن أخاك الى غد...؟ أجاب نعم، قال: دعوه يذهب مع أخيه و احجزوا جواز سفره عندكم فخرجنا معاً[2] و ذهبنا إلى بيته، و نمت و أنا في اشد حالات الإعياء من جراء اقترابي من حافة الموت، ألم يصنعوا ذلك بالأخ المهندس فوزي حمزة و الأخ المهندس حسن خير الدين في سنة 1986 عندما سلمتهما فرنسا إلى النظام العراقي.....؟

و في صباح اليوم الثاني وصلت المطار و أخذت جواز سفري من الهجرة البريطانية ثم ركبت الطائرة السورية و حطت ليلا في دمشق فاستأجرت سيارة إلى دمشق و بدأت ابحث عن صديق لي هنالك و بعد عناء وجدته.

كنت أصيح في وجوههم، و أنا أتنقل من كرسي إلى كرسي بينما كانت السيدة الإيرانية تنظر إلي و هي على ثقة بأنها أخبرتني بكل ما أتمكن فيه من الإفلات، و لكن ماذا اعمل في بريطانيا إذا طلبت اللجوء...؟ و كيف سوف انهي شهادة الدكتوراه.....؟ و كيف سأنجز المهمة التي أنا ذاهب من أجلها.....؟ لذلك رفضت أن أقول كلمة اللجوء و بقيت أقاوم، كان أحد رجال المخابرات ضخم الجثة أصلع الرأس، و كان اقلهم خشونة معي، أحاطوني من الجوانب في الوقت الذي كنت فيه اشتري الوقت لكي تقلع الطائرة العراقية، و يبدو أن رجال الأمن البريطانيين كانوا مترددين في الضغط علي أكثر من المعتاد، لان ذلك قد يدعوني إلى طلب اللجوء. و هو ما لا تريده بريطانيا حسب سياستها تجاه العراقيين، و لذلك بدأوا يمارسون الضغط و الصياح لتخويفي عسى أن أذعن لأمرهم طواعية...

[1] هو أخي الاكبر غير الشقيق الدكتور كاظم شبر الاقتصادي و المؤلف المعروف صاحب المصنفات الاقتصادية و الأستاذ في جامعة ويست منستر

[2] الذي يبدو لي أن هنالك جهتين كانتا في المواجهة، الأولى هم المخابرات البريطانية سيئة الصيت و هم الرجال الأوائل الذين حاولوا ابتزازي في ركوب الطائرة العراقية، و الجهة الثانية هم رجال الهجرة برئيسهم الذي كلمناه أخيراً و الذي ربما جاء بدون أن تكون له أية معلومة عن الأمر، و كل ما قاله هو أنه لا يخشى على قطره من شخص يريد أن يغادر بريطانيا فلماذا تحتجزونه، و هكذا هو الأمر في عالم الصراع

①②

◖ الفصل الثاني عشر ◗

رحلة الموت -2-



النفوذ إلى الداخل و المواجهة: بعد أيام التقيت بالمجموعة التي اتفقت معها على المهمة و كان أحدهم سودانياً قادما من العراق حيث اجتمعت به في مقهى... كان الرجل يحمل جواز سفر مصري و كان معه جواز سفر آخر مصري فيه صورتي مع كل التأشيرات و كانت طريقة رحلتي تبدأ بالسفر إلى السودان و هنالك في السودان استبدل ملابسي بملابس مصرية، و من ثم الرجوع إلى مصر، ثم من مصر إلى الأردن ثم العراق.

كانت المهمة قد خطط لها من قبل مجموعة معظمهم من المجاهدين الذين كانوا من ضمن تشكيله الجيش العراقي تتوزع على شكل خلايا متحركة تتبدل بشكل أسبوعي ترتبط بهم شخصيات عراقية معظمهم في وزارة التخطيط و وزارة الزراعة. هذه المجموعة نفذت عمليات كثيرة كان أهمها تفجير مستودع للذخيرة في سنة 1982 في البصرة هذه العلمية قد هيأت لفتح ثغرة في قوات الجيش العراقي لعبور تلك المجاميع إلى خلف الخطوط.

تضم هذه المجموعة أيضاً أكثر من (500) شخص معظمهم من المطلوبين للدولة يساندهم حوالي (250) شخص من موظفي الدولة و ممن يعتمد عليهم في دوائرهم، كان بعضهم عمداء كليات و الآخرون كانوا من سلك الشرطة و خصوصاً المرور، توزيع المهمات كانت الأصعب و كان يقوم بها ثلاثة أشخاص يتحركون بدون توقف 24 ساعة باليوم يستعملون أساليب في غاية الدقة بينما كانت المجموعة الأخرى تتعاون معهم و لكنها ليست ضمن تشكيلاتهم، تضم المجموعة عدداً من الشيوخ و النساء يملكون قدرات هائلة في التخفي و اجتياز الحواجز، و هنالك المجموعة الخاصة التي تضم حوالي عشرين شخصاً يعملون ضمن سلك المخابرات العراقية خمسة منهم في الحرس الجمهوري برتب متقدمة.....

لكل مجموعة بيوت و أوكار خاصة موزعة في مناطق العراق المختلفة متخفية بصورة محكمة و من الصعوبة كشفها... هدف هذه المجموعات هو اغتيال رأس النظام بالدرجة الرئيسية مع محاولة تجنب أي نوع من أنواع الأعمال الأخرى التي تضعف النظام كالتفجيرات أو قتل عناصر النظام و غيرها، لكي تبقى المجوعة في مأمن عن الملاحقة.

في نفس الوقت ارتأت هذه المجوعة الفدائية أن لا ترتبط بمجاميع جهادية أخرى من تلك التي تعمل في الداخل و الخارج و ينتمي قسم كبير من هذه

المجاميع إلى حزب البعث لتسهيل مهمة استطلاع الأخبار و من ثم ملاحقة تحركات صدام ثم محاولة اغتياله.
كان العنصر الفعال في هذه الخلية شخصية لها من القدرة ما يعجز عنها الوصف بالإضافة إلى الذكاء و الملكة الفكرية، كان لهذه الشخصية القدرة العالية على التلون حسب المحيط الموجود به و التخلص من المواقف الصعبة في عمق المواجهة، المركز الرئيس للمجموعة الفدائية هذه في قرية تقع في الشرق الجنوبي من كربلاء لا أدرى بالضبط موقعها و لا اسمها مع إنني زرتها في ذلك الوقت.

كانت المهمة التي جئت من أجلها هو دراسة حاجة المجاهدين إلى التكنولوجيا الحديثة في نقل و إيصال المعلومات و كانت هذه هي كبرى مشاكل الحركة في تحريك المجاميع الجهادية و كان هذا الجانب من العمل يأخذ الحيز الكبير من جهدها، مما أثر على المهمة الرئيسية التي من أجلها أنشأت فكرة هذه الكتيبة، كما و في نفس الوقت كانت مهمتي أيضاً دراسة حالات التحرك من خارج العراق و طرق تسليكها أمام المجاهدين الراغبين في الوصول إلى الداخل.

بدايات العمل قد بدأت من بريطانيا عندما سافرت إليها سنة 1980 و هنالك التقيت مع القدرات الأولى لتبني المنهجية، و بقيت تلك الفكرة في طور البناء حتى سنة 1983 عندما تحولت إلى قوة حقيقية تطارد رأس النظام و النيل منه، فالمبدأ الذي أنشئت عليه هو عدم جدوى أي عملية فدائية أو انتحارية تقوم بها مجاميع المقاومة في الداخل أو الخارج. و ذلك بلحاظ امتلاك النظام قدرة عملاقة على الإعلام و تشويه الصورة بالإضافة إلى الوحشية المفرطة تجاه أبناء الشعب فيما لو أراد النظام الانتقام من الشعب العراقي.

خلال عمل المجموعة لم يتمكن النظام إلاّ قتل خمسة أشخاص من أعضائها و كان القتل ليس بدافع انتمائهم إلى هذه المجموعة، و إنما لأسباب أخرى متداخلة.
كان كل أعضاء المجموعة فدائيين، و لا يختلف دافع الفداء بشيء بين رجل و آخر، و كأنّ الله عز و جل قد خلقهم من طينة واحدة.

<u>العملية و الإصرار :</u> دخلت إلى العراق قادماً من الأردن بعد أن هيأت لي مجاميع الخارج كل المعلومات و التسهيلات و كانت نقطة الضعف الكبرى التي لم أتمكن من تجاوزها هي ضعف اللهجة المصرية في حديثي، و لكن

المجاهدين أخبروني بأنني يمكن لي أن أدّعي سوداني المولد. عندها تختلط اللهجة السودانية بالمصرية فتتشابك الأمور.

غيّرت شكلي جيداً، أطلقت لحيتي ثم حلقت شواربي على الجانبين، ثم حلاقة شعر رأسي تماماً مع نظارات طبية ملونة، كما وضعوا لي قطعة من البلاستك تصل ما بين طرفي الأسنان لتغيير نبرة صوتي إلى الدرجة التي يصعب معها تمييزي إلى حد ما، كانت فترة المهمة أسبوعاً واحداً فقط عليّ أن أنجز الأعمال المتفق عليها، ثم أعود ثانية إلى الأردن و منه إلى سوريا و هنالك استرجع جواز سفري العراقي ثم أواصل رحلتي، و كان القرار قد أتخذ بأن الاتصال بالمجاميع الخاصة بالعمل يجب أن يكون يومياً، فإذا لم يحدث ذلك لأي سبب من الأسباب فان ذلك يعني إما الاعتقال أو القتل، و كانت عملية الاتصال اليومي صعبة و رهيبة في ظروف العراق و ظروف الحرب[1].
إسمي في الجواز المصري هو عبد العزيز مصطفى حسنين الدهوري، و أعتقد أن هذا الشخص موجود و أن جواز السفر هو جواز حقيقي و ليس مزوراً أو مسروقاً.

إتنقلنا إلى العراق عن طريق الأردن في سيارة مع مجموعة من المصريين كان أحدهم رجلاً كبيراً مسناً و كنت إلى جانبه أرعاه و أهتم به طوال الطريق و كأنني إبنه أمام المسافرين الآخرين...

و عندما دخلنا الحدود العراقية شعرت بآلام لا تطاق داخل نفسي، و في ذات الوقت شعرت بفرح غامر تصارعتا في ضميري هاتان القوتان، و كنت أراقب ذلك الصراع جلياً على تصرفاتي...

فهذا الوطن الذي اضطهدني و قتل في نفسي روح الألم و روح الإبداع و رمى بي ثلاث مرات في غياهب سجونه ثم عذبوني أزلامهم أيما تعذيب....

---

[1] ما رويت في هذه الوريقات من تلك الرحلة إلاّ الجزء القليل من التجربة و الذي كان لي أن أضع كتاباً خاصاً بتلك الرحلة الخطرة مع أنني لم أكتب كل الذكريات التي مررت بها عندما كنت في العراق بل حاولت بالقدر الممكن أن أسجل الأحداث في راسي، و لكنني لم أسجلها ثانية عند خروجي من العراق فبقيت ذكريات أتذكر قسماً منها أحياناً و في أوقات ترتبط بذلك الحدث

إنني في حالة لا أتمكن فيها أن أقول بأن الذنب هو ذنب الوطن أو أهله أو مكانه، أم ذنبي أنا....

لقد لاحقوني منذ أن جاؤوا إلى الحكم في سنة 1968 و لاحقوا إخواني و عائلتي، لقد اعتقلوا إخواني الثلاثة في بداية مجيئهم إلى الحكم و عذبوا أخي الذي يصغرني بسنة واحدة و كان أنذاك بعمر 16 سنة كذلك أخوي الصغيرين اللذين اعتقلوهما و أحدهم بعمر (14 سنة و الثاني 16 سنة) و قادوهما إلى سجن (الفضيلية) الرهيب في سنة 1974 حيث ساموهم سوء العذاب.
ثم مرت النصف الساعة الأولى التي عبرت فيها الحدود العراقية و أنا أعيش لحظات المريض المشلول الذي لا يقدر على عمل شيء، فتفكيري مليء بكل آلآم الماضي و محذورات المستقبل، و كنت أسأل نفسي ماذا لو عثروا عليّ.... ؟ ماذا سيكون مصير زوجتي و إبنتي ......؟ ثم ماذا ستكون نتيجة المشروع الذي أعددناه للقضاء على رأس النظام....؟
لم أسأل نفسي كيف سيعذبونني و بأي أسلوب...؟ لقد سمعت أن هنالك أساليب متقدمة في انتزاع الروح عما كانوا قد مارسوها معنا في أواسط السبعينيات، إنها أساليب يعجز المرء عن وصفها...
فهنالك المعتقل الرهيب الرضوانية و هنالك معتقلات جديدة بنيت في أنحاء العراق كالذي شيّد في الكاظمية على أطراف بغداد و غيرها و التي لا تقارن بما عانيناه في سجون رقم (1) العسكري و سجون الأمن العام.
ثم بدأت أفكر في جدوى عملي و قدرته على إحداث التغييرات المنشودة. وهو تفكير غالباً ما يطفو في عقل الإنسان إذا ضاقت عليه الحيل و تعطلت فيه السبل، أو إذا حلّ الشيطان في نفسه بعد أن وجد له مرتعاً بسبب التردد و بسبب صعوبة الظروف و قساوتها.

كنت عندما أعيش هذا النوع من السلبية في التفكير ألجأ إلى الخزين التأريخي الضخم الذي أحمله في ذهني عن مسيرة الأبطال و المضحين من مشاعل طريق ذات الشوكة، و كان ذلك الخزين الكبير لما فيه من عطاء و قوة كفيلاً بفتح طريق اليقين أمام عملي و تصميمي.

وصلنا نقطة التفتيش العراقية فاخذ السائق جوازات سفرنا و قدمها إلى موظف الجوازات بينما كنت و الرجل المسن نتمشى بقرب البناية، و كنت أراقب عن كثب كيف سيتعامل الموظفون مع جواز سفري، لكي أُرتب شيئاً ما فيما لو حدث ما لا تحمد عقباه، أرجعوا الجوازات، أخذناها ثم ركبنا السيارة فانطلقت تغمر عباب الصحراء متجهة شرقا باتجاه بغداد.

كان الأخوة قد أشاروا عليّ أن أنزل في أحد الفنادق التي ينزل فيها المصريون في منطقة (الحيدرخانة) في شارع الرشيد الليلة الأولى، لأخذ قسطاً من الراحة لمدة سبع ساعات ثم أنطلق بعدها الى أحد الأوكار في منطقة الاعظمية في بغداد التي ستكون منطلق العمل، و عندما نزلنا في كراج منطقة (علاوي الحلة) أردت أن أودع الرجل المسن المصري لأذهب حيث الفندق المقرر لاحظت في أطراف الكراج مجموعة من رجال المخابرات العراقية، و رجال الانضباط العسكري تسأل المصرين عن هوياتهم و جوازاتهم ثم تحقق معهم و هم في الكراج ليعرفوا فيما إذا كان هنالك من المندسين فيما بينهم، نظرت يمنة و يسرة لأجد مخرجاً آخر أتجنب فيه هذا التفتيش و أنا اسأل الله أن يوفقني في مهمتي، و إذا بالرجل الكبير يضطرب من شدة الإعياء فما كان مني إلاّ أن وجهت كل اهتمامي به لمساعدته في حالته المرضية التي كانت تشبه الربو، بقيت معه ساعة واحدة في أرضية الكراج أحاول مساعدته على التخلص من أزمة التنفس....

في هذه الأثناء انسحب رجال الأمن من الكراج و تأكدت أن الخارجين من المسافرين لم يتعرضوا إلى التفتيش و هكذا انسللنا أنا و الرجل المسن و أخذنا تاكسي ليأخذني الرجل إلى بيت نسيبهم زوج ابنته السوداني الجنسية و الذي يسكن في عمارة في منطقة الفضل ببغداد (في شارع الكفاح).... و كنت أراقب الموقف جيداً و أستقريء كل من ألتقي معهم فيما لو كنت أثير الشك في نفوسهم، نزلت من العمارة و كان أمامي فقط ساعة واحدة لأسجل وصولي عند قائد المجموعة و إلاّ فإن الأمر سيتغير و تتخذ إجراءات مغايرة، و أعتبر أنني من المعتقلين أو المقتولين، كان عليّ أن أصل إلى المكان الذي يقع في ساحة الرصافي، كانت هنالك سلة مهملات تقع يسار صيدلية في الساحة تماماً و كان عليّ أن اشتري قنينة للمشروبات الغازية، ثم أضع في داخلها ورقة و عقب سكائر و أرميها في السلة و كانت هذه كلمة سر اللقاء....

ألحّ الرجل نسيب الرجل الكبير أن أبقى الليلة في بيته خصوصاً بعدما عرف كيف قمت بمراعاة والد زوجته، فلم يتركني فقلت له: نعم سأرجع بعدما اذهب و اشتري دواء من الصيدلية و هكذا نزلت إلى الشارع ثم قطعت المسافة سيراً على الأقدام إلى ساحة الرصافي و أديت الأمر بدقة بعدما رميت زجاجة مشروب البرتقال و بداخلها ورقة و عقب سيجارة كنت أدخنها، كانت كلمة السر التي أنفتح عليها على الآخر هي.

(اهو يا شيخ... مالك مهموم).

الجواب... (و مالك انت يا جدع).

و يرد علي... وصلت.

انتظرت نصف ساعة لم يصل رابط المجموعة فساورني الشك كثيراً و كان عليّ و في مثل هذه الحالة أن أتّبع طريقاً معقداً لإعادة الربط بالمجموعة و لكنني كنت قد تم إعلامي بأن الانتظار أكثر من نصف ساعة خطر و عليك أن تغادر بعدها.
رجعت في طريقي إلى الشقة و أنا أصعد الدرج جاءني رجل مسن عراقي يعتمر (الجراوية) سألني أولاً عن شارع ما، و عن قهوة (أموري) ... لم أقل لا أعرف بل أشرت إلى جهة أخرى من الشارع، ثم أثناء ذلك قال لي كلمة السر، سكتت هنيهة لأتبين أنها هي، أعادها ثانية حدقت في وجهه و أجبته، ثم أجابني أيضاً، فقال لي دلني على قهوة (أموري) فتظاهرت في السير معه نحو القهوة ثم جلسنا، و كان يحدثني بالخطة و بين الحين و الأخرى كان يضحك ضحكة مسترسلة و كأننا جالسين نتسامر، و كانت الخطة أن صداماً سيكون فيما بعد غد في حديقة الشعب في بغداد و كان عليّ أن أخرج من بغداد حالاً لئلا يلقي القبض عليّ فيما لو حدث شيء، لم أقل شئ، و كان مما أخبرني به أن هذه المرة ستكون الضربة القاضية و النهائية لهذا الطاغية، لم أناقشه بالخطة، بل أعطاني كلمة السر لكي أكون في الموصل غداً، حفظت كلمة السر جيداً و كيفية الوصول، ثم افترقنا و قررنا إذا حدث شيئ ما فالإشارة تبقى نفسها ليومين متتالين.... عدت إلى الرجل السوداني و أخبرته بأنني يجب أن أغادر لأنني عليّ أن ألتحق بشركة مقاولات في منطقة الحلة.

ركبت السيارة و توجهت إلى الموصل و كانت نقاط التفتيش بأكملها سهلة لا تتطلب جهداً و عناء، و عند وصولي بعد ست ساعات إلى الموصل ذهبت إلى المنطقة المحددة و بعد أن رميت الزجاجة في سلة المهملات قرب شارع لا أتذكر اسمه الآن ثم ذهبت إلى المقهى لتناول الشاي فجاء صاحبي و أعطاني كلمة السر ثم سرنا معاً و كان الرجل الذي التقيته يبدو و كأنه عامل بناء نحيف جداً أسنانه سوداء من كثرة السجائر عيناه غائرتان، مشينا إلى شقة في أحد الأحياء على أطراف معسكر الغزلاني ثم زودني بمسدس سريع الطلقات أخفيته في جانبي ثم اطلعت بعدها على سير الأمور و حاجة المراكز الجهادية إلى أجهزة اتصال ثم أطلعني على ما يملكون من معدات يستخدمونها في تجمع المجاهدين من أنحاء العراق لتنفيذ المهمات المعدة للضربة الرئيسية في اغتيال رأس النظام، بعدها أخفى كل شيء في مكان لم يطلعني عليه ثم قال لي عليّ أن أعود إلى النجف بالإشارة المتفق عليها و أمامي (48) ساعة.

خرجت من الشقة ثم مشيت خطوات بعدها وقفت لأشرب شيئاً من المرطبات ثم حددت طريق سيري، و إذا بسيارة المخابرات تعترضني، وقفت و لم أتحرك و استجمعت شجاعتي و قررت أن أواصل لهجتي المصرية، صاح بي أحد عناصر المخابرات بمعناه (يا زوج) غبي، ضحكت في وجهه متظاهراً أنني كما يقول، فنزل من السيارة و صفعني صفعة أطارت صوابي، أمسكت نفسي من الوقوع على الأرض، و بينما أنا أتحسس الموقع، و هل أن وصول هؤلاء جاء عن طريق معلومات استخباراتية أم أنهاعشوائية أم ماذا........؟

قلت لهم باللهجة المصرية: ليه يا عم...؟ دفعني ثانية، و بينما هو يتسلى في ضربي كان زملاؤه في السيارة قد انطلقوا في ضحكات هستيرية، كذلك أنطلقت أنا أيضاً في ضحكات هستيرية، فعرفت أنهم يتسلون و يضحكون لهذه الأعمال فضحكت معهم، فأخرج دينارين من جيبه و أعطاني إياهما، ثم رفسني على مؤخرتي، و ركب السيارة مع زملائه و هم مسرورون في ضحكاتهم الخبيثة... جلست على الأرض منفعلاً لكي أستوعب الموقف و أفكر في جدية الأمر و هل أن القضية هي من باب الهزل أم ماذا.......؟ وجدتهم قد اختفوا فعلاً، أحضرت مسدسي تلمسته جيداً فوجدته على استعداد للمنازلة، قمت من الأرض.

جاء أحد المارة سألني ماذا بك...؟ قلت له: ما عليش... ثم وقفت في موقف السيارات العمومية إلى أن جاء فركبته إلى حيث الكراج الرئيسي الذي ينقل الركاب الى بغداد و من هنالك إلى النجف.

و على الطريق إلى مدينة النجف تم الاتصال مع رابط المنظمة الذي أعطاني سيارة أجرة لاستعمالها خلال يومين و سأبقى بها هنا، لأنني أعرف المنطقة جيداً و بإمكاني الحركة بسهولة، و في نفس الليلة كان هنالك اجتماع مهم لخمسة كوادر من أجهزة المقاومة، التي قدمت إحتياجاتها و أهمها الحاجة إلى إدخال التكنولوجيا إلى عالم المقاومة، و عندما دخلت إلى البيت الذي يقع في منطقة (حنون) الذي التقينا فيه تركت السيارة في ساحة تبعد كيلو متر واحد عن مكان الاجتماع الذي استغرق تقريباً ساعتين.

وعند رجوعي تحسست أن في الأمر شيئاً، فهنالك سيارات استخبارات تروح و تغدو حول مكان السيارة ثم وجود مجموعة من الأشخاص منتشرين في المنطقة بملابس مدنية، حاولت أن أتخذ طريقاً آخراً للوصول إلى السيارة فشعرت بأن هنالك شيئاً ما، لا أعرف هل هو متعلق بي أم بشيء أخر....؟ فقررت أن ابتعد عن المكان ريثما تهدأ الجلبية، فاتخذت طريق الشمال الشرقي و هي منطقه شرق (شارع المدينة) في النجف بينما تقف السيارة في

أحد فروع ذلك الشارع في الجهة الغربية... و بينما أنا أسير اعترضتني سيارة نزل منها ثلاث أشخاص محاولين الإمساك بي[1]

في هذه المرة الأمر واضح جداً إنها مسألة مواجهة و تحتاج إلى صراع و عراك.... و قبل أن يصل الأشخاص نحوي التفت خلفي فلم أجد سيارة أخرى في الشارع، كما أن الأشخاص الثلاثة لم يسحبوا أسلحتهم لحد الآن، و لكنني تأكدت من أنهم رجال مخابرات، و بحركة سريعة سحبت المسدس و سددت نحوهم طلقة واحدة ثم طلقة أخرى سقط أحدهم على الأرض و انبطح الآخران و لا أعرف هل أصابتهم الرصاصة الثانية أم لا، هربت رجوعاً إلى الوراء، لحقتني السيارة بسائقها، أطلقت نحوه رصاصة ثالثة هشمت الزجاجة الأمامية، ترجل راكضاً نحو زملائه، ركضت في الشارع لأجد مهرباً حتى صادفت (مدرسة الجمهورية) تسلقت الجدار من جانب الشارع العام ثم اجتزت الساحة و لكن قبل أن أعبر الشارع الثاني كانت هنالك فتحة في الحائط، وجدت نفسي أنني ملاحق فعبرت إلى الجانب الجنوبي ثم ركضت و عبرت الشارع بينما انهمر الرصاص نحوي لا أعرف من أين، بل كنت أرى بأنني من المستحيل أن أتوقف أو أسلّم نفسي لهم إلاّ قتيلاً، من رصاصهم أو من رصاصي....! و لا أدري هل أصبت أم لا...؟ ثم دخلت بيتاً صعدت مباشرة إلى السطح، ثم اجتزت السطح الأول إلى السطح الثاني ثم الثالث ثم إلى الجهة الأخرى من الشارع الآخر جنوباً محاولاً الهروب بعكس المدينة.

فحصت المسدس وجدت فيه سبعة رصاصات من أصل تسعة، و كانت البيوت التي تسورت أسطحها إما قد خرجوا إلى الشارع خوفاً من القتل أو بقوا في بيوتهم خوفاً من التهمة التي قد تلحق بهم،[2] و كان معظم سكنة تلك المنطقة من الناس البسطاء الذين رحلوا إلى النجف في أواسط الستينيات من مناطق الفرات الأوسط... و ما أن وصلت إلى البيت الثالث أو الرابع لا أتذكر قفزت على السطح و هو ما أدى إلى حدوث صوت عالٍ صعد على أثرها صاحب البيت فوضعت المسدس في رأسه لئلا يتكلم، ثم أخبرته بهويتي بوضوح و من أنا....؟ و من أقاتل.....؟ و لماذا....؟ و بكلمات سريعة جداً،

---

[1] و لحين هذه اللحظة لا أعلم هل أن الاعتراض و الملاحقة كانت بسبب معلومة محددة أو حركة عشوائية

[2] هكذا تبادر إلى ذهني في ذلك الوقت، و لم أكن على معرفة دقيقة بتفاصيل ما حدث بالضبط، كنت و كأنني أشعر بأن البيوت خالية لأنني لم أجد صعوبة في التنقل من سطح إلى آخر

تعاطف الرجل معي و قال لي ما معناه: أبقيك في عيني، أعطتني هذه الكلمة قوة هائلة على المواصلة، فأنزلني إلى البيت و بسرعة البرق ألبسني ملابس أخرى حيث وضع العقال على رأسي و ألبسني ما تسمى الصاية ثم حذاء جلد جيد في عملية لم تستغرق أكثر من خمس عشرة دقيقة، و الغريب في الأمر أن لهذا البيت باباً يقع على الشارع الفرعي بينما الباب الآخر على الشارع العام الذي تمر به السيارات[1] و عربات تجرها الأحصنة، خرجت من الباب الرئيسي و كان الرجل إلى جنبي ثم استدعى عربة حصان ركبناها معاً حتى تعدينا منطقة الخطر بعد أن سارت العربة باتجاه المدينة إلى أن أوصلتنا إلى بداية شارع الهاتف من جهة النجف، نزل الرجل بينما كانت العربة سائرة و تركني وحدي، و هنالك أشرت على الحوذي أن ينزلني فدفعت له مبلغاً من المال[2] و من هنالك سرت على أقدامي، و قطعت شارع المقبرة حتى وصلت طريق كربلاء، ثم و من هنالك ذهبت إلى نفس الموقع الذي وصلت إليه في المرة الأولى و عملت نفس الشيء فاتصل بي نفس الرجل الأول و أخبرني أن أغادر النجف إلى البصرة حالاً لأنّ المجاميع الجهادية في البصرة تنتظرني....

أخذني الرجل إلى أحد البيوت و هو وكر آخر في النجف في أطراف الأحياء الجديدة التي بنيت ما بعد الثمانينيات ثم أعطاني ملابس أبدو فيها مزارعاً عادي من الصعيد، ثم حلق رأسي بطريقه خاصة ظهرت فيه و كأنني لا أعرف نفسي، ثم أركبني و أنزلني قرب ملعب الإدارة المحلية في النجف، استأجرت سيارة إلى حيث يقع الكراج الرئيسي للمسافرين و ركبت السيارة متجهاً إلى البصرة للوصول إليها ضمن الوقت المحدد و في المكان المحدد.

وصلت البصرة صباحاً و أنا في غاية التعب و الإرهاق و التي كنت أتمنى أن أجد زاوية لأنام فيها من دون خوف، نزلت البصرة و في يدي عصا، و هنالك كانت إشارة اللقاء و كلمة السر، و عندما أتممت ما يجب أن أتمه لم يأت أحد و لم يتصل بي مدة ساعة و ساعتين فخفت من الأمر و ساورني الشك أن في الأمر لعبة ربما قد تودي بحياتي، فقررت أن أرجع غداً و في نفس الوقت، و لكن السؤال أين أنام......؟ و أين أذهب......؟ فالبلاد في حالة حرب و الاستخبارات تملآ طرقاتها و اللباس العسكري في كل زاوية من زوايا هذه المدينة.

---

[1] في النجف هنالك شيء اسمه الدولان و هو ممر على الشارع العام يدخل إلى عمق مربع البناء و له باب على الجانب الآخر من الشارع المقابل

[2] الرجل الذي أنقذني لا أعرفه، و لا أستطيع أن أعرف أوصافه الآن في ذهني، و لا أدري هل لي أن أعرف البيت الذي يسكن فيه...؟

عندها قررت أن اقضي الليل في السفر إلى (مدينة العمارة)، لأنام في السيارة ثم ارجع ثانية لألتقي بالشخص الرابط في نفس المكان، و هكذا توجهت إلى كراج السيارات و ركبت الحافلة حيث أوصلتني إلى العمارة، بعد منتصف الليل بقليل فوجدت مقهى على مقربة من الكراج تحتشد فيها مجاميع من العسكريين و الناس تقضي فيها الليل حتى الصباح فنزلت معهم نائماً حتى بدأت الشمس بالشروق فصليت فيها باستعمال لغة الإشارة كما هي عادتي في هذه الرحلة ثم عدت إلى البصرة التي كانت في تلك الأوقات تدور معارك ضارية على أطراف الحدود مع إيران، و صلت إلى الهارثة في ذات الوقت ثم أديت العمل المكلف بانجازه و انسحبت، و إذا بصاحبي الذي رأيته في النجف جاء خصيصاً لهذه القضية يحمل معه هويات عسكرية و إجازات و بعض التجهيزات الأخرى و الذي على أثره رافقني إلى إحدى المناطق النائية في أبي الخصيب و استبدل فيه ملابسي المصرية بالملابس العسكرية، و حملت جميع ما أحتاجه لاجتياز نقاط التفتيش في البصرة و حولها لأنّ هنالك معلومات جاءت حولي و أن المخابرات العراقية تبحث عن صورتي و شكلي.

و في مراكز العمل التابعة للمجاميع الجهادية تم اطلاعي على الاحتياجات اللازمة التي يجب توفرها لنقل المعلومات و كان أنذاك جهاز الفاكس الحالي غير معروف، كذلك جهاز الكومبيوتر الذي انتشر على نطاق محدد جداً.
عدت إلى بغداد بملابسي العسكرية، و أخبرني الإخوة بأن جواز السفر المصري ستجده أمامك في بغداد، و فعلاً كان اللقاء أنذاك بعد أن سافرت إلى بغداد و أديت الإشارة المتعارف عليها مع كلمة السر في الاتصال، ثم ذهبت إلى بيت الأعظمية و أبدلت ملابسي العسكرية بالملابس المصرية القديمة و من ثم كان يجب عليّ أن أغادر العراق، فالأسبوع انتهى و البقاء مدة أطول قد يخلق متاعب للجميع.
هيأ الإخوة لي الجواز بصورة قانونية و هو الجواز المصري مع تأشيراته ثم عبرت الحدود إلى الأردن، و شعرت و أنا أغادر العراق كأنني خرجت من كابوس مظلم، و من سجن ضخم... عندها أحسست بمقدار المعاناة التي يعانيها مجاهدونا في الداخل، الذين تدور حياتهم حول التشريد و المطاردة و الخشية من النظام.
و من الأردن إلى سوريا، ثم قررت أن اذهب إلى إيران لمقابلة البعض من مجاهدينا و ركبت الطائرة السورية متوجهاً إلى مطار طهران الدولي.

①③

الفصل الثالث عشر

جَذوَّةُ الموت



وضع المواجهة في الداخل: غبت شهراً بأكمله عن دراستي بعد أن أخبرت أستاذي المشرف بأنني ذاهب إلى العراق، فعلاً ذهبت إلى العراق، سألني أستاذي إذا كنت قد رتبت شيئاً حول مصاريف البعثة...؟ أجبته بالنفي، فقال لي: إن المشكلة قد تتضخم بحرماني من تكملة دراستي.

كانت سفرتي إلى الشرق الأوسط قد فتحت أمامي آفاقاً متنوعة من حالات المواجهة مع النظام، فكان الهم الكبير هو أن أوفر لهؤلاء المجاهدين أساليب الاتصال فيما بينهم، و كذلك مع قواعد الخارج، ثم أيجاد طرق لطبع الوثائق التي يحتاجها العراقي في التحرك داخل العراق و خارجه مثل جوازات السفر العراقية و دفاتر الخدمة العسكرية و غيرها مما يعرفه العراقيون، فليس بالضرورة أن تكون تلك الوثائق حصرياً للاستعمال الجهادي، و إنما للعوائل التي غادر أصحابها إما لأنهم من عناصر المقاومة، أو من أولئك الهاربين من الخدمة العسكرية أو من أولئك الذين يبحث عنهم النظام في الداخل لتصفيتهم وغيرها، هذه النماذج من العراقيين تكثر في مدن الفرات الأوسط و خصوصاً كربلاء و النجف و البصرة و العمارة كما تضم بغداد عدد هائلاً من أولئك الملاحقين من قبل النظام، هذا فضلاً عن المتخلفين عن الالتحاق بجيش صدام لمقاتلة إيران أو الانخراط بالجيش الشعبي لمقاتلة أبناء بلدهم من العراقيين.

في نفس الوقت هنالك الكثير ممن يعمل مع النظام البعثي في مراكز متقدمة في الجيش أو الأمن الداخلي و كانوا على صلة بحركات المعارضة بتزويدها بالأخبار و المعلومات و خصوصاً أولئك الذين كانوا يعملون ضمن مجموعة اغتيال صدام، هؤلاء الأشخاص في بعض الأحيان قد يصلون الى باب مسدودة في الاستمرار في عملهم في التعاون مع المعارضة بسبب عنصر الضغط و الخوف.

في سفري إلى العراق التقيت بنماذج متنوعة من الذين انسدت أمامهم أبواب الحياة كاملة. و لا شيء أمامه إلاّ تسليم نفسه إلى ماكينة الموت المخابراتية الصدامية التي معناها تعذيبه و قتله، فقد التقيت بعشرة من الشباب في البصرة كانوا في منطقة نائية يعيشون كما تعيش الحيوانات في رثة حالهم و وضعهم الصحي، و هؤلاء جميعاً كانوا قد تعاونوا مع المعارضة في تزويدهم بمعلومات عن بعض المسؤولين و خصوصاً رأس النظام، و كان هؤلاء الأشخاص الذين التقيت بهم معظمهم من أصحاب العوائل الذين غيّبوا أنفسهم بدون أن تعلم عوائلهم أماكنهم، و فيما لو كانوا على قيد الحياة أو لا. و في هذه الحالات فان ذوي المختفي من العسكريين يذهبون إلى وحداتهم للسؤال

عنهم، وعندما لا يجدون جواباً من وحداتهم فان ضباط تلك الوحدات العسكرية يعتقدون بأنهم قد اعتقلوا من قبل المباحث العسكرية مع عدم إبلاغهم بذلك و عليه فإن إداريي الوحدة العسكرية يضعون أولئك المفقودين في سجل خاص إلى أن تتبين الأمور، و هكذا يحرص أولئك المجاهدون في عدم إخبار ذويهم لكي لا يلحقهم الضرر بالتشريد و القتل من قبل مخابرات النظام.

الهروب من العراق في مثل هذه الحالات ليس بالأمرالسهل أو الهيّن و هو عملية معقدة جداً يقترب إحتمال نجاحها إلى نسب ضئيلة، فالغالبية من العراقيين الذين وصلوا إلى إيران كانت حقول الألغام القاتلة هي الطريق الوحيد للعبور إلى الجهة الأخرى، كما أن البعض قرر اجتياز المنطقة الجبلية الوعرة في الشمال مشيا على الأقدام ثم الوصول إلى تركيا أو إيران، و قد حشد النظام في تلك المنطقتين مجاميع من عصابات كردية تلاحق أولئك المجاهدين ثم تسلمهم إلى مخابرات النظام لقتلهم[1]

أما الذي يقرر الخروج من العراق ضمن الطرق الرسمية، فإنه يحتاج إلى جواز سفر صالح لتلك الفترة، فالنظام غالباً ما يغيّر الجوازات بين فترة و أخرى للسيطرة على عدد الهاربين، و لا يحق للشخص الذي يسكن في منطقة معينة الحصول على جوازات سفر من منطقة أخرى، فكل يذهب إلى منطقة سكناه، كما أن كل مقدمي طلبات الجواز عليهم أن يمروا من خلال دائرة الأمن أو الاستخبارات للتأكد من عدم معارضتهم للنظام و هي عمليه معقدة جداً بالنسبة للكثير من العراقيين المعارضين وغير المعارضين و قد تستوجب هذه الخطوة شهوراً، بل سنين في سبيل اجتياز حاجز المخابرات و الأمن، فإذا تمت هذه العملية تأتي هنالك خطوة أخرى لا تقل إزعاجاتها عن الخطوة التي سبقتها تلك هي الحصول على تصريح بمغادرة العراق (Exit visa) و هذه أيضاً لا يمكن الحصول عليها إلاّ من خلال دوائر الأمن و الاستخبارات التي تنسق مع دوائر الجوازات، و لا يمكن الحصول على تصريح الخروج إلاّ بتوفر شروط صعبة جداً منها: الحصول على موافقة دائرة عمل الشخص أو كليته أو مدرسته أو وحدته العسكرية و غالباً ما

---

[1] هنالك أسماء كثيرة بعضهم من الفضلاء وعلماء الدين مثل الشيخ نسيب الشهيد الصدر الأول عندما أمسكوا به، ثم أعدموه، كذلك هنالك عوائل قد أبيدت بسبب مطاردة النظام لهم من خلال منافذ شمال العراق

ترفض جميع دوائرالدولة إعطاء تلك الرخص تجنبا للإحراج فيما لو هرب ذلك الشخص و لم يعد.
كما أن النظام وضع الكثير من الاختصاصات في قائمة عدم المغادرة كالطبيب و المهندس و بعض الاختصاصات الأخرى التي يعرفها الناس كالعسكريين و رجال الشرطة، و كل عناصر الأمن و المخابرات و كذلك المديرون العامون و ما إلى ذلك.

كذلك الحال و بنفس التعقيدات في الإجراءات ما بعد انتهاء الشخص من الخدمة العسكرية و أن سنة مواليده ليست على قائمة المدعوين للاحتياط، و هذه معاملة معقدة جداً و مملة، تكلف الكثير من الوقت و الجهد و التعب، و هي تختلف في تعقيداتها حسب سنة تولد الشخص و محل إقامته.

كما تبرز نقطة أخرى لا تقل صعوبة عن الخطوة السابقة و هو موضوع الحصول على تأشيرة الدخول إلى دول العالم الأخرى التي تقرها على المواطن العراقي، و لعل الأردن هو البلد الملاصق للعراق الذي ألغى تأشيرة الدخول للعراقيين، أما الكويت و السعودية و تركيا و إيران، فإن الحصول على تأشيرات الدخول إلى تلك الأقطار صعبة جداً.

معظم العراقيين الذين هاجروا من بلدهم في أواخر السبعينيات و الثمانينيات ثم التسعينيات و ما بعدها كان معظم طرقهم في الهروب من السجن الكبير هو إما بالعبور و التسلل إلى الدول المجاورة عبر الصحاري أو عبر الجبال.
و للنظام العراقي مصيدة أخرى تقع في مطار بغداد لمن يرغب في قتله بعيدا عن الضجيج من المعارضين، و خصوصاً للشخصيات المهمة التي ينوي النظام قتلهم و إعدامهم[1]

---

[1] كما حدثت هذه القصة لأحد أحباءنا و صديقنا الحميم الدكتور عباس عصفور الأستاذ في كلية الطب البيطري و الذي سحبته المخابرات العراقية من قاعة المغادرة في مطار بغداد في سبتمبر 1979 ثم قتلته على الفور، و كان د. عصفور من المشهود له في قدراته العلمية الضخمة في مجال علم الفسيولوجيا خريج جامعة كولورادو في طريقه إلى الولايات المتحدة الأمريكية لإلقاء بحث قدمه لإحدى الجامعات الأمريكية، و كان الشهيد قد أخبرعائلته بأنه سيتصل بي (كاتب السطور) أثناء وجوده في أمريكا، و انقضى أسبوع على عدم اتصال د. عباس بزوجته، ظنت الزوجة المسكينة بأن زوجها قد انشغل في بحوثه العلمية، و في عصر أحد الأيام و بعد مرور شهرين على وصولي إلى أمريكا رجعت إلى شقتي فوجدت برقية مبرمة بأسمي من (Western Union) من زوجة الشهيد عصفور تسأل فيما إذا كنت أعرف عن زوجها شيئاً أو خبرا ...؟ توضح لي مباشرة بأن المخابرات العراقية قد أعتقلته في

الوقت الضائع : أتذكر جيداً يوم مغادرتي العراق، إنه يوم مشهود لن أنساه أبداً و كأنه حدث بالأمس، وذلك منذ 33 سنة انقضت حين كان يوم 31 أغسطس في ذلك الصيف الحار و كان أول أيام عيد الفطر المبارك كان لي موعد مع الحياة ثانية.[1]

و في ذلك الصيف بالذات استولى صدام على مقدرات الحكم و توجه إلى أعضاء قيادته من البعثيين في ملاحقتهم و الانتقام منهم، و ذلك لتصفية المعارضين من داخل الحزب.. أنذاك فكرت في استغلال هذا الظرف من الصراع الداخلي ما بين أركان الدولة لكي أكرر محاولة الحصول على جواز سفر بعدما تم رفض المحاولة الاولى[2]

المطار بينما كان يغادر إلى أمريكا ثم قتلته، و لذلك لم أحاول أن أتصل بها تلفونياً لأبشرها بما حدث

[1]كانت البعثة التي جاءت إلى الكلية التي كنت أحاضر فيها منطبقة تماماً على وضعي، و لم يكن هنالك بد من منحي إياها، كما أنه لمن الأمانة أن أتذكر المرحوم الدكتور مضر الفلوجي عميد الكلية أنذاك الذي كان له دور كبير في تسهيل مهمة حصولي على البعثة و على تسهيل سفري

[2] ذهبت إلى نفس الدائرة و قدمت الأوراق الرسمية إلى شخص آخر، وعندما قرء الشخص اسمي الأخير (شبر) قال لي: ومن يكون (سيد قاسم شبر) (الذي أعدمه صدام بعيد ذلك التاريخ) قلت له انه جدي، قرّب ذلك الرجل فمه من الشباك لكي اسمعه و قال لي: إنكم سادتنا، و قال بأنه سوف يحيل الأمر إلى مديرية الأمن العامة لان هنالك أمر باستدعائك و ليس اعتقالك، قلت له إذن دعني استلم الأوراق لأرتب ذلك الموعد، الذهاب إلى مديرية الأمن العام في شارع الأندلس قضية اكبر من خطرة، بل إنها مسيرة انتحارية في المكان الذي قتل فيه كل أحرار العراق، إنها الشعبة الخامسة، و لكن ماذا علي عمله في ظل هذه الظروف...؟ فقد قررت بعد أن تناقشت مع نفسي في الخيارات التي أملكها، فوجدت أنه ليس لي إلاّ أن أجازف ثانيةً في محاولة الحصول على جواز سفر بعدما ردت المعاملة في المرة الأولى، و هكذا صرت و أنا في صراع صعب تكون فيه نسبة النجاح ضئيلة، و قد كان السيد الشهيد الصدر الأول قد اعتقل للتو مع عدد كبير من الإخوان، فكنت أرى الحياة تافهة جداً، و كنت أقول في نفسي إن حياتي ليست بأفضل من حياة الشهداء العظام الشهيد الصدر، قاسم شبر، عبد الجبار البصري، فقررت السير نحو حتفي أو نحو ما اختاره الباري لي، فكلاهما هو مرضاة له و فوز للنفس، لبست أحسن الملابس و تعطرت ثم أخذت حقيبتي التي أحملها معي في الجامعة، ثم ودعت زوجتي و أهلها، و لم أخبر أهلي بكل ذلك، فلا أريد لهم أن يعانوا أكثر مما عانوا، فإذا قتلت فالله سيكون في عونهم، و إذا كان الله قد كتب لي النجاة فإنها حسنة لهم، دخلت غرفة الاستعلامات، و كنت ممتلئاً بالحيوية، و كأنني ذاهب إلى عرس أو إلى حفلة تخرج، فلم يبادر قلبي الخوف أبداً و لم أتردد في كل ما سأقوله، صاحوا إسمي، قمت و دخلت بعض الدهاليز حتى وصلت غرفة المقابلة، دخلت صافحت الضابط و معاونه، و جلست مقابلهم و أنا انتظر ما سيؤول إليه الأمر.
قلب الرجل أوراق أمامه ثم سألني:

و أتذكر أيضاً لحظة خروجي من العراق في ذلك اليوم الرهيب بعد أن تخلص صدام من أعوانه[1] و بدأ يلاحق الحركات الإسلامية بشكل من الرعب الذي لا مثيل له.... كان المطار مزدحماَ، و التفتيش مشدداَ جداً و كنت أحمل بعض الأوراق و المذكرات و الصور[2]

- اسمي... عمري ... الخ... ثم سألني هل أنت منتمي إلى حزب البعث....؟ أجبته: لا...
- لماذا...؟
- أنني رجل علمي مهتم بالتدريس و البحوث و بالاكتشافات العلمية و هذا ديدن كل أفراد عائلتي، فليس لدي وقت للانتماء للعمل الحزبي، مع أنني في إنتاجي العلمي، و الذي سينعكس على تقدم البلد، أخدم الحزب من خلاله.
- هل اعتقلت.....؟
- نعم... ثلاث مرات
- و ما كانت التهمة......؟
- اشتباه
- صحيح

كنت أعرف أن الدولة الآن تعيش هاجس الصراع البعثي من الداخل، و تيقنت أيضاً بأن المعلومات التي أمامه غير ذي جدوى، و انه لم يهيء نفسه لهذه المقابلة، فقد سألني بعض الأسئلة، و التي تدل على جهله بشخصيتي، و وضع عائلتي.
ثم أردف الضابط قائلا:

- و لكن يا دكتور أمثالك يحتاجهم البلد
- بالتأكيد... فالكل في الجامعة على اطلاع بقدراتي و عملي
- شكراً دكتور، راجع دائرة الجوازات خلال أسبوع.

فرحت، و أنا أنظر إلى نفسي هل أنا مازلت حياً...؟ و هل أن ما حدث كان واقعياً ...؟ أم انه خيال...؟
بقيت متسمراً على الكرسي لا أدري هل عليّ أن أغادر...؟ أم أن هنالك إجراء آخر...؟
قام الضابط من كرسيه فتوقعت أن يصفعني على وجهي.
مد يده مصافحاً فرفعت له يدي بعد أن تأكدت انه ليس هنالك من مزحة في الأمر.
خرجت إلى الشارع، و أنا أتفحص يدي و قدمي و جسمي لأتأكد من صحة ما يجري، و أني لست بالإنسان الحالم.
تمشيت فقطعت الشارع الفرعي المؤدي إلى القصر الأبيض ثم التفت ثانيةَ و ثالثةَ ثم وقفت انتظر حافلة الركاب.
صعدت الحافلة ثم استبدلتها أيضاً متجهاَ إلى بيت عائلة زوجتي....

[1] مجموعة القيادة البعثية أمثال عدنان الحمداني، و محمد عايش، و غانم عبد الجليل، وغيرهم كثيرون

[2] وعندما وصلت إلى حاجز التفتيش وجدت أن أحد رجال الأمن هو ممن أو قام بتعذيبي عندما اعتقلت في سنة 1977، و لكنني كنت متأكداً بأنه سوف لن يميز شكلي أو حتى اسمي، تجاوزته بعد أن سألني بعض الأسئلة، ثم صرت بالحاجز الأول، ثم الثاني، و هو الحاجز

الذي عليه رجال الأمن، و كان هذا الحاجز مسؤولاً عن متابعة الأسماء التي تمنع من السفر ثم إلقاء القبض عليهم، و كانت الملفات عبارة عن صفحات من البلاستك كل حسب الحرف الذي يبدأ به الاسم، و في داخل قطعة البلاستك عمودان تغرز بهما الأوراق التي تحمل أسماء الممنوعين من السفر، و هكذا و كان الجميع ينتظرني في الحاجز الأمامي ليتأكدوا من الأمر، و كانت الإشارة بيني و بين المودعين أن أشير بأصبعي الأيمن إلى الأعلى إذا كانت الأمور جيدة، و بالعكس إذا كان الأمر معقداً أو سلبياً.

وصلت إلى حاجز الموت و إذا أنا برجل أمن ضخم الجثة قد جلس داخل حاجز زجاجي، قدمت له جواز سفري، أخذه.... ثم بدأ يبحث في الملف الذي يحمل الحرف الذي يبدأ به اسمي، ثم بدأ يورق الصفحات البلاستيكية حتى وصل إلى الحرف (الصاد)، ثم الثاني من اسمي (لام).... ثم الحرف الثالث، ثم أسم الأب، و هكذا العملية .... و بينما أنا أراقب لحظة اعتقالي حيث لاحظت إسمي واضحاً في أسفل قائمة الممنوعين، و لكنه لم يصل هو بعد إليه، و في هذه الأثناء ألهمني الباري عز وجل فكرة لم تخطر على بالي حيث كنت أحمل في يدي كتاباً رسمياً من مديرية البعثات العامة معنوناً إلى نقاط الحدود تحثهم على تسهيل مهمة سفري، و لازلت احتفظ بنسخة من ذلك الكتاب إلى الآن، فأخذت الورقة و فتحتها و وضعتها على صفحات الكتاب الذي يحمل قصاصات الورق التي عليها إسمي، بينما هو بين باحث عن الاسم، و بين الاندهاش و العجلة، قرأ الورقة التي قدمتها أمامه مما دعاه إلى إهمال ما في السجل الذي يحوي إسمي إلى قراءة الورقة التي قدمتها إليه، فظن هذا الرجل أنه لمن الصعوبة في احتمال أن يكون إسمي من الممنوعات، في الوقت الذي احصل فيه على بعثة من الحكومة يكاد أن يكون مستحيلاً، فما كان منه إلاّ أن سحب جواز سفري ثم ختم عليه ختم المغادرة و قدمه إليّ، سحبته من الشباك و أدرت رأسي إلى والدي و إخوتي، و بقيّة المودعين من أصدقائي رافعاً لهم علامة المرور، و كان من جملة المودعين من أصدقائي الأعزاء أستاذي و أخي د. علي الغروي و د. ضياء المولوي، ثم دخلت القاعة و سرت مشياً إلى الطائرة العراقية التي كانت جاثمة على أرض المطار فصعدتها، و كنت آخر من يصعد إليها، تحركت الطائرة فعرفت عندئذ بأنني لازالت حياً و أن هنالك أنفاساً تتصاعد، ألقيت النظرة الأخيرة على النهرين و القباب الذهبية، و قلت في نفسي لعلها نظرة الوداع الأخيرة.

①④

◗ الفصل الرابع عشر ◖

مقالع الشخصيّةُ



العودة إلى أمريكا: وصلت الولايات بعد أن غبت شهراَ و نصف الشهر، و لا أدري إن كانت تحركاتي مراقبة من قبل المخابرات الأمريكية أم لا.......؟ و توجهت إلى أستاذي مباشرةَ لأطلعه على عدم إمكانية الحصول على التكاليف المالية للبحث وأجور الجامعة[1]، فوجدته يسألني عن تفاصيل و تواريخ دخول العراق وغيرها من الأمور التي تظهر لي بأنه يبحث عن تاريخ اختفائي عندما دخلت العراق سراَ، و حاولت أن أتأكد من شكي هذا أو فيما إذا كان الرجل قد استقى معلوماته من المخابرات الأمريكية...؟ أو أنها أسئلة عفوية بالمصادفة...؟ و بعد المناقشات استنتجت بأن المخابرات الأمريكية كانت تأتي على الدوام و تسأله فيما إذا كان يعلم شيئاً عن مكان وجودي أو إنني اتصلت به و كان يفسر ذلك بدافع الحرص من قبل جهاز المخابرات في التأكد من سلامتي، لم استمر في التعاطي معه بما يخص الأمر، بل بدأت الحديث معه حول الخطوات المقبلة في استمرار الدراسة و الحصول على شيء من الأموال لأجهزة البحث... و لكنه كان مهتماً جداً بوجهة سفرتي و خصوصاً إذا ما كنت سافرت إلى إيران أو لا....؟ أو إلى بريطانيا فقط...؟ و كان يعتقد هذا الرجل بأن اهتمام عناصر المخابرات بموضوع تحركي و عدم إخباره بواقع الأمر أثار شكوكاً حول الأمر و لذلك فانه دوماً ما كان يسألني عن مجريات العلاقة ما بيني و بين الحكومة العراقية و بيني و بين المخابرات.

من يسقط النظام في العراق...؟ اعتقادي الكبير و تفهمي للأحداث و لمستقبل البلد في خطأ أن يكون إسقاط النظام العراقي من الخارج، إما بواسطة الجيش الإيراني أو بواسطة أي جيش أجنبي آخر، في الوقت الذي كنت أرى أيضاً بأن النظام العراقي من الصعوبة التخلص منه بدون مساعدة دول أخرى، و خصوصاً الدول الكبرى على شرط أن يكون التحرير بيد العراقيين أنفسهم[2]، و هذا ما عزز في داخلي ضرورة البحث عن أساليب جديدة في القيام بهذا التوجه خصوصاً و أن واقع الرفض للنظام و الكره له يكاد يكون قضية

---

[1] تعتبر الجامعة هذه من أفضل خمس جامعات في جنوب الولايات المتحدة، كما أنها أيضاً من الجامعات الغالية الثمن في أقساط الدراسة

[2] تغيير المجتمع يجب أن يتم بطريقة ذاتية أي أن يستشعر الإنسان بأنه شارك في التغيير و هي قضية سيكولوجية وطنية تنعكس بالتالي على أداء القيادة التي سوف تلي سقوط الحكم الديكتاتوري

يشترك بها كل العراقيين في كل مرافق الدولة العراقية[1]، و إن الاستعداد للتحرك على شكل لجان قتالية شعبية أمر وارد، و ممكن تطبيقه مع وجوب توفر مستلزمات تلك الفكرة.... و التفكير بإمكانية العمل و المواجهة و التخلص من النظام تكاد تكون حديث الشارع و الناس، و أن الجميع ينتظر شيئاً ما للتحرك بهذا الاتجاه، بمعنى آخر كان الشارع العراقي مهيئاً و معبئاً بشكل جيد لفكرة التخلص من النظام بعمل شعبي داخلي مع المساعدة الخارجية من قبل الحركات العراقية المعارضة[2].

و كانت خطتنا التي تمكنا من أن نغيّر من تفاصيلها حسب الوضع السياسي و الوضع الداخلي للعراق، و الحرب الدائرة إلى إخراجها بطريقة واقعية و عملية من خلال تزويد القوى الخاصة في الداخل باغتيال صدام بوسائل متقدمة من الاتصال لكي يتمكنوا من التجمع في مكان واحد، و وقت واحد للانقضاض على شخصية الطاغية أثناء زياراته إلى المدن أو المؤسسات العسكرية أوغيرها من الأماكن التي كان صدام يزورها أسبوعياً، في الوقت الذي كانت لدينا قدرات من داخل حمايته في الحصول على المعلومة خلال ربما ساعتين قبل بدأ الزيارة، و هنا يكون الهجوم المباغت بعدد كبير من المجاهدين على شخصيته و التخلص منه.

خطة التركيزعلى الشخصية الرئاسية في الحروب الشعبية صارت هي الأسلوب المعتاد في المواجهات مع الدول الديكتاتورية، التي تضع سياستها تلك الشخصية، كما حدث مع السادات و غيره، و لكن الفرق ما بين مصر و بين العراق هو رد فعل السلطة في حالة الفشل، أو في حالة نصف النجاح،

---

[1] أثبتت الأحداث ما بعد التحرير صحة هذا الرأي إذ أن هنالك الكثير من فرق الجيش و من المواطنين قد رفضوا القتال أو مساندة سعي صدام، و لذلك سقطت محافظات العراق سهلة بيد جيش التحالف

[2] كنت أعلم جيداً بأن هنالك فرقاً تعبوية قتالية تنطلق من مناطق الأهوار بعد أن تعبر من الحدود الإيرانية لقتال النظام، و لكنني كنت نفسياً بل استراتيجياً لا أرى من جدوى عملهم شيئاً لأنها لم تكن ترمي إلى نفس الفكرة التي أطمح إليها و هو ضرب رأس النظام، و عليه فإنني كنت محتاطاً جداً في الاتصال بها أو معرفة مسيرة عملها خصوصاً بعدما تبادر إلى مسامعي اعتقال الكثير من المجاميع الجهادية التي كانت تدخل العراق من خلال هذا الطريق الذي كان النظام يترصدهم منذ اللحظة التي يدخلون العراق فيها، و يبادر إلى اعتقالهم ثم تصفيتهم قبل التحرك نحو الأهداف، و كانت هنالك أسماء كثيرة من الشهداء، و من بعض المشكوك في وشايتهم ليس لنا هنا في أن نتطرق لها، و لكنني في ذات الوقت اذكر أخي في الجهاد الذي اعتقل و قتل خلال عبوره من هذا الطريق و هو الأخ المجاهد مظهر العزاوي من قرية الكصيريين في محافظة ديالى

فسيكون الاستحقاق هو النيل من عوائل المشتركين في تلك الخطة و هو أمر وجدته يمثل العنصر المثبط للكثير من الذين أبدوا استعدادهم للعمل في هذا الجانب، و قد أدرك جهاز المخابرات العراقي تلك القوة المتمثلة بهذا الأسلوب في المواجهة مع أعدائه، و أشاع و بشكل رسمي مسؤولية الأقرباء إلى الدرجة الثانية أو الثالثة على فعل و سلوك أي إنسان يتجه نحو طريق معارضة النظام، و من الممكن في ذلك مراجعة ملفات الأمن العام في معرفة حجم تلك القضية و تأثيراتها السلبية على الاستمرار في المواجهة، أو على الانخراط في عمليات إسقاط النظام.[1]

و هكذا كان موضوع تأمين وثائق الانتقال خارج العراق لعوائل المجاهدين لها أثر نفسي وعملي على الاستمرار في تنفيذ الخطة.

حجر على حجر .. في طريق الهدف: في الفصول السابقة ذكرت أننا قد اتصلنا بالمحامي المتابع للقضية في شأن طبع الوثائق الخاصة للسفر و الحركة داخل و خارج العراق، و لم يتوان المحامي في البحث الجاد عن المادة القانونية التي تمنع أو تحرم عملية طبع الوثائق التي ذكرتها، تم التوصل فيما بعد من خلال كل الجهات المعنية بشرعية العمل، ما دامت تلك الوثائق لا تخص فائدتها الأرض الأمريكية، و قد كان رأي المحامي كافياً من الناحية القانونية في إمكانية البدء بالعمل[2]

في نفس الوقت كان العمل الآخر المصاحب لهذه الخطوة هو البحث عن سبل تزويد المراكز الجهادية في داخل العراق، بنوع من التكنولوجيا التي تحقق قدراً مطلوباً من الاتصالات، لكي تصل إلى المراكز الفرعية التي تقوم بتحشيد أكبر من عدد المجاهدين من الذين يصل عددهم إلى ألفين مع توفير القدرة على التسليح و غيرها.

---

[1] ليس هنالك من دليل على ذلك أكبر من الانتفاضة الشعبانية التي استعرت في العراق ما بعد إخراج الجيش العراقي من الكويت حيث بدأ النظام يلاحق الجميع بشكل منظم إلى أن تمكن من إبادة الكثير من الناس بسبب الانتماءات العائلية للأشخاص الذين اشتركوا في المقاومة و الانتفاضة

[2] في الدول القانونية الراقية رأي المحامي المتخصص كافٍ للقيام بالعمل، فإن حدث و أن أخطأ المحامي في تشخيص القضية القانونية، فان الدولة تلزمه بذلك الخطأ، و ليس الذي قام بالعمل، و لذلك فان كل المحامين في أمريكا لهم بوليصة تأمين في الاستشارة الخاطئة (Malpractice) يشتريها من شركات التامين التي تغطي التعويضات و الأضرار الناجمة عن خطأ الاستشارة القانونية

و بعد مداولات متعددة و بحث مستمر و صراع مع الزمن قام بدراستها مجموعة من الإخوة الدارسين في الجامعات الأمريكية و من الشباب النشطاء توصلوا إلى صيغة دقيقة و سهلة لنقل المعلومات من مكان إلى آخر داخل العراق و خارجه، حيث كانت المحطة الرئيسة تقع على الأراضي التركية و لها فروع أخرى لا أعرف بالضبط تفاصيلها، لأنها خارج اختصاصي و لكن المعلومات التي أعرفها و بشيء من الإيجازية هو تشفيرالخط الرئيس للتلفون بنوع معين من الذبذبات المرسلة عن طريق الأقمار الصناعية، ثم إعادة برمجتها ثانية لكي تستلم بنوع خاص من اللغة... كانت محطة التغذية الأولى في إحدى القرى قرب (الحويجة) ثم الموصل كذلك بغداد و العمارة والبصرة إضافة إلى اثنتين أخريين لا أتذكر بالضبط أين هما.

كانت أحجام الأجهزة داخل العراق صغيرة و يمكن صناعتها من مواد تشترى معظمها من السوق العراقية، مع إضافة (Chips) صغير لها يجب الحصول عليه من الولايات الامريكية، و هكذا تم ذلك بطريقة هادئة و بعيدة عن الشكوك، فقد ربط الإخوة أجهزة التقوية على أجهزة التلفون في سبعة مراكز تعمل بصورة دقيقة، و كان المسئول عن عملية الاتصالات شاب لا يتجاوز عمرة الخامسة و العشرون يدرس في إحدى جامعات الولايات المتحدة التي تقع في الجنوب، و قد تمكن هذا الشاب المتحمس من أن يحول إحدى الغرف في بيته إلى مختبر لإنتاج هذا النوع المتطور من الاتصالات، و تمكن أيضاً من تدريب أحد المجاهدين ممن يعمل في العراق على صناعة أجهزة التغذية في داخل العراق، و هكذا تمت عملية نصب المحطات بصورة لا يمكن للمخابرات العراقية اكتشافها، كان هذا هو الفصل الثاني من فصول التهيئة ليوم الحسم المقبل.

أما الفصل المعقد من عملية إنتاج، وثائق العبور و المراكز داخل العراق فإنها عملية طويلة جداً و دقيقة، و تحتاج إلى تخصصات كثيرة و استعداد من قبل أولئك العاملين في الدخول بهذه المجازفة التي ربما هي الأولى من نوعها في تاريخ العمل بهذا النوع من التكنولوجيا، هذه النوعية من الأعمال غالباً ما تكون من خلال متخصصين، أي بمعنى آخر هنالك شخص ثالث يكون ما بين المستفيد و بين المنفذ ذلك هو (المكتب الاستشاري) الذي يدرس المشروع و يجد الجهة المنفذة.

الاجتماع الأول الذي تم ما بين الاستشاري و بيني كان في مدينة (ميامي) الأمريكية التابعة لولاية (فلوريدا) التي تقع على أقصى الجنوب الشرقي من الولايات المتحدة الأمريكية[1]

أخبرنا المحامي بترتيبات اللقاء الذي سوف يتم حول فكرة طباعة الوثائق الرسمية، أكد المحامي علينا إتباع كل احتمال قانوني من شأنه أن يضعنا أمام الوضوح و الدقة و الابتعاد عن المخالفة، و من جملة ما أكده في هذا المضمار هو ضرورة النطق بالصيغة القانونية التي يجب إتباعها في الاجتماع بل و في كل اجتماع يتم ما بين الطرفين. تلك الصيغة القانونية هي:
" إني فلان ابن فلان أرغب بعمل كذا و كذا ضمن حدود القانون الأمريكي مع علمي مسبقاً بشرعية هذا العمل، و إذا كان ما هو مخالف لذلك فإنني لن أستمر فيه، بل عليكم أن تخبروني لكي ننسحب من انجاز المهمة لأنني أرفض أن أستمر بعمل مخالف للقانون الأمريكي"
هذه الكلمة القانونية إذا تفوه بها أي شخص أمام أي جهة حكومية أو قانونية أو مخابراتية أو ما إلى ذلك، أو أمام من هو متستر بالتجسس أو المراقبة فإنها تعني قانونياً بانتفاء وجود أي نية في مخالفة القانون، و على الطرف الآخر فيما لو كان جهة قانونية أو غير حكومية أن تكشف نيتها في القيام بهذا العمل سواء أكان عملاً مخابراتياً ام عملاً لإلقاء القبض، أو متابعته من قبل المحكمة أو غيرها... فإذا كان الطرف الآخر جهة حكومية متخفية تحت أسماء مختلفة (Undercover) أي للتجسس و جمع المعلومات، فيجب عليها أن تعلن عن نفسها و تظهر هويتها و هدفها مباشرة و إلاّ فان القضاء الأمريكي في مثل هذه الحالات سوف يقوم بتجريم الجهة الحكومية على استدراجها للمواطن في فعل ما هو مخالف للقانون[2]

---

[1] ميامي بالإنجليزية Miami :هي مدينة كبرى تقع في جنوب شرق ولاية فلوريدا في الولايات المتحدة الأمريكية، تكنى بـ (The Magic City) و تعني مدينة السحر، تعتبر ثاني أكبر مدينة في فلوريدا (بعد مدينة جاكسونفل) حيث تبلغ مساحتها 139.86 كيلومتراً مربعاً. وهي أكبر مدن مقاطعة ميامي ديد عدد سكانها 3828955 نسمة عام2007 ، تعتبر ميامي مركزاً اقتصادياً و ثقافياً مهماً في المنطقة، ميامي مدينة رائدة في التجارة والاقتصاد و الثقافة و الترفيه و التعليم والتجارة العالمية، في عام 2008 قامت مجلة "فوربيس" بتصنيفها كأنظم مدينة أمريكية، وفي عام 2009 نشر الـ UBS أن ميامي هي أغنى مدينة أمريكية، و كما هو معروف كيف كان دورها رئيساً في المنافسة ما بين بوش الابن و بين آل غور، و كذلك الأمر في انتخابات اوباما بسبب كثافة و قوة الجالية اليهودية التي تتحكم بنسبة الأصوات

[2] ..... و لكي أوضح هذه النقطة بصوره أكثر تبسيطاً، على القارئ أن يدركها. هو أن المباحث الأمريكية بأنواعها عندما تريد إلقاء القبض على أي مخالف للقانون مثل التزوير أو

في واقع قضيتنا لو افترضنا جدلاً، و كما أعتقد المحامي بأن المخابرات الأمريكية كانت قد أرسلت لنا الاستشاري ليعمل جاسوساً لهم لكشف تفاصيل قضيتنا، فلو كان ذلك وارداً فإن قراءة الصيغة القانونية أعلاه تلزمه قانونياً أن يظهرهويته التجسسية و يقول و يطلب من الجميع و المخابرات بالانسحاب من العملية ثم الإعتراف لنا بأن العمل الذي تقومون به غير قانوني مع عدم الاستمرار و غلق القضية.

كان المحامي يعتقد أو يشك في أن الحكومة الأمريكية ربما (الخارجية أو الدفاع و ليس المخابرات) سوف تتدخل بشؤون هذه العملية و إنها سوف لا تترك الأمر يمر بهذه السهولة خصوصاً و أن القائمين على العملية هم عراقيون في ظروف الحرب الدائرة ما بين العراق و إيران، بعبارة أخرى إن تنوع مصادر القرار، و تنوع حالة الكسب السياسي المتباينة ما بين تلك الأطراف تجعل من قضيتنا مثار اختلاف في شرعيتها أو عدمها، فإن ارتأت (السي آي إيه) أن نتائج عملنا و حركتنا ستكون بعكس ما يملكون من مخططات تجاه المنطقة فإنها سوف تعبث هنا و هناك لإفشال المخطط.
بينما في ذات الوقت فان (أف بي آي) لا ترى في ذلك مخالفة للقانون باعتبار أن عمل المؤسسة الأخيرة هو عمل يهم الأمن داخل أمريكا، بينما الأولى (سي آي إيه) هو من ينظر إلى المصالح الأمريكية في الخارج، و بتضارب تلك المصالح ما بين المؤسستين الأمريكيتين تكون الضحية هي القضية التي نعمل باتجاهها.

ذهبت إلى اللقاء الأول الذي يجب أن يتم في أحد الأماكن الخاصة الذي على ضوئه أطلعت الاستشاري على شكل الوثائق المراد تكثيرها، و كان ذلك الرجل يعتقد بأن الهدف وراء ذلك هو الربح المالي، فوجدته قد اندهش لحجم المعلومات التي قدمتها أمامه عن واقع الهدف من كل ذلك.
و يبدو أن المخابرات كانت قد قدمت تقارير مختلفة جداً له، ثم سألني: إذا كنت فعلاً طالب دكتوراه في المراحل الأخيرة....؟ فأكدت ذلك له.... فكان

السرقة أو غيرها فإنها و لكي تقنع القاضي بإصدار الحكم على الجاني، فإنه يجب عليها أن تقدم دليلاً ملموساً (صوره، صوت، وثائق) ، و بخلافه فان الحاكم سوف لا يأخذ بأدلة القول فقط، و عليه و لكي تهيء المخابرات ذلك فإنها ترسل شخصاً يسمونه (Undercover) أو الجاسوس في لغتنا المحلية مهمته إظهار دوره بأنه مع الجاني في السرقة أو في التزوير أو القتل أو غيره، و يقوم بجمع كل ما يمكن تقديمه الى القضاء

الرجل أثناء الحديث و النقاش يلوذ بحالة من السكوت و كأنه يفكر بشيء لا يستطيع البوح به.
بعد ذلك ذكرت له الكلمة القانونية التي أخبرنا بها المحامي، فلم يجب، بل لاذ بالصمت فقط، و قال: إننا كلنا نعمل تحت ظل القانون، فقلت له: فهمت ما قلته لك.....؟ و فهمت مغزى هذه الصيغة القانونية...؟ قال: لا يهمني كل ذلك فإنني استشاري في أعمال الإنتاج و ليس لي أي علاقة بالقضايا المخابراتية و أن القانون الذي نعمل تحت مواده لم يذكر لنا حرمة القيام بمثل هذا العمل، و أضاف: بأننا نعمل هذا الشيء إلى الجانب الحكومي أيضاً و الى المنظمات الأخرى التي لها مصالح خارج أمريكا.

تفحص الرجل أوراقي ثم نظر إلي مليّاً و كأنه يريد أن يقول شيئاً أو يعرض شيئاً ما، ثم ساد الصمت بيننا قليلاً و كلانا ينتظر إشارة المرور للآخر، و في نهاية الجولة أخذ الوثائق ثم وضعها في حقيبته.

رجعت إلى مدينتي التي تبعد عن ميامي ساعتين و نصف بالطائرة و هنالك وجدت زوجتي تخبرني بأنها جاءت إلى البيت فوجدت سيارة مسرعة و قد غادرت المنطقة و التي تعتقد إنها خرجت من فرع بيتنا[1]

ذهبت في اليوم الثاني إلى الجامعة لإجراء بعض البحوث الخاصة و قد استدعاني أستاذي المشرف للحديث بعد الانتهاء من عملي. و في ذلك اليوم كان أحد الزائرين القادمين من الشرق على وشك الوصول إلى الولايات المتحدة و من ثم إلى المدينة التي اسكن فيها.

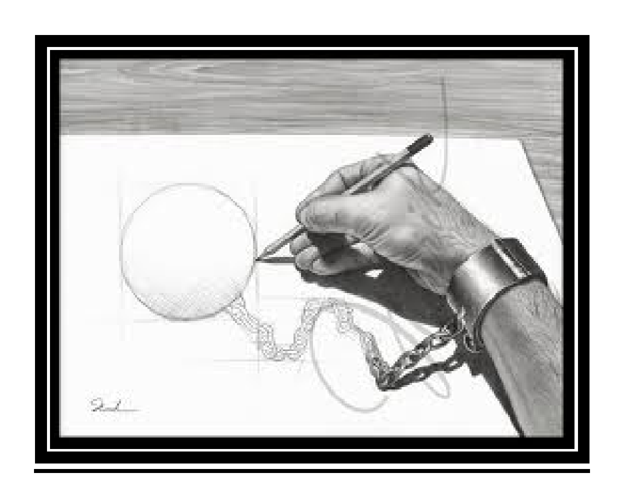
---

[1] و كان بيتنا أنذاك يقع في شارع فرعي ليس له مخرج من الجهة الجنوبية، و هو عبارة عن بناء من الخشب قائم على أعمدة من الكونكريت يتقدمه في الأمام الدار الرئيسية، ثم ممر صغير يصل إلى دارنا الذي يبدوعلى شكل كوخ صغير الحجم حيث يضم غرفة واحده صغيرة، ثم غرفة جلوس و مطبخ استأجرته لرخص ثمنه، و الذي يبدو أن السيارة كانت قد دخلت الشارع بعد ما تأكدت خلو البيت من الساكنين، ثم عندما خرجت من الممر انحرفت شمالاً بدل أن تأخذ جانب اليمين، و في تلك الأثناء جاءت زوجتي بسيارتها عندها استداروا ليخرجوا من الشارع الرئيسي و لكنها لم تدرك من يكون هؤلاء

①⑤

◖ الفصل الخامس عشر ◗

لملمةُ الجُراح



البداية في مدينة ميامي: اتصل بنا الاستشاري، و طلب منا الحضور لمعاينة نموذج الوثائق قبل الإستمرار بالعمل، اتصلنا بالمحامي و أخبرناه بالأمر، فأرشدنا إلى أن يكون حضورنا في مكان الاجتماع علناً و ليس سراً، بمعنى آخر أن يعرفه البعض مثل المحامي و بعض الأقارب و الزوجة وغيرها، و كما طلب منا أيضاً أن نذكر الجملة القانونية في بداية الاجتماع، و التي تحوي إنعدام نيّة مخالفة القوانين الأمريكية، و هكذا ركبت الطائرة من ولاية (لويزيانا) إلى ولاية (فلوريدا)، و كانت معظم تنقلاتي كما ذكرت سابقاً تتم بطريقة اقتصادية منخفضة جداً و ذلك عن طريق شراء بطاقات يعلن أصحابها بيعها في الجرائد المحلية، مع إبقاء الاسم السابق لصاحب البطاقة.

صعدت إلى الطائرة بإسم آخر كما هو المعتاد، و قبل الإقلاع جاء أحد الموظفين من شركة الخطوط الجوية و طلب مني هويتي، فرفضت إعطائها أياه، و أريته بطاقة الطائرة، فذهب بها ثم جاء قائلاً: بأن أصل إصدار البطاقة قد تم في ليبيا... و هو فعلاً ما كان، ثم طلب مني المضيف النزول فامتثلت لذلك، و عندما وصلت إلى حيث يجلس مسؤولوا المطار أخبروني بأن ذلك ليس مخالفاً للقوانين الأمريكية في الانتقال داخل الولايات المتحدة ببطاقة أخرى، و لكنهم جاءتهم مكالمة من أحد المسئولين يطلب تفتيشي لعلي أحمل سلاحاً، ابتسمت قائلاً للرجل: من الأفضل أن تركز على عملك بدلاً من أن تزعج الآخرين، قال لي الرجل بأنه سوف لا يدع الطائرة تغادر قبل أن تلتحق بها، و فعلاً قبل دقائق من بداية الإقلاع دخلت الطائرة مغادرا إلى فلوريدا.

كانت حركة العاملين داخل الطائرة نشطة في مراقبة تحركاتي و خصوصاً عندما توقفنا في مطار (اورلاندو)[1] و كان عليّ أن أبدّل الطائرة المتجهة إلى ميامي، وصلت قبل بضع دقائق من الإقلاع فصعد معي ذلك الشخص الذي كان على باب المدرج في مدينة (نيو أورليانز)، و كان رجلاً أصلع الرأس ضخم الجثة، وجهه يميل إلى السمرة، و يظهر للآخرين بأنه من الجالية الاسبانية اللاتينية. وصلت مطار ميامي و خرجت منه لأنتقل إلى دار أحد الأخوة، ثم الذهاب غداً عصراً لمقابلة المتعهد الاستشاري.

كان الجو هادئاً و الشمس ساطعة و رائحة المحيط الأطلسي في مياهه الزرقاء تنعكس على أجواء ميامي المدينة الساحرة التي كل ما خلق الله فيها من جمال و روعة، لم أجد الأخ الذي كنت اتفقت معه على الحضور إلى

---

[1] المدينة التي تضم (ديزني لاند) المعروفة

المطار، و بقيت انتظر نصف ساعة بعدها قلت في نفسي لأذهب إلى المدينة لأستطلع ماذا يدور في جنباتها و زواياها... أخذتني السيارة إلى قلب المدينة، فوجئت بنفسي و أنا في عالم آخر، وجدت آلافاً من البشر بعضهم نصف عراة و بعضهم في أوضاع لا يقبلها الذوق، حاولت أن أنوء بوجهي عن ذلك الحشد الهائل فدخلت مقهى صغيراً أحتسي شيئاً من الشاي مواجاً إلى الساحل الذي بدى من خلال الزجاج الملون جميلاً رائعاً في الوقت الذي غابت فيه المظاهر غير اللائقة من أمام ناظري، طلبت قهوة و قطعة من الكيك.
أخرجت بعض الأوراق اكتب بعض المذكرات، و بينما أنا كذلك إذ جاءت ثلاث شابات مع شاب آخر و طلبوا الجلوس بأدب فابتسمت في وجوههم و أشرت لهم برأسي بالموافقة.

سألني الشباب فيما إذا كنت أعيش في ميامي أم في منطقة أخرى كجزء من محاولة التعرف عليّ و بعد التعرف و الحديث من هنا و هناك و تبادل كلمات الترحيب بادرت الشابة قائلةَ: إنها تدعوني إلى عشاء في هذه الليلة، و في كذا مكان اعتذرت بادب و قلت لها: إنني مدعو في هذه الليلة، و بينما نحن في مفاوضات الدعوة و الرفض دخل خمسة رجال بملابس مدنية أحاطوا بهؤلاء الأربعة، ثم صاحوا في وجههم أن يرفعوا أيديهم، تسمّر الشباب الأربعة، و ما هي إلاّ لحظات و إذا بعناصر الشرطة تملأ المكان و سيارات البوليس تحيط بالمقهى الجميل، ثم يدخل رجال الأمن في عملية تفتيش لكل الموجودين، فكرت في نفسي و تساءلت هل أن هنالك مزحة في الأمر أم أنها جدية...؟ استرخيت في مكاني، بينما جاء أحد الرجال سائلاً عن هويتي، و فعلاً أخرجتها له فأمسكها بيده و لم يرجعها لي، فشعرت بأن في الأمر شيئاً مدبراً ربما يراد منه توجيه رسالة لي معناها إنهم قادرون على تناولي و إيذائي متى شاؤوا... انتظرت بعض الوقت حتى انتهى الجميع، ثم اعتقل ثلاثة أشخاص من الشباب الجالسين معي، و قبل أن يغادر الجميع جاء رجل البوليس ثانيةَ طالباً مني اللحاق به، ترددت في تنفيذ الأمر في البداية، و لكنني انصعت له لئلا تتعقد الأمور إلى درجة أوسع مما هو متوقع.

كانت معلوماتي تقول: أن هذه المنطقة من ولاية ميامي مشهورة في تجارة المخدرات التي تصل إليها من دول أمريكا الجنوبية، و خصوصاً (كولومبيا) لبيعها بأسعار خيالية إلى السياح، لكنني كنت متأكدا من براءتي من تلك القضية، و لذلك كانت أعصابي باردة باتجاه كل ما يجري حولي.
تابعت رجل البوليس فأمرني أن اركب السيارة الخاصة بهم في المقعد الخلفي، جلست في السيارة منتظراً وصول رجل البوليس الذي جاء فطلب

مني أن انتقل إلى مقدمة السيارة إلى جنبه، فبدا يسألني عن اسمي و عنوان سكني و عن سبب مجيئي إلى هنا و عن المكان الذي أقيم به في فلوريدا...؟

طلب مني رجل البوليس أن أرافقه إلى دائرة الشرطة لاستكمال التحقيقات الخاصة بالأمر، هنالك طلب مني أن انتقل إلى الجزء الخلفي من السيارة، ثم رجاني و بأدب أن أبقى داخل السيارة حتى يعود ثانيةً و كانت الساعة تشير إلى الثامنة مساءا، بقيت في السيارة ربع ساعة ثم نصف ثم ساعة و لكنه لم يأتي، حاولت أن أطرق زجاج السيارة حتى يسمعني الآخرون بدون جدوى، ثم مرت ساعة أخرى ثم ثالثة فعرفت بأنها مصيدة تستعمل مع البعض من الأشخاص الذين ترمي المخابرات إزعاجهم في الوقت الذي تغيب الإثباتات القانونية لعملية اعتقالهم و تقديمهم إلى القاضي في اليوم التالي، فهم الآن ينفذون ذلك بدقة لكسر روح الاستمرار و الرفض، و بصورة غير قانونية و أقل ما أقول عنها إنها عملية ابتزاز و بلطجة، فكرت ملياً ماذا عليّ أن افعل......؟ فالقضية الآن صارت متأرجحة بين الإذعان و الصراع، مع عدم وجود الدليل على اعتقالي، لأنهم لو أرادوا اعتقالي لأعتقلوني منذ البداية بحجة المخدرات أو بغيرها، و لكنهم لم يرغبوا أن يورطوا أنفسهم في مجازفة مواجهة القانون، و لذلك قررت أن انتصر عليهم و أنا في سجن السيارة، و كانت خطة إنتصاري أن استفيد من وقتي في القدر الممكن لكي لا أواجه حالة الضجر و الانفعال، و من ثم السقوط في الفخ المنصوب لي، و كنت في سفراتي أحمل حبوب الدواء[1] فأخذت واحدة منها ثم نمت نوما عميقا لم أشعر ما مدى الوقت الذي استغرقته في ذلك.
و بعد مرور ثلاث ساعات جاء رجل بوليس آخر ففتح السيارة متسائلا من جاء بي إلى هنا..؟ فسألته عن إسم رجل البوليس الذي كان يقود هذه السيارة....؟ قال: إنه انتهت ساعات واجبه فذهب، فحاولت أن أعرف منه بعض الأمور عن أسباب هذا التصرف اللاإنساني معي في إبقائي داخل سيارة مقفولة طيلة هذا الوقت الطويل...؟ و كنت كلما حاولت معه كنت أجد ممانعة و خشونة لا توصف، بعدها أخرج من جيبه دفتر إعطاء المخالفات ثم طالبني بهويتي فأعطيتها إياه ثانية عندها أصدر ضدي كارت مخالفة (400) دولار، وعندما سألته عن السبب، قال اذهب إلى المحكمة و دافع عن نفسك، و سأكون أنا و رجل البوليس الآخر هنالك لإثبات المخالفة ضدك، وعندما

---

[1] Dimenhydrate هذه الحبوب بالإضافة إلى مفعولها في إيقاف اضطرابات المعدة فإنها منومة بشكل فعال

سألته عن طبيعة المخالفة، قال لي: بأنني ترددت في إطاعة أوامر السلطات، ثم أعطاني ورقة المخالفة و أمرني أن أغادر كراج السيارة فوراً.

اقتربت الساعة أنذاك من الرابعة صباحا، و أنا لازلت لم أصلي صلاتي المغرب و العشاء لليوم الماضي، كما أن صلاة الصبح ستفوتني إذا خرجت إلى الشارع، فطلبت منه أن كان يسمح لي باستعمال الحمام في الداخل...؟ فوافق... فدخلت ثم توضأت و صليت في ساحة الحمامات، حتى إذا ما انتهيت خرجت إلى الشارع فاتصلت بزميلي الذي كان بانتظاري فوجدته قلقا بعد أن أيقظته من نومه، و أخبرته بالوضع الذي مر بي، ثم طلبت منه تحديد مكان شقته للوصل إليها، و لكنه أبى إلاّ أن يأتي و يأخذني بنفسه، و بعد (45) دقيقة وصل الأخ إلى المكان و أخذني إلى بيته.
قبل ظهر ذلك اليوم إتصلنا بالمحامي الذي بدوره اطلع على تفاصيل اللقاء المقبل بعد أن تباحثنا في احتمالات النتائج.

قد يسأل المرء عن جدوى الإقدام على عمل كهذا في ظل انكشاف الخطة أمام جهاز المخابرات الأمريكية.... ؟ ونحن نجيبه و نقول: إن القانون في داخل أمريكا له من القدرة و من الحصانة ما لا يتمكن الآخرون و حتى أجهزة المخابرات من اختراقه أو كسره... نعم قد تستعين أجهزة المخابرات الأمريكية بجهة أخرى خارج نطاق الحكومة و السلطة الأمريكية في الإقدام على كسر القانون و لكن ذلك سيكون ثمنه باهظاً إذا تمكن المجنى عليه من اكتشاف تلك العلاقة ما بين المخابرات و بين الجهة المنفذة كما هي الفضائح السياسية الكبرى التي تظهر إلى العلن على الأرض الأمريكية مثل أحداث غواتيمالا و أحداث التشيلي وعمليات اغتيال الفاروقي و اغتيال مالكوم أكس و ربما الرئيس الأمريكي كندي (كما يقال)[1]، و قد حدثت أنذاك ضجة كبيرة

---

[1] في زمن الحرب الباردة كانت الولايات المتحدة بأجهزتها الأمنية المتعددة تستعين بخبرات منظمات أخرى غير حكومية، بل غير أمريكية تتمكن من الالتفاف على القانون الأمريكي الصارم الذي يملك قدرة كبيرة في التنفيذ، و تستعين في الغالب بأجهزة المخابرات للدول الدكتاتورية، أو بعض المنظمات الكبرى المتواجدة في دول العالم الثالث، بعد أن تخترق كياناتها و تسخرها لخدمة ذلك الغرض الذي نحن بصدده، و نتذكر هنا في هذا الصدد فضيحة "إيران – كونترا" كأقرب حادثة عشناها في منتصف الثمانينيات عندما باعت الولايات المتحدة الأمريكية أسلحة إلى إيران التي كانت أنذاك في حالة حرب ضروس مع العراق، و قد حوّلت الولايات المتحدة مبيعات تلك الأسلحة إلى عصابات (الكونترا) التي تقاتل النظام (الساندناستي) الوطني في (نيكاراغوا) و كان السبب في إقدام مجلس الأمن القومي و الرئيس الأمريكي (ريغان) على هذه الخطوة هو الحاجة إلى مد العصابات المسماة

سببت في إقالة الكثير من شخصيات الإدارة الأمريكية وكان على رأسهم "بويندكسر"[1] فقد كان الاعتقاد السائد لديّ أو على الأقل الذي تحسسته من عناصر المخابرات الأمريكية بأن نشاطي السياسي داخل أمريكا جزء لا يتجزء من النشاط الإيراني العالمي الذي يرمي إلى محاربة الولايات المتحدة، و تشويه سمعتها ثم ملاحقة رموزها و تقويض التأثير الأمريكي في دول العالم الثالث أو ربما لا يختلف عن المفاهيم الإرهابية التي يتعامل معها المجتمع الأمريكي[2]

<u>المفهوم القديم الجديد للإرهاب:</u> وضع الإرهاب الإسلامي كما يسمونه و هو الذي بدء في الظهور أول ما ظهر كمفهوم في المناطق الإسلامية التابعة للفكر الشيعي، و الذي قد يمكن تفسيره من المنطوق الإجرائي و ليس من المنطوق الفكري و السياسي. باعتبار أن الشيعة هم من أكثر سكان العالم

بالكونترا التي تقاتل من أراضي (الهندوراس) النظام الحديث في نيكاراغوا، مع أن الكونغرس الأمريكي كان قد أصدر قراراً يمنع فيه تزويد إيران بالأسلحة، ثم تزويد مقاتلي الكونترا بالأموال و الأسلحة

[1] (بويندكسر) سكرتير الأمن القومي ثم مساعده الشاب الطائش (اوليفر نورث) و هو الاسم الذي ارتبط بمتفجرة (بئر العبد) المشهورة في لبنان، فالإدارة الأمريكية قد يمكن لها أن تتصرف بخلاف القانون، و لكنها تحسب حساباً كبيراً للعواقب قبل الإقدام على ذلك، باعتبار أن سمعة الولايات المتحدة مهمة جداً في العالم و خصوصاً فيما يخص القضايا الدولية القانونية، كما أن الأشخاص الذين سيقودون ذلك الاتجاه اللاقانوني سوف يتعرضون إلى الطرد من وظائفهم أو إحالتهم إلى المحاكم كما حدث إلى (اوليفر نورث) المخطط الرئيس لمتفجرة بئر العبد التي خططت لاغتيال العلامة الفقيد السيد فضل الله، اقرأ كتاب أبو ريشة Payoff

[2] هذا التصور لدى الإدارة الأمريكية متأتي معظمه من التقارير الضخمة التي كانت تتزود بها الإدارة الأمريكية و أجهزة معلوماتها من قبل الكثير من الدول العربية و الإسلامية (الصديقة) و خصوصاً السعودية و الأردن، و دول الخليج بالإضافة إلى العراق الذي بدأت العلاقة الحميمة تزداد تأصلاً فيما بينها و بين الأمريكان خصوصاً إبان الحرب العراقية الإيرانية 1980-1988، نحن من جانبنا قد لا نرى في ذلك شيئاً من الغرابة. هذا بلحاظ إذا أدركنا بأن التهديدات الإيرانية للولايات المتحدة قد أخذت بعداً كبيراً تجاوز حدود السياسة و إنما وصل إلى درجة المواجهة الكبرى مع المصالح المشتركة للدولة الكبرى، و هو ما سوف يعكس بظلال ثقيلة على طبيعة العلاقة الأمريكية مع القضية العراقية و مستقبلها، و قد كنا نحن العراقيون أبان تلك الفترة نعيش حالة من التشنج و من الانفعال تجاه المواقف الأمريكية في المنطقة خصوصاً في مساندتها العلنية لنظام صدام، و تغطيتها المذابح المروعة التي ارتكبها النظام العراقي كمذبحة حلبجة و مذابح الجنوب الأخرى

اضطهاداً و محاربة سواء أكان ذلك في العراق أم في إيران أو في الجزيرة العربية أو في الباكستان و في غيرها من الأماكن، و هو حدث أو حقيقة لا يمكن التغاضي عنها أو تناسيها، كان ذلك المفهوم قد وضع قواعد جديدة لأحداث الصراعات العالمية، بل انه كان نقطة تحول كبرى في مجمل الحسابات الدولية، و لم تكن حادثة (جهيمان العتيبي) أي حادثة الحرم في عام 1979 بالشيء الهين في تاريخ السعودية و تاريخ الصراع مع الغرب، كذلك الأمر في باكستان و في أفريقيا و في مناطق أخرى في العالم.[1]

---

[1] في عالم السياسة وعلى مدى العصور نرى انه ليس من المستغرب أن تلجأ أية مقاومة لبلد ما إلى المواجهة السياسية أو العسكرية أحياناً، انطلاقا من المفهوم السياسي القائل: إن عدو عدوي صديقي، و لكن الولايات المتحدة و إن كانت تدرك هذا المفهوم السياسي الواضح، و لكنها كانت أنذاك تعيش قمة الحساسية و الانفعال تجاه ما حدث في إيران من ثورة و تغيير، و تتعامل مع الشأن الإيراني بحساسية مفرطة بعيدة في أحيان كثيرة عن العقلائية التي يتوجب على الدولة العظمى أن تتحلى بها، و مع أن السياسة الأمريكية في تعاملها مع الدول التي تختلف معها تبدأ من نقاط أو محطات تتدرج من مراحل التأزم الخفيف الى درجات أكثر شدة و ذلك حسب الجو السياسي والمعطيات لكل مرحلة من المراحل، باعتبار أن الولايات المتحدة تعتبر دولة عظمى و عليها أن تتصرف من نقطة الثقة بالنفس، لأن الانفعال هو صفة فقدان الثقة.
و قد أقدمت أجهزة المخابرات و بأساليب متعددة، على التعامل مع رموز المقاومة العراقية و بأساليب متنوعة مثل الإغراء، ثم استعمال ضمانة التوفير المالي و البهرجة و غيرها من الأمور، لثني صاحب الفكر و المبدأ عن الخط الذي آمن به، كذلك قضية المرأة و الجنس حتى إذا ما فشلت تلك المحاولات لجأت أجهزة المخابرات تلك إلى التهديدات، ثم المحاربة بالأرزاق ثم المحاربة بالطرد، و من ثم تجاوزها إلى الاعتداء الجسدي و الضرب و الاغتيال إذا لم تنفع الأمور الأولى، فالمخابرات الأمريكية لا تبدأ أولاً بتلك الأساليب الأخيرة إلاّ بعد أن تستنفذ محاولاتها في تقديم المحفزات الغريزية التي يريدها الإنسان و يطمح إلى نيلها في الحياة، و كانت عملية استمراري على مواصلة الصراع عمليه مكلفة و صعبة من الجانبين النفسي و المعيشي. في الوقت الذي تروي لنا الوقائع التي لديهم أن عملية المساومات هذه غالباً ما تنتهي إلى نتائج إيجابية لصالحهم، باعتبار أن النظام الرأسمالي المادي يؤمن في أدبياته بأن الإنسان هو الغاية، و أن طموحات الفرد تتعلق بمدى الرغبات الغريزية المحركة للسلوك، وهكذا ينتقل ملف ذلك الشخص من دائرة الى دائرة أخرى و حسب مسيرة القضية، فمثله كمثل المريض الذي ينتقل ملفه حسب طبيعة مرضه و حسب اختصاص الأطباء المعاينين لحالته المرضية و السريرية، و هكذا تتبدل الحسابات ما تبدلت الأحداث من حالة إلى حالة أخرى، بل من المؤكد أن كامل الملف يتحول من دائرة ذات الطابع المسالم إلى الدائرة ذات الطابع المتشدد، حتى أن الأشخاص يتغيرون بتغير تلك الحالة، فدائرة المخابرات هي ليست دائرة واحدة، و إنما عبارة عن أقسام متفرقة، قد ترتبط فيما بينها ببعض المعلومات، و لكنها في الغالب تعمل بصورة استقلالية إحداهما عن الأخرى، و في نفس الوقت نحب أن نؤكد على قضية مهمة قد تكون غائبة عن أذهان الكثير ممن يعيش في الشرق العربي. و هو أن الهدف الرئيس لأقسام أجهزة الاستخبارات ليس الانتقام و العنف، و إنما هو الاستيعاب و التحييد، و ذلك باستعمال وسائل كثيرة متنوعة، أي بمعنى آخر أن تلك

في نفس الوقت كانت أجهزة الأمن الأمريكي تعمل من أجل معرفة خيوط العملية و هدفها و تشخيصاتها، و ذلك بالتعامل مع الأسماء التي تقود عملية التآمرعلى النظام العراقي من داخل أمريكا بشكل مباشر.

و لكن في قضيتنا لم تتمكن تلك الأجهزة من التوصل إلى أي إسم آخر من الأسماء التي كانت أجهزة الأمن الأمريكي تطمح في أن تراها، مثل الاتصال ببعض السفارات الأجنبية، أو بعض الدول أو المؤسسات التي ترتبط مصالحها بتلك العملية، إذ أنها كانت متشوقة لأنّ ترى و لو إشارة إلى الإيرانيين من قريب أو بعيد، و هو ما أفسد الكثير من الآراء الأربعة[1] التي كانت الإدارة الأمريكية و المخابراتية تعتقد في أن المعارضة العراقية ترتبط بحلقه ما بمسيرة التطلعات الإيرانية في الوقت الذي كانت أجهزة الرصد الإيرانية تفكر بالاتجاه ذاته، و تستغرب قدرة الاستقلالية في القرار العراقي، و في اتخاذ الخطوات الوطنية التي تتبناها المسيرة العراقية في مقاومة النظام.

و لكن المشكلة هي أن الواقع لم تكن صورته مخالفة لما هو واضح، و إنما كل القضية انحصرت في أربعة أسماء فقط، بينما كانت الولايات المتحدة معتقدة بأن العملية كانت بمساعدة إيران كدولة أو مؤسساتها، مع أن ذلك لم يكن له مصداقية، و لم يكن لإيران أي علم بالأمر لا من قبل الجهات الرسمية و لا غير الرسمية.

الأجهزة تعمل ما بجهدها من طاقة لتقليل المصاريف و الضجيج و كذلك الوقت، و عندما يغيب أحد تلك العوامل فان الأجهزة تلك تتوجه نحو العنف و الشدة و لكن بصورة دقيقة و محكمة و تدريجية، لئلا يثير الرأي العام و أجهزة الرقابة الأخرى

[1] كانت هنالك أمام المخابرات الأمريكية أربعة احتمالات تراها تفسيراً لعملنا، الخيار الأول: الإيراني الأقوى، الخيار الثاني: الوطني العراقي منفصلاً عن الإيرانيين، الثالث: الشخصي و هو مستبعد، والرابع الدولي المرتبط بجهات مستفيدة اخترقت الوجودات العراقية يأتي بالدرجة الثانية

①⑥

◖ الفصل السادس عشر ◗

كُوَّةُ القانون



<u>في الكماشة أو في قانون المصالح:</u> أنهينا الإجراءات اللازمة كافة لإصدار الوثائق العراقية بعد أن ثبتنا أجهزة الاتصالات داخل الأراضي العراقية و صارت عملية نقل المعلومات تتم بصورة منظمة و جيدة.
بدأ الخط الجهادي بعمليات نوعية ضد النظام[1] بعدها صار القرار الذي تم اتخاذه في خطأ الاستمرار بتلك العمليات النوعية التي تم القيام بها، و بدلاً منها الانتظار حتى تحين فرصة التخلص من رأس النظام في حركة سريعة خاطفة، و لهذا انقسمت المجاميع إلى ثلاث، إحداها لضرب مراكز المخابرات (للتشويش على حركة رأس النظام) و هي المجموعة الكبيرة، و الأخرى الصغيرة و ذلك بتهيئة الأرضية للحركة، و الثالثة هي الفرقة الكبرى الفدائية المتدربة القوية التي كما ذكرت كانت تعتمد على وصول متدربين من الخارج للانضمام إلى شخصيات الداخل مع توفير وسائل تضمن لهم قدرات الحركة الحرة مثل الجواز و بقية الوثائق التي تسهل لهم تحقيق غاية الوصول إلى حيث يحل الطاغية في المكان و الزمان المحددين[2]

لم تكن الظروف أنذاك مؤاتية في الإقدام على مثل هذه الخطوة لعوامل كثيرة و متعددة أهمها الجو السياسي المعقد، بالإضافة إلى خطورة الوضع الأمني الذي كان يحيط بالرئيس العراقي، و اتساعه و قسوته في التعامل مع المعارضة، و هو ما فرض على المجموعة ان تتأنّى في التنفيذ، و أن تنتظر الظرف المناسب لفرصة التنفيذ، و قد اتخذت هذه القرارات بعد اجتماع مطول أقيم في إحدى مناطق العراق لم أتمكن من حضوره لعدم قدرتي على الخروج من أمريكا، و قد تم الاجتماع و كانت قراراته جريئة و واضحة ألا و هي تحويل الطاقات الجديدة في التنظيم إلى قدرات هجومية آنية تستهدف مؤسسات المخابرات و أماكن الأمن و الاستخبارات العسكرية، و الثانية كما ذكرت هي التهيؤ بعد امتلاك القدرات في الاستعداد للتخلص من رأس النظام، و قد لعب المرحوم السيد مهدي الحكيم دوراً بارزاً في إعداد المقاتلين للمرحلة المقبلة.

---

[1] التي لم يحن الوقت و في هذه الظروف البوح بها بسبب الحساسية التي يمر بها العراق و المنطقة

[2] كانت المعلومات تصلنا تباعاً من قبل العناصر المقربين من النظام، بأن عملية اغتياله ليست بالأمر الصعب و ما على الجهة التي تريد فعل ذلك إلاّ أن تعرف مداخل و مخارج العملية

و قبل شهر تقريباً من موعد تسلم الدفعة الأولى من الوثائق من قبل الاستشاري لرؤية صورة الإخراج الأخير قبل تنفيذ المشروع كان القرار أن أحضر الجلسة بمفردي و ذلك بعد التشاور مع المحامي الذي كان يعتقد بأن الشخص الفني قد لا يكون كما قيل لنا سابقا، بل انه من المحتمل لا يملك ذلك العنوان، و إنما يملك عنواناً آخراً ذلك هو (Under cover) و معناه إنه شخص من المخابرات الأمريكية متخفي تحت الاسم الذي يدعي و هو (أخصائي في الوثائق) و أنه ربما ليس من المخابرات الداخلية و إنما من المخابرات الخارجية (CIA).
ثم قال المحامي لنا: ان الجانب القانوني هو الذي يحمي عملنا و الذي يلزم الطرف الآخر من التوقف عن عملية الاختباء و التجسس -إن وجدت- التي يقوم بها، و يجب عليه أمام القانون في إظهار هويته، لذلك علينا أن نعلن و بوضوح أمام ذلك الشخص المشكوك بتجسسه، أن نعلن أمامه بأننا لا ننوي مخالفة القانون الأمريكي، و إذا كان هنالك في عملنا هذا ما هو مخالف للقانون فإننا لا نرغب في الاستمرار بالعمل به أو تنفيذه.

دخلت أنا وحدي إلى حيث الاجتماع، و كان الرجل الأول جالساً وحده في البيت، و بعد مضي عشرة دقائق طُرقت الباب فاخبرني بأن القادم هو الخبير المتخصص ففتح له الباب، و كان رجلاً متوسط العمر بحدود الأربعينيات من العمر يلبس بدلة زرقاء و يبدو من خلال يديه و وضع أصابعه أنه يعمل في أعمال يدوية مثل الطباعة و غيرها فجلس معنا، و قبل أن نبدأ بالحديث أخرجت ورقة من جيبي كنت قد كتبت فيها الجملة القانونية بحذافيرها التي أخبرنا بها المحامي.

كان اسم الرجل (جينو)، فقال لي بوضوح: بأن ليس هنالك ما هو مخالف للقانون و إننا نعمل صفقة تجارية فقط، و أن ما ذكرته من الغرض من كل ذلك هو تابع لك، أما أنا فإنني تاجر و أتقاضى مبالغ على عملي، فأنت الشخص المسؤول عن توضيح موقفك أمام السلطات إن كان هنالك ما هو غير قانوني، ثم أضاف: إن كان هنالك أمر آخر فيما يخص العمل لهذه المستندات فإنني أنا المسؤول قانوناً عن عملي، فكلانا مسؤول عن عمله أمام القانون.
أخبرته بأنني سمعت أن هذا العمل مخالف للقانون الأمريكي فهل ذلك صحيح؟ ثم التفتُّ إلى الرجل الأول (جول) و قلت له بأنني قد توارد إلى مسامعي بأنك قد قلت بحرمة العمل فهل ذلك صحيحاً.....؟ أجابني: ليس ذلك من هذا القبيل، بل إن الأمر لا يتعدى أكثر من عمليه تجارية لا غير.

و كان (جول) طوال الوقت هادئاً جالسا لا يتحدث بشيء، و بعد لحظات أخرج (جينو) صفائح الألوان التي أعدها للطباعة و بدء يتحدث عن صعوبة توافق الألوان وغيرها، نظرت إلى كل ما جلبه معه في الحقيبة فوجدتها خالية إلاّ من هذه الصفائح، فخامرني الشك في ذلك فقلت له ما هذا..... ؟ إنني أستغرب أن أجد حقيبتك خالية إلاّ من هذه الصفائح، هل أنت متأكد من انك خبير في هذا العمل......؟ أو ربما انك تريد أن تقول شيئاً آخر......؟ أو ربما هنالك أشياء مخفية تحاول عدم البوح بها.....؟ ثم أضفت: أن رجال الأعمال عندما يفتحون حقائبهم تجد فيها أوراقاً و آلة حاسبة و مسطرة ووو... الخ، فلماذا حقيبتك فارغة.....؟

أجاب: بأنني لا أريد أن اخلط هذا العمل بالإعمال الأخرى التي أقوم بها فهي قضية حساسة تحتاج إلى سرية من جانبي، ثم إنني أخشى من أن تعرف الدولة صاحبة تلك الوثائق ثم أقع معها في مشاكل أو ورطة، و لذلك فضلت أن أضع هذا العمل في حقيبة منفردة.... كان التعليق منطقياً و لكنني قلت في نفسي أن أسأل المحامي عن ذلك إذا التقيت به.

<u>ابتزاز....</u> بعد مضي أسبوعين عن هذا اللقاء اجتمع (جول) بالأخ الدكتور حسان في جانب البيت و في الحديقة الخلفية و بدء بينهما حديث غريب في طبيعته، يشم منه رائحة الابتزاز أو التهديد. قال له: بأنك يا دكتور تضع نفسك في ورطة كبرى و أن عملكم هذا في إصدار الوثائق قد يكلفك و يكلف عائلتك الكثير، و عليّ أن أحذرك من ذلك لانه مخالف للقوانين الأمريكية، ثم أضاف قائلاً: بأنه يقدم المساعدة له و ذلك بنسيان القضية و طيها في حسبان الزمن و الماضي مقابل تقديم مبلغ من المال له.

استغرب الدكتور حسان للأمر و أخبره: بأن الرياح بدأت تتغير و أن آخر من يتوقع أن يقول له ذلك هو أنت، فإذا كان الأمر مخالفاً للقانون فكلانا سيقف أمام الدولة مذنباً أما إذا كنت تحاول تهديدي أو ابتزازي فإنني لن أدفع لك شيئاً أكثر مما اتفقنا عليه، و أن كلامك هذا ستدفع مقابله ثمناً باهظاً، أما إذا حاولت التراجع فلك الحق على شرط أن ترجع لنا المال الذي دفعناه لك مع إضافات بسبب مخالفتك لشروط العقد المتفق عليه، ثم قال له أيضاً: أحذرك من أن تستعمل هذا الأسلوب من الابتزاز، فهو أسلوب قد ينجح مع البعض، و لكنه لا ينجح معي، بل ستجد رداً عاصفاً إذا فكرت في ذلك.

لم ينبس الرجل ببنت شفة، و إنما استرخى على معقده و هو يستمع إلى حديث الأخ حتى إذا ما انتهى قال له: أمتأكدٌ من انك تحدثت مع السلطات الأمريكية في مشروعية عملكم هذا.....؟ ثم كرر و أضاف بنوع من الاستعلاء و التزمت: عليك أن تحافظ على عائلتك.

ازداد الأخ غضبا بوجه الرجل قائلاً: إذا اعتقدت أن ذلك نوعاً من الحصول على المزيد من المال فهو ليس طريقاً ناجحاً، بل عليك أن تلتزم بوضعك و تلتزم بالاتفاقيات المعقودة بيننا، أما إذا اعتقدت أن ذلك مخالف للقانون فلنا أن نذهب معاً الى المحامي لتوضيح الأمر له.... استمر النقاش ساعة متأخرة من الليل حتى انتهى بدون التوصل إلى نتيجة.

الاحتمالات الواردة من هذا التصرف هو أن الرجل كان يطمع بالمزيد من المال، خصوصاً بعدما اكتشف أهمية الموضوع بالنسبة لنا، أما الاحتمال الثاني فهو انه يعيش مشكلة الإنتاج أو النقص الفني، و الاحتمال الثالث هو خوفه من أن ذلك مخالف للقوانين و عليه أن يهيئ نفسه في الدفاع و ذلك بالحصول على أموال أكثر لتغطية التبعات القانونية، و الإحتمال الرابع هو الخوف من الاغتيال من قبل السفارة العراقية إذا عرفت الأمر، و الاحتمال الخامس أن جهة مخابراتية أخرى دخلت على الخط من خلاله للحصول على معلومات تهم تلك الدولة أملاً في الوصول إلى غايات سياسية أو اجتماعية[1]، و هناك احتمالات أخرى شخصية أحدها هو المشكلة التي يعيشها في بيته، و مع زوجته التي طلقها تواً و هو ما انعكس سلبياً على طريقة تعامله مع هذه التجارة... هذه الاحتمالات بأجمعها قد تكون سبباً من الأسباب في تأزم الوضع مع صاحب الشركة.

المال و الخوف ... و ما وراء الكواليس: لقد عرفنا فيما بعد أن هذا الرجل كان في البداية و بعد أن عرضنا عليه الموضوع استفسر من جهاز الاستخبارات الأمريكية في مدينة ميامي و اخبرهم بالأمر، فاخبروه بأنهم لا يرون في ذلك مما هو مخالف للقانون الأمريكي حسب إدراكهم لمجمل القضية، و لكنهم طلبوا منه إمهالهم بضعة أيام للتأكد من الجواب الصحيح.
و هكذا و بعد عدة أيام جاء الخبر من المخابرات الأمريكية الداخلية بالإيجاب، و بأن القانون الأمريكي لا يملك مادة قانونية بهذا الأمرعلى شرط عدم استعمال تلك الوثائق داخل الولايات المتحدة الأمريكية، أما استعمالها في ما عدا ذلك فهو ليس من اختصاص القانون الأمريكي، و ما دام الأمر غير متعلق بذلك فأنت حر في عملك التجاري هذا.
كانت الأيام تمر ببطء على إخواننا من المجاهدين، و على الكثير من العوائل داخل العراق، و على مجموعة من الملاحقين المشردين من قبل النظام، كذلك الحال بالنسبة إلى مجاميع العملية الخاطفة المزمع القيام بها في التخلص من

---

[1] نحن نعتقد فيما لو كان هذا الخيار حاصلاً و بدون دليل أنها إسرائيل

رأس النظام، و كان الضغط يزداد علينا يوماً بعد يوم، في الوقت الذي بدء النظام حملة شرسة في الاعتقالات و الاغتيالات و الملاحقات طالت الكثير من العاملين و المجاهدين، حيث كانت فترات بداية الثمانينيات من أكثر الحقب قسوة على الإخوة العاملين داخل العراق، حيث كانت فترة الحرب قد أدت دوراً كبيراً و قدمت مبرراً سهلاً للنظام في الاستمرار بالملاحقات و القتل و الذبح لأحرار العراق و الانتقام من العوائل.

و كان رأس النظام أنذاك يتنقل بين قطاعات الجيش بصورة سرية تقريباً فترة أسبوع لكل معسكر و كانت تقارير تحركه واضحة بالنسبة للمجاميع الجهادية المتأهبة للهجوم عليه و الانتهاء منه مع احتمال الفشل بنسبة قد تتجاوز نسبة 50% و هي نسبة جيدة في مثل ظروف العراق، و ظروف القدرات الأمنية التي تحيط بالرئيس العراقي، و مع أن الإخوة المقاتلين كانوا من الذين يعتقدون بوجود شبيهين لصدام تقوم بمقامه هو شخصياً في زياراته إلى القطاعات العسكرية، و لكنها كانت على ثقة عالية بقدرتها على عدم تمرير هذه الحيلة عليهم.

كان قائد المجموعة شاباً حاد الذكاء متقد الشخصية لا يعرف الخوف و التردد، شخصيته متواضعة لا يقول إلاّ بما يعلم، لديه قدرة هائلة على تحمل المصاعب و الظروف القاسية، كان هذا الشاب يعتقد عكس ذلك، كان يرى أن ليس هنالك أشباه لصدام أو ربما شبيه واحد كان قد قتل في إحدى العمليات، و له على ذلك أدلة متعددة.

⑦①

◗ الفصل السابع عشر ◖

ألمؤامرةُ و الطعنّةُ



دخول السفارة العراقية في واشنطن على الخط : بعد المواجهة التي حدثت بين الأخ د. حسان، و بين مدير الشركة (جول) كان لنا لقاء مع المحامي المختص في الأمرعلى ضوء المستجدات الأخيرة، و كان رأي المحامي أن يعيد بنفسه الكرّة و السؤال من السلطات الأمنية الأمريكية للتأكد من كل ما يجري، و أن الأمر يسير ضمن القانون المتبع... ذهب المحامي الى المكتب للقاء أحد العناصر من الجهاز الأمني و تكلم مع الجهاز المختص، و بعد مداولات بينهما استمرت أكثر من أسبوع كان الرأي هو نفس القرار السابق القائل بعدم وجود نص قانوني على مخالفة ذلك العمل للقانون الأمريكي، و بما أن صاحب القضية شخصيته معروفة لا تبحث عن الجانب المالي أو الجانب الإجرامي، أو غيرها مما يقدح في الأهداف. فإن هذا العمل سيكون واضح النيات[1]

جاء المحامي و هو يحمل تصوراً إيجابياً بهذا الشأن، و قال لنا أن السلطات لو كانت تعتقد بجنائية العملية لألقت القبض عليكم، ولكنها تعتقد أن هذا العمل غير مخالف للقانون، و أضاف المحامي قائلاً: أن هنالك شركة أمريكية معروفة تزود الأمريكان بجوازات سفرغير أمريكية لدول أخرى غير الولايات المتحدة، و ذلك خوفاً من أن يتعرض الأمريكي لمضايقات في بلدان العالم، مع أن ذلك أيضاًغير منصوص عليه بالشرعية في القانون الأمريكي، و لكنه يعتبر من المباحات بسبب الهدفية في القيام بهذا العمل، و هو حماية أرواح الأمريكان من الأذى المحتمل.

لم يكن جميع الذين اشتركوا في تسهيل هذه المهمة، أو الذين ساهموا فيها على علم بالجانب الآخر من العملية و هو التخلص من رأس النظام، صحيح أن أحد أهداف طبع الوثائق هو لتخليص مجموعة كبيرة من العراقيين من النساء و الشيوخ و الشباب من ماكنة الموت من داخل العراق و إخراجهم إلى خارج العراق.
لذلك فقد ساهم في هذا المشروع إخوة طيبون قدموا بشجاعة ما لديهم في سبيل تخليص عوائلهم و عوائل الآخرين و نقلهم إلى خارج العراق، و لكن في ذات الوقت كان الهدف الآخر المهم هو اكتمال عملية التخلص من رأس النظام و اغتياله، و تخليص العراق من كابوس دكتاتوري سادي متوحش.

---

[1] ذهب المحامي نيابة عن الأخ الدكتور حسان، و التقييم صار من خلال معرفة المخابرات بموقع الأخ و لذلك كان الجواب هو السابق

الشيء المذهل الذي حدث و الذي لم نكن نتوقعه هو أن هذا المدير أقدم بصفة شخصية على الاتصال بالسفارة العراقية في واشنطن قائلاً لهم: إن لديّ معلومات مهمة جداً تهم بلدكم، و أنا على استعداد أن أقدمها لكم مقابل كمية من المال.

في البداية لم تهتم السفارة العراقية بذلك، بسبب الخوف الذي كان يلازمهم من أن تكون تلك مصيدة خطط لها الإيرانيون أو المعارضون للنظام العراقي، و لكن الرجل أصر على الأمر و اتصل مرات عديدة و أخبرهم ببعض المعلومات التي أكدت لهم أن هنالك شيئاً ما يجري و أن عليهم أن يحققوا في الأمر، أرسلت السفارة العراقية بطاقة سفر للرجل لاستضافته في إحدى مناطق واشنطن العاصمة و التحدث في ذلك الشأن، و فعلاً طار الرجل إلى واشنطن العاصمة على نفقة السفارة العراقية يرافقه عنصر من شركه أمنية خاصة خشية من أن يقع ما هو غير متوقع كالقتل أو غيره، كما أن الرجل كان قد أخبر الجهات الأمنية بسفره إلى السفارة العراقية و توقع إجتماعه مع المسؤولين العراقيين هنالك، لم تعره السلطات الأمنية الأمريكية أي انتباه، بل أخبرته بأن ذلك أمر شخصي تابع له، و ليس على الجهاز الأمني أي تعليق على كل ما ينوي هو القيام به.

نحن من جانبنا لم نعلم ماذا دار من حديث بينه و بين أعضاء السفارة العراقية، و لكن كل ما نعلمه أن السكرتير الأول في السفارة كان يدير المفاوضات مع الرجل، كذلك الحال بالنسبة للمخابرات الأمريكية لم تكن على علم بكل هذه اللقاءات من حيث التفاصيل، بعض الأخبار كانت قد تسربت من داخل السفارة فيما بعد تقول: أن الرجل كان قد طلب خمسة ملايين دولار من الحكومة العراقية لكشف تفاصيل الحادث و لكن السفارة رفضت ذلك، و توصلت إلى دفع نصف مليون دولار، نصفها أشياء عينية و نصفها يوضع في حساب لهذا الرجل في الخارج، و مما يؤكد هذا الاحتمال هو أننا لاحظنا أن الرجل بعد ثلاثة أسابيع من المواجهة الساخنة مع الأخ د. حسان وجدناه مستقلا سيارة (رولز رايز) من تلك التي تحوي قطع ذهبية في الداخل مثل المفاتيح و بعض الأشياء الأخرى الملتصقة بجسم السيارة... في البداية كان التصور لدينا أن ذلك إما جاء بسبب صفقة تجارية رابحة، أو بسبب دين اقترضه من إحدى شركات القروض، و اشترى بها هذه السيارة، أو أنه ربما قد استعار السيارة من أحد الأصدقاء لمجرد المباهاة، هذه السيارة لا يقل ثمنها عن ربع مليون دولار أنذاك كما أن بقية المبلغ الذي هو ربع مليون دولار قد

بدأت المفاوضات حوله، و لم يوضع في حسابه خارج القطر كما ستأتي الرواية فيما بعد.

بعد الزيارة التي قام بها هذا الرجل إلى واشنطن و رجوعه إلى فلوريدا و قبل امتلاكه للسيارة حاول القيام معنا بنفس الدور الذي قام به مع السفارة محاولاً الحصول على مبلغ من المال من خلال تهديدنا و ابتزازنا، و كما فهمنا فيما بعد هو أن السفارة العراقية قد اشترطت عليه في إعطائه ذلك المبلغ (الدفعة الثانية) على شرط جدية المعلومات و قيمتها من الناحية الأمنية للعراق، و إلاّ فان السفارة العراقية سوف تلاحقه من الناحية القانونية و الأمنية فيما لو أخلّ بذلك.
كما أن هنالك إحتمالاً آخر في هذا الصدد، و هو الخطر الذي يلاحقه فيما لو اننا من جانبنا اكتشفنا علاقته بالسفارة العراقية فما سيكون عليه مصيره في هذه الحالة، و أي ثمن سيدفعه فيما بعد من جانبنا.... لذلك حاول فتح أكثر من احتمال و أكثر من جبهة في العلاقات ما بين الأطراف المتعددة و تغطية الفشل بهذا الاتجاه من النجاح في ذلك الاتجاه، بمعنى آخر كان هذا الرجل يخشى الاغتيال من قبلنا فيما لو ظهر لنا سوء فعلته في اتصاله بالسفارة العراقية.

و قد كان هاجس الخوف من التصفية هو الذي دفعه ربما إلى توجيه نوعاً من الإشارات إلينا بأنه قد قدم لنا النصح في الكف عن هذه الخطوات، و ذلك حباً بنا و دفاعا عن العلاقات التي تربطه بنا، و مما يقوّي هذا الإحتمال الأخير هو اختفاؤه الكلي بعد عملية القبض علينا من فلوريدا كلياً و هروبه من بيته إلى جهة غير معلومة[1]

بعد الاجتماع الذي جرى ما بين هذا الرجل و أعضاء من السفارة العراقية، أقدم السكرتير الأول على السفر إلى العراق و اجتمع مع المسؤولين العراقيين و الذي يبدو أنه تم اجتماعه مع سعدون حمادي و شخصية مخابراتية متقدمة، و قد تكون لطيف نصيف جاسم بالإضافة إلى بعض الأسماء التي لم تعرف باعتبارها عناصر مخابراتية لها حدودها في السرية.

---

[1] (جول) هذا بعد الحادثة ابتلاه الله بمرض غريب أهلكه، بل صرف كل أمواله في العلاج إلى أن وصل إلى مرحلة من الذل و الهوان في نفسه و تحول الى شبح إنسان

و في هذه الأثناء وفي ذلك الوقت استدعت عناصر المخابرات كل أفراد عائلتي من النساء، حيث لم يبق من الرجال أحد، فهم بين قتيل و مشرد، ثم بدأ التحقيق معهم حول مكاني وعلاقاتي و معرفتهم بي، و كذلك طلبوا صوراً لي ثم قالوا: ماذا يعمل إبنكم في أمريكا ..؟ أتعلمون ما هو الشيء الذي يقوم به؟ أتعلمون أن الانفجارات التي تحدث في بغداد أنذاك من صنعه و من تخطيطه... الخ.[1]

في تلك الأيام تمت عملية عسكرية ضخمة قادها فدائيون من المجموعة التي كانت تعمل في الداخل، هدف تلك المجموعة كان هو الدخول إلى مقر الشعبة الخامسة و إنقاذ ما يمكن إنقاذه من ملفات و أسماء وغيرها من المعلومات المهمة التي كانت تضم أسماء مجموعات من الشخصيات التي تم تغييبها في السجون و معرفة مصيرها[2]

---

[1] ثم بدأ التهديد و الضغط بصورة متواصلة و مستمرة و كانت إحدى أخواتي حاملاً و في يدها طفل أيضاً و حاولوا سجنها و لكنهم اكتشفوا أن أهلي فعلاً لا يعرفون بمكاني و رقم تلفوني و غيرها من الأمور الخاصة بي، فأنا منذ ربما ثلاث سنوات لم أتصل بهم سواء عن طريق التلفون أو عن طريق الرسائل، و لا أعرف فعلاً ماذا حل بهم في ذلك الوقت، ثم طلبوا من أختي أيضاً أن تأتي إلى مكان ما في إحدى شوارع الكاظمية و تنتظر في يوم محدد من الأسبوع حتى تأتي سيارة الاستخبارات لتأخذها إلى بناية المخابرات للسؤال منها إن كنت قد اتصلت أنا بهم أو لا، بالإضافة إلى تهديدات بالسجن و ترويع لأبنائهم، و هكذا بدأت تذهب أسبوعياً إلى ذلك المكان و كانوا أحياناً يأتون و أحياناً يتغيبون عن الحضور مما يستدعي بقاءها هنالك لوقت طويل خوفاً من الاتهام بعدم الحضور، مما يعرضها ذلك ربما إلى اعتقالها و رميها في الزنزانات الكبرى الخاصة بالنساء التي تقع في مناطق غير معروفة و فيما إذا تم تصفيتها أو لا، و قد استغرقت العملية ثلاثة أشهر من التخطيط الدقيق و

[2] المراقبة، إلى أن جاءت ساعة الصفر في تنفيذ الهجوم، التي تمكن بها الإخوة في أداء كل مراحل العملية بشكل غاية في الدقة، و تمكنوا من تحميل سيارة كاملة بملفات خاصة تهم الكثير من الاخوة المعتقلين في أماكن المعتقلات المنتشرة في العراق ثم إيصالها إلى إحدى القواعد الخاصة بالإخوة المجاهدين في مدينة الثورة سابقا، الصدر الآن، و لكن الحظ لم يبتسم لهذا الانجاز، و بسب خطأ بسيط غير متعمد اكتشفت الأجهزة الأمنية مكان تلك الملفات و أعتقد أن ذلك جاء مصادفة حيث هاجمت مجاميع من المخابرات مجموعة من البيوت في تلك المنطقة بحثاً عن الهاربين من الخدمة العسكرية، و ذلك بعدما أطلقت طلقاً نارياً على سيارة عسكرية كانت تلاحق أولئك الفارين، و مع أن المكان الذي خُبأت به الملفات لم يكن قريباً من مكان المواجهة بل كان يبعد ما يقارب كيلومترين عن المكان و لكن التفتيش شمل منطقة واسعة لم يكن متوقعاً لها أن تتسع إلى ما حدث، و كان هذا المكان الذي هو في الحقيقة كراج مهجور فيه سرداب صغير يؤدي إلى باب جانبية تذهب إلى حيث هنالك مخزن ضخم لإطارات السيارات التالفة، كانت الملفات قد أخفيت ما بين الإطارات .. و عندما وصلت السيارة التي كانت تضم عشرة عناصر من المخابرات إلى المكان هاجمها المجاهدون بقنبلة يدوية انقلبت على أثرها السيارة و قتلت بعض أفرادها، و جرح البعض منهم، في الوقت

كان لاستشهاد المجاهد (تراب) أثره الكبيرعلى مجرى الأحداث حيث كانت إحدى الوثائق التي وجدت معه هي أسماء مستعارة لبعض شخصيات المعارضة في أمريكا الشمالية، و التي ظن النظام بأن المخطط هو من صنع المجموعة التي هي الآن بصدد ملاحقتها في فلوريدا، و قد صادف أن كانت الأحداث تتلاحق بصورة كأنها مصممة أن تكون متصلة إحدهما بالأخرى، مع العلم أن القضية التي تمت في الهجوم على مقرمركز الأمن لم تكن لها صله بما تقوم به المجموعة في أمريكا، إلاّ اللهم هو وجود خيط من التعاون البسيط مع الشهيد (تراب) في بعض الأمور الخاصة بالعمل الميداني.

رد الفعل من الحكومة العراقية: و على أثر التطورات الميدانية في فلوريدا و على ضوء الاتصالات مع مدير الشركة (جول) و تقديم تلك المعلومات المهمة لهم، اتصلت الحكومة العراقية أنذاك عن طريق شخصيات رفيعة المستوى بالحكومة الأمريكية طالبة منها التحقيق في الأمر و متابعته[1] عند

الذي كان هنالك اثنان من الإخوة متهيئين لنقل الملفات عن طريق مخرج جانبي، و خلال أقل من نصف ساعة جاءت ثلاث مروحيات حلقت على ساحة العملية فيما وصلت عشرات السيارات العسكرية و المدنية المحملة بالجنود إلى المكان الذي تحول بعدها إلى ساحة قتال حقيقية قتل على أثرها مجموعة من عناصر الأمن، كما تمكن الأخوة أيضاً من إحراق عنبر الإطارات و حرق وثائق الأمن معها و كانت الحصيلة أن قتل مجاهد واحد بينما تمكن الثلاثة الآخرون من الانسحاب و الهروب، و كان القتيل هو الأخ المجاهد (عبد أبو تراب) من البصرة و المكنى (تراب)

[1] الحكومات الغربية و خصوصاً الإدارة الأمريكية لا تعتمد على معلومات مخابرات الدول العربية. و خصوصاً الدكتاتورية منها، نعم قد تستمع إليها و قد تضعها إلى جانب المعلومات الأخرى التي تملكها كرقم آخر من الأرقام المعلوماتية، و لكنها غالباً لا تعتبرها معلومات يستند عليها في مخطط ما، أو عمل موجه، هذا في عموم التعامل المخابراتي الأمريكي، ما عدا استثناء واحد قد لا يتبع هذه القاعدة ذلك الاستثناء هو المعلومات المتأتية من بلد تقل أو تضعف فيه نشاطات المخابرات الأمريكية بسبب الظروف الخطرة لقسوة النظام مثل العراق و ليبيا و بعض دول العالم الثالث الشمولية، عند ذلك تكون مصداقية تلك المعلومات أكثر قبولاً عندهم، و لكن لا تتردد مراكز القرار من أن تحولها إلى مفاهيم عملية و خطوات حركية خصوصاً في المعلومات التي تخص طرفاً ثالثاً في الأمر، كما هو الحال في مثل القضية التي نواجهها الآن، و تزداد الأمور تعقيداً فيما يخص الشأن الإيراني إذ نجد تلك الأمور جلية و واضحة في التحركات الانفعالية للسياسات الأمريكية الارتجالية غير المحسوبة في الكثير من الأعمال السياسية و السياسة المواجهة، خصوصاً في وقت الأزمات، و قد انعكس ذلك فيما بعد على قضيتنا العراقية حيث كانت المخابرات الأمريكية تعتقد أن السبب وراء عملية إصدار تلك الوثائق، كما أوحت لهم بذلك المخابرات العراقية عموماً هو القيام بأعمال إرهابية أو تخريبية ضد المصالح الأمريكية في العالم، و لك نهذا الرأي لم يكن هو المتبع في الشأن السياسي الأمريكي، أي الإدارة الأمريكية، لذلك فالاتصالات التي قام بها

الاتصال ما بين الحكومة العراقية و الحكومة الأمريكية كانت هنالك قضية ما بين الدولتين، كان يجب على العراق أن يقدمها إلى الأمريكان مقابل إلقاء القبض علينا(مساومة).

في البداية رفضت الإدارة الأمريكية التدخل بالأمر و أخبرت نصيف جاسم بأن الأمر سوف تتولاه السلطات القضائية فيما لو ظهرت هنالك أعمال مخالفة للقانون، و لكن العراقيين لم يقتنعوا بهذا الجواب، و بدأوا يضغطون باتجاه إلقاء القبض علينا، مقدمين لهم وثائق و معلومات تؤيد ادعاءهم بأننا جماعة إرهابية لا تنوي فقط ضرب المصالح العراقية، و إنما الأمريكية بالأصل مع توفر بعض الشواهد الواقعية الطفيفة التي حدثت في الولايات المتحدة الأمريكية مثل الهجوم الذي نفذه الإخوة على المركز العراقي للأمم المتحدة في نيويورك و الذي قام بهذا العمل شباب من المعارضة استولى عليهم الحماس و قاموا بالعمل ذلك بالصفة الفردية، كما قاموا بإخراج طابعات و معلومات من ذلك المركز الذي لم تذكره الحكومة العراقية إلاّ للمخابرات الأمريكية لإثبات نظريتها في انتماء المعارضة العراقية في أمريكا إلى الإرهاب و الإيرانيين كما يسمونها.

و قد قدمت الحكومة العراقية الكثير من التفاصيل عني و عن عائلتي، و عن جميع الأصدقاء و المعارف بشكل يحاولون به إقناع المسؤولين الأمريكان بصحة فرضية المخابرات العراقية في أننا جماعة إرهابية ترتبط بإيران، و إننا نحاول من كل عملنا هذا إلى التهيئة لعمليات إرهابية في العالم، و لكن الأمريكان كعادتهم أخذوا المعلومات العراقية و بدأوا بحملة مكثفة جندوا لها طاقات كبيرة للتحقق في شأن ما جاء في التقرير العراقي. و هي الفترة التي

العراق مع الأمريكان كانت في معظمها قد أجريت على مستوى المخابرات، مع انسحاب الجانب السياسي من التدخل في تحركات الجانب الآخر، أي بمعنى آخر كانت الجهة التي تعاملت مع قضيتنا هي الجهة المخابراتية، و ليست الجهة السياسية من الإدارة الأمريكية في البداية، و هذا يعني في المنطق العام بأن الإدارة المدنية للرئيس الأمريكي قد تتنصل في أي وقت من الأوقات من ردود الفعل التي تقوم بها المخابرات الأمريكية، و أن الحسابات في الربح و الخسارة من جرآء ذلك غالباً ما يكون لصالح الجهة الثانية، و هو أسلوب عموماً تتبعه أمريكا أثناء مواجهتها مع الأحداث التي لا تحسب عواقبها بدقة، أو أن المعلومات التي تملكها غير دقيقة و ليست موثقة من قبلها بما فيه الكفاية، فإذا نجحت المهمة يكون الكسب عاماً على شتى المستويات المخابراتية، و غير المخابراتية، أما إذا فشلت المهمة فإن ما يلحق ذيول المهمة يقع على عاتق المخابرات بالتحديد، و ليس على الدولة و الإدارة الأمريكية بالذات، و التي غالباً لا توجه لها أصابع الاتهام لأنها لا تفكر بالفعل السياسي المنفتح كما هو المعروف عن السياسة الأمريكية

استغرقت شهراً كاملاً كنت خلالها مراقباً بشكل يكاد يكون شاملاً لكل ساعة من ساعات اليوم، فأرقام التلفونات و قوائمه و العلاقات بالأشخاص و المنظمات و السفارات، إضافة إلى النشاطات و التحركات وغيرها خلال مدة وجودي في أمريكا.

و الشيء الذي استخلصته الجهات المعنية بالمراقبة هو استبعاد الاحتمال الذي قدمته المخابرات العراقية، و هو جانب الإرهاب أو جانب التعاون مع دولة ما، و كانت من أكثر النقاط التي عززت ذلك هي طبيعة معيشتي و ملبسي و ما أملك في الحياة و التي غالباً ما تكون مختلفة عندما يتعامل شخص ما مع أي جهة مخابراتية.

كما أظهرت التحقيقات و بوضوح من خلال متابعة المكالمات التلفونية مع الآخرين، هو أننا مجموعة لا تحمل الخطر على المجتمع الأمريكي و ذلك بسبب سلوكنا الدائم في علاقتنا مع المحيط الذي حولنا من الأمريكان، وغير الأمريكان في حثهم على ترك الموبقات و الالتزام بالقانون و التحلل من كل ما هو ضار للمجتمع عموماً[1] بعد هذا التقرير بدأت الأزمة تشتد ما بين

---

[1] و كان من جملة ما قدمته الجهات المخابراتية هو ذهابي المستمر إلى الكنائس و دعوة المسيحيين في تلك الكنائس إلى التوحيد و ترك الفرقة، و فهم الإسلام الذي تنادي أسسه بمبادئ لا تختلف عن المسيحية التي جاء بها نبي الله عيسى عليه السلام، كما أكد التقرير على مساهماتي في الحقل الاجتماعي الأمريكي عندما كنا نذهب إلى الكنائس لنبين للآخرين أضرار الخمور و الزنا و السرقة و المخدرات، كما جاء أيضاً بأن المقصود -و هو أنا- قد شارك في تظاهرات قام بها السود الأمريكان ضد البوليس الذي قتل في أحد الحوادث ثلاثة من السود الأمريكان في مواجهة مسلحة في أحد شوارع (نيو أورليانز) التابعة إلى ولاية (لويزيانا)، و فعلاً كان ذلك قد وقع، حيث شاركت في اجتماع للسود في الولاية و كنت قد اخترت أن أكون ممثلاً عن آسيا، حيث كان هنالك ممثلون عن القارة الإفريقية و عن الأمريكية و عن الأوربية، و كان يضم الاجتماع عدداً كبيراً من شتى مدن أمريكا، كلهم من السود ما عدا خمسة أشخاص غير ملونين أحدهما إمرأة و هي المحامية عن الجالية السوداء، ثم رئيس جمعية الدفاع عن التفرقة العنصرية، و قد كانت كلمتي في التجمع هو نموذج الثائر المضحي في التاريخ الإسلامي (جون) مولى أبي ذر رحمه الله في واقعة الطف، ثم ذكرت لهم كلماته التي كان يخاطب بها الحسين (ع) عندما قال له: (يا سيدي أنا في الرخاء ألحس قصاعكم و في الشدة أخذلكم .... الخ).... ثم قلت لهم بأن هذا الأسود العبد كان يحلف و يقول: لا و الله لا أتركك حتى يختلط دمي الأسود مع دمائكم (علقت على القول بأن كلمة الأسود كنية، و ليست حقيقة و ذلك لحساسية الكلمة بالنسبة للجالية السوداء) فتحمس الحضور لهذا المثل النموذج فقام احد الحضور واقفاً و هو يصيح (هولولويا) أي (تكبير) و ردد خلفه الحاضرون، ثم بقى الجميع واقفاً و أنا أتكلم بانفعال، حتى وصلت إلى المقطع الأخير من حياة هذا البطل، الرجل الأسود عندما قُتل حيث كانت تفوح من دمه روائح المسك و العنبر، ثم أضفت لذلك و قلت: كيف أن لون الإنسان يضمحل أمام الإيمان بقضية ما، و قلت إن

الجانبين العراقي و الأمريكي بشأن الاعتقال ثم الترحيل إلى العراق، مع أن القانون الأمريكي لا يبيح ذلك، إلاّ في حالات محددة من الصعوبة تطبيقها في وضعنا الذي نحن عليه.

انتقلت المفاوضات ثانية و اشتركت الجهات الحكومية مع العناصر المخابراتية ما بين الجانبين، فالطرف الأمريكي لازال من جانب الوضع المخابراتي متردد في نزاهة عملنا، بل كان يميل بشكل كبير نحو رواية الجانب العراقي، بينما كانت السلطات السياسية ترى عكس ذلك، بل على أفضل الاحتمالات كانت محايدة في الموقف لا يهمها سواء أأقدمت الجهة المخابراتية على الاعتقال أم لم تقدم، فالأمر قد لا يتعدى ضجة إعلامية مؤقتة، خصوصاً بعدما صار واضحاً بالنسبة لكلا الطرفين أن الأمر لا يتعدى حدود الأفراد و المنظمات على الأرض العراقية، أما فيما يتعلق بالجانب الدولي و التعاون مع دول أخرى فإنه مفقود تماماً، و عليه فإن حجم الضجة الإعلامية سيكون قصيراً فيما لو ظهرت النتائج مخالفة للتوقعات.

اخبرنا المحامي الآخر المتخصص بقضايا المحكمة الذي سنأتي على تفاصيل دوره: بأن هنالك صفقة عقدت ما بين الحكومتين الأمريكية و العراقية مقابل إلقاء القبض علينا، و أضاف: بأنه لا يعرف ما هو حجم تلك الصفقة....؟ و هل أن الماهيّة كانت مالية أو سياسية أم غيرها ...؟ و لحد هذا اليوم لم أتمكن شخصياً من معرفة التفاصيل بهذا الشأن، و هذا معناه إن قرار الاعتقال وارد مع الأخذ بنظر الاعتبار صعوبة إيجاد المخرج القانوني الذي تتذرع به السلطات الأمنية في إلقاء القبض علينا فيما لو قدمت أدلتها أمام القضاء و هو أمر في غاية الصعوبة التنبؤ به، بل يمثل إحراجاً كبيراً للدولة برمتها.

طبيعة المحادثات ما بين العراقيين و الأمريكان لم يعرف مداها و مضمونها، حيث غادر المندوب العراقي فلوريدا راجعاً إلى واشنطن ثم بغداد، و بعدها بأيام اتصلت السفارة بمدير الشركة (جول) طالبة منه مراجعة الـ(FBI) في فلوريدا و التباحث معهم، أخبرهم الرجل: بأنه كان قد كلمهم مرتين قبل ذلك

قضية الظلم هي أكبر من قضية الدين، لان الدين جاء من أجل ترسيخ مبادئ العدل، فلنتوحد و لنطالب بإثبات العدل و لكن بأسلوب العقل و أسلوب الحوار و الإقناع فهو من أقوى الطرق للفوز بالنتيجة. كان مجمل ذلك الاجتماع واضحاً للسلطات المخابراتية في الولاية، و الذي كان رداً واضحاً للاتهامات القادمة من السفارة العراقية في اتهامي باعتماد أساليب الإرهاب و المواجهة، لان كل تلك المشاهد موثقة بالإعلام و بالصور

التاريخ و كان جوابهم سلبياً، أخبرته السفارة العراقية و بشكل إلزامي بأن عليه أن يطيع الأوامر و أن يراجع مكتب التحقيقات الفدرالية مرة أخرى لأنّ السلطات العراقية قد رتبت الأمر معهم و تم الاتفاق على صيغة محدده للتعامل مع هذا الملف الخطير.

استجاب الرجل لما أخبروه به و ذهب إلى مكتب التحقيقات الفيدرالية التي كانت على الفور قد تلقت أوامرها من المركز الرئيس في واشنطن بتبني الموضوع و التعاون مع المطلب العراقي الذي رفع بصورة رسمية إلى الحكومة الأمريكية ضمن سياسة التبادل النفعي ما بين القطرين، في الوقت الذي كانت الحرب الإيرانية-العراقية على أشدها حيث كانت المحافل الدولية بأجمعها تعاني من مشكلة الضغط على إيران في وقف الحرب المستعرة التي أدت إلى حدوث مشاكل كبرى ما بين الدول في المنطقة، حيث كانت إيران ترفض هذا المنطق، بل كانت تحاول الضغط على المجتمع الدولي في معاقبة العراق على ابتدائه الحرب، و هنا بات واضحاً بأن المخابرات الأمريكية قد اتخذت قرارها في متابعة الملف و إرسال الشخصية المتخفية (Undercover) و هو (جينو) بناءا على توجهات واشنطن. أعني الجهة المخابراتية التي أعتقد بأنها كانت ال(CIA) بالإضافة إلى وزارة الخارجية الأمريكية.

التقى (جول) بالأجهزة الاستخباراتية الأمريكية و استمعوا إلى موقفه الواضح و دوره في العملية، و تم تسجيله ثم رفعه إلى الجهات السياسية التي سوف تتخذ قرار الاعتقال أو غيره[1]

---

[1] فالمخابرات الأمريكية الداخلية (FBI) وحسب موقعها و مسؤولياتها لا ترى في ذلك ما يخالف قانون البلد، فضلاً عن التأثير الأمني لهذا العمل على داخل أمريكا، فإذا فكرت الجهات الأمنية في أن تتصرف بما تراه مناسباً في الاعتقال أو غيره من الخطوات فإن القانون سوف يكون هو الجهة التي ستحاسب تصرفاتها ما لم يحال الأمر إلى الجهة السياسية، فإن الوضع سوف يختلف في المعطيات و في الإجراءات، و هو أمر مختلف جداً عما هو موجود في التصرف الإجرائي الأول. القرار السياسي غالباً ما ينظر إلى الكسب العالمي السياسي بغض النظرعن الجانب القانوني، فإذا كان ذلك العمل يخالف القانون في الولايات المتحدة فان المخارج لذلك سوف تتعدد حسب تأثير تلك القضية، فالقرار السياسي للولايات المتحدة في قضيتنا هذه لم يكن مستعجلاً في إلاعتقال أو عدمه، لأنه في حاجة إلى معطيات واقعية للمعارضة العراقية، و طبيعة تفكيرها و رجالاتها، و هذا لن يحدث إلاّ إذا تحقق عمل ما على الساحة و هو ما سوف يفرز المعلومة التي تحتاجها الجهة السياسية الأمريكية

العميل (جينو) : كان رأي المحامي في الموضوع بأن المخابرات الأمريكية سوف تتخذ موقفاً ما تجاه الضغط السياسي الذي تواجهه الحكومة في ظل الوضع السياسي المعقد. و فعلاً حدث ما كان متوقعاً بعد أن قام مكتب التحقيقات الفدرالي بإرسال شخصية متسترة و متخفية للتحقق من الأمر و هو الجاسوس (جينو) الذي تكلمنا عنه.

و هكذا بدأت بداية عملية التخطيط للاعتقال بعدما تدخلت الدولة العراقية ضمن صفقة مع الحكومة الأمريكية، لا نعلم إن كانت عودة العلاقات و شروطها أو أن تزويد القوات العراقية في الجبهة الإيرانية بأجهزة متطورة لكسب المعركة هي إحداها....؟ أو أن هنالك ما هو أبعد من ذلك مثل الانفتاح العراقي على الدول الخليجية أو غيرها...؟

كان (جينو) كما ذكرنا يمثل رجل الأمن المتخفي تحت عنوان "المتخصص" و الذي أوفدته المخابرات الأمريكية لكي يكون الشخص الذي سيحضر أمام المحكمة بعد اعتقالنا و يقدم أدلته لإقناع الحاكم في اتخاذ قرار التجريم..[1] و لهذا عندما ذهبنا لمقابلة (جول) و (جينو) كنا نكرر في كل لقاء رفضنا للاستمرار بالعمل فيما لو ظهر بأنه مخالف للقانون، أما إذا كان هنالك ما يخالف معرفتنا بالقانون فإنه من مسؤولية الطرف الآخر في التحقق من مشروعية العمل، و إلاّ فإن المحكمة إذا أدركت ما في نيتنا من رفضنا للمخالفة فإنها تعرّض الطرف الثاني إلى المساءلة الجنائية و هي الحكومة أو رموزها، أو من شارك معهم في عدم توضيح الموقف القانوني الذي تراه الحكومة، و اعتبارها جهة مارست العمل في جر و استدراج الطرف المتهم نحو الإقدام إلى عمل مخالف للقانون، و هي مادة قانونية يحرمها القانون

---

[1] و لكن السؤال الذي قد يسأله القارئ هو: لماذا قررنا الاستمرار بالعملية مع وجود احتمال اندساس (جينو) كرجل مخابرات في مسار العملية.......؟ الجواب كما أعتقد أنني قد قدمته سلفاً، و نشير إليه ثانية لتوضيح هذا المفهوم المهم و نقول: إن عملية طبع الوثائق لم نقم بها من منطلق المخالفة القانونية، و إنما كان القانون قد أخذ بنظر الاعتبار، و أن الحماية في تنفيذ العملية هي من جانب القانون ما دامت التشريعات لم تنص على عكسه، و عندما تحدثنا في الأمر و تبادر إلى ذهننا بأن المخابرات قد تخترق عملنا من خلال جواسيس لهم مثل (جينو) فإننا في نفس الوقت استشرنا القانون في التنفيذ، تلك هي القوة أو شرعية العمل الذي كسبناه لعملنا و الذي يمكننا من أن نقوم بانجازه و التمكن من الاستمرار فيه، لان العمل الجنائي، هو ما يقوم به الإنسان مع سبق الإصرار، اما إذا كان ينوي فعل شيء ليس بنية المخالفة القانونية و ظهر فيما بعد بأنه مخالف للقانون، فأن ذلك لا يعتبر عملاً جنائياً بل قد يعتبر عملاً مخالفاً بالحالة المدنية (Civil)

الأمريكي، و مثلها تماماً كمثل من يغري شخصاً ما في ارتكاب عمل محرم مقابل تحقيق فائدةٍ ما.[1]

فعندما فكرت سلطات الأمن الأمريكية في اعتقالنا كان أمامها عدة خيارات:
الخيار الأول:- هو الاعتقال المباشر كما يحدث في الدول الأخرى حيث يهاجم رجال الاستخبارات المطلوبين، ثم يودعون في السجن ثم يقدمون للمحاكمة، هذا الاحتمال قد يمكن له أن يتحقق، و لكن عواقبه و نتائجه ليست من صالح السلطة التنفيذية، لأنّ القضاء سوف يرفض إسلوب السلطة و يطالب بوثائق و شهود لإثبات ادعاء سلطات المخابرات.
الاحتمال الثاني:- هو أن تتابع المخابرات مدى تحركنا وعلاقتنا و خيوط الاتصال لكي تطّلع تماماً على تلك المحاولة و تفاصيلها العملية التي يكون الاعتقال الفوري آنياً فيما لو ظهر أن هنالك خطراً على المجتمع الأمريكي، أما إذا كان ذلك الخطر مؤجلاً فإن السلطة لا تتسرع بالاعتقال.
الاحتمال الثالث:- استيعابنا، و معنى ذلك أن المخابرات و قوى الأمن الأمريكية تعمل على تفكيك مشروعنا بطريقة ما، و ذلك باحتواء عنصر الفعالية إلى جانبها، مثلاً: إقناعه بعدم جدوى ذلك العمل، أو عدم مشروعيته أو خطورته، أو أنها تُشعر أولئك الأشخاص بخطورة الاستمرار في هذا الطريق كالتهديد المبطن، أو تعريض الشخص إلى مواقف خطرة تعرض حياته للخطر أو غيرها.
الاحتمال الرابع:- شراء الذمم و هو الأسلوب الذي غالباً ما يُمارس مع أولئك الأشخاص الذين يطمحون إلى منافع آنية كالمناصب، أو الأموال أو غيرها، و هو الخيار الذي اثبت عدم فعاليته في قضيتنا بعد محاولات متكررة في ذلك.
الاحتمال الخامس:- هو المواجهة القضائية ثم التعايش مع نتائجها، و محاولة كسب الجولة شوطاً شوطاً، و هو الخيار الوحيد المتبقي الذي كان أمام السلطات المخابراتية إتباعه، خصوصاً بعد الضغط العراقي على الحكومة الأمريكية بشأن الاعتقال.

---

[1] تماماً مشابهة لفضيحة إيران-كونترا التي حرمها القانون الأمريكي بعد توصل الصحافة لها، و تم على ضوء ذلك تجريم الأشخاص المشاركين، و كاد الرئيس ريغان أن يفقد موقعه في ذلك

①⑧

◖ الفصل الثامن عشر ◗

فُسحةُ الفِداء



التاريخ حاضراً : أتصل بنا (جول) و قال لنا: أن الوثائق جاهزة ، و إنه يريد أن تنتهي هذه العملية بالتسلم و التسليم، فرحنا كثيراً للخبر، و لكن في داخلنا شعورغريب خصوصاً أنا شخصياً، إذ كانت تعيش في داخلي هواجس كثيرة متناقضة، فمن الجانب الأول كانت استغاثات أهلنا و شعبنا في الداخل تضغط علينا بدرجة كبيرة في حثنا على الإسراع في الأمر، و تخليصهم من جحيم النظام الصدامي و ذلك بامتلاك الوثائق الخاصة بالمغادرة، فبعض العوائل تعيش في خطر حقيقي حيث يخيم الموت يومياً على بيوتهم، و يقترب منهم رويداً رويداً، من الجهة الأخرى كانت آمال التخلص من رأس النظام تكبر و تتسع، و ذلك إذا نجحت عملية اغتياله ضمن الفرقة الخاصة التي هيئت نفسها منذ فترة طويلة، و إذا حدث ذلك فان تاريخاً جديداً يشرق على أرض الرافدين له وقعه في حياة مستقبل العراق.

كذلك الحال في التخوف الذي كان يبدو واضحاً في أن الحكومة الأمريكية قد تخرج عن نطاق التزامها بقوانينها و التحلل منها ثم الإقدام على اغتيالنا و قتلنا بعملية ما، أو اغتيالنا بعد إدخالنا السجن[1] و لكن الأمل الذي كنا نعيشه كان منطلقاً من الآلام و المآسي الكبرى التي عصفت بنا و التي عشناها في مسيرة حياتنا في مواجهة نظام بغداد و هي التي جعلتنا نختار المواجهة و عواقبها عن الإستكانة أمام احتمال نجاح العملية.

و هكذا جلسنا نحن المجموعة التي رتبت و خططت لهذا الأمر، و صار القرار أن أكون أنا ممن يأخذ موقع رأس الحربة، بينما يتخذ الأخ الآخر موقع الحماية فيما لو حدث شيء ما في التنفيذ، و جاء هذا القرار على ضوء قدرة الأخ الدكتور حسان في الجانب القانوني، و معرفته الواسعة و العميقة بالتفاصيل الاجتماعية و السياسية للبلد.

كانت آخر ليلة أفكر فيها بأن أنام على فراشي يومياً، كانت الأفكار تغزوني و كأنها عوالم ضخمة من المعلومات تحل في ذهني و تملأه، ثم تذهب و تأتي حقبة أخرى من حقب الزمن و التاريخ.... و استعرضت أمامي كل مآسي و أحداث ذلك الشعب الطيب، الشعب العراقي، فقد كان هذا الشعب شعباً غاية السخاء في عطائه أمام نيل حريته و كرامته. فقد قدمت كل الطوائف و الملل دماءها و بدون حساب لكي يسجل في ذكريات الأمم و في تأريخها أن شعب

---

[1] نسبة القتلى في السجون الأمريكية مرتفعة لأسباب أهمها هو التخلص من الشاهد القانوني، أو أن الحكومة في طريقها لخسارة القضية

العراق لن يستكين أمام جلاده..... فلئن افتخرت أمم الأرض بشيء من نتاجها فان شعبنا و أمتنا في العراق يجب أن تفتخر بحجم و ضخامة الدماء التي أريقت على أرض الرافدين طلباً لنيل الحرية و الكرامة.

كان شعوري يتعاطف مع كل أنةٍ و صرخةٍ تنطلق من حنجرة أم تبكي ابنها، أو تندب زوجها، و كانت عواطفي تهتز لدموع الأطفال الذين فقدوا آباءهم في سجون البعث الرهيبة، و كنت أقول في نفسي دائماً كما أقولها للأخوة المشاركين في هذا المشروع أن احتمال النجاح كبير، و لكن ليس بالضرورة أن تكون احتمالات النجاح 100% لكي نتبنى مشروعاً ما، لأنّ ذلك مستحيلاً في عالم تحقيق النتائج، فكيف بمشروع سياسي فيه عقبات دولية كثيرة....؟
لم أنم تلك الليلة إلاّ قليلاً، ثم استيقظت لصلاة الصبح، و قد حزمت أمري للذهاب إلى الجامعة فأمامي بحث يجب الانتهاء منه قبل سفري إلى فلوريدا.

<u>المراهنة و الإقدام:</u> خرجت من البيت مبكراً جداً و توجهت إلى دراجتي النارية لأنتقل إلى الجامعة في قلب المدينة[1] ثم دخلت الجامعة و أجريت ما يتطلب مني إجراؤه من البحوث الخاصة قبل التوجه إلى فلوريدا، شاهدني الأستاذ المشرف عندما جاء إلى القسم فطلبني للحديث معي، ذهبت إلى مكتبه و جلست معه أشرب القهوة، فسألني عن مدى تقدم البحث، وعن الوضع المالي ثم قال لي بصورة مباشرة و بطريقة غريبة هل أنت مهتم بعائلتك... ؟ تعجبت من السؤال جداً كمن يسأل شخصاً ما هل أنت مهتم بصحتك....؟ فهذا يعني أن هنالك شيئاً غير طبيعي في صحتي، فأجبته نعم، و هل هنالك شيئ في الأمر..؟ أجاب كلا، و لكنني أريد أن أطمئن على وضعك، ألححت عليه في أن يجيبني بوضوح عن أسباب ذلك فقال مؤكداً: إن البعض قد تساءل عن ذلك، و أنا أنقل لك السؤال[2]

---

[1] وجدت على الدراجة عُدداً يدوية موضوعة على كرسي السائق تظهر و كأن شخصاً أراد أن يعمل شيئاً ما للدراجة، إما سرقتها أو شيئاً آخرا، و لكنه لم يتمكن فلاذ بالفرار قبل أن يتم الانتهاء من فك الأقفال و سرقتها، لم أبال بمجريات الدوافع حيث كان فكري مشغولا و بصورة كبيرة في لحظات المواجهة

[2] أعتقد بأن المخابرات كانت تأتي إليه و تحاول أن تشجعه على الكلام معي في مستقبل العملية و في نشاطات المعارضة، و لكن الأستاذ المشرف كان يرفض التدخل مباشرة في الحديث معي بما يتعلق بهذا الشأن

توجهت إلى البيت أولاً، ثم و خلال دقائق كانت السيارة تمخر الأرض بسرعتها نحو المطار، و في السيارة أخبرت زوجتي عن احتمال إعتقال و ماذا يجب عليها أن تعمل فيما بعد ذلك.

ودعت زوجتي و طفلتي الصغيرة ثم ركضت نحو المكان الذي يدخل منه المسافرون إلى الطائرة بعد أن قدمت البطاقة إلى موظف الخطوط فسألني الرجل: فيما إذا كانت لدي حقيبة كبيرة أجبته بالنفي، حصلت على بطاقة دخول الطائرة ثم ركضت مسرعاً، و قبل أن أدخل الطائرة استوقفني رجل أصلع الرأس ذو لحية خفيفة أسمر و سألني: أين بطاقة الطائرة....؟ فأعطيتها إياه، فسألني: عن إسمي، قلت: ليس هذا ليس من شأنك، هز رأسه علامة الإستهزاء، ثم قلت له: تعال إلى الطائرة و كلمني هنالك فالوقت ضيق، قال لي بهدوء مؤكداً: إنها لن تقلع حتى أعطيها الإشارة، عرفت أن هذا الرجل من مكتب التحقيقات الفيدرالية، قلت له: إذن ماذا تريد ...؟ قال لي يا سيد شبر: يمكنك الآن أن تسافر [1]

صعدت الطائرة و نمت مباشرة و لم استيقظ إلاّ و أنا في (جيورجيا) نزلت لإستبدل الطائرة ثم وقفت و اتصلت بزوجتي لأطمئن عليها ثم طلبت منها أن تذهب إلى بيوت أحد الأصدقاء هذه الليلة، قالت: سأرى ذلك، فلقد كانت جميع موجودات البيت قد وضعت في صناديق استعداداً للانتقال إلى شقة أخرى بعد ما وجدنا أن البقاء في هذا البيت و في هذه المحلة خطراًعلى حياتنا.
نمت في الطائرة الثانية جيداً ثم نزلت في فلوريدا ميامي فذهبت الى (موتيل) يقع في ضاحيته (فورت لودرديل) ثم اتصلت بالأخ و اتفقنا على التسليم غداً الساعة العاشرة صباحاً. [2]

---

[1] و الذي يبدو أن هذا الرجل أراد أن يتأكد بأنني صاحب هذا الاسم حتى لو اختلفت الأسماء ما بين الاسم المطبوع على البطاقة و بين إسمي الحقيقي

[2] اتصلت بزوجتي ليلاً بعد وصولي فوجدتها تبكي خوفاً في تركها وحيدة في البيت في هذه المحلة المخيفة، فكانت تذكر لي بأن هنالك أصوات و حركات تأتي من أسفل البيت، و كنت غير مصدق بما تذكره، و أقول لها ربما هنالك حيوانات تأتي أسفل البيوت، و كما هو معروف فان هذا البيت هو من البيوت المرتفعة عن الأرض بقطع كونكريت. و هو شأن بيوت "نيو أورليانز" لكثرة الأمطار و الفيضانات، فكنت أقول لها ربما هنالك بعض القطط و الكلاب قد دخلت أسفل البيت تسبب تلك الأصوات، فكانت تؤكد و تقول لي ليس ذلك، بل أشعر بوجود مجموعة من الناس حول البيت، لم أصدق قولها (مع إنه كان ذلك واقعيا) فصبّرتها و طلبت منها أن تكون قوية صاحبة عزيمة حتى أعود. كانت زوجتي تتحسس

نمت الليلة على قلق و استيقظت صباحاً، أخبرنا المحامي بأن نكون حذرين، و أن نؤكد لهم عند اللقاء ما قلناه سابقاً و هو التزامنا بالقانون الأمريكي، و عدم وجود النية في المخالفة، و الطلب منهم إذا كانوا يعلمون بالمخالفة إلى آخر ما نقوله لهم في كل مرة.

و كان المحامي متأكداً بأن الأمر لو كان مبيّتاً من قبل الحكومة فإن (جينو) يجب أن يخرج لنا هويته المخابراتية و ينسحب من العملية و يخبرنا بأن العملية غير قانونية... بمعنى آخر إن المصيدة القانونية التي يجب على أجهزة الأمن مراعاتها، بل الالتزام بها هي إظهار الوجه الطبيعي لهوية المخبر السري (جينو)، و إلاّ فإن القاضي سوف يعتبر أن الجهات المخابراتية ليست في محل الثقة، و سوف لا يؤخذ بأقوالها في هذه القضية.

أوصلني إلى حيث الاجتماع أخو الدكتور حسان الأصغر، ثم غادرعلى أمل أن يعود فيما بعد، دخلت البيت فوجدت الرجل جالساً هادئاً و إلى جنبه (جينو)، أول ما دخلت أوضحت لهم ما قال لي المحامي و بوضوح، ثم اتصل الدكتور حسان و قال لمدير الشركة و (جينو) أن يبقى كل منهم على خط التلفون، فقال لهم تماماً ما قال لنا المحامي و أعدت كلامي أنا و بصوت واضح مرة ثالثة، و كنت أتوقع من (جينو) إن كان الرجل المتخفي الجاسوس سيكشف هويته كما قال المحامي... و لكنه لم يفعل.

بدأت أسمع في البيت أصواتاً تأتي من السقف و من الغرف و من الكراج، و قلت لصاحب البيت: إنني اسمع أصواتا تأتي من الغرف، ماذا هنالك في الداخل....؟ فكان رده عليّ: إن هذا البيت من خشب و إن حركة الهواء هي التي تظهر هذا الصوت، سألت الرجلين أين الوثائق: قال إنها ستأتي بعد أن ننهي الإجراءات المالية و إننا لم نأت بها خوفاً من أن يحدث شيئ ما، فسألته: إذا كان معه نماذج فاخرج لي نماذج منها جميعاً، و جميعها جديدة و حاضرة للاستعمال، صار هنالك اختلاف عن كمية المبلغ فبدأنا في النقاش حتى أنهينا الموضوع.

بأنني سأعتقل، أو أنها ربما قد لا تراني بعد ذلك، فكانت تبكي بكاءاً شديداً و أنا أحاول بكل جهدي أن استوعبها و أعيد لها رباطة جأشه

و كان (جينو) يراقب حركاتي، و هو يتحرك بانفعال حيث وجدته خائفاً مرعوباً فسألته عن ما يختلج في ذهنه، و هل هو خائف ..؟ أجابني بالنفي[1]

و بعد مرور ثلاثة أرباع الساعة على الاجتماع جاء الأخ ليأخذني مع أخيه الأصغر منه، و عندما طرق الباب قال الرجلان إن الوثائق جاءت بالحقائب، فقمت لأتبين الأمر و بمجرد أن تحركت و إذا بقوة كاملة من عناصر الأمن الأمريكي (FBI) بملابس زرقاء تخرج من كل زاوية من زوايا البيت و بصوت واحد ذو صراخ صاعق (FBI).

ما كدت أرفع رأسي و إذا بالأسلحة مشهورة نحوي، لا أعرف العدد الحقيقي لها، كل ما تمكنت أن أشاهده أن هنالك حوالي عشرات الرجال جميعهم مسلحون بمسدسات أوتوماتيكية و بنادق سوداء و هم يصرخون: (FBI) ضع يدك خلف رأسك، وضعت يدي و انبطحت على الأرض كما ذكرت الموقف كاملاً في بداية الكتاب الفصل الأول.

---

[1] قلت له مازحاً: لك الحق في أن تخاف مني فأنا رجل صاحب سطوة و لي القدرة على إنهاء الآخرين (مع الضحك) ثم قلت له معقبا: لا تصدق حديثي فأنا مسلم و محب للآخرين، و لم يصدر مني شيئ إلاّ المساعدة للآخرين.. ثم شرحت له وضع عائلتي و كيف عمل النظام على تصفيتهم، و كان يستمع لي مع تردد، و ربما كان يخشى أنني قد أطلق عليه النار مع أنني عندما دخلت البيت كان واضحاً من طبيعة ملابسي في عدم القدرة على إخفاء سلاح ناري تحته

①⑨

◖ الفصل التاسع عشر ◗

حضارة التحقيق



في الطريق إلى التحقيق: قادني ضابط المخابرات الشاب إلى الأمام إلى حيث باب الدار فوجدت الأخوة الآخرين و هم معتقلين أيضاً، سألتهم ما الأمر، و لماذا اعتقلوكم انتم أيضاً...؟ لم يجبني أحداً منهم، ثم لاحظت (جول) و (جينو) و قد جلسا في سيارة المخابرات، اعتقدت في البداية أنهما معتقلان أيضاً، فأخذتني الرحمة تجاههما.
قادني الرجل إلى سيارة (K-CAR) مدنيّة لونها سمائي و أجلسني في المقعد الخلفي و جلس هو إلى جانبي، بينما كان هنالك سائق و رجل جالس إلى جنبه و أمامنا و خلفنا مجموعة من سيارات بعضها خاصة و بعضها مظللة.

لم أكن أبالي بما حدث، و إنما بدأ عقلي يبحث و بسرعة فائقة عن الزمن المقبل، و ماذا سيحدث بعد هذه اللحظة.....؟ و هل هنالك ترحيل إلى العراق؟ و كانت الدماء قد توزعت على رسغ يدي، و بدى رأسي ثقيلاً جداً و الآلام المبرحة في كتفي و في مقدمة رأسي من جرّآء السقوط على وجهي.

كانت تراودني أفكار عندما أستعيدها اليوم أجد نفسي بأنني كنت غير واقعي، بل كنت ربما واقعاً تحت رهبة و هول النظام الصدامي الذي عاش في داخلي و تمكن من عقلي الباطن بدون علم من شعوري الحاضر.
كنت أقول مع نفسي أنذاك: هل سيحقق صدام حلمه في اعتقالنا...؟
و في إسكات أصوات المعارضين...؟
أم هل ستقدم أمريكا على ارتكاب هذه الحماقة كما ارتكبتها بريطانيا. و ذلك في بداية السبعينيات التي كانت الشرارة الأولى قد بدأت فيها للثورة في إيران....؟ و تمكنت من تحقيق النصر في عام 1979 ؟

و كنت أتساءل: هل في أمريكا و سجونها تعذيب......؟
هل هنالك ابتزاز.....؟
ثم ماذا سيكون مصير أولئك الذين انتظروا لحظة وصول وثائق الهروب من العراق...... ؟
و ماذا سيكون وضع هذا الحدث على نفوسهم....؟
و ما سيكون حال مجاميعنا الجهادية الذين هيئوا أمرهم لمواجهة الطاغية.......؟

كل ذلك بدء يدور في ذهني و السيارة تسير بسرعة متباطئة، ثم كنت أفكر بمصير الآخرين خصوصاً د. حسان الذي كنت أرى فيه الرجل المقدام الشجاع و ما سيكون مصير عمله في مجال الطب.......؟

كان مسئول المخابرات رجلاً في أواخر الثلاثينيات و هو مؤدب و وقور، و كان طيلة الوقت يبتسم كلما سنحت له الفرصة ليستدير رأسه باتجاهي، كان يلبس سترة زرقاء و رباطاً أزرق أيضاً مع قميص ذي لون بني فاتح.
قدم نفسه بأنه العقيد (جيري مك باري) يعمل في مكتب التحقيقات الفيدرالية في واشنطن المركز الرئيس، ابتسمت في وجهه و كأننا أصدقاء في طريقنا إلى محل لشرب القهوة...
كانت السلاسل التي شدت بها يدي (الكلبجة) قوية نوعاً ما و ضاغطة على عظام رسغي مع استمرار الدماء التي بدأت أشعر بلزوجتها... و أعتقد أن هذا النوع من الكلبجات تلك التي تضغط أكثر كلما حاولت ترخيتها، و كان العقيد يضع يديه خلف ظهري طيلة الرحلة و كان يمسك بي من الخلف و هو يستشعر الآلام المبرحة التي أعيشها و أتحسسها[1]

في هذه اللحظات الحرجة من مسيرة الإنسان، و في لحظات الشدة الكبرى يستشعرالإنسان بأن هنالك خزانة جديدة من الأفكار بدأت تنبع من داخله و كأن عقله ليس هو بالعقل الذي تعود عليه في الأوقات العادية في تعامله مع الأحداث و مع ردود الفعل...
كنت أشعر أنذاك بأنني أملك شخصيتين الثانية أقوي من الأولى و هي التي تتحكم بما يصدر مني من تصرفات أو أعمال، و كأنني أنا شخصياً إنسان آخر يجلس ليراقب قدرات الشخصية الثانية التي احتوت على المشهد برمته.

كانت الكلمات تخرج بشكل قوي و ثابت و بعبارات إنكليزية مضبوطة و كأنني لم أكن ذلك الرجل الذي أسلموني لبنادقهم للحظات خلت، و إنما صرت و كأنني أنا الرجل الذي سيطرتُ على تلك الجموع التي هاجمتني، و أنهم هم الآن أسرى تحت سطوتي و قدرتي العقلية و النفسية، فكانت التعابير الكلامية و طريقة التعامل تبدو بشكل معاكس تماماً لما يدور في تلك اللحظة.
و شعرت بأنني أنا الآن إنسان غير الإنسان الآخر الذي قيدوه، و لا زالوا يقيدونه و هو ضعيف و مستسلم أمام القوة المادية التي يملكونها، و إنما أنا الذي أقرر الموقف و أنا أرسم الطريق و أنا أقود التفكير، و لو أتيح لي في

---

[1] كنت ألاحظ من زجاج السيارة الناس تذهب رواحاً و مجيئاً و هي حرة طليقة لا تعلم ماذا يدور في العالم، لا يهمهم إلاّ المزيد من الكسب و المزيد من الراحة، بينما كنت أقارن ذلك بشعبي الذي فقد كل ما هو أساسي من مقومات معيشته، فشعبنا و بسبب الوضع السياسي المعقد فقد شخصيته و فقد حريته التي وهبها الله له

تلك اللحظات أن أخطط لمعضلة كبرى من المشاكل في العالم لتوصلت إلى حلها، لأنني في عالم آخر من عوالم الإبداع العقلي و الفكري.

في هذه اللحظات انتشر خبر الاعتقال كأنه الحدث الأول في أمريكا و في العالم، و أذاعت (صوت أمريكا) الخبر باللغة العربية بعد نصف ساعة تماماً على الاعتقال[1]

حركت يدي لأتجنب الضغطة التي تسببها الكلبجة على عظمي، شاهدني الرجل قال لي بأدب: اعتذر لذلك فهذا قانون عندنا إن الاعتقال الأول و في مثل هذه الحالات يجب أن نستعمل هذا النوع من الكلبجات... ابتسمت له و كأنني على علم بما يجب عليه أن يؤديه، ثم أضاف: و لكن يا سيد شبر سنصل الدائرة بعد ربع ساعة و عندها سنحل يديك، لم أعبأ بما قال، كما هو لم يعبأ بما أقول.

أجبته: لا عليك أدّ واجبك بما يمليه عليك القانون.

---

[1] التفت إلى زميلي العقيد الجالس إلى جنبي و قلت له: كم من الوقت استغرقت ديمقراطيتكم هذه لتكون كما انتم عليه لتنعموا بهذه الحياة الكريمة.....؟ و كنت أنذاك لا أعلم لماذا سألت هذا السؤال...؟ و لماذا أقبل التحدي و في مثل هذه الظروف......؟ أجابني بأدب قائلاً: الكثير من الوقت، ثم سكت... أدرت رأسي بالاتجاه الآخر، و أنا أحلم بأن أرى خيرات الله التي أراها أمامي و هي بيد أبناء العراق، و أرى الذهب الأسود و قد تحول إلى طعام لسد أفواه فقراء الأمة الذين عاشوا و ماتوا و دفنوا و لم يعرف أحد أنهم ماتوا..... شعور غريب أحياناً يهاجم الإنسان في بعض اللحظات الروحية التي يعمل فيها العقل الباطن، بدلاً من العقل الواعي الذي تعودناه في التأمل الحياتي اليومي، لذلك فهمت الآن لماذا أرى الشهداء العظام و الأبطال و أصحاب المبادئ يتفوهون بكلمات الحكمة في بعض لحظات الزمن، و التي تبقى محفورة في ذاكرة التاريخ لا تبلى و لا تضعف... أتذكر منها قول أحد أبطال التاريخ في حواره مع مقاتليه و هم في اشد لحظات الضيق بينهم و بين الموت قاب قوسين أو أدنى عندما خاطبهم قائلاً: إنكم سوف لن تجدوا بعد هذه اللحظة هواناً أبداً، و كان ذلك البطل الإنسان يشير إلى أن الموت هو حياة، و لكنها من لون آخر تغيب فيها عوامل الإذلال.
ثم استدرت نحو العقيد أساله ثانية: و هل هنالك من مجاهدين سبقوا بقية أفراد امتكم في المبادرة الى التضحية...؟ ضحك ثانية و كأن لسان حاله يقول: ما معنى هذا السؤال ...؟ و هل أن الاعتقال قد أخلّ بعقله..؟ قرأت أفكاره ... ثم أجبته و بسرعة و قلت: الأفكار تحتاج إلى ضريبة، أليس كذلك....؟ صحيح.....؟ هز رأسه بالإيجاب مع ابتسامة هادئة مع قراءتي لما في عقله من تبدل كبير لما كان يفكر به في السابق عما يبدو له الآن، و اعتقادي الواضح انه عندما كلف بالمهمة في الإعتقال و المتابعة فإنه كان يحمل تصوراً معيناً لشخصيتي و لشخصية المقاوم العراقي و شخصية المعارض السياسي المبدئي من تلك المنطقة من العالم، و لكنه الآن استطيع أن أقرأ في ذهنه الكثير من التبدل باتجاه الفهم الواعي لنوعية الرجال من نكون نحن

نظر إلي نظرة إكبار و احترام و قال: أنا جداً متشكر لكلمتك هذه، قلت له و بسرعة: أنا أعنيها و بلهجة حازمة، رد علي: عظيم جداً، ثم بدء يعد الدقائق و هو يقول بقي عشر دقائق للوصل إلى الدائرة و سنحل يديك، ثم كررها و قال: ثماني دقائق، خمس دقائق، دقيقتان، هذه هي البناية.

كانت البناية الحكومية ضخمة مكونة من عشرة طوابق كما أعتقد تقع في قلب ميامي المدينة الصاخبة ذات الأكثرية الاسبانية، المدينة التي تغفو على أسفل نقطة من الدول الأمريكية في المحيط الأطلسي.
استدارت السيارة إلى الخلف ثم فتح باباً كبيراً و دخلت في كراج أسفل الأرض، فنزلنا فامسك بي العقيد من الخلف و صعدنا في المصعد إلى الطابق الثالث كما أتذكر، وعندما دخلت أصبت بصدمة كبيرة عندما وجدت د. حسان يقف هنالك و في يديه الكلبجة و لكن من الأمام، سألته ما الأمر، و من جاء بك إلى هنا....؟ إذ اعتقدت في البداية أنه جاء للاطلاع على خبري حيث كان يقف و ظهره إلى الحائط و يداه مشدودتان من الأمام، و لم ألاحظ ذلك عندما تصورت إنه يضع يديه إلى الأمام بصورة طبيعية، قال لي إنهم جاؤوا إلى غرفة العمليات بينما كان يقوم بأداء عملية لمريض، و دخلوا هنالك و وضعوا الكلبجة في يديه، و أخرجوه عنوة، و جاؤوا به إلى هنا، ثم قال لي: إن الأمر ربما يتطلب أن لا نتكلم في هذه الدائرة، بعدها جاء الآخرون و هم مكبلون أيضاً.

أخذوني إلى غرفة التحقيق مباشرة و كان في الغرفة ثمانية رجال مع العقيد المذكور بعد أن فكوا وثاق يدي، ثم جلست على كرسي مقابلهم بعد أن غسلت يدي من الدم و غسلت وجهي من العرق.
أخرج الجميع هوياتهم لي لكي أتحقق من انتماءاتهم المخابراتية و هو إجراء قانوني يوجب على كل شخصية مخابراتية أو بوليسية تقديمها إلى من توجه له الأسئلة في حالات الاستجواب، أو في حالات التحقيق، و بعدمه فمن حق الشخص المستجوَب عدم التكلم عن أي سؤال يوجه له، ابتسمت من الطريقة التي قدموا بها هوياتهم لي في شعور و كأنني أنا الذي استجوب، و ليس هم المستجوبون... و تذكرت أيضاً المخابرات العراقية الوحشية عندما كانوا يحققوا معنا في بغداد، حيث كنا في غالب الأحيان معصوبي العينين في حالات الاستجواب و التعذيب... لم أحقق كثيراً بالأسماء، و إنما رأيتها بشكل خاطف و بسرعة إذ انني لم أتعود هذا الأسلوب من الاحترام فوق العادة، ففي العراق عندما اعتقلت لم أتمكن من معرفة هوية الجلادين عندما كنت أتلقى ضرباتهم و لكماتهم و أنا معصوب العينين.

ألمحققون: حدّقت في وجوه الأشخاص الثمانية الذين يجلسون أمامي خلف منضدة دائرية و في غرفة صغيرة في مركز المخابرات الفدرالية الأمريكية، و اكتشفت أن هنالك خمسة منهم ذوي سُحن شرق أوسطية و اثنان منهم يصعب عليّ تحديدهما في هذه اللحظة الاولى.

كان رأسي يكاد ينفطر من الألم، و يداي مجروحتان من الرسغ من جراء القيد، و رأسي و كما يبدو متورما من الجبهة، و كنت أخفي كل ذلك أمامهم لكي لا أظهر بالمظهر الضعيف المستكين...
طلبت منهم قهوة فجاؤوا لي بها، ثم استرخيت هنيئة ربما خمسة دقائق على الكرسي، و شعرت بأنني نمت ساعات، ثم أفقت فرأيت العقيد جيري ينزع حمالة السلاح التي كانت معلقة في كتفيه و يضعها على الحائط.

كانت يداي طليقتين و أنا أجلس على كرسي في مواجهتهم، توجهت إلى أحد المحققين و كانت لهجته إنكليزية بلكنة إيرانية في مخارج الحروف أو الجمل و سألته: أنت إيراني...؟ قال بابتسامة نعم، قلت له: إسمك علي......؟ قال: لا... إسم جدي علي، تعجب من اكتشافي لإسمه و أعتقد هو بأنني قرأت إسمه في بطاقة التعريف التي قدمها لي، فقال لي: هل قرأت إسمي في بطاقة التعريف التي قدمتها لك......؟ أجبت: لا لأنّ إسم الجد غالباً لا يذكر في البطاقة، بل يذكر الاسم الأخير. و الإيرانيون لا يستعملون إسم الجد كأسم أخير، بل يستعملون إسم العشيرة أو اللقب، و هكذا بدأ الحديث يأخذ طريقه و بصوره تلقائية عن إيران و عن وضعها بشكل عام، و يبدو أن المخابرات الأمريكية كانت قد أحضرت هؤلاء من جنسيات مختلفة للتحقيق معي كان أحدهم هذا الشخص الإيراني، و كان رجلاً خجولاً بسيط التعابير كما يبدو، و ربما كان على اطلاع بأسلوب التحقيق، أو لعله أظهر صورته بالشكل الذي ظهر لي على بساطته، الرجل الثاني الذي جلس إلى جانبه كان ذا لهجة تركية و قد شخصته مباشرة، أما الثالث فكان لا يقبل الخطأ في إنه مصري يلفظ الذال زاي كما هي عادة المصريين في تكلمهم اللغة الانكليزية، و الرابع كان عراقياً أرمنياً، و الخامس عراقي أيضاً و أعتقد إنه من عرب الغرب الذين يسكنون العراق، و السادس و السابع كنت قد أخطأت في تشخصتهما فظهرا إما لبنانيين أو سوريين أو من هذه الأقطار.
كانت هذه المجموعة قد أحضرت إلى هذا المكان ربما من واشنطن المركز الرئيسي للتحقيق في الموضوع و استخراج النتائج.

في مثل هذه الحالات غالباً ما يلهم الله عبده الفقير قوة أكبر من قوته الفعلية التي يتمتع بها في الحياة العادية[1] فعندما شاهدت هؤلاء الثمانية جالسين أمامي و هم في محاولة التحقيق معي من المقر العام من العاصمة واشنطن لمعت في ذهني فكرة أن أقدم القضية العراقية و المقاومة في العراق إليهم، و بصورتها التي يجب أن تكون عليه خالية من الرواسب و المقولات الإعلامية التي ألصقت بتلك المقاومة الأصيلة في التأكيد على عروبتها وعراقيتها، و أن نحول هذه الجلسة إلى جلسة عمل بدلاً من أن تكون جلسة تحقيق، و أسئلة و أجوبة كما هو عادة جلسات المخابرات التحقيقية الأخرى..

و كان العراقيان الآخران جيدي الثقافة و الكلام، و قد تكلما عن العراق و عن ظروفه و تركيبته الاجتماعية و الدينية و ذكرا ثقافة التشيع، و كيف أن الجاليات و الأديان الأخرى تحتمي بهم لأنهم أوفياء لمن يسكن معهم في مناطق تواجدهم، و ذكرا الصابئة و اليهود و اليزيدية و غيرهم من الأقليات التي تحتمي بالشيعة في الجنوب.
بعدها وصلت الأجواء إلى أفضل درجاتها في الحديث فبدأ العقيد بإخراج ورقته[2]
فسألني السؤال الأول

- لماذا عملتم هذا......؟
- ماذا تعني هذا.......؟
- اعني هذا العمل..
- أخبرني عن إسم العمل لكي أخبرك عن السبب .....؟
- انتم أقدمتم على طبع وثائق عائده لدولة معترف بها من قبل الأمم المتحدة.
- هذا صحيح، و لكن هذه ليست قضية مخابراتية، و إنما قضية مدنية أليس كذلك....؟

[1] و هذه الظاهرة قد لا نراها محصورة في طبقة ما أو موقف معين، و إنما في الكثير من المواقف حيث تتحرك قوى الإنسان الكامنة التي لا يستعملها في ساعات يومه، بل إنها تظهر بصوره ذاتية في أوقات الشدة و أوقات الأزمة ليتحول الفرد إلى جيش من الأشخاص، يفكر بطاقة غير طاقته العادية، كما هي الحالة مع قدرات الأدرنالين التي يفرزها الجسم في ساعات الغضب و التي تكسب الإنسان قوة عضلية تعادل قدرته العادية و يتمكن بها من أن يضاعف دفاعه عن نفسه أو هجومه على الآخر إذا ما تعرض لمواقف الغضب

[2] من الناحية القانونية كان يمكن لي أن أرفض الإجابة أو الحوار معهم، و لكنني كنت أنوي أن أنقل لهم أصل الفكرة التي اعتقلنا من أجلها

أيدني العراقيان و أشارا برأسيهما بصحة رأيي، قلت: يا حضرة الضابط - موجهاً حديثي إلى العقيد- إنني في غاية السعادة أن أراك إنساناً منفتحاً و لا أريد أن أعتبرك رجل تحقيق، لكي أتمكن من الارتياح و الحديث و بدون عقبات، و هو ما تريده أنت أيضاً.

- قال: نعم ..... نعم
- يا حضرة العقيد، هل تعرف من أنا..... ؟ و ما هي شهادتي...؟ و من أين جئت....؟ و ماذا أعمل ..؟
- أجاب نعم أعرف عنك كل شيء.
- قلت دعني أقدم لكم نفسي كما قدمتم أنفسكم لي....

بدأت أشرح لهم عن ظروف اعتقالي في العراق، و مآسي ما شاهدته داخل السجون ثم مأساة عائلتي، و مأساة أقاربي، ثم أوضحت لهم ظروف معيشة الشعب العراقي في زمن القهر و ظروف المخابرات الموجودة في العراق حالياً.. الخ.[1]

إستيقاظ العقل: و هكذا تحول الجو إلى جو تسوده المأساة و التعاطف مع القضية العراقية التي أتكلم عنها، و كان رجل التحقيق الإيراني واضحاً و حاداً في انتقاده إلى إيران و للثورة الإسلامية و لقادتها، في محاولة منه في اكتشاف الارتباط ما بين عملنا و حركتنا، و ما بين الإيرانيين، فمثلاً سألني إذا كنت سافرت إلى إيران....؟ فأخبرته نعم، لقد سافرت في عام 1983 لغرض الزيارة و غرض الالتقاء بالذين هربوا من جحيم المعركة الدائرة ما

---

[1] و كان الحديث انفعالياً، و كنت بين الفينة و الأخرى انتبه إلى نفسي فأرى حالة الانفعال بادية على وضعي مع استباق الدمع إلى عيني أحياناً بصورة لا إرادية، و كان الجميع يستمع بوجوم إلى حديثي، و كأنهم جاؤوا إلى التحقيق و في عقولهم تصور معين مختلف تماماً عما هو أمامهم الآن، و كنت أراقب استعدادهم الذهني لتقبل الحديث مع التأكيد على مصيدة الخطأ في التعبير و في المعلومة، التي قد الممكن أن توقعني في مشكلة، خصوصاً و أن الحديث مسجل في جهاز التسجيل، ثم أسهبت في رواية ما شاهدت في داخل السجن العسكري رقم واحد أثناء اعتقالي، ثم عرّجت في حديثي على الشهيد الصدر باعتباره شخصية علمية عملاقة، ثم الشهيد قاسم شبر جدّي المباشر، ثم طبقة المثقفين من الأطباء الذين قتلهم النظام، و هكذا كان الجو السائد مليئاً بالمشاهد التي يأباها الإنسان عموماً بسبب صور الرعب و الوحشية التي كنت أرويها من واقع الوضع العراقي، حيث وجدت أن الجو سيكون مناسباً لتعريف العالم عن حقيقة الجرائم الكبرى التي تنتهك في العراق، مع علمي بأن هذه المعلومات ستصل إلى المستويات العليا في الإدارة الأمريكية، و أن هنالك جواً مناسباً لنقل رسالة الشعب العراقي أمام الدولة التي تساند النظام العراقي بدرايتها أو بعدم درايتها، إنها قضية تحدي أمام قضية من أعدل قضايا الأرض، أحاول فيها أن أقدم لمن هم وراء سطوة نظام صدام و قوته

بين الدولتين... و عندما سألني فيما إذا التقيت مسؤولاً إيرانياً....؟ فأجبته بالنفي.... ثم تناول الحديث العقيد و سألني: فيما إذا كنت انتمي إلى تشكيل حزبي عراقي، أجبت بالنفي إذا كان السؤال يقصد التشكيل الحزبي الانتمائي، أما إذا كان السؤال يدور حول التشكيل المعارض فجوابي بالإيجاب.

كرر السؤال عليّ ثانية بأنني إذا كنت انتمي إلى حزب (الدعوة)....؟ و قد لفظ (حزب الدعوة) بصورة واضحة و كأن المتكلم عربي، و هو دلالة تعامله مع هذا الموضوع بشكل دائم حتى يتمكن من إظهار اللفظ بصورته الصحيحة، و عندما نفيت انتمائي إلى (الدعوة) ضحك بصورة يبدو فيها بأنني أكذب عليه، و أنهم يملكون أدلة دامغة على انتمائي إلى (الدعوة)... وعندما أظهر نوعاً من رد الفعل في عدم الاقتناع به و جدت أنه من الواجب عدم ترك الموضوع في أعتقاد السائل بأنني أكذب كما هو الحال مع وسائل الصمود و التحقيق التي تجرى في الشرق الأوسط،[1]

قلت للمحقق: إن (حزب الدعوة) اليوم قد تحوّل إلى (حالة) (Status) بسبب موجة الأسلمة التي اجتاحت المنطقة وهي التي دعت كل الإسلاميين إلى تبني ظاهرة الانتماء الحزبي، لأنها من المواضيع التكميليّة التي تثبت الالتزام الديني للفرد المسلم، فضلاً عن صفته التوعوية التي يجب على المثقف

---

[1] فكرة أن يعتقد المحققون بأنني اكذب فتلك قضية صعبة جداً، فهم أي الغربيون لا يفهمون معنى أن الإنسان يصمد في التحقيق كما هو الحال في الشرق الأوسط، فلو كذبت كذبة واحدة فهذا يعني أن المعلومات التي سأقدمها لهم كلها كاذبة، فمن المهم جداً أن أوضح رأيي و أن أكون بعيداً عن شعارات الصمود التي نفهمها في العراق، فمجال الإنكار قضية غاية في الصعوبة، خصوصاً إذا فهمنا أن جهاز كشف الكذب المتطور قد يمكن أن يكون إحدى الوسائل التي ربما يستعمل في أن يكون هو الحكم في صدقي أو كذبي... فعلى المعتقل في الولايات المتحدة الأمريكية أن يفكر بجد و دراية في أساليب الاستجواب، و أن لا يقع في مشكلة الخلط ما بين المفاهيم في الشرق أو الغرب فيما يخص موضوع الاعترافات أو غيرها، ففي أمريكا ليس هنالك سجناء رأي، و أن كان هنالك ما يقع تحت هذا العنوان، فإن الاعتقال الذي طالهم هو بسبب قضية متعلقة بالرأي و ليس بسبب الانتماء كما هو في قضيتنا الحالية التي نحن عليها، لان الرأي مسموح به في أمريكا، و أن القانون أبداً لا يعارض الاختلاف في اعتناق أية فكرة كانت . و هو جزء مهم بل أساسي في الدستور الأمريكي... فكل المفاهيم فيما يخص الحزب و التحزب و الانتماء و غيرها من الأمور، و الصراع مع السلطة له ظرفه الخاص في واقع الغرب، لان الغرب و الولايات المتحدة الأمريكية لا تفهم الحزب (الباطن) أو (المتستر) أو (السري) إلاّ من خلال نشاطه الإرهابي، أما ما عداها فليس لها بذلك أي تدخل أو اهتمام، نعم من الممكن أن يبقي الإنسان الحزبي أسرار ذلك الحزب خاصة به، و لا يبوح بها إلى الآخرين و لكن ضمن سياسة أخرى مختلفة عن السياسة التحقيقية

الالتزام بها، فهنالك نوعان من الإلتزام أحدهما هو التقليدي، و الآخر: هو الواعي، و الشاب الواعي أو خريجوا الجامعات و المثقفون يجدون أن الصفة الحزبية هي جزء مكمّل لشخصيتهم الدينية المؤثرة في المجتمع، هذا بالإضافة إلى أن سمة المعارض السياسي لنظام صدام التصقت بالحزب المعارض ذلك هو (حزب الدعوة)، كما يسمى الإنسان الملتزم دينياً و المعارض لنظام صدام اليوم بأنه (دعوة).

و في خارج العراق ينطبق نفس المفهوم على المثقف المعارض المتدين ضمن مواصفات خاصة لا تضعه إلاّ في مفهوم الإنتماء إلى (الدعوة)، أي بمعنى آخر أن صفة الانتماء إلى (حزب الدعوة) هي صفة تلاحق الإنسان أحياناً، و ليس العكس، و أن أفراد المجتمع هم الذين يحددون من الذي يناسب إسم الانتماء و من الذي لا يناسب.

ثم قلت: فإذا كان القصد من السؤال أن أكون حزبياً بالمعنى الثاني فاني أحب أن أوضح نقطة جوهرية في عالم الأحزاب. تلك النقطة هي أن علماء السياسة يعرّفون الحزبي بأنه الشخص الذي يدفع الاشتراك الشهري و يحضر الاجتماع الدوري.. إذا توفرت هاتان الصفتان في شخص ما فان مفهوم الحزبية ينطبق عليه، و هذان الشرطان غير متوفرين في علاقتي بالحزب، و أضفت: نعم أنا احترم و أجلّ هذا (الحزب) بلحاظ أن جُلّ أفكاره هي تعليم الإنسان كيف يتحرر من شهوات نفسه لكي يحولها إلى قدرات لخدمة المجتمع. و هو نفس الحزب الذي قدم لبلدي العراق خيرة أبنائه من المثقفين و العلماء.
نعم أنا لا أتردد في أن أقول لكم بأني على تعاون مع الحزب، كما هو شأني في تعاوني مع كل المعارضين لنظام صدام سواء أكانوا أفراداً أم أحزاباً.

سألني عن مصدر الأموال التي جئنا بها..؟
قلت له: أن هنالك الكثير من العراقيين في الخارج من الذين يتطلعون إلى اليوم الذي يتمكنون فيه من إخراج عوائلهم من داخل العراق و إنقاذهم من وحشية النظام و هم على استعداد لبذل الكثير من المال في سبيل ذلك، و هذه الأموال هي أموال أولئك الطيبين الذين يريدون إنقاذ عوائلهم[1]، سألني إن كنت أعرف أولئك الأشخاص..؟

---

[1] الواقع هو أن كل الأموال جاءت من الحركة الإسلامية و ربما القليل منها جاء من قبل أفراد أعرفهم

قلت له: لا أعرفهم.
قال: و كيف تطمئن الى أن هذه الوثائق تأخذ طريقها الصحيح إلى أولئك الناس أو العوائل، و أنها سوف لن تصل إلى أشخاص آخرين يسيئون استخدامها....؟
قلت: إنني لا أعرف الأشخاص بالتحديد، و لكن أعرف الشخص أو الأشخاص الذين تم عن طريقهم جمع الأموال، ثم أضفت و قلت: لنتصور أنني أريد أن أذهب مع الفرضية التي افترضتها في إساءة إستخدام هذه الوثائق، و لكني أسال عن الطريقة التي السيئة أو الخطر في استعمال تلك الوثائق.......؟
قلت: إذا كنت تعتقد أن هذه الوثائق قد تستخدم في أمريكا فذلك رأي ليس له واقع كما تعرفون، و ليس له حاجة أصلاً.
ثم قلت: هل في ذهنك شيء تريد أن تقوله كما هي عادة رجال المخابرات...؟
ثم أجبت أنا على السؤال و قلت: هل تتوقع أن نقوم بعمل ما داخل أمريكا....؟
هز رأسه و كأنه يريد أن يقول لي بأنه لا يتفق معي، و أنه متوجس من العملية مع شك كبير في مصداقية الجوانب الإنسانية التي أتحدث عنها..[1]

و لكن الأمر هنا، و في هذه الحالة يختلف شيئاً ما عن بقية التحقيقات الأخرى في عالم المواجهة المخابراتية، ذلك الاختلاف هو أن الجهات السياسية الأمريكية تريد أن تفهم واقع (حزب الدعوة) و واقع المعارضة من شخص أكاديمي مثلي لكي تقرر على أساس تلك المعلومات موقفها من الكثير مما أثير، و كتب و قيل عن ذلك التنظيم السري الذي حاز قصب السبق في صراعه مع نظام الحكم الصدامي.
و لقد كنت أقول في نفسي أنذاك و بشكل هادئ، و كأنني أخاطب السياسة الأمريكية بشكل واضح : إن كنتم ترغبون في فتح علاقات مع (الدعوة) فتلك هي (الدعوة) تعيش في إيران[2] و تعيش في سوريا. قادتها و رموزها واضحون لكم فلماذا لا تقومون بذلك...؟ لأنني أشعر بأن المحققين الذين أمامي يريدون أن يبعثوا برسالة لي مفادها هو الحاجة إلى فتح قنوات إتصال مع (حزب الدعوة) و الفصائل الأخرى من المقاومة العراقية، فالغزل واضح

---

[1] و هذه بالتأكيد هي أساليب الجانب المخابراتي عموماً إذ لا يدعك تشعر بأنه قد اقتنع بما لديك، أو بما تقوله، لكي تستمر في الكلام، و تقدم معلومات أخرى، ثم أخرى إلى أن تتجمع حصيلة من الأرقام قابلة للتحليل لديهم
[2] كانت تلك آرائي الشخصية عن الكثير من جوانب التحقيق، و قد يكون فيها الكثير من النزعات الشخصية، والتي أنقلها بما وقعت إن كانت صحيحة أو خاطئة

من طرف الجانب الأمريكي في حاجة القيادة السياسية إلى تفهم الطرف الآخر الذي تقبع قياداته المركزية في إيران الدولة العدوة اللدودة للأمريكان و يصعب بأي حال من الأحوال فتح تلك القنوات في الوقت الذي تفرض إيران وصايتها على أية علاقة تحاول المعارضة العراقية أن تتحرك في فضاء السياسة التي تراها مناسبة للعراق و لمستقبله.

كان المحققون و كما يبدو لي أن يتوقعوا بأن هنالك تفهماً من قبلنا في معرفة الرسالة التي يحاولون إرسالها إلى المعارضة العراقية في إمكانية البدء في الحديث، و المفاوضات على الأقل لتفهم الجانبين أحدهما للآخر... كان هذا الشعور هو السائد في مفاهيم التحقيق، و كان الأمر، و كما يبدو هو المطلوب في اعتبار الحدث مناسبة للوصول إلى مرحلة التفاوض.

من ناحيتي لم أكن شخصياً متهيئاً للحديث بهذا الاتجاه أصلاً، و لم أؤمن لحد هذه اللحظة بصحة التفاوض مع الأمريكان، بعدما كان موقفهم ذلك الموقف اللاإنساني في مساندة النظام العراقي بالتكنولوجيا ضد الشعب العراقي و دعم جرائمه إعلامياً و مالياً[1]

إن الحديث عن حوار مباشر ما بين المعارضة العراقية، و خصوصاً (حزب الدعوة) و بين الأمريكان خيال محض، بل كفر محض في بعض سياقات التفكير عند الكثير من العراقيين الدينيين أو حتى الأفراد.... وجدت أنذاك بأن الوضع التحقيقي بدى لي بأن هنالك مساومة.

مساومة.... أم (دعوة)...؟: في الوقت الذي عرفت فيما بعد بأن التحقيق كان يجري بصورة متوازية و بنفس الاتجاه مع الأخ د. حسان في الغرفة المجاورة، و كان مغزى الحديث ينصب حول الإمكانية في استغلال هذا الظرف في تفهم الطرفين أحدهما للآخر، و كان الأخ و كما يبدو قد نقل لهم صورة واضحة بأن الحوار السياسي هو من اختصاصي أنا و ليس هو، و إنه أي د. حسان ليس له علم بالأمر، و لا يعرف الكثير عن وضع المعارضة العراقية، لأنه يعيش في أمريكا منذ زمن طويل، فعلاقاته محدودة بأطراف

---

[1] مع تحفظات على هذا الرأي ستناقش في سياق الحوارات المقبله التي أصلها أن الحوار يجب أن يبدأ بمشروع و لا يجب أن يكون بين جهة ضعيفة و جهة قوية كما يريد أن يفرضه التحقيق علينا الآن، و إنما الحوار المنتج هو في تفهم كلا الطرفين واقعياً حاجته للآخر على مبادئ التكافؤ

المعارضة، و أنه اشترك في هذا الأمر لإنقاذ أبناء وطنه و بعض من أقاربه، في الوقت الذي أقدم النظام على إعدام أخيه الصغير.
لم أكن أعلم أنذاك بأن التحقيق كان يجري في وقت واحد و أن المعلومات ما بين غرفتي التحقيق كان متبادلاً بشكل الكتروني من قبل شخصية مخابراتية أخرى تراقب كلا التحقيقين في وقت واحد، و تنقل للمحقق ما يجب عليه أن يسأل، أو أن يقول، لذلك كنت أشعر بين الآونة و الأخرى أن العقيد كان يخرج إلى الغرفة الأخرى بعد أن يستأذن منا ثم يعود، و لكن كل ذلك لم يكن في علمي، و لم أتوقعه لأنّ مجمل العملية كانت مفاجئه لي.

سألني المحقق: هل تنوي المعارضة العراقية القيام بعمليات تفجيرية في داخل العراق...؟ و هل هنالك من ضغط عليكم في أن تقوموا بضرب المصالح للدول التي تساعد صدام في حربه الجارية حالياً.......؟
عرفت بالضبط أين يتجه السؤال و ما هو مقصده، و عرفت أنه يريد أن ينتزع مني اعترافاً بأننا قد نواجه أمريكا و مصالحها في العالم، أو أننا قد نعزف على نفس النغمة الإيرانية في التوجه إلى ضرب المصالح الأمريكية في العالم.
قلت و بنوع من الدبلوماسية الهادئة: أريد أن تعرفوا انتم و أن يعرف الجميع موقفي و موقف المعارضة العراقية من هذا الأمر، و ربما هو بيت القصيد في تخوفكم منا... بأننا نرفض أي عمل من شأنه أن يلحق الضرر بأي شخص مدني كما إننا لا يمكن لنا أن نتحرك إلاّ في مواجهة النظام في الداخل. و هو موقف واضح و مفهوم و لا يمكن لنا أن نحيد عنه، كما إننا نلتزم بالصراع مع النظام القائم بالعراق على مبادئ المواجهة التي تقرها القوانين الدولية، و تلتزم بها حقوق الإنسان و الأمم المتحدة، أما موقفي أنا شخصياً...؟ فانتم تعرفونه جيداً و لا حاجة لي في أن أوضحه.
سألني المحقق الآخر: فيما إذا كنت أعرف أنا بأن الوثائق ستصل إلى أيدي أمينة.....؟

أجبت: لو كنت أعلم العكس لما ساهمت فيها

سألني المحقق العراقي: فيما إذا كنت قد تعاونت مع أطراف عراقية في الداخل ....؟ أجبته بالإيجاب، و قلت له نعم إن لنا عملاً عسكرياً ضد النظام العراقي، و نحن نملك نظرية فكرية واضحة لفلسفة المعارضة، و هي ليست وليدة اليوم و إنما قدمها بقدم التاريخ في سلسلة المواجهة ما بين الحق و الباطل، و نحن لم نكن إلاّ استمرار لذلك التاريخ، و أمامكم الكتب راجعوها ليتبين لكم شرف و عدالة مواجهتنا لهذا النظام.

سألني رئيس الهيئة العقيد عما إذا كنت أعرف عواقب ما قمت به...؟: قلت نعم جيداً، فهو عمل غير مخالف للقانون الأمريكي، و ليس مخالفاً للقانون الدولي، و نحن عندما قمنا في ذلك استشرنا محامياً متخصصاً في هذا الأمر، ثم أضفت له و لكن بنبرة فيها الكثير من الجديّة و التصميم و قلت: و أعتقد أن سبب إلقائكم القبض علينا لم يكن منطلقاً من قرار قضائي، و إنما قرار سياسي مخابراتي، و الفرق واضح ما بين القرارين، و أنا بدوري أسألك السؤال نفسه و أقول: هل تعرفون عواقب ما قمتم به في عملية اعتقالنا في مواجهة الديمقراطية الأمريكية و في غمط حق الشعوب في الدفاع عن نفسها إبعاد القتل و الذبح عن أبنائها.......؟ أم هل بادرتم إلى اعتقالنا بناءاً على أمر قضائي.....؟ أم ماذا...؟

ثم أضفت: بأننا نحاكم قراركم سياسياً، و سوف لن تتمكنوا من الإفلات منه، لأنّ القضاء الأمريكي عادل و نزيه و لا يتأثر بالجو السياسي[1] ثم بدأ ينظر أحدهم في وجه الآخر و بنوع من الاستغراب في اللحظات التي كان التوقع من الحديث أن يأخذ منحى أخر....

ثم بادر العقيد و بشكل غير متوقع، و بصورة استفزازية قال لي: لنرى يديك ثانية..؟ و كانت خالية من الكلبجة فقدمتهم، فقال لي: يجب أن أشدهما الآن و لكن إلى الأمام، و ليس إلى الخلف[2] .

في نفس الوقت سألني العقيد الشاب الأصلع بأنه لا يمانع أن يدعو لي بكوب من القهوة، قلت: إن أحببت[3]

---

[1] قلتها و كنت أتمنى أنني لم اقلها، لأنها ورقة القوة التي أملكها في مواجهة المخابرات الأمريكية في هذا الصراع، و وددت أنني ادخرتها عندما يشتد الصراع و في اللحظات الأخيرة، و لكنني كنت كما يبدو مستعجلاً

[2] من الأمام أخف ألما مما هو إلى الخلف و إشارة الى التساهل... لم أهتم كثيراً لما أقدم عليه العقيد، بل ربما شعرت أنه أسهل لي أحياناً في الحوار لأنني استعمل يدي أحياناً في الحوار معهم . و في هذه الحالة قد يمكن لي التركيز على الأفكار بصورة أفضل، و لكنني فهمت من العملية أن الأمر لا يتعدى أكثر من حرب أعصاب خصوصاً بعد ما صرحت بالأمر بأنني سأحاكم المخابرات الأمريكية سياسياً

[3] فرددت عليه و أنا أتمازح مع المحقق الإيراني الذي كان يجلس مقابلي قائلاً: إذا أردت أن تحسن ضيافتي فمعناها أن أطلب ما أحب، أليس كذلك سألت العقيد...؟ بالتأكيد أجابني، قلت: أريد بدل القهوة الأمريكية شاي (دشلمه) إيراني، انفجر الإيراني بالضحك، و كذلك المحقق التركي بينما لم يفهم الأمر المحققان العراقيان، و أصاب الآخرين نوع من التساؤل عن معنى الكلمة التي فسرها لهم المحقق الإيراني

أخذت قدحا من القهوة السوداء ثم أعادوا شد يدي إلى الجهة الأمامية بعدها بدأنا الحوار أو التحقيق ثانية.

كانت الأفكار تتزاحم في ذهني و كنت في غاية التركيزعن أيهما من الممكن أن أقوله و أيهما لا أذكره، في الوقت الذي كنت أشعر بأهمية استمرار التحقيق لأنني أمارس موضوع تقديم القضية العادلة لشعبي إلى القيادة السياسية، أو ربما الاستخباراتية الأمريكية، مع علمي أن الحديث سوف ينقل بصورة أمينة إلى القيادات العليا، و التي على ضوئها ستكون معلومات تشارك إلى جنب المعلومات الأخرى في وضع الخطط و القرارات المستقبلية.

لم أكن خائفاً، و لم أشعر بالتردد، و لم أبد لهم بأنني في جزء من الاعتقال، و كنت قد أشعرتهم بأنني سأكون صديقاً لهم، و إنني متفهم لمواقفهم في استمرار التحقيق، في الوقت الذي كانت يداي و ظهري و رأسي و رقبتي في ألم دائم من جراء المواجهة الصباحية، إذ بدأت الآلام تظهر الآن بصورة أشد من ذي قبل، خصوصاً ما حول الرقبة و حول منطقة الفقرات القطنية و في مؤخرة الرأس، و قد طلبت دواءً لتسكين الألم فقالوا إن ذلك لا يمكن أثناء فترة التحقيق، فقلت ليس هنالك من ضيرعلى هذا الأمر.

<u>متناقضات المعارضة:</u> بدأت أتحدث معهم في الجلسة الثانية هذه عن وضعنا كمعارضة، و وضعنا كشعب يطمح في نيل الحرية و تخليصه من نظام ظالم تسانده قوى العالم الكبرى و منها أمريكا و الغرب، و أن الولايات المتحدة سوف تدفع يوماً ما ثمن إصرارها على ذلك، و ذلك بأن ينقلب ذلك النظام على المصالح الأمريكية التي تعتقد بأنه يرعاها الآن، أو تعتقد بأن سبب هذا الموقف هو الثورة في إيران، قلت إن لذلك ثمناً و هذا الثمن سيأتي اليوم الذي سيكون غالياً و مرتفعاً عندما يتحول صدام إلى ما يشبه التاريخ الهتلري في محاربته لجيرانه من الأوربيين.

ثم بدأت الحوارات تأخذ طريقاً آخرا في الوصول إلى معلومات و فرضيات كانوا يملكونها في أذهانهم مثل علاقتنا بقوى اغتيالات تنتشر في أوربا و أمريكا، وعلاقتنا مع إيران الحكومة و الحرس الثوري خصوصاً وعلاقتنا مع سوريا، هذه الأسئلة بعيده جداً عن التوجه في التحقيق، و لم أكن على علم بخلفياته و لا أبعاده، ربما من المحتمل أن أنقل رأيي كمحلل سياسي، و ليس بما هو جارٍ لأنني فعلاً ليس لي علم بإستراتيجية الحركة الإسلامية العراقية

مع سوريا أو إيران، نعم هنالك معلومات عامة من الممكن مناقشتها أو الحديث حولها بعيداً عن الواقع الميداني.

و كان عندما يسألني مثلاً عن علاقتنا بالحرس الثوري، أطلب منه أن يعطني خيطاً و لو صغيراً حتى أبداً بالحديث عنه. و قلت له: حدد سؤالك بالضبط، و لا تجعله غائما كسؤالي لكم مثلاً: ما علاقة أمريكا بالحرس الأحمر.... لم يجب الرجل، و بدت عليه الجدية حيث و ضع الدفتر و القلم إلى جانبه ثم ظهر بصورة أخرى مختلفة عن الصورة التي أتحسسها منه قبل لحظات، و كأنه يريد أن يريني قفازاته في الملاكمة.... و لكن كيف يمكن لملاكم محترف أن يلبس قفازاته أمام أستاذ جامعة....؟ إنها عملية خاسرة للملاكم، و ليس لأستاذ الجامعة، لأنّ وقت القفازات بعيد في هذه اللحظات.

تكهرب الجو في الوقت الذي كان العقيد يروح ذهاباً و مجيئاً بين الغرفة الداخلية و بين غرفة التحقيق عندما كان الآخرون من المحققين الذين و كما يبدو أنهم تم جمعهم بصورة غير مدروسة، فكان الاعتقاد الأولي لديهم هو أن يجدوا أشخاصاً بنوعيات معينة أقل ما يقال عنهم إنهم محترفون في المراوغة و الاحتيال و ربما القتل....

إذن قواعد اللعبة تبدلت منذ البداية، و كان أمام المحققين الذين حضروا إلى هذه الحفلة التحقيقية أن يضعوا قواعد جديدة للعبة، و إلاّ فإن الملعب سوف لا يسعهم، و هو ما حدث فعلاً في هذه الأثناء.
في مثل هذه الحالات من المواجهات غير المتكافئة يكون الحل هو التحول إلى عراك و نزاع عقيم جدلي خارج حدود الأهداف المرسومة .و هو بالفعل ما حاول المحقق العقيد أن يجرني إليه، و لكنني كنت هادئاً تماماً و كأنني في جلسة محاضرات في الجامعة.

شبح صدام الحاضر الغائب: استفزني العقيد قائلاً: هلا فكرت في تسليمك إلى صدام قبل الإقدام على عملك هذا..؟ أجبته بنوع من التحدي الهادئ و قلت: أعرف.... فأنا لست الأول الذي تسلمونه إلى نظام دكتاتوري غاشم لقتلي فقد سلمتم الكثير من الأحرار بيد جلاديهم[1].. و أعتقد بأني سوف لن أكون الأخير في مسيرة ديمقراطيتكم العتيدة.

---

[1] مع أنني لا أعرف اسماً واحداً و لكني كنت أعتقد بذلك، إذ أن الولايات المتحدة لا تملك قدراً من الفسحة القانونية في التحرك بهذا الاتجاه

قال: هل سلمنا أحداً من قبل.....؟
قلت: أنت أعرف مني.. أليس كذلك......؟ و إلاّ ما كنت سألت السؤال
قال: أنا ليس لي علم
أجبت: مع ابتسامة... يشرّفني أن تسوّدوا تأريخكم، و تأريخ ديمقراطيتكم التي تتشدقون بها بتسليمي لأعتى مجرم في التاريخ.... هل يرضيك هذا الرد...؟
قال: ليس لك أن تتكلم بهذه الكلمات، و إلاّ سأعرضك إلى ما هو أشد
أجبته: جرب يا صديقي... قلتها باستهزاء
قال: إلاّ تعتقد بذلك... أتتحداني.....؟
قلت: ليس أنت الذي اتحدى فقط، و إنما أتحدى كل السلطات الثلاث التي لديكم، و اتحدى رئيسكم (ريغان) و أتحدي سلطاتكم الاستثنائية في إل(سي آي اي) و في ال(أف بي آي) و أتحداك أنت أيضاً، أنت بالذات و أن لم تصل يدك فضع رجلك يا صديقي العقيد فلان، ثم استرخيت على الكرسي.
قام العقيد من كرسيه و هو يستشيط غيضاً بشكل هستيري بينما توجه البقية من المحققين له لتهدئته، قلت له و هو في سورة الغضب: أتعرف ماذا فعلت الآن......؟ أنت هددتني بالقتل فأنت إذن مطلوب للقضاء، و أنا سأطالب المحامي برفع قضية التهديد ضدك، إما أن تترك إسلوب التهديد، و إما أن تخسر الجولة.
ثم قلت له: أمامك أسلوب العقلاء الذي نتحدث به، فان كنت تريد أن تسلمني إلى صدام فهذا شأنك و لا تقل لي ما سوف تقوم به، إعمل ما تريد عمله، ثم تدخل الرجل المصري -لكي يبرد الأجواء- ليتحدث عن خطورة العمل بهذا الاتجاه في وقت تدور فيه الحرب العراقية الإيرانية بصورتها المستعرة، و أن الوضع العام و التهديد الإيراني بتفجير أمريكا من الداخل هي عوامل جعلت العناصر الأمنية في أمريكا باتخاذ الحيطة و الحذر في مثل هذه الأمور، و أن هذه القضية التي قمتم بها بغض النظر عن تفاصيلها و دوافعها تعتبر من الأمور الخطرة جداً و أن الإدارة و رجال الأمن ينظرون إليها بعين الشك و الريبة، و لا يمكن لنا السكوت عن مثل هذه الأعمال لكل من يريد أن يقوم بإسقاط رئيس بلده في هذا البلد أو ذاك، فنحن بلد يراعي الحرية، و لكن الحرية بمعناها القانوني.
و أضاف أيضاً: إن إيران دولة تهدد المنطقة، و تهدد أمريكا أيضاً، ثم قال: إن المتابع السياسي لا يمكن له أن يفصل هذه القضية عن مجمل التحرك السياسي الذي يدور في المنطقة، و نحن من جانبنا لا نتخذ هذه الإحداث بصورتها الفردية و العفوية كما قدمتها أنت، ثم قال: نحن نرى انك تحاول إبعاد إيران عن مجمل العملية، و كأن الأمر متعلق بك أنت و ب د. حسان، و إنها أمر شخصي بحت لا علاقة له بما يدور في المنطقة، و نحن من جانبنا

كرجال مخابرات لا نشتري كل ما قلته من زاوية العمل التخطيطي، بل نعتقد بأنك حلقة في سلسلة حلقات تحاولون القيام بعمليات من شأنها أن تؤدي إلى زعزعة الاستقرار في المنطقة، خصوصاً و أننا متأكدون من انتماءاتك الحزبية مع الأحزاب العراقية المتشددة و المرتبطة حسب معلوماتنا بالخط الإيراني، لذلك فنحن جميعاً غير مقتنعين بما تقول، و علينا لكي تبدأ الأمور باتجاهها الصحيح أن نتكلم جديّاً حتى لا نتهمك بشيء لم تفعله.

أجبته و قلت له: تماماً هذا هو الواقع، و عليكم و أنتم تراقبون العملية منذ فترة طويلة، أن تقدموا ما يدور في أذهانكم، و لنناقشها بكل شفافية، فأنا شخص علمي لا أحب اللف و الدوران و لست الشخص الذي يناور على حلبة السياسة، فأنا صاحب مبدأ، و ليس لي من ضرورة في الإقدام على هذا العمل إلاّ بدافع الإنسانية و حب الوطن و سأكون سعيداً جداً لو قدمتم معلومة صغيرة عكس ما قلته تواً....
سكت الجميع، ثم قاطع سكوت الآخرين طلب العقيد بقوله: ماذا إذن ..؟ ثم وجه الكلام لي قائلاً أتتكلم أم ماذا.....؟
قلت له يا حضرة العقيد: لقد دخلت سجون صدام و عُذّبت ثم أجريّ معي التحقيق و قد طلبوا مني أشياء مبهمة لا أعرفها، و لا أفهم ما هي، ثم استمروا بالضرب و التعذيب و أنا ارجوهم في ذكر ما يريدون لكي أقول لهم نعم و حتى أتخلص من التعذيب، و أنتم الآن دولة كبرى عملاقة مادتها العلم و شعارها العدل تريدون مني تماماً ما كانت مخابرات صدام تريده مني عن شيء لا أعرفه و لا أعرف مضامينه، و هي سمة الأجهزة الأمنية القمعية التي سادت مناطقنا و دفعت ملايين العراقيين إلى مغادرة أوطانهم بحثاً عن الحرية.[1]

---

[1] كان المحققون في وضع لا يفهمون كثيراً ما يدور في كواليس السياسة العراقية، معلوماتهم عن القضية العراقية تكاد يكون محددة و كأنهم غرباء عن تفاصيل ما يدور و يجري في الساحة العراقية، إنهم مطلعون على تفاصيل الإرهاب و تفاصيل لبنان و إيران و تركيا و ليس واقع بلدنا، فهم شبه أميّين في فهم الواقع العراقي المعقد، و أعتقد أن هذا النقص ناشي من عدم إهتمام المخابرات الأمريكية بهذا الجزء من العالم، أعني العراق و لو اهتموا بها فإنهم خطئاً يدرجونها تحت خانة القضية الإيرانية، أو بالعموم تحت مسميات القضايا العربية الأخرى ذات الاهتمام، أو لعل التقارير و الكتابات و الأدبيات التي تبحث هذا الجانب قد وصلت إليها من جانب يحاول أن يغير من مسار قضية العراق إلى وجه آخر و طريق آخر، و بعبارة أخرى و كما أعتقد أن المصادر المعلوماتية التي تزود المخابرات الأمريكية عن القضية العراقية لم تكن أصيلة المصدر، و إنما تأتي من مصادر أخرى ثانوية، و هو ما يقلل من درجة مصداقية و رصانة المعلومات في تقدير الفعل و رد الفعل، و قد يكون من

سألني أحدهم: هل أنت سني أم شيعي...؟ إبتسمت ابتسامة عريضة محاولاً بها إشعارهم بقلة معلوماتهم عن الوضع و التركيبة العراقية، و إشعارهم بسطحية السؤال، باعتبار أن انتمائي الشيعي يتوجب أن يكون واضحاً بالنسبة لهم، فإن كانوا مترددين في معلومات انتمائي المذهبي، فهذا يعني سطحية الفهم البعيد لما هو أعقد من ذلك[1]

أكثر الأقطار التي وثقت بها الولايات المتحدة في الحصول على المعلومات الخاصة بالعراق هي إسرائيل بالإضافة إلى الدول الخليجية المجاورة و بالتحديد السعودية و الأردن، فقد حاولت الحديث مع المحققين الذين يجلسون معي بشيء من الجدية عن أحداث وقعت في العراق، أو عن التركيبة العراقية و عن الشهيد الصدر و عن أشياء أخرى من واقع المجتمع العراقي، فوجدتهم ما هم إلاّ عبارة عن أشخاص ربما نالوا حظاً من بعض الثقافة في شؤون هذا البلد، أو ذاك عن طريق دراسة أكاديمية في بعض الجامعات الأمريكية التي تهتم بهذا الجانب من العالم شأنها كشأن أية بقعة أخرى من بقاع الأرض مع غياب التركيز على العمق في تفهم العوامل المحركة أو القوى السياسية الرئيسة التي يجب أن يسلط الضوء عليها، فهم أقرب إلى الأكاديميين منهم إلى القدرة المخابراتية الدقيقة التي يبنى عليها قرار و يتخذ فيها موقف، كما لاحظت أيضاً أن إدراكهم للوضع الدكتاتوري لنظام صدام غير واضح تماماً بتفاصيله التي يجب أن تعرف من قبل دولة عظمى كالولايات المتحدة الأمريكية، فالنظام العراقي بالنسبة لهم هو أقل درجة، بل بدرجات في سلم الدكتاتوريات من نظام بينوشيت في تشيلي، أو سوموزا في نيكاراغوا أو غيرها من الدكتاتوريات في العالم، بل كانوا يرون في ذلك النظام أنه القطر الذي من الممكن تحديثه و تطويره ليصل إلى درجة من الحضارة و من الحداثة ما من شأنه أن يكون أنموذجاً للدول الأخرى في المنطقة، كما كانوا يرون في أن نظام صدام لا يختلف في طريقة دكتاتوريته عن بقية الأنظمة العربية المحيطة بالعراق، إذن صدام ليس هو الدكتاتورالوحيد الذي يجب أن نقف منه موقفاً سلبياً، بينما نقيم أفضل العلاقات مع الأنظمة العربية الدكتاتورية الأخرى التي لا تختلف عنه بشئ إلاّ بالنزر القليل و بالشعارات... فالتقارير التي تملكها المخابرات الأمريكية عن وضع النظام قليلة جداً و محددة، و كأنّ العراق دولة غير ذات شأن في عرف السياسة الأمريكية الخارجية، و قد يكون من غير المستبعد أن الإدارة الأمريكية قد أولت اهتمامها بالعراق من الجانب الاقتصادي و السياسي، و لكنني لا أعتقد بأن الولايات المتحدة قد تعاملت مع ملف العراق من الناحية الأمنية أو المخابراتية أو الاجتماعية بصورة حرفيّة، كما هي الحالة مع الأقطار الأخرى المهمة في المنطقة كمصر و الأردن، و لم تحاول أن تضعه ضمن أولويات الأقطار التي يجب تفهم ظرفها في واقع السياسة العربية، بل اعتمدت في المعلومات التي تحتاجها على معلومات مخابراتية من دول أخرى.... و مما يؤكد ذلك الرأي هو التخبط في التعامل مع الملف العراقي قبل و بعد سقوط النظام العراقي في 2003، مع العلم أن الولايات المتحدة غالباً ما تتجنب الوقوع في مثل هذه المطبات في سياستها الخارجية بسبب توفر المعلومات اللازمة التي تتطلب اتخاذ الموقف المناسب

[1] مع إنني شخصياً أكره لنفسي في أن أقول ما هو مذهبي و إلى أي الأسماء المذهبية أنتمي، لأنها مفاهيم كما أرى غير حضارية، فالانتماء المذهبي لا يعني بالنسبة لي أكثر من إنها مدرسة فكرية تفتح أمام المنتمي طريق الالتزام بممارسة الأحكام الدينية الفقهية فضلاً عن النظرة إلى واقع الحياة الأخروية

و هنا عندما سألني هذا السؤال و بعد أن ابتسمت بصورة أعترف أنا أنها كانت خالية من الأدب، قلت له بوجه جامد: ماذا تعتقد...؟ و أجبته عن مذهبي، ثم قلت له هل تريد مني أن أقول لك أيضاً التفرعات الشيعية و أيهما انتمي إليها......؟ و فيما إذا كنت شيخي؟، أو إخباري؟، أو زيدي؟ أيهما تقصد...؟ سكت الرجل لهذه المسميات، و أضفت له: ماذا تعتقد أن أكون أنا....؟ قال لا أدري...؟ أجبته هل أنت جاد أو أنت تتكلم هزلاً......؟[1] الشخص العراقي ضحك، ثم التفت إلى الشخص و قال له دعني أتناول الحديث مع السيد شبر.

<u>الرقم الصعب في المعادلة:</u> تناول المحقق العراقي الحديث من حيث انتهى إليه الآخر و قال: أنت شيعي نحن نعرف و لدينا ملف كامل عن وضعك و شخصيتك و طموحك و انتماءاتك....حركت رأسي بالإيجاب.

ثم أردف أيضاً: و لكننا لا نفهم ما هي دوافع قيامك بهذا العمل..؟ فأنت شاب مثقف لم يكن طلبك للمادة هو الدافع لذلك، و لا الدافع الشخصي كان المحرك، و هو ما أثار تساؤلات عن أصل العملية، فإن تكلمت و شرحت لنا الأسباب الحقيقية وراء عملكم فإننا قد نتفهم و ضعكم في العراق، و يمكن لنا أن نتحرك معاً نحو الأفضل.

شكرته على قوله، و قلت: هذا هو ما يجب أن تقوله، فأنا لا أعتبر نفسي في جلسة تحقيق أخفي ما أضمره في نفسي، و إنما أنا صاحب قضية، إنسان مثقف تدرج في نيل الشهادات و صرف جزءاً كبيراً من وقته لنيل العلم و الثقافة و هو ما جعلني في موضوع المسؤولية تجاه شعبي، و تجاه وطني و أهلي... فإذا كنتم تعتقدون بأن هنالك أشياء غير واضحة لكم و أنا أحاول إخفاءها فذلك غير صحيح،لأننا لسنا في وضع النزاع على ذلك، و لهذا فأنا أرجوكم أن تفهموني جيداً، نحن شعب يعيش تحت سكين الجلاد، و أنا من حقي أن أحمي أهلي و عشيرتي و شعبي من سكين هذا الجلاد بتهريبهم خارج العراق، وعليكم أن تتذكروا قضية (راوول والنبورغ)[2]. فإذا كان ذلك

---

[1] ثم قلت له ضاحكاً .. أنا لا سني و لا شيعي، أنا كردي ..

[2] والنبورغ Raoul Wallenberg(ت 1947) دبلوماسي سويدي ساعد آلافاً من اليهود بمنحهم جوازات سفر مزورة لتهريبهم من هنغاريا المجر، و قد أعتبرعمل هذا الرجل عملاً بطولياً وعلى أثره منح بعد موته الجنسية الأمريكية و الكندية الفخرية كما حصل على جائزة نوبل، كما أن الكونغرس الأمريكي سمى إحدى المؤسسات الكبرى باسمه في الوقت الذي قرر أن يكون اليوم الخامس من أكتوبر هو يوم راوول والنبورغ

الرجل بطلاً فلماذا إذن يجب أن أقدم أنا أمام القانون.....؟ فانا أعتقد أن عدم تفهمكم لواقع القضية العراقية، و لواقع نظام صدام الذي جعلكم في موضع الشك في ما قمت به من عمل، مع الأسف عندما تتحدثون عن المعارضة العراقية و التي تسمونها (حزب الدعوة) لا تذكرونها إلاّ بعد أن تنشروا حولها كلمة الشك و الإرهاب، فلا أعرف لماذا هذا التجني على حركة تحرير لها عمق و جذور في المجتمع العراقي في مقاومة الظلم و الدعوة إلى عراق ديمقراطي تحرري؟ و قد يمكن لي أن أتجرأ على حضراتكم و أقول أن سبب كل ذلك الفهم الخاطئ تجاه العراق، هو التي أسميه (العقدة الإيرانية) التي تعيشونها، وعندئذ و متى ما فهمتم ذلك فإن الفصل ما بين الواقع الإيراني و الواقع العراقي سيكون طبيعياً عندها ستكون أمامنا مادة للدراسة و البحث و التحقيق.

ساد جو من الصمت قطعه العقيد بطيّ أوراقه، و ملفاته، ثم محاولة المغادرة بعد أن قال لي: بصراحة لم نستفد منك
أجبته: و لكنني أعتقد أن كلينا استفاد من البعض
قال: إن هنالك من هو قادر أن يتفاهم معك أفضل منا
لم استوعب ما قاله أولاً، و اعتقدت أنها ممازحة، و لكن بدت على وجهه علامات الجديّة في التهديد، ثم قال: يا سيد شبر إنك صعب المراس و تحتاج إلى من هو في مراسك... ثم خرج من الغرفة مع مجموعته السبعة و تركني لوحدي مشدوداً إلى الأمام.

جولة الصراع التحقيقي الأخرى : كانت الأفكار تأخذ في رأسي إلى كل الاتجاهات، و شبح مخابرات صدام حاضرة معي في التحقيق، و كنت اخشي أن تصل الأمور مع هؤلاء إلى حالة سيئة تودي بنا إلى عواقب وخيمة، و كنت على الدوام أستعين بالله و أطلب نصرته و عونه و أقول في نفسي يا إلهي إن كان ذلك يرضيك فخذ ما يرضيك.
ساد صمت طويل شعرت بالجوع، و شعرت بالوحشة و لا أدري ماذا سيحدث و ما هي الخطوة القادمة، كنت أفكر في ذلك، و لكن هذا التفكير يغدو و يروح بين الفينة والأخرى، و كلما تقدم الوقت تزداد معلوماتي بالوضع العام في مسيرة التحقيق، فأنا في وضع أتعلم في كل لحظة تمر لكي أواجه ما أمر به.

فالمخابرات في العراق كانت معروفة لدينا عندما اعتقلت كيف تحقق...؟ و كيف تعذب....؟ و أين تذهب.... ؟ و كيف ستقتل....؟ و من هو الذي يقف

الآن على أبواب المسؤولين الحكوميين للتوصل بشأنها......؟ و إذا حدثت محكمة في العراق فبالضبط نعرف ماذا سيجري حتى و إن كانت النتيجة الإعدام و القتل، فمعرفة النتيجة شيء مطمئن في السجون العراقية مع شراستها اللامتناهية، أما الغموض وعدم استقرار النتائج فإنه يسبب إرباكاً في تفكير الإنسان.

في هذه الأثناء دخل رجل جديد الوجه، قصير القامة ذو سحنة أمريكية أصلع الشعر، بدأ يبحث في أوراق الاعتقال التي تركت على طاولة جانبية، و بين لحظة و أخرى يلتفت لي.
من ناحيتي لم أرفع رأسي عند دخوله الغرفة لأتجنبه لأنني أعتقد أنذاك إن الفريق الآخر قد خسر المباريات و عليه أن يغيِّر الخطة لمحاولة الحصول على أقل الخسارات مما هي مباريات كرة القدم الامريكية هنالك فريقان احد للدفاع و الآخر للهجوم.
قال لي الرجل (Hi) فرددت له التحية، ثم بدأت أركز نظري على الأرض، أو أنظر في السلسلة التي تجمع يدي، مرت ربع ساعة من الوقت و الرجل يفتش في أوراق كانت قد أعدت له على المنضدة ليعرف ما بها و ماذا تشمل.....؟

وجدت انه من المناسب أن أحول هذا الجو الخانق إلى جو آخر ربما أفضل أو ربما أسوء، رفعت رأسي و قلت له: ميامي مرتفعة الرطوبة و الجو حار، حرك رأسه فقط.
لم يستمر طويلا فخرج من الغرفة، بعدها طلبت من الحارس أن اذهب إلى الحمام فخرجت إلى حمام جانبي ثم رجعت، لم تمر خمس دقائق حتى دخل ثلاثة رجال يحملون مسدساتهم في حزام يتدلى من الظهر و هو ما نشاهده في الأفلام الأمريكية فجلسوا أمامي، كان الثلاث و كما أعتقد أمريكان أيضاً يبدو ذلك من سحنة وجوههم، استرخى هؤلاء الثلاث على مقاعدهم، و بدأوا بالحديث معي، أحدهم كان ذا منطق قوي و صوت حاد و عبارات مرتبة.

بدا يتحدث عن الأمن الأمريكي وأهميته بالنسبة لهم، أي للمخابرات و تكلم عن الارهاب المتأتي للولايات المتحدة من التطرف الإسلامي و كان يقصد إيران و الحركات الإسلامية.
ثم قال: إن السلطات لا يمكن لها أن تتساهل في التهديد المتأتي لها من الخارج فكيف إذا كان في الداخل.... كنت استمع جيداً لأختبر صاحبي و أختبر طرق تناول الحديث معه، فلم أنطق بكلمة، بل كنت جاداً في الاستماع و الانتباه.

ثم قال: إن اعتقالكم قد فتح أمامنا أبواباً جديدة، و معلومات لم نكن نعلمها قبلاً. و هو ما جعلنا نتعامل مع قضيتكم بشكل جديد يختلف عما كان مقرراً... لم أقل شيئاً، بل ازداد انتباهي له.
ثم قال: إن القضية السياسية شيء و القضية الإجرامية شيء آخر، و القانون يفرق ما بين الاثنين، و المحكمة هي التي ستفصل بين هذين المصطلحين.... قلت في نفسي: الحمد لله يبدو أن الأمور تسير بصورة طيبة نسبياً.

ثم استمر قائلاً: انتم تقودون عملية انقلاب عسكري ضد نظام معترف به من قبل الأمم المتحدة، تلك الدولة هي العراق، فهي إحدى الدول التي أقرت ميثاق الأمم المتحدة، و في نفس الوقت فإن دولتنا تحترم هذا الوضع و هو ما يمنعنا من أن نسمح للآخرين سواء معارضة أوغيرها في أن تسقط ذلك النظام كدولة، ثم أضاف الشخص الثاني الذي كان يجلس إلى يمينه: بأن الحرب الدائرة الآن ما بين العراق و إيران هي لهدف المحافظة على كيان الدولة العراقية، صحيح إن العراق كان يحمل نيّة تحطيم كيان الدولة الإيرانية، و هو ما رفضته الإدارة الأمريكية في البداية، و لكن بعد التراجع إلى الحدود الدولية من قبل العراق نرى أن الدولة الأخيرة تسعى إلى حماية حدودها من الغزو الخارجي... كنت انتبه إلى كل ذلك باهتمام و كأنني طالب في محاضرة.

كان الشخص الثالث مهتماً بتدوين الملاحظات، و تسجيل أية إشارة واردة من المتحدثين، ثم استمر الشخص الأول قائلاً: إننا مضطرون لأنّ نتعامل مع قضيتكم كقضية إجرامية كبرى، يبت بشأنها القضاء الإجرامي، لأنها ليست قضية سياسية و اختلاف الرأي فيما بينكم و بين حكومتكم، و لذلك فنحن نتعامل معكم حسب القانون الجنائي الذي يطبق على الشخص الأمريكي العادي، و ليس هنالك من فرق في ارتكاب الجرائم أمام القانون، سواء أكان الجاني أمريكي أم غير أمريكي، و قد وردتنا من مصادرنا التي نثق بها بأنكم كنتم تخططون لقلب نظام الحكم في العراق باستعمال أسلوب القوة، ثم سكت قليلاً و قال: أرجو أن لا تفهمني بصورة خاطئة، فقد لا تتفق الولايات مع دولة العراق في توجهاتها السياسية، و لكننا نقدّر بأنها دولة لها سيادتها و احترامها لأنها لازالت عضواً في الأمم المتحدة، فلا يعني أن تجريمكم في هذه القضية هو إننا اخترنا أن نقف إلى جانب نظام الحكم في العراق، لم اقل شيئا...
طأطأت رأسي محاولاً أن أعرف بالضبط ماذا ينوي هذا الرجل أن يقول و كيف سينتهي لأنّ الخطأ البسيط هنا معناه انتحار، سواء أكان ذلك الخطأ في

الفهم أم في التحليل، فهو موقف تعتمد عليه أشياء كثيرة، أشياء شخصية و أشياء فكرية و اجتماعية و غيرها.
استمر الرجل و هو يقول: لا يمكن لنا في الولايات المتحدة الأمريكية أن نسمح للآخرين المعارضين لبلدانهم في أن يستعملون الأرض الأمريكية في التخطيط لأي عمليات عسكرية ضد دولتهم.
و هذا معناه في أننا لو سمحنا بذلك فإن وضع الحرية الأمريكية و قوانينها ستؤدي إلى أن تتحول إلى مركز لعمليات الانقلابات، في الوقت الذي تبنت فيه الولايات المتحدة مبدأ إحتضانها للأمم المتحدة و احترام أهدافها.
لم أجبه، بل كنت أفكر ماذا سأقول له...؟ و ماذا سيكون الرد العلمي المؤثر الذي يجد طريقه إلى عقل هذا الرجل....؟

<u>الإكتشاف المبكر:</u> سكتت برهة من الزمن حتى انتهى من حديثه، و عندها طلبت ثانية أن اذهب إلى دورة المياه، و بعد رجوعي طلبت فنجاناً من القهوة لإستعادة و تنشيط قوتي العقلية، ثم قلت: هل تعلم يا أيها السيد ان القانون الأمريكي يحمي هذا العمل.......؟ لم ينتبه في البداية، و تصور إنني أحاول أن أتكلم من زاوية التحدي..... قلت إن القانون الأمريكي لم يحوي في مواده ما يحرم إصدار هذه الوثائق ما دامت لم تستعمل على أرض الولايات المتحدة و يكون قرار حرمة العمل إذا ثبتت أن الدوافع غير قانونية، فدوافع العمل هي التي تقرر قربه أو بعده عن القانون، ثم شرحت له موقفاً معيناً[1]
فنحن من جانبنا لم نتحرك بدوافع غير شرعية، و إنما كانت الأهداف إنسانية، و عندئذ فأي قانون في العالم خصوصاً في الدول المتحضرة، يتعامل مع الموضوع من دافع النية.
أجابني الرجل: يا سيد شبر نحن لا نحب أن نتجاذب اللعب كما هو السياسي مع السياسي، إنني أعلم و تعلم حكومتي بأن أحد الأسباب هو ما ذكرت، و لكننا لدينا معلومات موثقة بأنكم كنتم تخططون لقتل مسؤولين حكوميين. و

---

[1] قلت لو هاجمك شخص بسكين فأنت لا يمكنك أن تفترض بأنه سوف لن يقتلك، بل عليك أن تدافع عن نفسك، و إذا كنت تملك مسدساً فيمكنك استعماله لقتله قبل أن يصل إليك، و القانون في نفس الوقت عندما يأتي ليدرس حالتك فسيجد أن مادة الحكم هو الدفاع عن النفس، أي بمعنى آخر دافع مقبول، و لو تصورنا أن نفس ذلك الشخص الذي سحب سكيناً، و لكنه في طابق علوي من الأرض و يبعد عنك مسافة و هددك بالسكين لقتلك و أنت سحبت مسدسك و قتلته، فان القانون عندئذ يعتبرك قاتل و يجري عليك حكم القتل، فالدافع في الحالة الأولى هو جانب دفاعي و في الحالة الثانية تهور، أوعدم تقدير، فتصور الفرق ما بين الموقفين..؟

هي القضية الأساسية لعملكم و هدفكم، و ربما تكون الشخصية الأولى في العراق هي هدفكم.
ثم قال: إننا عندما نتكلم فإنني أدرك ما أقول، و مطّلع على ما قدمته الآن، و أنا لا أرغب في الخوض بالتفاصيل أكثر من ذلك، و ليس أنا من سيحاول أن يوجه لك التهمة، و هذا هو دورالمحكمة، و إنما دوري هنا معك لمعرفة تفاصيل القائمين بهذه القضية... و معنى ذلك أننا سوف نحول قضيتك إلى المحكمة، و باعتبارنا الجهة التي سترفع الاتهام ضدك نريد منك قبل توجيه الاتهام إليك أن نفهمك و تفهمنا، فالعملية الآن فشلت، و لم يحدث ما تخططون له، و لم يكن أمامك أكثر من أن تقول لنا ما دور الآخرين في هذا الأمر...؟

كنت استمع إليه بصورة و هو يتحدث بلهجة الواثق من نفسه و كأنه على اطلاع كامل بما يجري، و لكن قبل أن أقع في مسيرة رأيه عليّ أن اختبره لأكتشف مدى حجم معرفته بالعملية، و هل فعلاً أنه على اطلاع أم أنها فرقعة هوائية فقط....؟

سألته و كأنني في موضع الاعتراف قائلاً: و لكنكم عندما قتل وزير الصحة في العراق و قبضتم على قاتله في أمريكا لم تتهموه بمادة القتل لأنّ عملية القتل لم تجر في أمريكا، سكت في البداية، و فكر ماذا يجب أن يقول...[1]
فأجابني و لكن وزير الصحة لم يقتل في أمريكا، و إنما قتل في إحدى الدول العربية، تظاهرت بأن معلوماتي خاطئة، و قلت له: نعم قولك صحيح، و لكن على أية حال لم توجهوا الاتهام لأيٍ من القتلة الذين كان بعضهم في أمريكا.... أجاب: لا أعرف الشخص و تفاصيل اعتقاله، و إنما الذي أعرفه أن الوزير لم يقتل على الأرض الأمريكية.... قلت: نعم، هذا صحيح.... و فهمت من خلال المحادثة بأنه شخص غير ملم بالشأن العراقي، و هذا معناه إما أن يكون هذا رجلاً مختصاً بالقانون فقط، أو أنه الشخص غير المناسب في المكان غير المناسب.
ثم علقت و قلت بعد هذه النتيجة: إن المساعدة لنظام صدام التي توفرها الإدارة الأمريكية الحالية في حربه ضد إيران قد يمكن أن نجد لها مبرراً في القانون و الشرع الدولي هل هذا صحيح...؟

---

[1] مع العلم فليس هنالك من وزير صحة مقتول، و لا عملية ضده لا قبل و لا الآن.. هذا كله مفبرك....

و هل تعتقد بأن الوضع الثائر في داخل العراق ضد نظام صدام على يد حركات المقاومة التي تطالب بالديمقراطية عمل لا يتناسب مع وضع هذه الحرب...؟
سكت، و قال: ربما
سألته و قلت: لو سألتني الآن هل أنوي إزالة نظام صدام.....؟
و سألتني أيضاً هل أرفع السلاح لإزالة النظام في غياب الانتخابات و صناديق الاقتراع...؟
و لو سألتني هل إنني شخصياً ممكن أن أنزل إلى شوارع بغداد و أحمل سلاحاً ضد حاكم طاغية...؟
لأجبتك بالنفي، هل ذلك واضح...؟
أما إذا أردت يا سيادة الضابط إن تقول لي أن ذلك مخالف لقانون الأمم المتحدة، لأنّ العراق عضو في تلك المنظمة، فهذا له أكثر من جواب إذا أضفنا أسماء بسيطة على قائمة النقاش، يا سيادة الضابط...
هل سمعت (ببينوشيت)...؟ وهل سمعت (بسلفادور الليندي)...؟ و هل سمعت (بالشاه).....؟ و هل سمعت (بالكونترا) و (الساندنستا).....؟ أعتقد أنك فهمت ... ما اقصد...؟ أليس كذلك ...!!
أوقفني الضابط و قال:أفهم ما تقول جداً، و لكن عندما أزلنا نظام (السلفادور الينديي) لم نكن قد فعلناه في بلد القانون، و لم نخطط له و نحن في أمريكا، بل جرى كل ذلك خارج نطاق القانون الأمريكي، و لذلك فحدود القانون واضحة تحددها الجغرافيا.
ثم سألته: هل تقصد إنكم عملتم كل تلك الانقلابات من خارج أمريكا ....؟

- بالضبط .. أجاب
- ابتسمت..ثم قلت له: لا أعرف و اسمح لي أن أقول لك يا سيادة الضابط، إذن أين المثل و المبادئ، و القيم التي تنادي بها ديمقراطية أمريكا في سعادة الشعوب......؟ أرجو يا حضرة الضابط أن لا تفهمني خطئاً و تعتبرني من الذين يحاربون الديمقراطية في بلدكم، و لكن كيف لي أن أقنع العربي العادي أو العراقي فيما تقوله و أقول له بأن هذه الدولة هي مثال الداعية إلى قيم الديمقراطية....؟

قاطعني بحدة قائلاً: لا يجب ذلك ... نحن نفهم الديمقراطية بالمفهوم الذي يطالب به الشعب، و ليس بالمفهوم الذي تعرفه أنت في ذهنك، فأنت صاحب أفكار مبنية على مبادئ ديكتاتورية، و لا أحب أن أوضح ما أقوله فأنت ذكي و تعرف ماذا اقصد، و لهذا السبب نراكم تحاربون التغيير و تحاربون الحرية

و تحاربون إرادة الشعوب، و تحاربون أي شكل من أشكال الانتخابات... ثم علق- و بصورة لم أتوقعها - قائلاً: انظر إلى أدبياتكم، ثم أخرج صندوق كاملاً يضم أوراقاً و رسائل و كتيبات و مجلات، و دفعها أمامي و قال: انظر إلى كل هذا و حاول أن تكتشف هنالك صفحة في كل هذه المنشورات لم تنعتنا بالشيطان الأكبر أو الذم أو السباب، كما أطلب منك يا سيد شبر أن تجد أيضاً في كل هذا الذي أمامك أن هنالك مقال أو موضوع يدعو إلى حرية الشعوب في تثبيت الديمقراطية التي تتكلم عنها أنت الآن...؟
سحبت الصندوق إلى جهتي فساعدني الرجل الآخر في تقريبه حيث كانت يداي مشدودتين و بدأت أقلّب ما فيه و أقول في داخل نفسي: إنني أعتقد بأن هذه الأوراق كانت عائدة لي و أنني قد رأيتها قبلاً.

حوار أم فخ أم تحقيق..؟ ثم واصلت البحث لكي أعرف مصدرها و هل أنهم جاؤوا بها من بيتي أم من مكان آخر..؟ فوجدت منشورات لحزب (الدعوة) و خصوصاً النشرات الخاصة الداخلية ثم منشورات لمنظمات إسلامية عراقية أخرى من منظمة العمل، و حركة المجاهدين، ثم مقالات مقصوصة من جرائد و مجلات في أعلاها عناوين مثيرة ضد الغرب.....
حاولت جاهداً أن اكتشف مصدر هذه الرزم فقمت من كرسيي الذي أجلس عليه حيث لاحظ الضابط جديّتي غير العادية في البحث و اهتمامي بالأمر، فقال: تفضل بالجلوس يا سيد شبر، ثم سحب الصندوق و وضعه إلى جانبه، ثم قال: هذا واحد.... إن عندنا ما يدينك أكثرمن ذلك مئات المرات، ثم أضاف و بحدة: هل تعرف أن منظمتك التي تنتمي إليها هي منظمة إرهابية....؟[1] و هي في القائمة السوداء هنا...؟ قلت بهدوء: يا حضرة الضابط كن عملياً، و لا تخلط الأوراق، سياسة لتكن سياسة، و اقتصاد ليكن اقتصاد، قانون إذن قانون... ماذا تريد أن تقول......؟ هل تريد أن تقول إن الذي كتب هذه المجلات و المقالات و الجرائد و ما فيها من هجوم على النظام الأمريكي هو أنا......؟ أم انك تريد أن تقول و تؤكد إنتمائي إلى تلك المنظمات، و من خلال ذلك تحملني أخطاءها...؟

---

[1] نعم هذا صحيح. فقد وضعت الولايات المتحدة بعد انفجارات الكويت و مهاجمة السفارة البريطانية في العراق و بعد أحداث بيروت "حزب الدعوة" على القائمة السوداء، و لكنها سرعان ما أزالتها بعد التأكد من أن الفاعلين و خصوصاً في أحداث الكويت هم شخصيات كانوا من الحزب و لكنهم قد تلقوا أوامرهم من أفراد من الحرس الثوري الإيراني و أن الدعوة لم تكن على علم بالأمر

ثم أضفت: لقد تحدثت مع ضابط المخابرات السابق العقيد جيري و فريقه و ذهبنا في التفاصيل في مواضيع الإنتماء التي تبحث عنها، و لا أريد أن أعيد ما قلته سابقاً ما لم يكن لهذا الحديث من ضرورة.... لم يجبني.
و سألني: لماذا هذا الهجوم في أدبياتكم على أمريكا.....؟ ما هو السبب في كل هذا الكلام غير السياسي ضدنا، قبل الحرب و بعد الحرب و أثناء الحرب و منذ أن تأسست منظماتكم....؟
ثم أخرج منشوراً لحزب (الدعوة) تاريخه يعود الى 1971 و قال لي: أنظر... تناولته و كان منشوراً قديماً مكتوباً بخط اليد فيه هجوم على السياسة الغربية عموما، و الأمريكية خصوصاً و كيف تسعى أمريكا أن تساند الأنظمة الدكتاتورية في سيطرتها على العالم، ثم قلت: أتمنى أن تكون لك القدرة على قراءته بالعربية لنتناقش في ما به بصورة هادئة و علمية بعيداً عن التشنج... أجابني بلهجة عربية قائلاً: لقد قرأته حرفاً حرفاً.
رفعت راسي و لكن بدون انبهار متبسماً و قلت: إذن سنتوصل إلى نفس النتيجة إذا كنت تفهم العربية (بمعناها لا بألفاظها)، قلت الكلمة الأخيرة باللغة العربية.
قال و كأن الكلمة هذه ما كان ينتظرها: تماماً ما تقول، إننا يجب أن نفتح حوار ما بيننا و بينكم، يجب أن تفهمونا، و يجب أن نفهمكم، فإذا أساء أحد منا فهم الآخر فإن الذي سيحل في ساحة الأمر هو المواجهة و السلاح و المهاترات.
و لا يمكن لكلا الطرفين أن يدخلوا ساحة الحوار بدون وجود أشخاص يتفهمون ضرورة أهميته لبلدينا.... فالسلاح و القتل ليس دائماً إسلوب الحل... فالحل دائماً يأتي من تفهم كلا الطرفين أحدهما للآخر...
و أنا أسألك، قالها بجديّة: لماذا لا تكن أنت الذي يبدأ ذلك.
سكتت برهة طويلة.
فكرت في نفسي ماذا يجب أن يكون ردي.....؟
و كيف يجب أن أتصرف.....؟
فأي كلمة من شأنها قد تغير رياح الأمر نحو وجهات مختلفة، و قد تكون أولاً من صالح قضيتنا التي نعيشها و مآسينا التي تحرقنا يومياً...؟
هل هذا يعني إنهم مستعدون لسماعنا على الأقل..؟
و هل إنهم في وضع أن تتغير سياستهم على المدى الطويل...؟
و ما موقع الحرب الضروس الدائرة الآن.....؟
وما سيكون وقع هذا الكلام على القيادات الإسلامية العاملة في طهران أو سوريا.....؟
و أين ستكون مصداقيتي فيما لو أردت أن أدعو لمبدأ الحوار مع أمريكا......؟

و هل فعلاً أنا من المقتنعين بإسلوب الحوار مع هذا المارد الضخم ذي القدرة الهائلة.....؟
و هل أن هذا المارد يحتاجنا نحن على ضعفنا و تشتتنا، و نزاعاتنا و مواقفنا السلبية و غيرها من الأمور.....؟
و هل ما يقوله هذا الرجل نابعاً من عنده كشخص......؟
أم أنه موقف رسمي.....؟
أم أنه يستعمل ألفاظ الحوار ليسخّرنا نحو الهدف الذي تسير به سياسة الولايات المتحدة.....؟ أي بمعنى آخر، هل إن القضية هي قضية مناورة سياسية يريد بها استعمال و استغلال طهارة الإسم نحو تحقيق أهداف غير طاهرة.....؟

أسئلة و أسئلة... شعرت أن جبيني بدأ يعرق عرقاً شديداً، قطعت مسلسل تفكيري بطلب الذهاب إلى الحمام و هنالك فكرت جيداً، في الوقت الذي يصعب عليّ و يداي مشدودتان أن البس ملابسي كما تعودت.
اقتربت الساعة إلى ما بعد الظهر بثلاث ساعات[1]
رجعت إلى غرفة التحقيق و أنا متعب ليس من التحقيق، و إنما من التفكير، من احتمالات اتخاذ الخطوة التي يجب عليّ أن اتخذها، رجعت و جلست على الكرسي، و قبل أن أتحدث طلبت من الضابط أن يسمح لي بالصلاة.
و عندما سألته: إذا كان له أن يفك القيد من يدي...؟ لم يجبني، فقلت له: لك ذلك، ثم قلت لهم يمكنكم البقاء في مكانكم و أن صلاتي سوف لا تطول أكثر من دقيقتين.
خرج المحققان من الغرفة، و تركوني مع شخص آخر و قف على الباب فأديت الصلاة بتؤدة[2] أنهيت صلاتي و القيد بيدي وكان لها طعم رائع في عملقة المبادئ و المثل الكبرى.

---

(1) كان نهار الصيف طويلا في تلك الأيام تغيب الشمس في التاسعة و النصف مساءاً و تشرق في حدود الساعة الخامسة صباحاً و العكس أثناء الشتاء

(2) كنت حريصا في صلاتي هذه الانتقال إلى عالم المُثُل قريبا من الله لكي أصل إلى قرار عملي عقلي، فالإنسان غالباً في ساعات المحنة لا يرى جانب الحل الصحيح، بل إنه و لكي يمتلك القدرة العقلية الواسعة فان فكرة التوجه إلى المَثَل الأعلى هي غالباً ما ينصح به كل السياسيين و أصحاب رجال الأعمال و أصحاب القرارات، يقول (اوثانت) السكرتير العام للأمم المتحدة في الستينيات وهو بوذي الديانة في مذكراته: بأنني عندما كنت أريد أن أتوصل إلى حل دولي مع الأطراف المتنازعة أدخل غرفتي الخاصة و أتوجه إلى الرب لإلهامي فكرة الحل الصحيح،و كانت معظم تلك القرارات لم أكن أتوصل إليها لولا تلك النفحة الروحية التي أحصل عليها من المثل الأعلى

دخلوا ثم ساد صمت بيننا، قطعه الرجل بالاستفسار إذا كنت توصلت إلى نتيجة . و هو محور فتح قنوات الحوار...
في حقيقة الأمر لم يكن أمامي حل و لا رفض، مع أن العرض الذي قدموه هو فتح قنوات حوار لتفهم حالة المعارضة العراقية عرضاً انظر اليه اليوم فاجده في منتهى العقلانية و لا أجد فيه ما يشين أو ما يقدح في واقعيته و فوائده.

هنا تبرز أكثر من علامة استفهام، و أكثر من سؤال يدور حول ميكانيكية ذلك الحوار، و مع أنني دائماً من الأشخاص الذين يحتضنون إسلوب الحوار و يشجعونه و لكن الصفة المخابراتية لهذا العرض تفقده تلك الخصوصية من الحجة، فنحن طرفان أحدنا قوي و الآخر ضعيف، و أنا الآن و في هذه اللحظة أعيش تحت ظروف الأسر، و اتخاذ قرار خطير و كبير و معقد كهذا القرار يجب أن يتم صنعه في ظروف طبيعية هادئة، لا ظروف الألم و التحقيق و التهديد و الاعتقال، و مع أنه - و كما أرى - ليس قرار الموافقة أوعدمها سيغير من مجريات الاعتقال و المحكمة، أو أنه حالة من حالات المساومة على إطلاق سراحي،لأنهم مصرون على تقديمي إلى المحكمة بأي حال من الأحوال.
كما و في نفس الوقت فان أي قرار ممكن إتخاذه في هذا الظرف سوف يكون قراراً شخصياً أكثر منه قراراً جماعياً أو تنظيمياً، و ذلك بسبب حالة الاعتقال التي أعيشها و التي تدفع الإنسان-أي إنسان- إلى التصرف نحو الجانب الذي هو أكثر ميلاً إلى جانبه الذاتي، و قد يكون قراري دائماً يميل إلى جانب الرغبة الشخصية، أو ربما بسبب حداثة التجربة أو غيرها، و لذلك كنت أرى أن الوقت غير مناسب أن أبت في الموضوع، بل أن التضحية الشخصية الآن مطلوبة لضمان جانب الحوار المستقبلي إن كانت هنالك جديّة فيه.
فالموافقة في هذا الوقت لا تثبت مصداقية المحاور حتى في ذهن الجانب الآخر الذي طالب بالحوار.
فولادة الحوار يجب أن تتأتى من خلال الطرق الطبيعية المعروفة، فإذا كان هدفهم هو فعلاً الحوار فيجب أن تسبقه في ذلك مقدمات قبل هذا الأوان لتحقيقه، و لذلك قفزت إلى ذهني فكرة المقدمات و سألت الضابط و قلت: هل حاولتم أن تفتحوا قنوات الحوار مع الحركات العراقية الإسلامية....؟ أو مع غيرها...؟ فهنالك بالتأكيد من هو أفضل مني في ذلك فأنا بعيد عن مركزالأحداث، و ليس لي القدرة كتلك التي يمتلكها أولئك القريبون من الأحداث.
سألني ... مع من ؟
أحرجني السؤال.. قلت: و لكن هل جربتم..؟

سألني ثانية من ترشح..؟
أجبت: هنالك أسماء معروفة لديكم تجدونها في ذلك الصندوق
ضحك، و قال: أراك تلعب بالأوراق...؟
قلت: كلا، و لكن لو ذكرت لك الأسماء فليس هنالك من سبيل للتأكد من قولي في هذه الظروف.
قال لي: إسمان فقط....؟ و لي أن أقول لك إنهما مناسبان أم لا..؟
قلت له: لو قلت لك أبو فلان، أو شيخ فلان فانك بالتأكيد سوف لا تعرفهم...
تبسم و قال: معنى كلامك: عليّ أن اطرق باب الإيرانيين لكي يقترحوا إسمين..؟... تبسمت و قلت: لك الخيار
ثم قال: هل لي أن أتكلم مع شيخ فلان و حاج فلان (ثم ذكر إسمين) و هما من العيّنة المعروفة المنفتحة من أعضاء التنظيمات الإسلامية و التي فعلاً قادرة على الإمساك بملف التفاوض.
قلت: ربما اقتراحك صائب
قال: و لكن هل لك أن تتصل بهم الآن و تخبرهم برأينا..؟
قلت: لا
قال: لماذا..؟
قلت: لأنّ هذين الاسمان لا يعرفاني شخصياً، و قد يفاجأى إذا اتصلت بهم في هذا الموضوع، كلهم يعلم إنني في الاعتقال الأمريكي فقد أذاعت (صوت أمريكا باللغة العربية) خبر الاعتقال في لحظة وقوعه، و قد يعتقد الجميع بأن الاتصال في هذا الوقت هو نوع من الابتزاز و التهديد.
ثم قلت: و أزيدكم علماً بأن النظام العراقي دائماً ما كان يستعمل هذا الأسلوب مع المعتقلين و لكن بصورة أخرى و شكل مختلف و العراقيون متحسسون من كل القضايا المتعلقة بالسجن و التعذيب، فقد يعتقدون بأنني الآن تحت سياطكم أعذب في أقبيتكم و إنني تحت ذلك الظرف طلبتم مني الإتصال.
ثم أضفت: إذا كان الإقتراح إقتراحكم فلكم أن تمارسوه، و ليس من الإنصاف أن أمنعكم عن رأي انتم اقترحتموه....؟
ثم سألته: هل انتم جادون فيما تطرحونه....؟
قال: بالتأكيد، إننا نملك رسالة الديمقراطية إلى كل العالم، و هو نهج نسيرعليه في كل أعمالنا، و الحوار حتى مع الأعداء هو من صلب أسس الديمقراطية، و لذلك فإننا نراكم انتم المعارضة العراقية خائفين مترددين من التصاق إسمكم مع إسمنا، و تجدون الحوار معيباً بكم، و تترفعون عنه، و كأننا نريد أن نثنيكم عن أهدافكم و عن مفاهيمكم.
قلت له: و من تمثل أنت -عذراً- لكي تتخذ مثل هذه القرارات....؟

قال: إنني مخول في هذه المرحلة بفتح طريق الحوار معكم، و ليّ رأيي كما أن لرئيس عملي رأيه أيضاً بعد أن أنقل رأيي في الموضوع
ثم قال: و إنني أرى فيك إنساناً مثقفاً و من عائلة معروفة و لا أرى من مانع في أن تتمكن من مساعدتنا في هذا الأمر....؟

<u>الصمت الطويل:</u> أنا شخصياً من حيث المبدأ لا أرى في الحوار مع هذا الطرف أو ذلك الطرف من مانع، و لكنني في ذات الوقت تجب مراعاة زمن الحوار الذي يحيط بالظروف القائمة الآن، فالحركة الإسلامية لا أعتقد أنذاك أن بإمكانها أن تختط هذا الطريق إلاّ بعد أن تحصل على الضوء الأخضر من قبل دول أخرى تشترك معها في هدف إسقاط النظام، و خصوصاً إيران التي هي الدولة التي تقاتل النظام الآن، فليس من المعقول أن يتم الحوار بمعزل عن رأيها، كما أن الإخوة في الحركة الإسلامية خصوصاً القيادات الشرق أوسطية ترى في الحوار منقصة في مسيرتها و عملها لأسباب كثيرة.

و لذلك حتى و لو كنت أؤمن بهذا الجانب من العمل و الحوار فإنه لمن الصعب في ذلك الظرف من تطبيقه.
و كانت تراودني فكرة أخرى لم أتمكن من أن أفتح أولياتها أو الحديث بها. و قد كانت تخامر ذهني و هي: لماذا لا تقوم الحركة الإسلامية فرع أوروبا و أمريكا بفتح قناة حوار مع الإدارة الأمريكية بصفتها الخاصة، لا بصفتها من حيث العمومية، و لكن على شرط إتفاق الإقليم على ذلك......؟

كنت مقتنعا بمحدودية الحوار، و عندما خرجت من السجن كان من أولى مهامي هو تسويق هذه الفكرة إلى الإخوة و إقناعهم بها، و عندما تحدثت بها كان هنالك رفض كبير و شديد من قبلهم، و كان منطقي أنا هو أن أتولى شخصياً مسار الحوار فإن كانت النتائج جيدة فستكون من رصيد الحركة بأكملها، و إن كان ذلك قد انعكس سلبياً على مسيرة و سمعة الحركة فلها الحق في أن تقول بأن الخيار كان خياراً فردياً. و أنا فقط أتحمل نتائج عملي، و لكن الجميع رفض الموضوع جملةً و تفصيلاً، و رُفض حتى الحديث به أو مناقشته.

و يبدو لي و من خلال التحقيق بأنهم كانوا و كما ذكرت أن د. حسان الذي كانوا يحققون معه، كان و بسبب دبلوماسيته المعهودة و قدرته على تجنب الاحراجات عندما يسألونه عن شيء ما يقول لهم اسألوا السيد شبر فهو الأعرف مني بذلك، و كان هذا هو سبب الضغط الذي سلطوه عليّ في هذا

الموضوع، و كنت على علم بأن استمرار الرفض من قبلي في الاعتراف أولاً بانتمائي، ثم برفضي المساعدة في إجراء الحوار كانوا يمررون كلمات من هنا و هناك بأن ذلك الرفض و عدم التعاون سيعقّد القضية، أو أن الاتهامات التي سوف يضعها المدعي العام ستكون قاسية و صعبة، أو أن إجراءات السجن ستكون من النوع الشديد نوعاً ما و هكذا من الأمور التي تضغط على السجين في التنازل عن بعض الأشياء.[1]

و كما ظهر لي من خلال التحقيق من قبل الفئتين الأولى التحليلية و الأخرى التنفيذية أن المخابرات الأمريكية بشقيها الداخلي (FBI) و الخارجي (CIA) كانوا يرمون إلى النظر مجدداً إلى القضية العراقية ضمن أجواء أخرى غير الأجواء الموجودة في ملفاتهم و سياستهم، و أعتقد أيضاً بأنهم كانوا و في تلك الفترة يعيشون الكثير من التناقض في فهم الواقع العربي الإسلامي عموماً، و الشيعي خصوصاً، لأنّ الكثير من حساباتهم و توقعاتهم لم يكن لها نصيب من التحقق أو النجاح، و هو ما دعاهم إبان تلك الفترة إلى تبديل الكثير من صانعي القرار، و الإعتماد بدلاً منهم على باحثين آخرين يقدمون تلك البحوث من خلال المنظور الحديث، و مثلهم كمثل من أجرى بحثا على مقاومة بكتريا السل و توصل إلى كذا أسم من العقارات التي تستعمل للتخلص من ذلك المرض، و بقي الطب يمارس نفس العلاج الذي استعمل منذ أن تم اكتشاف المرض و إلى الآن مع عدم الانتباه بأن البكتريا قد تبدل غلافها و تتحول إلى شكل آخر لا يتمكن ذلك العقار من القضاء عليها، و الذي أدى إلى حدوث وفيات كثيرة نبهت الباحثين إلى البحث مجدداً عن طريقة جديدة لمعالجة زيادة الوفيات، و ينطبق هذا المثل على العلاقة ما بين الولايات المتحدة مع العالم الإسلامي الشيعي الذي اعتمدت كل سياستها على هذه التقارير و البحوث القديمة للتعامل مع تلك الأفكار.

<u>التغيير المقدس:</u> و حتى بعد أن تغيرت الأحداث و بدأت الولايات المتحدة تواجه وضعاً جديداً ارتأت تلك الدولة التفكير في إعادة البحوث باتجاه الدراسة الجديدة، و على ضوء الوقائع التي برزت ما بعد سنة 1979 و الى الآن، و هو ما دعاها إلى تبني أسلوب البحث الحيادي و ليس الاعتماد على

---

[1] و كنت اسمع كل ذلك و أتظاهر أمامهم بأنني لم أسمعها، أو أنني لم أفهمها، أو أنني أريد المواجهة السياسية بدلاً من المواجهة القضائية، و كأنّ الأمر أنذاك هو كما يقال عملية عض الأصابع بين قوتين

الآخرين في إجرائها و التي كانت سابقاً هي السعودية و إسرائيل اللتان كانتا تنظران إلى الأمور من منظار المصلحة التي تحقق منافعهما بالذات.

كان للتوجه الأمريكي الجديد من قادة كبار و شخصيات علمية معروفة على مستوى الجامعات و المراكز السياسية و كان من جملتهم قدرات أمثال برنارد لويس[1] و غير برنارد: و الذين درسوا الأمر من الناحية الاستقلالية العلمية المجردة، و قدموا بحوثهم و أفكارهم إلى صانعي القرار الأمريكان، مما غيّر في بعض من أسس تفكيرهم و إدراكهم لقضايا الشرق الأوسط و ذلك -و كما ذكرت- على مستوى التشيع و التعامل مع مفاهيم و طموحات هذه المساحة من المسلمين الذين كان الغرب قد ظلمهم في طريقة الفهم، و في تقدير طموحاتهم و منهم الأستاذ الكبير فؤاد عجمي[2]

---

[1] برنارد لويس ولد من أسرة يهودية من الطبقة الوسطى في لندن (من مواليد 31 مايو 1916، لندن) أستاذ فخري بريطاني أمريكي لدراسات الشرق الأوسط في جامعة برنستون، و تخصص في تاريخ الإسلام و التفاعل بين الإسلام و الغرب. و تشتهر أعماله بخاصة حول تاريخ الإمبراطورية العثمانية. لويس هو أحد أهم علماء الشرق الأوسط الغربيين الذي طالما سعت إليه السياسة، انتقل برنارد لويس إلى الولايات المتحدة حيث أصبح يعمل كأستاذ محاضر بجامعة برنستون و جامعة كورنل في السبعينيات، حصل على الجنسية الأمريكية سنة 1982 كما حاز على العديد من الجوائز من قبل مؤسسات تعليمية أمريكية لكتبه و مقالاته في مجال الإنسانيات، اتسمت آراء برنارد لويس بالجرأة تجاه العرب و المسلمين، حيث عزى تأخرهم عن أوروبا لأسباب ثقافية و دينية، كما رأى بأن العالم الإسلامي في حالة صراع مستمرة مع المسيحية، و إن فترات السلم ليست إلاّ استعداد لفترات حرب مقبلة

[2] هو أستاذ جامعي و كاتب سياسي لبناني أمريكي، ولد فى لبنان عام 1945 و هو من الأصوات في الولايات المتحدة التي تساند رفع الديكتاتورية عن الشعوب العربية و خصوصاً الدور السعودي في استعمال الدين مقابل السيطرة الديكتاتورية على الشعوب، كان فؤاد عجمي أكثر إلماماً بحقوق الشيعة في العالم العربي، و لم تكن نظرته إلى العالم العربي مطابقة لنظرة ادوارد سعيد التي تمركزت على أن تعريف العالم العربي دولياً هو نظرة الغرب إليه و المعارضة لتلك النظرة، كان ذلك هو السبب في حدوث الخلاف الفكري بينه و بين ادوارد سعيد، كما أن الإدارة الأمريكية قد وجدت فيه الأستاذ المميز، و الباحث التاريخي و السياسي الذي يعتمد عليه في صناعة الرأي السياسي للعالم الشيعي، له مؤلفات كثيرة منها، بل أهمها هو كتاب "الإمام المغيّب و شيعة لبنان"، "الأمريكيون و العرب و العراقيون في العراق"... شنت عليه الصحف المرتبطة بالسعودية بالاضافة الى سياسييها هجوماً واسعاً و على كل الاصعدة لتسقيطه بغية إخراجه من مراكز القرار الامريكي و الذي يعتبر بأنه الشخصية الشيعية الوحيدة التي احتلت هذا المركز الحساس

كان لذلك التغير أثر كبير على إفرازات التفكيرالأمريكي، وعلى قراراته في التعامل مع أحداث المنطقة[1]

فكنت أعتقد أنذاك بأن الفريق التحقيقي الحاضر الآن هو من النوع الذي كان يرى خطأ الاعتماد على التراث السابق للمعلومات المخابراتية، و أنهم يريدون أن يفتحوا طريقاً جديداً لتفهم معاني الحرب و معاني الواقع العراقي، و أين يقع ذلك من مجمل الصورة العامة.

و لذلك كانت المعلومات التي وجدتها عندهم بأنها معلومات جيدة بل حديثة، و كان الذي زودهم بها ليس هو من أعداء الحركة الإسلامية بل من

---

[1] و أعتقد أن حدث أبريل 2003 هو قمة ما يمكن أن يحدث في إطار ذلك التبدل في السياسة، وأنا أرى أنه سيكون النموذج الذي ستتغير -و فعلاً تغيرت- على ضوئه أحداث المنطقة برمتها، و ما الربيع العربي إلاّ عبارة عن مسايرة لأحداث أبريل في العراق، مع وجود الكثير من المكابرة من قبل العديد من المحللين السياسيين العرب بالذات و الخليجيين، خصوصاً لإبعاد ذلك الإطار من صورته الحقيقية، و إعطاء ذلك التغيير إطاراً أضيق كثيراً من الصورة التي انتهت بانفلات الربيع العربي في الأقطار العربية، و خصوصاً مصر و تحولت حسب مفاهيمهم إلى أن تكون الصورة أكبر بكثير من ذلك الإطار. و هو خطأ آخر سيجنون نتائجه السلبية ربما بعد نصف قرن من الزمن إذا لم يدركوه الآن، كما حدث في 2003 نتاجاً لحالة حدثت قبل ربما قرن من الزمن، و بعد أن هُمشت هذه الطائفة و أذيقت شتى أنواع الويل و الثبور، إلى أن قال التاريخ قولته و اثبت سننته في أن تعاد الأمور إلى نصابها، و لكن و في إبان تلك الفترة، و في ظل الغزو الإسرائيلي للبنان و تفجير مركز المارينز و السفارات الغربية في بيروت، كان أمام العملاق الأمريكي أن ينتظر إلى حين انقشاع الرؤية، و أن يضع سياسته الجدية التي تعقدت كثيراً بذلك الغزو و برز عنصر آخر في مساحة السياسة ذلك هو حزب الله اللبناني الذي قلب المعادلة ثانية، و صار أمام القدرات الأمريكية أن لا تستعين بأي من أولئك الذين حاولوا أن يحرّفوا مسار الديمقراطية لصالحهم، و أعني إسرائيل و السعودية، البلدان اللذان ربما تلتقي مصالحهما أكثر من أي قطر آخر في الشرق الأوسط. و قل تأثر أكثر من غيرهما بإحداث العراق في 2003، فأدركت أمريكا من جانبها عمق الهوة التي وقعت فيها، و خطورتها و أدركت مصاعب النهوض منها، و لكن مثل أمريكا لا يعوزها شيء و لم تعط لعامل الزمن حساباً، بل بدأت من جديد في دراسة مجمل الصورة الكبيرة المعقدة، و صار رأيها أن تحسب للعراق حساباً خاصاً يختلف عن حساباتها مع الأقطار الأخرى.

كان أنذاك وفي أواسط الثمانينيات من القرن الماضي ميل من قبل القادة السياسيين إلى تفهم الحالة العراقية، و تفهم المعارضة، مع ضعف هذا الاتجاه في أوساط المخضرمين من الأمريكان الذين كانوا من الموديل الكلاسيكي في طريقة الفهم، و كانت إدارة الرئيس ريغان في ذلك الوقت تضم في طاقمها أسوء الرجال من الأمريكان المحافظين في نظرتهم إلى القضية العراقية و القضايا المشابهة، و كانت القضية العراقية قد ألصقت أصلاً مع القضية الإيرانية أعتقاداتهم الخاطئة التي بنتها في أذهانهم الدولتان اللتان ذكرتهما آنفا.

المحايدين، كما لاحظت أن هذا الفريق مع سلبياته كان يملك قدرات صادقة للعمل مع العراقيين في تقرير مصير العراق ما بعد صدام، و كأنه بدى لي و ربما خطئاً أن الأمريكان منذ ذلك الوقت قد حسموا أمرهم في خطورة صدام على المنطقة، و أنه آن الأوان للتفكير في بدائل له، طبعاً هذا التفكير أنذاك من الصعوبة استخلاصه من بين عقول الساسة أو المخابراتيين و لكنني تلمسته ربما من شطحات ألسنتهم، أو من تقاريرهم و نقاشاتهم التي -كما أعتقد أيضاً- بأنه ليس هو القرار السياسي أو القرار الذي يقول به كبار الأمريكان من المتنفذين.

المهم ما حدث في ذلك اليوم و بعد جولات الشد ما بيني و بين المحققين الأمريكان توضحت الصورة لي تماماً في:

- الأرضية غير متوفرة للحوار.
- رفض الحركة الإسلامية له.
- عدم إمكانية التحرك الفردي في تبني هذا الأسلوب.
- رفض الأمريكان للتغيير الصدامي في هذا الوقت.
- الذهاب إلى المحكمة حتمي.
- و السجن حتمي.

و كذلك و أمام هذه الحالة كان يجب عليّ أن أتوجه ضمن هذه الخطوط بدقة متناهية، و أن امنع كل محاولات الضغط التي سيسلطونها عليّ الآن و في المستقبل. ما دامت الأمور لا يمكن لها عملياً أن تكون كما يريدون.

في المقابل كان الأمريكان -و كما هي عادتهم- لا يعتقدون بما هو معروف في القول بأن ذلك لا يمكن أن يكون، لأنهم يرون في أن الأشياء يمكن لها أن تكون و بأي ثمن، لأنّ الأشياء هي من صنع الإنسان و الإنسان عبارة عن كيان تغيّره الكثير من الحوادث، إذن لماذا لا نغير الحوادث لكي يتغير الأشخاص....؟
و كانوا أيضاً يرون أنني أنا شخصياً لو أردت التحرك بالاتجاه التفاوضي الذي كانوا يرونه لتمكنت، و لكنهم ربما كان اعتقادهم بأنني أناور أحياناً، أو أنني معانداً أحياناً أخرى، أو أنني لازلت تحت التأثير للمفاهيم السائدة الكلاسيكية في الشرق في عدوانية أمريكا الأبدية إلى المسلمين أو شيطنتها اللامتناهية، كل ذلك أدركته من خلال حواراتهم التي انتهت بأن ندخل المعركة الكبرى، معركة المحكمة التي لا أدري أنذاك ماذا سيكون مصيري في المواجهة.

قال لي أخيراً و بعد أن استرحت ربع ساعة:

- و لكن هل تساعدنا ؟ سأل..
- لا أستطيع الجواب لا سلباً و لا إيجاباً، بل أنا أقول لكم كيف لكم أن تساعدوني...؟ فأنا لست في مكان و زمان يمكن لي أن أتخذ قراراً مهماً كهذا، و أن أقدم لكم يد المساعدة.
- ساد صمت ثم صاح: فهمت يا سيد شبر؟
- فهمت ماذا ؟ أجبت
- إسمع... قالها بشدة و بدون أن يدرك تأثيرها عليّ: أخيراً فالوقت ضيق، اعتقلناك لأنك تخطط لانقلاب ضد نظام معترف به من قبل الأمم المتحدة، و نحن نطلب منك الآن أن تفتح لنا حوارات مع أطراف المعارضة العراقية و أنت ترفض، وهنا يزداد شكنا فيك.

ثم جمع ملفاته و غادر الغرفة، بينما دخل من الباب الثاني مجموعة من الرجال ليأخذوني إلى السجن في ناحية تقع في (دادي كاونتي)

②⓪

◖ الفصل العشرون ◗

لوحةُ الفنِّ
في السجن الأوّل



<u>البيت الجديد في السجن</u>: ركبت السيارة التي أعدوها و كانت مدنيّة بخمسة ركاب ملونة الزجاج، جلست في وسط المقعد الخلفي، بينما كان يجلس إلى جانبي رجلاً مخابرات، كذلك في المقدمة بينما كان السائق -و كما يبدو- هو الذي يرأس المجموعة أو أنه من الذين يحتلون مركزاً جيداً في هذا الشأن.

قطعت بنا السيارة مسافة لا تقل عن نصف ساعة، أو ربما أكثر -على ما أتذكر- باتجاه شمال ميامي حتى وصلنا إلى بناية السجن، و هي بناية لا تظهر مقدمتها بل يبدو بابها الحديدي فقط، ثم أسلاك شائكة عالية قد تصل إلى أربعة أمتار، فنزلنا هنالك و يداي مقيدتان من الأمام.

دخلنا الغرفة الأولى بعد مسافة سير ربما عشر دقائق، حتى وصلنا إلى الباب الداخلية و هنالك استقبلنا السجانون و كان معظمهم من السود الأمريكان، إذ عرفت فيما بعد بأن السجانين هم شركة من الشركات التي تدير السجون، و هي من الشركات التجارية التي تلتزم هذا العمل بصورة مستقلة عن الدولة أو عن الحكومة، و هنالك سلموني بيد سجانين جدد غليظي الطباع.

و عندما رأونا قالوا: ها أنتم جئتم إلى هنا....؟ و كأنهم يعرفوننا منذ زمن بعيد، و كان يبدو على طباعهم بالإضافة إلى الغلظة روح المزاح و النكتة، مع أن البعض يبدو أنه يمارس هذه اللعبة مع السجناء الجدد من باب التشفي و الانتقام، و لكنني فيما بعد اكتشفت بأن الأمر طبيعي بلحاظ أن الشركة التي تدير هذا السجن هي شركة أهلية و ليس لها مصلحة في إهانة السجين أو التضييق عليه، و كنت دائم التصور و المقارنة بين هذه السجون و بين السجون الصدامية في العراق، إذ كنت حساساً جداً من كل شيء أراه هنا في أمريكا، و كان شبح السجن الصدامي يلاحقني أينما ذهبت و أينما حللت.

لم أقل شيئاً، و لم أردّ على السجانين بقول أو إشارة، و إنما كنت انتظر ما سينجلي عنه الموقف، و هكذا التزمت الصمت، جلست في غرفة الاستقبال الأولى و كانت لا بأس بها من حيث المنظر و من حيث الشكل، و كانت الساعة قد قاربت التاسعة مساءاً، جاء رجل أسود قبيح المنظر كثير الضحك و الاستهزاء، و كان يروح و يجئ في الغرفة و هو يتمازح مع الآخرين من السجانين بصوت عال و بلغة جنوبية مع اللكنة السوداء، ثم أخذ مني ملابسي و بعض ما كان معي، ثم وضعها على ورقة كبيرة بيضاء.
انتقلت إلى غرفة أخرى فطلب مني نزع ملابسي أشرت له حتى الجزء الخاص من جسمي ....؟ ضحك و قال: نعم، ضع يديك إلى الأمام و الخلف

لتغطية المناطق الخاصة، نزعت كل شي و وضعت يداي إلى الأمام و الخلف فبدأ بتفتيشي شيئاً فشيئاً، فتح فمي ينظر فيه، ثم سألني أن ألوي لساني إلى الأعلى ثم إلى الجانب لكي يرى ما تحته، بعدها فحص ما تحت إبطي، ثم سألني أن أرفع رجلي اليمنى ثم اليسرى، ثم الاستدارة و فتح أعلى الفخذين ليرى إذا كنت أخفي شيئاً ما بين الإليتين.

ثم طلب مني أن أفتح باباً إلى جانبي و هنالك وجدت ملابس داخلية بقطعتين، لبستها ثم بدلة بقطعة واحدة تكون ما يشبه القميص و البنطلون غالباً ما يلبسها العمال و كانت بلون ازرق، ثم قدموا لي حذاءاً مطاطياً، و كذلك فرشاة أسنان و صابونة و بعض اللوازم الأخرى مثل خاولي و قطعة أخرى من الملابس الداخلية، ثم دخلت إلى غرفة أخرى جلس معي رجل و سألني أسئلة عامة مثل: هل هنالك أعداء لك هنا في هذا المكان..؟ أجبت بالنفي، ثم سألني: هل اعترفت على أحد المساجين هنا.....؟ أو هل اعترف عليك مسجون هنا.....؟ قلت: لا

قال: هل تشكو من مرض ما.....؟ قلت نعم قرحة معدية

قال: مرض قلب، سكر، تنفس......؟ قلت: لا

ثم قال لي: أنت سجين الآن، و أنت يجب عليك الالتزام بقانون السجن.

قادني الرجل إلى عنبر رقم 8، و هذا العنبر يتكون من سبع زنزانات، كل زنزانة مترين و نصف عمقاً بمترعرضاً، تنفصل الزنزانات عن بعضها البعض بحائط، أما الباب فهي حديدية ضخمة تنغلق و تنفتح اوتوماتيكياً. في الزنزانة سرير مبني على الأرض فيه فراش و مخدتان و قطعة من الغطاء، و فيها أيضاً حمام لقضاء الحاجة إلى جانبه صنبور ماء، و هذه مكشوفة أمام باب الزنزانة.

الزنزانات تكون ما يشبه المثلث حول مساحة ضلعا المثلث يتكون من أربعة زنزانات كلها تطل على الساحة التي تقابل كل المساجين في الزنزانات، أما الضلع الثالث للمثلث وهو الضلع الطويل فهو المطل على الممر الرئيس للسجن و هو أيضاً يتكون من سياج حديدي ضخم.

في الباحة المواجهة للزنزانات السبع ساحة فيها مجموعة من الكراسي و المناضد ثم التلفزيون، و في الباحة أيضاً حمام للغسيل، يطل العنبر على ممر تقع فيه كل العنابر، أدخلوني الزنزانة رقم 3 و هي الثالثة من جهة اليسار.

سلمت على الرفاق الجدد أصدقاء المجتمع الجديد، و كانوا ستة أشخاص و أنا سابعهم، دخلت إليها ثم جلست على الفراش لا تحسس في أي عالم أنا......؟ في أية لحظة صمت جنائزية أعيش فيها ....؟ ليس يعلم الإنسان ماذا تعني كل دقة قلب فيها إلاّ صاحب أو حامل ذلك القلب إنها لحظات أحياناً أعبّرعنها إنها خارج حدود التفكير الإنساني.[1]

ثم قررت أن أخرج إلى الباحة إذ وجدت المساجين الذين معي في العنبر الثامن حيث لكل منهم عالمه الخاص، مع ملاحظة ظاهرة المودة التي تربط ما بينهم، تراهم متكاتفين يلعبون الورق، يشاهدون التلفزيون معاً، و يأكلون و يشربون و كأنهم في نزهة.

صراع الإعلام ما أصعبه: و بينما نحن كذلك و إذا بالأخبار المحلية تظهرعلى التلفزيون، و إذا بقصة اعتقالنا و البيت الذي اعتقلنا فيه، و الشخص الذي وشى بنا بدأت في الانتشار في أخبار العالم و أخبار الولايات المتحدة الأمريكية، و كأنها القصة الأولى و الخبر الرئيس في كل المحطات التلفزيونية و الأخبار ية، مع إظهار صور للحرب العراقية الإيرانية، و قسوة المواجهة ما بين الطرفين المتنازعين، ثم إقدام صدام على قتل العالم الفيلسوف السيد الصدر و غيرها من المشاهد الأخرى من الحرب في تقرير يظهر منه أو يشم من بين ثناياه بأننا مجموعة إرهابية تريد الانتقام من موقف أمريكا في تحيزها إلى صدام، و أننا مجموعة عراقية مرتبطة بالتوجهات الإيرانية تعمل من داخل الولايات المتحدة الأمريكية.

هذا الموقف خطرعلى حياتنا من السجناء الذين كانوا معي. فالكثير من الحوادث داخل السجن كانت قد نفذت بسبب معاداة السجناء لأولئك المختلفين معهم في الرأي، و لذلك فان السجين السياسي -لو كان هنالك سجين سياسي بالمعنى العام- يفضل أن لا يكون في نفس الزنزانة مع السجناء الآخرين بسبب إحتمال تعرضه إلى خطر القتل أو الانتقام من قبل السجناء أنفسهم، و لكنني و عندما ظهرت تلك المشاهد التلفزيونية كان السجناء الستة معي

[1] نظرت إلى مكان قضاء الحاجة و كان تواليتاً غريباً مصنوع من المعدن ملتصق بالحائط يتجه إلى الشباك، فإذا جلس الإنسان لقضاء حاجته فان وجهه سيكون مقابلاً للناس الجالسين في الباحة الكبيرة، جلست أفكر كيف سأقضي حاجتي و كل شي مكشوف أمام الآخرين....؟ فالناظر و المنظور ملعونان، وهو عمل بالنسبة إلى تقاليدنا يعتبر من الكبائر التي يرفضها العقل

يتضاحكون على سخافة المعلومات التي قدمت في العرض و هم يسخرون من التقرير بسبب الكذب الذي يحتويه... و الذي يبدو أن هؤلاء السجناء هم بالأصل إما من كوبا، أو من دول أمريكا الجنوبية. و هم يعلمون طبيعة تعامل المخابرات مع المعارضين، وهكذا تمكنت من كسب عطف السجناء الذين كانوا معي في الزنزانة. و هو أمر مهم جداً لتوفير جو آمن و جو يمكن للإنسان فيه أن يفكر في كيفية المواجهة مع النظام... و من الأشياء التي أعطتني مقاماً خاصاً ما بين السجناء هو نوعية القضية التي سجنت من أجلها، إذ كان معظم السجناء معي ترتبط قضاياهم بأمور إجرامية مثل القتل و السرقة و المخدرات وغيرها، بعكس قضيتي التي هي قضية مبدئية أصولية الأمر الذي ترك أثراً فعالاً فيما بينهم، و مما أكسبني إحتراماً كبيراً و تقديراً لهذا السبب.

لم أستطيع أن أتناول الأكل، فكانت شهيتي للطعام معدومة، و كلما قلّ حجم الطعام في معدتي ازدادت آلام القرحة، و كنت أعاني من آلام المعدة بشكل كبير، و أحاول السيطرة عليها بطريقة أو بأخرى، و قد شعر بآلامي المساجين معي الذين كانوا يرون أنه من الظلم أن تودع شخصية مثلي هذا السجن بسبب خلفيتي الثقافية و الدينية و هو ما جعلهم يلتفوا حولي و يحيطوني برعايتهم.

و قد بادر أحدهم بجلب علبة من الحليب لي فاضطررت تحت الإلحاح أن أشربها فشربتها فوجدت أن معدتي بدأت بالتحسن... عدت إلى زنزانتي مستلقياً على فراشي، فلم أتمكن من الراحة، و أفكار تدور في رأسي و تأكل كل خلية من خلايا دماغي، إذ بدأت أستعيد القصة من أولها، أو ربما من آخرها و أعود إلى أولها، خرجت ثانية إلى الباحة و جلست مع المساجين، و كانوا ذوي أطوار مختلفة و وضع لم أره في حياتي من طبيعة شخصياتهم، كان أحدهم شاباً أسود مفتول العضلات قوي الجسم لا يحسن اللغة الانكليزية جيداً و أعتقد إنه من كوبا.

عرّفت نفسي إليهم وعرّفتهم بشهاداتي، و لم أخبرهم عن طبيعة القضية التي دخلت بسببها السجن، و هو عرف متّبع على أن لا يتكلم الجميع حول قضية تجريمهم، ثم أخبروني بان الأبواب ستنغلق خلال ربع ساعة فعلي أن أتناول شيئاً من الطعام قبل غلق الأبواب، أخذت كوباً ثانياً من الحليب، ثم ركضت لأؤدي صلاة المغرب و العشاء، توضأت مسرعاً ثم جعلت الغطاء سجادةً لي، و قبل أن أصلي كان عليّ أن أحدد إتجاه القبلة، سألت السجناء إذا كانوا على علم باتجاه الشرق...؟ و بينما هم يتناقشون في الاتجاه دق جرس الدخول

إلى الزنازين، فدخل الجميع و لم نحدد اتجاه القبلة بعد، ثم و بسرعة أغلقت الأبواب اوتوماتيكيا، فبقي كل واحد منا في زنزانته وحيداً، ثم أطفئت الأضواء ما عدى ضياء خافت في الممر.

الجانب الروحي درع الاستمرار في الصمود: و في عتمة الليل كان عليّ أن أصلي بالاتجاهات الأربعة، لأنني لم أتمكن من تحديد اتجاه القبلة، و هكذا أديت الواجب، ثم جلست على الفراش أفكر في الأمر الذي وصلت إليه الآن، الزنزانة عبارة عن جدران كونكرتية من خمسة جوانب ما عدا الجانب الذي يواجه ساحة العنبر الذي يتكون من جزئين: نصف متر أعمدة حديدية ثابتة، ثم باب متحرك من أعمدة حديدية ضخمة أيضاً... حينما تجلس في الزنزانة يسيطر عليك شعور الإنعزال عن العالم تماماً، فالجو هادئ جداً و الكل نيام و كل في قفصه كالحيوانات التي وضعت في زنزانة يتفرج الآخرون عليها لا تدري ما يراد منها.
كنت جائعاً جداً و الآلام بدأت تتسرب إلى معدتي و الى كل أنحاء جسمي، و لا أدري كيف أصل إلى قطعة من خبز أو حبيبات من الرز، بدأت الآلام تتسرب إلى ظهري و هو علامة سيئة من علامات شدة قرحة الاثنى عشر، حاولت أن لا أفكر و أن استرخي جيداً و أبتعد عن كل ما يثير إفرازات المعدة الحامضية القاتلة.

أنهيت صلاة الليل، و لازال الألم يملأ معدتي، نمت و كأنني طفل حتى الرابعة و النصف استيقظت لصلاة الصبح، توضأت، ثم صليت الى الجهات الأربع أيضاً، ثم نمت ساعة و كأن العالم من حولي ليس له وجود حتى جاءت لحظة فتح الأبواب و إذا بالصوت ينتقل لجميع الزنازين بفتح الأبواب من مزاليجها.

خرج المساجين من زنزاناتهم و بدءوا عملهم اليومي: أول شي بدءوا بالإستحمام، و هو أن يبدأ صاحب الزنزانة رقم واحد ثم اثنين و هكذا، بدأ صاحب الزنزانة رقم واحد استحمامه، بينما توجه أربعة من المساجين الآخرين إلى ممارسة الرياضة في الباحة،[1]

---

[1] كان هذا اليوم السبت و هو اليوم الذي تعطل فيه المحاكم حتى يوم الاثنين، فمن المفترض أن يحضر المتهم أمام القاضي خلال الأربع و العشرين ساعة الأولى على اعتقاله ليرى فيما إذا كان يجب أن يطلق سراحه بكفالة أم لا، و بما أن اليوم هو يوم السبت فعلي أن انتظر حتى الاثنين المقبل

قمت من غرفتي لألقي نظرة على الآخرين و على أشكال الزنزانات و الحمام وغيرها، ثم دعاني المساجين إلى أن أتقدمهم في الدخول إلى الحمام فاعتذرت، و قلت لا بأس ربما بعد الظهر، ثم نزلت معهم أمارس التمارين الرياضية التي تعودتها في حياتي.

بعد مرور ساعة جاء شرطي إلى العنبر، و من خلال القضبان جاء بطعام الفطور و هو يتكون من علب صغيرة لصفائح الذرة (Corne Flakes) لكل واحد ثلاث أو أربع، ثم قطعتان من الخبز، ثم عصير التفاح و عصير البرتقال و بيضتان ثم قطعة من الجبنة و تفاحة و برتقالة.

توجه السجين في الزنزانة الأولى و تناول حصته ثم الثاني ثم أنا الثالث توجهت إليه من خلال القضبان، و سألته أول شي عن نوعية الدهن في الخبز لأنّ الخبز الذي تبيعه المحلات و خصوصاً في ولايات الجنوب الأمريكي غالباً ما يستعملون معه دهن الخنزير لرخص ثمنه، و عندما سألته أجابني: بأنه لا يعرف، ثم سألته:عن قطعة الجبنة أيضاً فيما إذا كانت تحوي على إنزيم (الببسين) الحيواني فأجابني أيضاً بعدم معرفته... عندها اعتذرت عن أخذ الخبز و الجبن، و قبل أن أتناول البيض سألت هذا الشرطي و كأن هنالك إلهاماً إلهياً جاءني، فسألته: هل أنت مسلم ؟
بمجرد أن سألته شعرت فيه آثار من التعاطف، تراجعت أنا إلى غرفتي و لم أتناول شيئاً من الأكل بسبب غرابة الموقف، جاء الشخص صاحب الزنزانة الرابعة أخذ حصته و هكذا حتى صاحب الزنزانة السابعة.

صاح رجل البوليس عليّ ثانية: قال لي انتظر سأعود
ذهب الرجل و جاء بالكيس الأصلي الذي يوضع فيه الخبز و الجبن لكي أقرأ مكوناته، قرأتها فوجدتها تحوي على منتج حيواني فاعتذرت منه، سألني إذا ما كنت ارغب بأي شيء آخر...؟ قلتُ له الحليب و قطع الذرة كافي مع بيضة واحدة مسلوقة، و إن كان بالإمكان و أن صادفت خبزاً بدون دهن حيواني فانا شاكر لك.
غادر رجل البوليس المسلم و رجعت أنا إلى حيث يأكل الجميع في وسط العنبر، فتناولت الحليب مع قطع الذرة، ثم أكلت البيضة بعدها، و كان المساجين يشاهدون كل ما يجري من قبلي عن كثب و كأنهم يريدون أن يكتشفوا هوية الزائر الجديد و توجهاته، لأنه سيكون أحد أفراد الأسرة أسرة السجن الذي يتكون من ستة أفراد و أنا سابعهم، و كنت ألاحظ طريقة الاستغراب على تصرفاتهم و طريقة اقترابهم مني و طريقة الحوار معي....

أنهيت طعامي بشكل هادئ حيث شعرت بعدها أن معدتي تحتاج إلى ما يملاها على الدوام و هي الطريقة الوحيدة لإيقاف الألم فيها... قلت في نفسي لأستحم كي أرى كيف سيكون الاستحمام في مثل هذه الظروف، إذ أنني لازلت البس ملابس السجن و التي لا أدري مدى نظافتها أو تلوثها.

كل مكان في الأرض هو دعوة للخير: و قبل الاستحمام تمشيت حول الفسحة التي في الوسط بشكل هادئ و إذا بالرجل صاحب الزنزانة رقم واحد ينادي عليّ و هو من داخل زنزانته، و كأنه يريد أن يقول لي شيئاً لا يريد الآخرون أن يعرفوه، ترددت في البداية أن ادخل زنزانته، فوقفت في الباب، ألح عليّ بالدخول، فدخلت خطوة واحدة، مد يده أسفل السرير الذي ينام عليه و إذا به يخرج نسخه من القرآن المترجم قدمها بين يدي، صعقت من ذلك، تذكرت أن هذا الرجل هو الرجل الأسود صاحب العضلات المفتولة الذي لا يحسن الانكليزية جيداً، و كما اعتقدت بأنه كوبي يتكلم اللغة الاسبانية، سألته رأساً و بدون تردد:ءأنت مسلم....؟ مع ابتسامة عريضة

أجاب: لا......... أدهشني جوابه

سألته: إذن ما تصنع بالقرآن....؟

أجاب بلغة انكليزية ركيكة: إنني اقرأ يومياً صفحتين منه، إنه الذي يسليني في زنزانتي، فأنا عليّ أن اقضي 25 سنة في هذا المكان و لست أعرف أحداً يعطني القوة إلاّ هذا القرآن و هو يلفظ القاف كاف.

كررت عليه السؤال: هل أنت مسلم....؟ لأنني اعتقدت أنه لم يفهمني في المرة الأولى، أجاب مؤكداً: لا، قلت إذن مسيحي.......؟ قال: لا، يهودي........؟ قال لا.

انقطع حديثنا لسبب لا أتذكره.

رجعت إلى الزنزانة و أنا أبحث عن شي أدوّن به مذكراتي، فسألت السجانين إذا كان يسمح لي باقتناء القلم و الورق فقالوا: نعم عليك أن تشتري ذلك، فبعد ساعة من الوقت يأتي رجل بوليس مهمته شراء الحاجيات للمساجين، سألت و من يدفع النقود...؟ قالوا: أنت، قلت لهم لقد اخذوا محفظتي و نقودي عندما دخلت السجن، قالوا نعم الآن ممكن لك أن تطلب ممن تتصل بهم في الخارج بإرسال بعض الأموال لك، ثم جاء أحد المساجين و كان شاباً قصيراً أبيض اللون يبدو عليه الذكاء قليل الكلام جاء لي بأوراق و قلم، ففرحت بها أشد

الفرح و كأنه أهداني مكتبة كاملة، انزويت في زنزانتي لأكتب ما يختلج في ذهني من أفكار و من تناقضات[1]
و إذا بهذا السجين القصير القامة يأتيني بعلبة من البسكويت و بيده الأخرى علبة تحوي (Peanut Butter) و هو مسحوق فستق العبيد يصنعونه بشكل المربى طيب الطعم ذو فائدة غذائية عالية... أكلت قطعة من البسكويت ثم ثانية و ثالثة و بدأت انتظر فالوقت هو الحاسم في قرحة المعدة أو الاثنى عشري، وهكذا خلال عشرين دقيقة زالت الآلام، لأنّ هذه القطعة من البسكويت أو معجون فستق العبيد يغلف المعدة أو الاثنى عشري و يمنع الحوامض من الوصول إلى جدران الأمعاء.

صارت الساعة الثانية عشرة ظهراَ، جاء الحارس و بيده جهاز تلفون وضعه خارج العنبر، ثم سأل المساجين إذا كانوا يحتاجون لإستعماله، استعمله البعض من المساجين، ثم سألوني فيما إذا كنت أرغب بالاتصال بأحد من العائلة..؟ فقلت لا، و لكن ما هي قوانين هذا الاتصال...؟ قالوا يمكن لك الاتصال على أن تسجل تكاليف المكالمة على المتصل به و بإمكانك القيام بأي اتصال بعائلتك أو بأي شخص آخر، قلت في نفسي مازحاً و أنا مبتسم سجن صدام أحسن من هذا المكان!! و كان البعض من المساجين يتصل بعائلته أو بأصدقائه و يتكلم ربع ساعة أو ما شابه.

اقتربت الساعة من الواحدة ظهراً فذهبت و توضأت، ثم فرشت البطانية لأتهيأ لصلاة الظهر، جلست انتظر دخول وقت الزوال و بحدود الواحدة و النصف ظهراً، جاء أحد السجناء الذين معي في العنبر و هو شخص يبدو على محياه الصلافة و الإجرام، جاء أمامي و جلس حيث يكون السجود، ابتسمت في وجهه و سألته فيما إذا كان يرمي شيئاً......؟ فسألني ما هو الدين الذي أمارسه......؟ فقلت إنه الإسلام، قال لي: إنه يريد أن يصلي مثلي، قلت له: إجلس خلفي و اعمل مثل ما أعمل و لكن قبلها إذهب و إغسل وجهك، ذهب و غسل وجهه و جلس خلفي كأول مصلٍ في الجماعة، لمحنا الشاب الأسود صاحب العضلات فجاء خلف الأول فأشرت له أن يتقدم و يكون إلى

---

[1] بعض من هذه المذكرات كتبتها هنالك في السجن عام 1985 إن كان في هذا المكان أو في السجون الأخرى، و بعضها كتبته في كندا عندما وصلت إليها، و البعض منها كتبته في حدود عام 1991، و لم أضف له إلاّ القليل من المذكرات ما بعد التحرير عام 2003، كما حاولت أن أضيف لها بعض الحوادث المهمة التي حدثت إبان تاريخ نشر الكتاب، و لكنني حرصت أن أقدمه للقارئ و كأنه كتب في ذلك الوقت

جنبه، أدرت وجهي لهم و بدأت أعظهم بصورة هادئة و أحثهم على الصبر و كيف أن الإنسان إذا أخطأ فهنالك رب رحيم غفور.

استأذنني ثالث من المساجين للالتحاق بي فسمحت له، و هكذا اكتمل الأشخاص الستة أجمعهم، بدايتنا داخل الزنزانة و آخرنا في وسط الباحة لأنّ الزنزانة لاتسع إلاّ لمصلٍ واحد فقط، فقلت لهم: ما عليهم إلاّ الانتباه لما أقوله ثم متابعة حركاتي في القيام و القعود و الجلوس، وهكذا بعدما أنهيت الركعتين لصلاة الظهر و هما قصر وقفت فيهم خطيباً، و بدأت أشرح لهم العلاقة ما بين الإنسان و بين الدين بمحاضرة سهلة و بسيطة، ثم شرحت لهم ما معنى أن يكون للإنسان أمل و طموح، ثم قلت لهم نحن في الإسلام إخوة، فمن الآن ينادي كل منا الآخر بكلمة أخي[1] لأنّ الإسلام يعتبر كل الناس إخوة فأبونا واحد و أمنا واحدة فالأسود و الأحمر و الأبيض كلهم خلقوا من أبوين لا غير.

سرتهم هذه الكلمة و أفرحتهم، ثم قلت لهم علينا الآن أن نعلم أنفسنا كيف يساعد أحدنا الآخر، لأننا أولاً إخوة و لأننا في مصيبة واحدة... أنهينا الصلاة ثم قررت أن أستحم فاستأذنت منهم فقاموا بأجمعهم، بادر أولهم بتنظيف الحمام قبل أن أدخله و جاءني الثاني بالصابون و الثالث بالمنشفة، و هكذا كانوا إخوة لي في هذه الفترات العصيبة من حياة السجن، مع إنهم ربما من عتاة المجرمين، و لكن كلمة الحق الهادئة نبتت في أنفسهم فأحالتهم إلى شخصيات أخرى، و تذكرت أنذاك كيف صنع الرسول الأكرم (ص) من بدو تلك الصحاري شخصيات تأريخية باقية آثارها إلى اليوم، ثم تذكرت قصة النبي يوسف عليه السلام و حواره مع المسجونين معه في السجن. و هو يحاورهما و يقول:(يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون أم الله الواحد القهار؟)

في الخامسة مساءاً بدأت الأخبار العالمية، فكانت صورنا -و لليوم الثاني- تظهرعلى التلفزيون مع تعليق مدسوس مملوء بالخبث الصهيوني، و إذا بهؤلاء المساجين يرفعون قبضاتهم في الهواء ضد المذيع و هم يصيحون كذاب، كذاب، لأنّ المذيع كان يقول إن هذه الخلية ربما تكون خلية إرهابية ضد المصالح الأمريكية، تعالت صيحاتهم و احتجاجاتهم و هم يصيحون (بو ... بو.....) و كنت بالمقابل أرى صورنا و قد انتشرت في كل أمريكا، في الوقت الذي كنت أرى ذلك تصعيداً كبيراً من قبل السلطات الأمريكية في

---

[1] كلمة أخي Brother يتلفظ بها السود عموماً ما بينهم في حالات الممازحة أو الصداقة العميقة، بينما لا تجد ذلك ما بين البيض الأمريكان

المواجهة معنا، أي بمعنى آخر أن الصراع سيطول و ستكون المواجهة شديدة و مضنية.

توجه الجميع إلى لعب الورق، بينما انسحب الشاب الأسود و اقترب مني و أنا أكتب بعض الوريقات، و طلب مني أن يتكلم معي على انفراد، سألته: إذا كان قانون السجن يسمح بذلك فلا مانع لدي، قال: ليس هنالك ما يمنع هذا النوع من الحديث، جلست معه خلف إحدى الطاولات الموجودة في الباحة الرئيسة، و قلت له تفضل تكلم: كانت لغته الانكليزية ركيكة بحيث يصعب عليّ فهمها، و لغته الأصلية هي الإسبانية و بلده الأصلي كوبا، بدأ يشرح قصته التي لم أفهم معظمها بسبب حاجز اللغة[1]

---

[1] الشيء الذي فهمته أن هذا الشاب اكتشف قبل سنوات أن جده مسلم و اسمه (عُميّرة)، كما تمكنت أن أفسره، و قد أخبروه بأن عميرة قد قُتل عندما كان يعمل في إحدى المزارع في ميامي كعبد أجير، و أن قتلته هم إحدى أكبر العوائل المالكة في فلوريدا،و يقول هذا الشاب أن السبب في قتل جده الثالث هو أنه كان مسلماً جيداً يرفض حالة العبودية التي كان يعيشها، و أنه أي الجد حاول قتل أحد أولئك الملاكين لأنه أساء معاملته، ثم قال: إن الإقطاعيين في فلوريدا كانوا يأخذون أولئك العبيد الزنوج من كوبا، وهكذا جاء جده إلى هنا، وعندما قتلوه رموا جثته في البحر ثم أخبروا عائلته بأنه دخل في معركة مع آخرين فقتلوه لإخفاء الجريمة، ثم إن أحد أصدقائه من العبيد الذين كانوا معه أخبرعائلة القتيل بعدما عاد إلى كوبا و عندما كبر هذا الشاب بعد فترة من الوقت اكتشف القصة، و لهذا قرر أخذ ثأر جده الثالث من أولئك الذين قتلوه، و هكذا قبل سنتين جاء إلى فلوريدا مع مهاجري القوارب الكوبية ليدخل لاجئاً إلى أمريكا ثم متابعة عائلة الإقطاعي ملاك الأرض التي كان يشتغل بها جده، و بعد متابعة العائلة الإقطاعية تمكن الشاب من قتل إثنين من أحفاد الإقطاعي، و إنه بعد قتلهما حاول الهرب إلى كوبا و ألقي القبض عليه و أودع في هذه الزنزانة لفترة قد تمتد الى خمس و عشرين سنة، كنت استمع لما يقول محاولاً استخلاص ما يريده مني أن افعل، و لا أدري ما صحة هذه الرواية من عدمها...؟ و بعد الانتهاء سألته ماذا تريد مني أن افعل...؟ قال أولاً، كيف أكون مسلماً و أسترجع إسلامي..؟ ثانياً هل ما عملته كان صحيحاً....؟ أجبته و قلت له: إن كل إنسان هو مسلم بالفطرة، و إنه إذا تفهم الإسلام، و تفهم قوانينه فإنه يكون مسلماً بالعقيدة، و إذا مارس عملاً فإنه يكون مؤمناَ، و الإسلام ليس من الشئ الذي يعطيه الآخرون، و إنما هو علاقة بين العبد و ربه، و أول درجات الإسلام هو الاعتقاد بالوحدانية، ثم شرحت له الوحدانية و أهميتها، ثم الشرط الثاني هو النبوة و الثالث هو الميعاد، و هذه هي أصول الدين، فأنت إذا كنت تؤمن بذلك فأنت مسلم، ثم طلبت منه أن يغتسل ثم ينطق بالشهادتين ثم يتعلم الصلاة ثم يبدأ بأتباع تعاليم الإسلام الأخرى، أما السؤال إذا كنت ما فعلته صحيحاَ على قتل شخصين من عائلة الإقطاعيين فللأسف أقول لك إن الإسلام يرفض أخذ شخص بجريرة غيره، و لهذا فأنت لكي تستغفر ربك عليك أن تتوب، و أن تنوي إذا رزقك الله بحياة بعد خروجك من السجن أن ترضي ذوي العائلة، و أن تدفع لهم ما يقرره الإسلام، أما عن مساعدتي لك فأنصحك أن تشعر أن الله معك و أن ترجوه و تقترب منه، و لا يمكنك إنجاز ذلك إلاّ بالعمل الصالح، فعليك أن تمارس كل ما تتمكن من أعمال صالحة

صارت الساعة الخامسة عصراَ و هي الفترة لتقديم الوجبة الثانية من الطعام حتى اليوم الثاني، جاء الحارس المسلم ثانية إلى حيث يقع العنبر و بيده أقسام الطعام لفترة العشاء، قال لي بصوت غير مسموع: قل لي ما تريده أقدمه لك...؟ شكرته كثيراً، و قلت له: الله أرحم الراحمين، هز رأسه ثم قدم لي صينية الطعام فوجدت أن الدجاج فوق الرز ثم الخبز و كل ذلك لا يمكن لي أن آكله ما عدا السلطة، أخذت السلطة و جلست أتناولها، و لكن الحارس المسلم ذهب و جاء لي بطبق رز خالٍ من الدجاج مع بيضتين إلى جنبه.

عاد الحارس الأسود ثانية بعد الانتهاء من فترة الغذاء ثم سألني إذا كنت أطلب شيئاً فأخبرته: لا، و لكنني أرجو منك أن تذهب و تسأل عن أحوال الإخوة الذين سجنوا معي و هم د. حسان و الآخرون، و كما أعتقد أنهم في العنبر رقم 5، ذهب الرجل و بعد مرور ساعة جاء و قال: إنه رآهم و هم يؤكدون بأن لا تتكلم بشي أبداً أمام المحققين، قلت له إذهب و قل لهم إن الأمور كما كانت، و كنت أخشى أن المخابرات عندما حققت معي كانت قد أخذت جزءاً من المعلومات من الأخ الدكتور و لذلك و لكي أتحقق من ذلك حاولت أن أعلمه بأن الأمور لا زالت على ماهي عليه لم تتغير، و أن عليه أن لا يقول شيئاَ، ذهب الحارس و جاء و قال: إنه قرر ذلك، ثم قال إنه يقول: إن ما بعد غد ستكون المحكمة.

اقتربت ساعة غلق الأبواب، فجلس كل في زنزانته في انتظارغلقها... تحركت الأبواب بصورة مرعبة و اصطكت حتى نهايتها ثم ترك القفل ليدخل في مخبأه، و تطفأ الأضواء بعدها إلى أن تحولت الزنزانة إلى عالم معزول تماماً عما يدور في الخارج.

<u>مقارنة....... و خلفيات </u>: في عالم الشرق وعندما كانت المخابرات العراقية تعتقلنا في بغداد و النجف و البصرة كانت هنالك آلآم التعذيب الهائلة، وآلام الإهانات و قتل الشخصية، و لكن ما يقلل و يخفف من تلك الآلام هو إنك تجد آلافاً من إخوانك حولك تمتلئ بهم السجون، و تزدحم بهم الزنزانات و كل منهم عَلَمٌ من أعلام الإنسانية، و هو ما يخفف كثيراً من متاعب السجن في العراق، أما هنا في أمريكا فالذين حولك من المساجين أناس من طبقة ثانية و عالم آخر، فمعظمهم من القتلة المحترفين و من التجار العالميين في المخدرات، و هذه الفئات عندما ترى نفسك تعيش فيما بينهم و تأكل معهم و تتحادث معهم تتحسس عندئذٍ آلام الغربة و آلام المشاركة الوجدانية، لأنك من عالم و قضية، و هؤلاء من عالم و قضية أخرى.

كنت قد جلست في زنزانتي أفكر بالظروف التي واجهتها في سجون أمريكا، و بما لاقيته في سجون صدام و في متاهات مديرية الأمن العامة الرهيبة، فكنت أقول يا إلهي و أنا في هذا السجن الذي لا ضرب و لا تعذيب و لا إهانة و لا اعتداء على أعراض، فأنا في نعمة كبيرة عليّ أن أحمد الباري عز و جل في دوام شكره، و استمرار حمده.
كان أكثر ما يؤلمني هو الأفكار التي تأتي كقطع الليل خصوصاً أوضاع المجاهدين، و أوضاع أولئك الذين كانوا ينتظرون بصبر في داخل العراق أن يتم إنقاذهم من جحيم الأوضاع المتردية الأمنية، و لكن الأكثر إيلاماً كانت أفكار العائلة و مصيرها سواء كانت عائلتي المباشرة أم عائلتي في العراق و كان الخوف الكبير هو التهديد المستمر و الخشية من أن يطالهم واقع المشكلة[1] دعوته سبحانه عز و جل و اقتربت منه، ثم أنهيت صلاتي و رجعت إلى النوم و أنا في أشد حالات الراحة النفسية حتى أذن الفجرعلى الانبلاج، استيقظت ثانية و صليت ورجعت إلى النوم مرة أخرى، حتى سمعت صرير فتح الأبواب. إذ جاء يوم جديد في هذا السجن....

قمت من سريري حييّت أصحابي وقفت أمارس الرياضة مدة ربع ساعة، شعرت بعدها بالجوع، انتهينا من الرياضة فجاءت و جبة الأكل و لكن الحارس المسلم لم يأت إلى زنزانتنا هذه المرة، بل جاء شخص آخر و أعطانا من الطعام ما لم أتمكن أن أتناول منه إلاّ البيضة و الحليب و قطع الذرة،

---

[1] و تساءلت أين والدتي الآن؟ و أين زوجتي و ابنتي....؟ إذ كنت أخشى أن أصيبا بمكروه، فزوجتي التي لم أعلمها عن مكان اعتقالي إلاّ سويعات قبل سفري إلى فلوريدا، أتمنى أن لا تكون عنصراً من عناصر الضغط عليّ لكسر روح الصمود و المواجهة، أتمنى إنها غادرت البيت إلى بيوت أحد الأصدقاء، ثم فكرت بوالدتي و أخواتي في العراق و والدي و إخوتي و ماذا سيكون مصيرهم على يد جلاوزة البعث الحاقدة....؟ كيف سيتعامل النظام معهم بعد أن أوضحت المخابرات الأمريكية بأن التخطيط للعملية كان هو إسقاط نظام الحكم في العراق، فلا بد و أنهم قد نقلوا هذا التصور إلى العراقيين و عندئذٍ ستكون وحشية النظام مع فصائل المعارضة و مع الأقارب شديدة، و كيف سيكون إنعكاس الإعتقال على قواعدنا في الداخل، و ماذا ترى لهم أن يفعلوا بعدما نفذت الحكومة الأمريكية اعتقالنا....؟ بدأت كل تلك الأسئلة تخيم على تفكيري و كأنني و أنا في داخل هذه الزنزانة الصغيرة المعزولة عن العالم أتمكن من حلها، لهذا قررت مع نفسي أن اترك الليل و هواجسه إلى أن أحلّق إلى عوالم أخرى تخدمني في حسم هذا الصراع الذي تدور رحاه الآن ما بين قوى المخابرات الأمريكية و بين صمودي الذي يحاول التمسك بالثوابت العقلية في القيم، قلت في نفسي: لأترك الآن كل ما يدور من حديث عما هو خارج محيط زنزانتي، فالقوة الآن هي قوة النفس، و قوة الداخل التي يحاول هؤلاء كسرها لانتزاع ما يريدونه من معلومات

سألت أحد المساجين ليسأل عن الحارس الذي غاب اليوم عنا، و بطريقة هادئة سأل الشاب الحارس الجديد عن الحارس السابق فقال له بما يشبه السر: لقد قالوا له لا تذهب إلى هذا العنبر، سأله لماذا....؟ قال لا أعرف، جلست مع أصدقائي نتناول أطراف الحديث حتى حانت ساعة أخذنا حمام الشمس في مساحة خارج الزنزانة لمدة نصف ساعة خرجنا جميعاً إلى هنالك جلسنا في الشمس ثم رجعنا إلى العنبر.

و أثناء حديثي مع زملائي و إذا أنا بحارس السجن يدعوني للمقابلة قلت له: هل تقصد أنا....؟

قال: نعم أنت

قلت له: صف لي شكل الذي يريد مقابلتي....؟

قال: لا أعرف، ستذهب هنالك و ترى

خرجت من العنبر ... أخذني الحارس بيده، ثم أدخلني غرفة المقابلة و كانت غرفة كالتي نراها في الأفلام عبارة عن مساحه 3م عرضاً و 5م طولاً فيها كراسي و فيها أكثر من طاولة، شكلها لا يثير أي إحساس في نفس الإنسان إن كان إحساس راحة أو إحساس خوف، و إنما هي غرفة عادية مصبوغة بلون فاتح فيها شبابيك و فيها سقف عادي، إضاءتها طبيعية و كذلك أبوابها، جلست على كرسي مقابل شباك صغير فيه فتحة صغيرة، جاءت امرأة من الطرف الآخر و جلست و أصبح فيما بيننا زجاجة فيها فتحة للحديث، سلمت، ثم سألتني عن اسمي، و عن يوم الاعتقال، ثم قالت لي: إنها من منظمة تعتني بحقوق السجين و بوضعه النفسي، و حريته في ما يتطلبه من وسائل دفاع قانونية، لم أتذكر إسم تلك المنظمة جيداً، سألتها عن هوية تلك المنظمة، قالت إننا جمعية خيرية نساعد كل سجين دخل السجن حديثاً، هدفنا إخبار السجين عن حقوقه و واجباته و كيف يمكن له أن يختار المحامي المناسب، و كيف يمكن له أن يدافع عن نفسه....؟ في البداية ترددت أن انفتح على هذه المرأة، و لكنني في النهاية تعاونت معها في مجال الجانب القانوني، ثم طلبت مني إذا كنت أحتاج إلى مساعدة أخرى، شكرتها، ثم قالت: سأكون غداً في المحكمة لنحاول مساعدتك، قلت لها: شكراَ، ثم رجعت إلى زنزانتي.

<u>ترتيب الاوراق:</u> مر هذا اليوم بصورة سريعة حيث جلست أتحدث مع الأصدقاء، و بدأت أتفهمهم و أتفهم طبيعة جرائمهم و اكتشفت أن هذا المكان لا يأتي اليه إلاّ من يُراد له أن يُسلط عليه نوع من الضغوط، فهو سجن ثقيل نوعاً ما، و له قوانين فيها الكثير من التشدد، و هو من الأماكن التي يرتادها السجناء الخطرون الذين يعتقد بأنهم سينالون فترات سجن طويلة، فالسجناء هنا معظمهم من الكبار الذين يقضون فترة عقوبتهم الطويلة في ظروف

صعبة، و الصعوبة هنا تتأتى من البقاء في مكان واحد و هو العنبر و لا يخرجون إلى الفضاء إلاّ ساعات محددة، كما أن المكان في هذا السجن مكتظ و تظهر فيه شدة الحراسة و صرامة الأوامر.

بالنسبة لي لم أميز كل ذلك و لم أعرف ماذا يعني هذا، و ما هو مقياس السجن الشديد و السجن المخفف...؟ لأنني جئت من خلفيّة دخلت أشد سجون العالم وحشية تلك هي سجون صدام التي لا يضاهيها سجن على وجه الكرة الأرضية حتى سجون (سيبريا) التي سمعنا عنها.
و عندما يأتي الشخص المعتقل حديثاً إلى هذا السجن فإنه يصاب بالصدمة و الإحباط لما يفرض من قوانين و حراسة و تشديد. و هو جزء من الحرب النفسية التي تمارس ضده لكي يهيئ أمره إلى الاعتراف أمام محققيه في الأيام المقبلة التي سيتم فيها التحقيق، وعليه أن يفكر جدياً في الاعتراف، و تقديم ما يراد له أن يقول. و هو قول الحقيقة التي أتت به إلى السجن أمام محققيه.
قلت في نفسي: هذا مسخرة إذا كان هذا السجن من السجون الشديدة، فإذن ما سيكون حال السجون الطبيعية الأخرى، فأنا لا أقارن هذه السجون إلاّ بما شاهدته و عشته في العراق، فهذا بالمقارنة لها قصر فخم بالنسبة إلى السجين و سياحة، و لكنها مفروضة.[1] و قد عرفت فيما بعد أن في هذا السجن تحدث جريمة قتل كل أسبوع في ظروف غامضة، هذا أيضاً بالنسبة لي لا يعني شيئاً لأنني أعتقد أن معظم جرائم القتل داخل السجون سببها إما النزاع بين سجينين، أو أن الكثير من عصابات الإجرام تقوم باغتيال من يعترف عليها فتقتله داخل السجن، و في كلتا الحالتين فأنا لست من هؤلاء و لا من هؤلاء، و لكن تبقى احتمالات كثيرة تواجهني، عليّ أن أكون في غاية الحذر تجاهها أهمها هو التحول السياسي للقضية التي دخلت من أجلها و بدلاً من أن تكون جريمة مدنيّة كما تريدها المخابرات الأمريكية تكون مواجهة سياسية كما أريدها أنا،عندئذ يمكن لي أن أكون هدفاً للقتل، أو هدفاً لتغيير رأيي بالوسائل العنيفة و هذا أيضاً لا يخيفني و لا يغيّر من موقفي تجاه الحياة في هذا السجن لأنني صممت على المواجهة الحقة الشريفة أمام أعدل قضية من قضايا الإنسان. تلك هي قضية شعب يسحق بأكمله من قبل عصابة حمقاء لا تعترف بقيم الإنسان.

---

[1] هنالك سجون في أمريكا ليس لها حُرّاس أو سياج، و إنما هو سجن يترك للإنسان الذي صدر بحقه الحكم في وجوب النوم فيه فقط، و عليه أن يحضر في الليل و يترك في النهار لحين انتهاء مدة محكوميته...

في إحدى الأيام نودي على إسمي للحضور..... هنا في السجون الأمريكية، المناداة على إسم الشخص لا تعني شيئاً سيئاً، بعكس ما هو كائن في السجون العراقية و التي تعني هنالك بأن امراً مرعباً سيواجهك، إما حفلة تعذيب بريئة أو تحقيق مع تعذيب غير بريء أو نهاية حياتك.

أخذني الشرطي إلى الغرفة و كانت غير تلك الغرفة التي جئتها قبلاً، فجلست لأنتظر ما في الأمر، جاء شاب لطيف جلس و قال: إنه محامي اسمه كذا و إنه تلقى مكالمة من محامية في ولاية لويزيانا تدعوه لكي التزم قضيتك، و ها أنا جئت كي أطلع على القضية فإذا فكرت أن توكلني فيجب أن تقول لي الآن قبل أن ترسل القضية إلى (هيئة المحلفين) (Grand Jury)، قلت له: لا أستطيع أن أقول لك ما هو قراري قبل أن أتكلم مع زميلي د. حسان، وعندها يمكن لي إخبارك.[1]

---

[1] انتداب محامي في الولايات المتحدة الأمريكية قضية أساسية في مسيرة الصراع مع القانون بشكل عام، فالمحامي في الغرب هو مجال اختصاص، و لكل قدرته في اختصاصه شأنه شأن الطبيب الذي يكتسب خبرته في عمله المحدد من جراء الدراسة و من جراء الممارسة، و في غالب الأحيان يرغب الإنسان في الذهاب إلى الطبيب المتخصص أكثر من رغبته في المعالجة تحت يد الطبيب العام، إلاّ إذا كانت الحالة المرضية أمراً سهلاً كالأنفلونزا أو ما شابه من أمراض عادية، المحامي في أمريكا له نفس الخصوصية في العمل القانوني، فمن المحامين من هم متخصصون في القضايا الإجرامية أي القتل، و منهم متخصص في الضرائب، و منهم متخصص في الهجرة و ما إلى ذلك من تخصصات كثيرة، قضيتنا هي قضية معقّدة تختلط فيها الجوانب السياسية التي هي العنصر الصعب مع القضايا الأخرى التي سوف توجه الاتهامات لي مثل التزوير، و غيرها من الأمور التي لها تسميات قانونية لا مجال لذكرها هنا، فاختيار المحامي القادرعلى المرافعة يعتبر قضية مهمة في هذا الجانب، و بما أنني لا أملك خبرة في معرفة المحامين و قدراتهم ومدى إخلاصهم للموضوع فإنني يجب أن أتردد كثيراً في قبول هذا المحامي أو ذاك.

②①

◖ الفصل الحادي والعشرون ◗

مُناوشات في المحكمّة



بداية و لكنها اختبار : في السابعة صباحاً هيأت نفسي حتى نودي باسمي فخرجت، فوضعوني في الغرفة الأمامية للبناية، ثم جاء الشرطي فأعطاني ملابسي التي جئت بها إلى السجن و كانت عبارة عن بنطلون كما أتذكره قهوائي اللون، ثم قميص و ربطة عنق، ثم سلمني كل ما كان عندهم من أشياء تعود لي و سلمتهم بالمقابل ملابس السجن، أخرجونا واحدا تلو الآخر إلى الساحة الخارجية قريبا من السيارة المعدة لنقلنا و بدأوا بعملية شد السجناء كل إلى الآخر، جاؤوا بسلسلة حديدية طويلة وضعوها حول بطني، ثم شدوا يدي المربوطتين بالكلبجة و بالسلسلة، و كذلك شدوا رجليّ بنفس السلسلة التي حول خصري، و تركوا جزءاً من السلسلة الحديدية كي أتمكن من المشي بخطوات قصيرة، كذلك الحال مع سجين آخر بنفس الطريقة، ثم ربطوا ذلك السجين معي، فصرنا مجموعة من المساجين كل اثنين مربوطين معاً.

جاءت سيارة من ذلك النوع الذي يستعمل للنقل. و قد وضعوا في جزئها الخلفي مجموعة من الكراسي المتقابلة، صعدنا السيارة و كنا كما أعتقد 25 شخصاً، و جلسنا ثم أغلقت الباب الحديدية غلقاً محكماً فانطلقت بنا جنوبا. يبدو باتجاه ميامي، و بعد ثلاثة أرباع الساعة وصلنا إلى حيث بناية المحكمة.

و قبل وصولنا كان عشرات الصحفيين متجمعين أمام الباب الخلفية التي غالباً ما يدخل السجناء من خلالها و ذلك لالتقاط الصور لنا بالذات من جراء الدعاية و الحملة الإعلامية المكثفة المغرضة التي مارسها الإعلام في تلك الولاية، خصوصاً جريدة الولاية الرئيسة[1]، أخبرني د. حسان بأن هؤلاء الصحفيين جاؤوا لنا بالذات، فإذا لم نغط وجوهنا فإنهم سيصورننا و سيظهرون في طريقة الدبلجة أشكالنا و كأننا مجرمون، لذلك قرر الأخ أن يغطي رأسه بقميصه لأنّ ذلك لابد و أن ينعكس سلباً على علاقته مع المجتمع، و خصوصاً و هو يعمل في مجال الطب، أما أنا فقررت أن أكون هادئاً غير متردد أنظر بعين الثقة مع توفر صفة الهدوء و الجديّة مع ابتسامة

---

[1] جريدة Miami Herald التي كانت تحمل توجهاً عدوانياً و بشكل سافر لإيران و لكل ما يتعلق بالإسلام، و هي إحدى الصحف الكبرى المملوكة أنذاك إلى عائلة يهودية معروفة في ميامي، و قد أعلنت الصحيفة بأنها ستقف إلى جانب المخابرات رسمياً في مقاضاتها لنا، و هو أمر غريب جدا في الوضع الأمريكي الذي من المفترض أن تكون الصحافة مستقلة و متحررة من التوجهات السياسية، كما أن هذه الولاية (فلوريدا) تعتبر من أكبر الولايات في عدد اليهود مقارنة بالولايات الأخرى و ذلك بسبب أن الكثير منهم يبقى هنالك للاصطياف طيلة السنة بسبب الجو و الوضع السياحي الجميل

مستمرة[1] نزلت من السيارة و إذا بكاميرات المصورين و الصحفيين. و قد تجمعوا حولنا بمسافة قصيرة لحد ما يسمح به القانون، و لكنهم أي الصحفيين لم يتمكنوا بتلك العجالة من معرفتنا بالذات و من هم فلان و فلان فكان التصوير للجميع، وعندما يعودون إلى محطة التلفزيون سوف يقررون من خلال الصور من هو المعني بتقديمه على الشاشة و التركيز عليه...؟ و فعلاً في أخبار المساء كانت صورتي قد ملأت كل الشاشات الصغيرة في الولاية و على صفحات الجرائد في اليوم الثاني، و كنت في الصورة أبدو مرفوع الرأس مبتسماً، هادئاً غير مكترث بما يدور حولي من أسلحة و جنود[2]

دخلنا بناية المحكمة فصعدنا الى أحد الطوابق فأدخلونا إلى غرفة المساجين، و هنالك فكوا أيدينا ثم بدأوا يدخلون المساجين حسب و ضعهم و قضيتهم.

أدخلونا نحن أصحاب القضية الواحدة وجبة واحدة إلى قاعة المحكمة، كانت الغرفة ضخمة جداً و طاولة القاضي تعلو صدر القاعة، في الجانب الثاني مكان خاص لجلوس الصحفيين كل منهم ممسك بلوحة لرسم صور المتهمين بسبب عدم قانونية التقاط الصور في داخل قاعة المحكمة، و في خلف القاعة كان يجلس الحاضرون للاستماع إلى وقائع المحكمة، نظرت إلى د. حسان و كان إلي يميني فوجدت أن محاميه ينتظره في المحكمة، كذلك الحال بالنسبة لي و جدت أن هنالك شاباً لطيفاً تقدم مني و قال: انه سيكون المحامي الذي يدافع عني، و أنه قد عُيّن من قبل د. حسان، رحبت به، ثم جلس بعيد عنا حتى باشر دور المرافعة[3] .

---

[1] مع إنني في الحياة العادية و خصوصاً في ذلك الوقت كانت تقاسيمي لا توحي بذلك، بل هنالك تقطيبة ملازمة لي في وجهي استورثتها من واقع المجتمع و من واقع الظروف التي مررنا بها، و من أراد رؤية ذلك فعليه أن يدخل على موقعي في البرنامج المعروف Facebook ليرى ذلك

[2] مع إن شكل الذقن و طريقة تصفيف الشعر لم أكن موفقاً بها جيداً في الظهور التلفزيوني

[3] هذه هي ليست محكمة بالمعنى المعروف، و إنما هي محكمة الكفالة التي على ضوئها يتم إخراج السجناء من السجن بكفالة إلى حين موعد المرافعات، و الحاكم هنا لا يسمى قاضياً و إنما يسمى (Magistrate)

مكان الصحفيين كان غاصّاً بالحاضرين، و كانوا قد جاؤوا معهم بالرسامين لأنّ أعراف القضاء تمنع التصوير داخل قاعة المحكمة كما أشرت، لذلك فهم يعوضون ذلك بالرسوم التشكيلية،[1] جلست انتظر حضور الحاكم......

قرار الإفراج يعود إلى الكثير من العوامل أو الشروط بعضها شخصي و بعضها قانوني و بعضها الآخر غير معروف، كنت يائساً في قبول المحكمة أمر إطلاق سراحي، لأنني كنت أعلم إننا لازلنا في البداية، و إن المواجهة يجب أن تكون أشد من ذلك، و كانت مشاعري و تجربتي في العراق و في أدبيات السجون تقول لي أن عملية المواجهة مع الباطل يجب أن تبدأ من هذه النقطة،[2]

---

[1] كنت في المحكمة قد أعطيت لي ملابسي التي اعتقلت فيها قميص و بنطلون و رباط كلها بلون قهوائي فاتح و كانت بقع الدم ظاهرة عليها من مكان الرسغ و من الركبة و شيئ من أعلى القميص، و قد ثنيت الأكمام لكي لا تظهر تلك البقع، و كان من المفترض أن اشتري و أنا داخل السجن ثياباً جديدة للحضور إلى المحكمة، و لكنني لم أكن أعلم أن ملابسي بهذه الصورة السيئة

[2] مع أننا ندافع عن حقنا أمام هذا القضاء ضد عدو شرس متمرس، مَلَك كل وسائل التضليل لإظهار الصورة السوداء لشخصياتنا في سبيل إقناع القضاء بأن السجن هو المكان الذي يجب علينا البقاء فيه ضمن مخطط الحرب المتواصلة ضدنا و ضد المبادئ التي دخلنا السجن من أجلها، فلئن فكروا في أن تكون ساحة المعركة في هذا الجانب (جانب النفع) كما هو طريق فوزهم في المعركة، فإنني لا بد و أن أنقل ساحة المعركة إلى المنطقة التي يعجزون فيها على المواجهة، بسبب عدم قدرته في تثبيت أقدامهم في ارض طينية متحركة، و كان ذلك من خلال قدرتي على إظهار الأمر ليس بصورة السياقات القانونية الإجرامية التي يرمون إلى إظهارها، و إنما بالصورة السياسية التي نريدها نحن في إطار المبادئ، و إطار صراع الأفكار التي و إن بدأت في العراق لكنها سوف لن تنتهي هنا في أمريكا. هذه المحكمة هي محكمة قضية شعب، إنها قضية سياسية واضحة المعالم سهلة الفهم، تقول للعالم بأن هنالك شعباً ينتهك يومياً، و هنالك حرمات تنتهك و هنالك تعدّيات على حقوق الفرد العراقي، إننا اليوم هنا لم تكن دوافعنا إلاّ لنقل صوت هذا الشعب المظلوم... لقد أعطتني حرية هذا البلد أن أطلق لساني و قلمي لأقول للعالم ماذا يجري في بلدي، البلد الذي تعاون الكل على قتل روح الإباء، والصبر فيه.... كنت أعيش هذا التصور و هذا الشعور، فالرأي بالنسبة لي واضح و تقديمه إلى الآخرين لا غبار عليه، و لكن المسألة كيف سأنقل ذلك لهم و هم يعيشون صباحاً و مساءاً بدوامة الإعلام الأمريكي المركز الضخم المؤثر على عقول الناس و الذي يأتيهم من كل من جهات حياتهم....؟ فهذه المؤسسات الهائلة التي يتعطل العقل عندما يتطلعها و يلحظ قدراتها... كيف لنا نحن الموتورون أن نتمكن من أن نجعلهم يتطلعوا إلى قضايانا و مآسينا، و يتفاعلوا معها و يقدمونها بالشكل الذي يجب أن تكون....؟ إن المشكلة ليست حقاً و باطلاً، صحيح إن للحق و للباطل مساحات، و لكن هل الحق هو ما يقدم من خلال وسائل الإعلام الأمريكية، و الباطل يحجب عنها..... ؟ بالتأكيد كلا، فالصحافة في أمريكا عبارة عن حكومة قوية، و قوية جداَ و لكنها ليست هنالك من رئاسة أو قيادة توجهها كما هو شأن حكومات العالم التي يرأسها رئيس وزراء أو ملك أو رئيس جمهورية، إنها مؤسسة تعمل من دون

صاحوا على اسم الأخ د. حسان فخرج الرجل واثقاً من نفسه، وقف أمام الحاكم و كانت القاضية إمرأة طويلة الشعر تلبس ثوب القضاة، وقف لها الجميع عندما دخلت القاعة، جلست ثم أشارت للآخرين بالجلوس، و عندما قام د. حسان قام معه الإخوة الآخرون، و قمت أنا أيضا، و وقفنا جميعاً في قفص الاتهام، و الواقع لم يكن هنالك قفص و إنما طاولة وقف في منتصفها المدعي العام و كان اسمه (Neil Karandabel) شاب أبيض يهودي ذو شارب أصفر يبدو على وجهه الحقد و البغضاء، و هو شأن معظم الذين يعملون في مهنة الادعاء (Prosecutor) فوظيفتهم هي توجيه الاتهامات للآخرين و تشجيع الحكام على إنزال العقوبة بالمتهم.

قام محامي د. حسان فوقف إلى جانبه ثم قال: إنني لست محامي السيد شبر، فأشارت لي القاضية أن أرجع إلى حيث أجلس في قفص الاتهام، ثم بدأت مرافعة جلسة تحديد الإفراج عن د. حسان و الإخوة على ضوء متطلبات الكفالة، لم يتحدث المدعي شيئاً يذكر، لم يقل أكثر من أن البوليس اعتقله في كذا يوم بتهمة كذا، بعدها تكلم المحامي و قال: إنني فوجئت بالأمر و عليّ أن

ضوابط و بدون حدود، و لكنها منظمة بشكل تكاد تدار كلاً من قبل شخص واحد، و الذي يحدد و يضع قوانينها... ذلك هو الرجل العادي رجل الشارع، إمرأة البيت، الطالب، المتسكع ... الخ، فإذا اتفق أن هؤلاء ذوي المستويات المختلفة تعلقوا أو أحبوا جانباً من جوانب الإعلام أصبح ذلك الشيء قانوناً تلتزم به المؤسسة الإعلامية التي هدفها الأصلي و الرئيس هو ليس الخبر و إنما هو المال، فالخبر طريق للحصول على المال، و ليس العكس، فإذا كان الخبر مهماً بالدرجة التي يرغب في سماعه الإنسان العادي، فإن ذلك يعني أن هذا الرجل بالذات يسمح لنفسه بمشاهدة هذه القناة، و قضاء أكبر فرصة أمامها عندما يذهب إلى بيته، فعندما تتحقق هذه النقطة في عقل المشاهد هنا تتقاطر على تلك المحطة الإعلامية بالذات طلب نشر الدعايات خلال الثواني المعدودة التي تتملك هذا البرنامج أو ذاك، و يكون سعرها سعراً خيالياً، من ذلك المنتج سيدخل مباشرة إلى عقل المشاهد كما يدخل الخبر عقله، و لكن نحن في الواقع أصحاب قضية و أصحاب مأساة، و الشعب الأمريكي لا يحب أن يزعج يومه بالمأساة لأنها تفسدعليه راحته بعد يوم طويل من العمل، مع أن هذا الشعب -الأمريكي- فريد من نوعه في التفاعل الوجداني مع الإنسان، فهو يحمل بذور عميقة في التعامل الإنساني بعضهم مع البعض الآخر، و يفتخر فيه بأنه يمتلك قدرات أخلاقية عالية تتجاوز حدود الذات، إنه شعب حي بكل معنى الكلمة، مع أننا ننظر إليه دائماً بالمنظار الذي تعكسه الأفلام و قصص الإثارة التي يقدمها الآخرون من أجل الكسب المالي، أقول كل ذلك و أنا جالس في قاعة المحكمة أنتظر دوري في المرافعة مع اهتمامي بالجو الإعلامي الذي يجب أن أقدمه، لكي نفتح في عقول الأمريكان سؤالاً يسألون به أنفسهم حتى و لو للحظةٍ واحدة ذلك السؤال هو: ما الذي دفع هؤلاء الفتية طالب الدكتوراه و الطبيب الكبير الناجح و الشباب الذين معهم في أن يدخلوا في مشاكل قانونية مع المحاكم في قضية تتحدث عن بلد يبعد آلاف الأميال عنهم و هم يعيشون هنا في كل راحة و طمأنينة و حرية.....؟

اطّلع على الأوراق و احتاج إلى وقت، و د. حسان رجل معروف يجب إطلاق سراحه لكي يعود إلى عيادته، فهو طبيب و له مراجعوه و لا يمكن تركه في السجن، سألت القاضية: عن ما يطلبه المدعي من كفالة ......؟ أجاب نصف مليون دولار كفالة على ثقته هو، و ذلك بسبب وضعه الوظيفي و التي ليس بالضرورة أن تكون الكفالة سيولة مالية، وقّع د. حسان أوراق الكفالة ثم جلسوا في القاعة مع الناس لحين موعد محاكمتي.

محكمة الإفراج: نودي عليّ باسمي فقمت من كرسيي متوجهاً إلى حيث يقف المدعي (كاراندبيل)، فوقفت إلى يمينه ثم جاء المحامي الجديد الذي أراه لأول مرة (مايكل سالنك) فوقف إلى يساري بيني و بين المدعي العام، ثم وقف على يسار المدعي خمسة رجال احدهم العقيد الذي قام باستجوابي في اليوم الأول لاعتقالي، أما بقية الرجال فلا أعرفهم و لا أعرف دورهم و من يكونون....؟

وقف الجميع صفاً إلى صف إستعداداً للقتال و المواجهة، فكأن الأمر هو أمري، و أنا الذي يجب أن تكون تجاهه المعركة، و أن ما كان يجري هو العرض البدائي ما قبل المعركة الأخيرة....

بدأ المدعي العام يروي تفاصيل العملية منذ أن بدأت المخابرات بمراقبتنا و إلى ما قبل الاعتقال، و بدأ يتكلم بكلام يغلف الحق بالباطل، و الباطل بالحق، إن كان هنالك حق، محاولاً في حديثه أن يغيّر أصول القضية و ثنيها عن واقعها الذي تمت من أجله.

كان وصفه دراميأً أسطورياً حيث حاول هذا المدعي أن يحول القضية إلى قصة عالمية إذا سمعها أحد فانه سيعتقد بأن الولايات المتحدة الأمريكية ستنهار و ستنمحي من الخارطة بسبب تآمرنا عليها و تخطيطنا لتدميرها، ثم أن المدعي طلب من العقيد أن يتكلم باعتباره شاهد على التحقيق فبدأ العقيد بكل هدوء يتكلم عني و عن شخصيتي و عن عائلتي و عن مواجهتي مع النظام الصدامي، و عن إصدار حكم الإعدام بحقي في العراق، و كذلك حجز أموالي المنقولة و غير المنقولة بسبب هروبي من العراق و لجوئي إلى أمريكا.

ثم عن قدرات خارقة أملكها أنا شخصياً في هروبي من العراق و في دخولي ثانية إلى العراق، و في القيام بعمليات(تخريبية) في الداخل إضافة إلى معلومات جاء بها هذا الرجل كلها من السفارة العراقية، أما المعلومات التي كتبها أثناء التحقيق فلم يذكرها أبداً، و لم يتحدث بها، و لم يخبر القاضية بأن لديه معلومات تحقيقية، ثم تحدث عن أنني كنت أنوي اغتيال الرئيس العراقي

صدام حسين و هو بالنسبة لنا رجل رئيس دولة معترف بها في الأمم المتحدة، و هو يقاتل الآن في حربه الضروس ضد التطرف الخميني الإيراني الذي يريد أن يبتلع العراق و يبتلع منابع النفط في الخليج، و ما إلى ذلك من ترهات سخيفة ما أنزل الله بها من سلطان.

كنت هادئ البال متماسك الأعصاب قوي الشكيمة، و كنت أحدث نفسي و أقول الحمد لله الذي جعل أعداءنا من الحمقى، إن هذا الأحمق الذي يلقب بالعقيد كان عليه أن يكون أكثر عقلانية و أكثر واقعية و احتراماً للرتبة التي يحملها، فالإنسان الواثق من قضيته و من أفكاره فان الكذب سوف لا يكون له سبيلاً لتحقيق أغراضه.

الفريق بكامله كانوا متوترين، و كانوا متشنجين للعملية، و كانت أعمالهم تعوزها الدقة و التصرف الحسن، فقلت في نفسي: إن كان هذا هو مجرى التحقيق و ما تحمله المخابرات الأمريكية عني فإنني أعتقد بأن القضاء سيأخذ طريقه بالاتجاه الصحيح الذي يخدم القضية لصالحي.

و استمر الرجل بأكاذيب صداميّة واضحة مثل اعتقالي في العراق، و هروبي من السجن ثم قتل أحد رجال الأمن في العراق، ثم الهجوم على أحدى الوزارات العراقية، ثم خداع المحققين العراقيين في الاعتقال الثاني بهوية و شخصية مزوّرة مما حدى بهم إلى الإفراج عني.... و غيرها من الأساطير التي لا تراها إلاّ في قصص ألف ليلة و ليلة، أو في روايات "أجاثا كريستي" و "بوتر".
و قد كنت ابتسم أثناء حديثه بل وصلت الحالة بي إلى الاستمرار في الضحك و الاستهزاء به بشكل مما استدعى القاضية إلى إيقاف مجريات المرافعة و الطلب من المحامي أن يطلب مني التوقف عن الاستهزاء بما يقوله المحقق، كما طلبت القاضية أيضاً من المدعي العام في أن يكون شهوده ذوي معلومات مركزة، و كان هذا العقيد كما ذكرت في معرض وصفي لشخصيته خجولاً هادئاً مما دعاه بعد توبيخ القاضية للمدعي العام إلى أن يحمر وجهه خجلاً، انتهى هذا الرجل من شهادته بعد أن تكلم بكلام لا يتفق مع المنطق العقلي أو التوثيقي.

بعدها بدأ الرجل الثاني من الشهود و من أعضاء المخابرات الأمريكية بالإدلاء بشهادته و كان طويل القامة أصلع الشعر له أخاديد على وجهه، في البداية لم أعرفه، و لكنني بدأت أتفحصه جيداً بعدما بدأ يتكلم، فتذكرته و هو

نفس الرجل الذي أوقفني قبل أن أصعد إلى الطائرة المتجهة إلى فلوريدا من "نيو اورليانز" و هو يسألني عن اسمي و عن وجهة سفري و البطاقة التي معي.

بدأ حديث الرجل قائلاً: إنني أتابع هذا الرجل السيد شبر مشيراً إليّ منذ فترة طويلة، أعرفه في الجامعة، و أعرفه في البيت، و أعرفه في الاجتماعات العامة و هو رجل مراوغ و له قدرة على إظهار نفسه بصورة غير الصورة الطبيعية، و هو دائم الغش و الخداع لإخفاء شخصيته، فمثلاً إنه قد استعمل بطاقة طائرة ليست باسمه قادماً من "نيو أورليانز" إلى فلوريدا، ثم قال: إننا لا نعرف من أين حصل عليها، و عندما فتشنا عن صاحب البطاقة الأصلي لم نعثر عليه و لم نصل إليه، و قال مضيفاً: كما إنه يستعمل هويات مزورة كثيرة و هذه هي النماذج. ...[1]

و من جملة الأشياء التي قالها هذا الرجل هو أنه عندما كان يتابعني خلال السنوات الثلاث الماضية غبت عن أمريكا شهراً و نصف الشهر بدون معرفته أين كنت، و في أي منطقة من العالم (و هي فترة دخولي إلى العراق) و قال أن السلطات حاولت و بكل وسائلها رصد مكان وجودي و لكنها لم تصل إلى نتيجة، و ذكر أن المخابرات قد طلبت من السلطات المخابراتية الصديقة (لم يذكر اسمها) متابعة ما بعد دخوله إلى سوريا و اختفاء أثره هنالك، و لكننا تأكدنا بعدها إنه ليس في سوريا و لا في لبنان و ليس في إسرائيل بالتأكيد و لم يكن أمامنا إلاّ الاعتقاد بأنه في العراق، ثم أشار بما هو مشكوك فيه بأنه يعتقد -و كرر- أعتقد بأنني ربما قمت بتنفيذ عملية عسكرية في إحدى المناطق في العالم و ربما العراق بالذات لأنّ المقاومة الآن بدأت تنشط في الداخل ضد نظام صدام حسين و قال: أنه يرى بأن السيد شبر إن لم يكن له صلة مباشرة بالعلميات داخل العراق فانه بالتأكيد له صلة بصورة غير مباشرة بها.... و هكذا بدأ الرجل يتحدث و الجميع مبهور لما يقوله من الصحفيين و من المراسلين و بقية من كان في القاعة[2]

---

[1] و قد أخرج هويات (Credit Cards) تستعمل عندما تزود سيارتك من محطة البنزين بدلاً من أن تدفع أموالاً نقدية و هي تعيد دفع ما تراكم من إستعمالات في نهاية كل شهر، و إذا لم تدفع فإن البطاقة سيتوقف إستعمالها، أو أنهم يراكمون فوائد على الدين، و فعلاً كان عندي هوية لأحد الإخوة استعرتها منه بسبب العوز الذي كنت أعيشه في تسيير أمور حياتي، كما أن زوجتي قد تركت بطاقتها في محفظتي

[2] لأنها معلومات فيها أكثر من سبب لإثارة الواقع الأمريكي الصحفي و المخابراتي، بل هو مادة دسمة جداً للصحافة و لوسائل الإعلام بسبب الوضع المتوتر في الشرق الأوسط و في

في ذات الوقت فان المعلومات التي يدليها الآن في قاعة المحكمة تدحض ادعاءات المخابرات الأمريكية و تؤكد بأن القضية التي نحاكم الآن من أجلها هي قضية سياسية و ليست قضية إجرامية أو تآمرية على أمن أمريكا، و أن السياسي في عرف القانون الأمريكي يجب أن لا يدخل صالات المحاكم و لا مداولات القضاء، لأنّ السياسي هو شخصية رأي، و الرأي في عرف الديمقراطية لا يحاكم، لأنّ الرأي من حق كل إنسان سواء كان هذا الرأي رأياً دينياً أم سياسياً أم فكرياً[1] أما الصحفيون فقد طارت أعينهم من هول ما سمعوا من أقوال تعتبر مادة دسمة للصحافة و الإعلام، فبدأوا يكتبون كل حرف قاله ذلك الرجل، كما بدأ الرسامون الذين ربما يزيد عددهم عن 20 رساماً معظمهم من كبار السن يتفنن في رسم صوري و في كل الأوضاع، بينما كانت القاضية منتبهة بهدوء لما يقوله الرجل و من دون أن يظهر عليها أي أثر لا سلباً و لا إيجاباً.

<u>رد الفعل غير المحسوب:</u> لم أتمكن من السكوت أكثر من هذا، أدرت له وجهي و بدأت أتحدث إليه مباشرة و من دون أن تسمح لي المحكمة في ذلك، أو أن تعطيني القاضية حق الرد....قلت له بعد أن التفتّ إلى القاضية و اعتذرت منها و طلبت منها، السماح لحديثي في الوقت الذي لم تقل لي أي شيء، بل سكتت عن طلبي، قلت له: يا أيها السيد ادعاءاتك باطلة كلها، و لا يليق بك باعتبارك رجلاً تمثل أحد أهم الأجهزة في الولايات المتحدة التي ترعى أمن المواطن، أن تقدم على هذه الأكاذيب و الافتراءات، عندها

المنطقة، و خصوصاً أن الحرب العراقية الإيرانية وصلت إلى آفاق معقدة جداً، و أن الولايات المتحدة الأمريكية لم تتمكن من إيقاف مسيرة الحرب، مع أنها رمت بثقلها إلى جانب النظام العراقي، و لكن مسيرة الحرب لم تتغير، و لازالت القوة و العلو بيد القوات الإيرانية، إذ تحولت القوات العراقية إلى مدافع بعد أن كانوا هم المهاجمين

[1] أما من الجانب الآخر جانب المخابرات فإنهم ليسوا بتلك الدرجة من الغباء بحيث أنهم يفرطون بقضية مهمة من قضايا الصراع المخابراتي و القانوني، و لكن الجواب عن ذلك هو أن المحكمة هذه هي محكمة خاصة بكفالة إطلاق سراح و ليس لتفاصيل الموضوع أو حيثيات القضية و تفاصيلها من دور في هذا الوقت، و هم يعلمون بذلك و لكنني أنذاك لا أعلم بهذا، و لا أعلم ما دور هذه المحكمة و ما دور محكمة الاستماع و ما دور هيئة المحلفين، و هذا معناه بأن المعلومات التي يقولها أي من الأطراف المتنازعة ليس لها قيمة في المحكمة الرئيسة إلاّ إذا كانت موثقة. و قد يتم توثيقها فيما بعد إذا أراد الطرفان أن تقدم آنذاك، و إنما الغرض الرئيس من كل تلك المعلومات هو إظهاري بمظهر الشخصية الكاذبة المتلونة التي تملك صفات إجرامية و صفات غير قانونية، فإذا تمكنت المخابرات من ذلك. فهذا معناه أن القاضية سوف لا تقتنع بإطلاق سراحي، و هو معناه إنني سأبقى فترة أطول في السجن حيث سيكون عنصر ضغط عليّ في الانهيار و الضعف و هو ما تريده المخابرات من ذلك

امتلأت القاعة بالضجيج ما بين معارض و بين من هو موافق على أقوالي، فهجومي كان لاذعاً إلى الدرجة التي لم تألفها سياقات المحاكم، ثم واصلت قائلاً: فأولاً أنت الآن تجرح مشاعري و تجرح معتقداتي، و قد آن الأوان في أن أقول كلمتي أمام سلطة القضاء و بكل حرية.

أما ما قلت بشأن هذه البطاقات التي نستعملها لشراء البنزين فإنني استعملها لأنني سرقتها أو أنني أراكم الأموال بها، ثم لا أدفعها، و كان عليك يا سيد فلان أن تتحقق من الحساب الذي يعود لهذه البطاقات ستجد أنه صفر، و لا يمكن لإنسان أن يسرق بطاقة و يدفع حسابها في نهاية الشهر.

بدأت أتحدى بعصبية و يداي تتقاذفان يمنة و يسرة بين الفينة و الأخرى، اقترب من الرجل فيدفعني المحامي الذي وجدت أن وجهه قد صار قطعة محمّره و العرق يتسايل من وجهه كأنه قد دخل في حمام تركي، بينما كان المدعي كاراندبيل يقف و هو لا يلوي على شيء، يريد أن يرى نتيجة المعركة الحامية ما بين شخص غير ذي خبرة في المحاكم و بين المخابرات الأمريكية.

لم تكترث القاضية كثيراً، بل قالت لي: يا سيد شبر إصبر و انتظر فإننا الآن لسنا في مجال محاكمة، و إنما هي جلسة لتقرير أحقيتك في الحصول على كفالة لخروجك من السجن، قلت لها: يا أيتها السيدة صحيح ما تقولين، و لكن ما سمعته الآن يمس كرامتي و مبادئي أكثر من أن يمس ما نحن عليه في المحكمة الآن،و هذا الرجل بدأ يتحدث بلغة الحقد و لغة التهجم و هو ما يجب على المحكمة الموقرة أن لا تسمح له، فنحن قوم لنا كرامتنا و أخلاقنا و آدابنا و هو الآن يتعرض إلى أكثر الأمور حساسية في مجتمعاتنا تلك هي سمعتي و إظهاري بمظهر الإرهابي و أنا لا أسمح له أن يقترب من هذا الجانب، ثم أضفت: فهؤلاء، و أشرت إلى المدعي و الشخصين الآخرين ما هم إلاّ أُجرآء للحصول على المال من الحكومة. و هما لا يعرفان ما القيم و ما الأخلاق.

تعقدت الأمور و تحولت من مواجهة قضائية إلى مواجهة شخصية أو مبدئية إن شئت أن تسميها، و كانت القاعة مكتظة بالناس لا أعرف من أين جاؤوا..؟ و من هم..؟ و لماذا هم هنا..؟ و لا أدري هل هم معي أم عليّ أم على

الحياد....؟ ساد السكون القاعة و تعقدت الأمور، و صار أمام القاضية أن تحسم الموقف[1]

سحبني المحامي إلى الجانب ثم أوقف الهجوم، و الهجوم المتبادل و قال للقاضية: يا أيتها السيدة إنني الآن عُينت تواً للدفاع عن السيد شبر، و أريد الوقت الكافي لدراسة الأمر، و لذلك فانأ أعتذر أن تحولت قاعة المحكمة إلى مواجهة ما بين الخصمين.... كان يتكلم المحامي و قد جحظت عيناه من هول المواجهة.

صاحت القاضية لنأخذ فترة قصيرة من الراحة حتى نعود إلى القاعة بعد ربع ساعة، قام الجميع إحتراماً للقاضية، فدخلت غرفتها ثم توجهت أنا إلى هؤلاء الزمرة، و قلت لهم بكل أدب أمام المحامي: يا أيها الضباط أسألكم بعوائلكم و أولادكم و آبائكم، هل ما تقولونه تؤمنون به أنتم.... ؟ إنكم تظلمون أنفسكم و تظلمون عدالتكم، أنكم تعرفونني حق المعرفة، و تعرفون أهداف ما أنا قد قدمت عليه.

قال أحدهم: هذا هو واجبنا و علينا أن نؤديه.

أخذني المحامي إلى جانب و رجاني أن أكون حذراً في التصريحات، فإنهم قد يستعملون كل كلمة قلتها ضدي و سوف تتعقّد المحكمة عندئذ، لم أجبه.

لم يكن المحامي يعرف أن القضية التي يرافع عنها الآن ليست بالأساس قضية جنائية، و إنما قضية سياسية، و إننا يجب أن نثير حول هذا الموضوع غباراً، لكي يراه الجميع و ينتقل عن طريق الصحافة.

بدأت أفكر بما عندهم من وثائق ضدي بعدما عرفت أنهم دخلوا بيتي و أخذوا كل ما هو ممكن أن يستعمل ضدي، لذلك فيجب عليّ أن أكون حذراً في الكلام، و أن لا أبادر إلى التصريح، بل يجب أن أكون دائماً في موضع الدفاع بعدما أستمع لما يقولونه من مفردات الهجوم.

قال لي المحامي أن الجانب الثاني أي هيئة الادعاء يعيش حالة من الانفعال و التشنج و يبدو بأن هنالك ضغوط عليه إما من وزارة الخارجية أو من جهات أخرى لا يعرفها، ثم أضاف: لذلك فإن الانفعال الذي يعيشه هؤلاء سوف نكتشفه في المحكمة و عندئذٍ تسقط مصداقيتهم، لم أجبه و لم أعلق.

---

[1] في الوقت الذي كنت جاداً في حديثي هذا، و بشكل لا أدري ما سبب كل ذلك الإصرار على المواجهة، مع أنني الآن و في هذا الوقت أفكر بالأمر فأجد نفسي بأنني لست من هذا النوع الذي يهتم كثيراً لما يقوله الآخرون حولي، خصوصاً المخابرات و بالذات الأمريكية

ثم قال: إنه لا يعتقد أن هنالك أملاً في الإفراج عني اليوم. قلت أعلم...

عادت المرأة القاضية فوقفنا جميعاً ثم أشارت لنا بالجلوس، و بدأت المحكمة مرة ثانية، غادر أحد المساعدين الخمسة الذي جاؤوا إلى هنا لمنع القضاء من إصدار حُكم بقبول الكفالة لإطلاق سراحي.

بادر ذلك الرجل من هيئة الادعاء قائلاً: أيتها السيدة، إن الولايات المتحدة تعيش حالة من حالات الهجوم عليها من أعداء شتى و من أطراف متعددة، و أمامنا الآن مشكلة التطرف الإسلامي الذي جاء به الخميني إلى إيران، الذي يصدّر ذلك الإرهاب إلى الغرب، و هو ما يدعونا إلى محاربته و القضاء عليه، ثم قدم الرجل وثائق ضخمة موضحاً أعداد الهجمات الإرهابية في العالم ثم مدى خسارة الولايات المتحدة من جراء هذا النوع من الهجوم، ثم التأثير على استقرار الشعب بسبب الخوف الدائم.

ثاني أخطر رجل في الارض: ثم قال أن السيد شبر الواقف أمامكم إذا أردنا أن نصنفه بالخطورة، فإننا نصنفه من الدرجة الثانية من الأشخاص الذين يخشى جانبهم. قلت الحمد لله لست الأول، ثم رفعت صوتي تجاهه و قلت له: إذن من هو الأول.....؟ لأنني لا أقبل أن أكون من الدرجة الثانية، ضحك الجميع و خصوصاً الصحفيين، كذلك المحامي الذي كان يقف إلى جانبي، ثم قال هذا الرجل: إننا عرفنا السيد شبر من خلال نشاطه السياسي المكثف في الكثير من الولايات الأمريكية، و قد دخلت مجموعته التي يحتل هو فيها صفة القائد معارك ضارية بالأيدي و العصي، و بعض الأحيان بالسكاكين مع المعارضين الآخرين لهم من مؤيدي نظام العراق.
و قد اشهد أنني شاهدت السيد شبر في إحدى الولايات و هو يوجه أنصاره إلى الهجوم على مؤيدي النظام العراقي في إحدى الاجتماعات في الجامعة، و قال: بأن المجموعة المؤتمرة كانت تطيعه و لا تتردد في الدخول بالمعركة و بدون حساب النتائج..... ثم توصل هذا العبقري بأنني رجل خطر على النظام الأمريكي لأنني أتمكن أن أدعو أنصاري إلى تنفيذ عمليات مركزة ضد الشعب الأمريكي، و لذلك فإن الإفراج عني سيكون خطراً على المجتمع الأمريكي، و عليه يجب أن أبقى في السجن.

سألت المحامي إذا كان القضاء يسمح لي بالرد على هذا الرخيص، قال لي: نعم و لكن بتركيز و بدون انفعال.
أشرت للقاضية بأنني أريد التكلم فأشارت له بالسكوت ثم أشارت لي بأن أبدأ.

قلت لهم: يا أيها الأصدقاء (My folks) انتم حقاً تجهلونني، و لا تعرفونني، و الجهل هو من أكبر أعداء الإنسان، إنني إنسان ملتزم، أعني ملتزم لا أدخن و لا أشرب و لا أذهب للبارات، و لم أذق حتى البيرة في حياتي، أصلي خمس مرات باليوم، استقطع نفقة من أموالي للفقراء، أعظ الآخرين من الشعب الأمريكي أن يفارقوا الجريمة، و لا يقتربوا من الموبقات، و أن يواصلوا ذهابهم إلى أماكن العبادة من الكنائس وغيرها، و في نفس الوقت أقدم المواعظ لأفراد الشعب في التمسك بالله و إطاعة حكوماتهم و عدم العصيان ضدهم، كما أنني صاحب عائلة عشت في بلدكم في شظف من العيش بعيداً عن السرقة و عن الاحتيال.
جئت من بلد سُلبت فيه مبادئي، و انتُزعت حريتي، و قُتل أهلي، و تيتمت عشيرتي، جئت هنا لأتنفس الحرية، و أعيش الوطنية، هل تعلمون يا أصدقائي أنني مرتبط بهذه الأرض التي منحتني حرية التعبير عن رأيي بالقدر أو أكثر مما انتم متمسكون بها ...؟ إنها ليست بلدكم فقط، إن الحضارة التي أنتم تعيشون في كنفها هي ملك للإنسان، و لذلك فأنا أهتم بالمحافظة على هذه الحضارة، كما تحافظ أنت عليها.
وصلت إلى هذه النقطة طأطأ الجميع رؤوسهم و بدأ كل منهم ينظر في وجه صاحبه، بينما أدرت رأسي إلى الصحفيين إلى يميني و أنا أقول لهم انتم يا رُسل نقل الحقيقة إلى الناس ابحثوا عن تاريخي في أمريكا لمدة تزيد عن أربع سنوات. حاولوا أن تجدوا أن هنالك مخالفة للقانون في سلوكي، بل حتى مخالفة المرور بل تأكدوا أنني قد أثرت في الكثير من هذا الشعب على ترك المخدرات و التوجه إلى قيم العائلة.

تحمس الصحفيون بشكل غير معتاد و بدأوا يتهامسون فيما بينهم، قاطعتهم القاضية و أمرتهم بالهدوء، ثم عدت إلى هؤلاء الخمسة بعد أن أدرت وجهي لهم و قلت: أتعرف يا حضرة الضابط ما هو معدلي في الجامعة....؟ أجب! صحت به، ثم قلت له 3.4 هل عرفت ذلك.....؟ و شخص يعيش لإرهاب الناس و سرقة الآخرين و الاحتيال من المستحيل أن يحصل على هذا المعدل في إحدى أصعب خمسة جامعات في الولايات المتحدة، عرفت يا سيد فلان....؟ ثم التفت إلى القاضية فوجدتها و على شفتيها ابتسامة هادئة.

ثم نطقت برأيها قائلة إنني أقبل الكفالة، في الوقت الذي كان رجال المباحث يحاولون الحصول على قرار الرفض أصلاً بدلاً من الحصول على إمكانية الإفراج، و البقاء في السجن إلى حين أيام المحكمة و هو وقت طويل جداً يحاولون من خلاله ممارسة الضغط للقبول بشروطهم.

صعق المدعي العام، و صعق أزلامه و بدت عليهم الخيبة و صاروا ينسلون من الجلسة الواحد تلو الآخر.

قالت الآن لنعرف كيف نحدد كفالته سألت: ما هي قدر الكفالة التي تطلبها الحكومة...؟ أجاب المدعي إننا نطلب مليونين دولار نقداً باليد.[1]
ثم سألتني إذا كنت سأوفر المبلغ ابتسمت و قلت: لا، فأمرت بإنهاء الجلسة و إعادتي إلى السجن.

---

[1] طبعاً في القضاء يحق للمدعي العام أن يضع ما يراه مناسباً تجاه المتهم إلاّ إذا نقضه القاضي، و كانت المخابرات تعتقد بأن ضخامة المبلغ الموضوع سيكون عنصر ضغط عليّ في الحصول على ما يريدون، سألتني القاضية عن طبيعة الإقامة التي أحملها أجبت إنني طالب، قالت إن الإقامة التي معك تشجع المدعي على طلب ما طلبه من ضخامة الكفالة.

②②

◖ الفصل الثاني و العشرون ◗

ألساحةُ المكشوفةُ و الإبتزّاز



دهاليز التفكير: خرجت من قاعة المحكمة و أنا متعب من شدة التفكير، و الضغوط النفسية، فجلست في غرفة بناية المحكمة و كانت مكتظة بالكثير من المتهمين الذين بدأوا يتقاطرون علينا شيئاً فشيئاً. و الذي يبدو انه المكان المركزي الذي يجتمع به المساجين، و من ثم يتم توزيعهم على سجونهم المنتشرة في أنحاء ميامي.
رجع البعض من المساجين بعد أن واجهوا أحكامهم، و كان أحدهم قد حُكم بــــ 15 سنة، فرأيته و هو يضحك و يتمازح مع زملائه و هو غير عابئ بما صدر ضده بهذه المدة الطويلة، و قد سأله أحدهم فيما إذا كان سيستأنف الحكم أجاب بالإيجاب.
و بعد مرور ساعتين جاؤوا إلينا و وضعوا السلاسل و الكلبجات في أيدينا و أرجلنا كما كنا عندما غادرنا مكان السجن ثم شدونا كل اثنين معاً، ثم نزلنا إلى الأسفل لركوب السيارة الخاصة بنقلنا، و كان يقف إلى جانبنا ثلاثة رجال ببنادق مسحوبة الأقسام خوفاً من هروب البعض مع استحالته في وضع السلاسل بأيدينا.

وصلنا السجن بحدود الساعة الخامسة و النصف عصراً وهنالك عندما دخلنا أجريت علينا نفس الإجراءات السابقة في نزع الملابس و التعري الكامل ثم التفتيش في كل المناطق المخفية من أجسامنا، وصلت العنبر و إذا بالمساجين الستة الآخرين و هم فرحون بقدومي، فوضعوا بعض الفواكه على الطاولة حتى أجلس و أتحدث معهم عن رحلة المحكمة.
بعد أن أفرج عن الإخوة الذين كانوا معي بكفالة مالية رمزية بقيت وحدي في السجن، مع أننا لم نكن في زنزانة واحدة، و لكن شعور الجمع مع الآخرين له وقعٌ على النفس.
جلست في غرفتي لكي أراجع ما تكلمته في المحكمة و ما دار الحديث حوله ثم أدوّن بعض الملاحظات كي لا ينساها الزمن من ذاكرتي، ثم اقترب موعد صلاة المغرب فقمت للوضوء فوجدت أن الشاب الأسود قد أخرج قطعة من الفراش من زنزانته و وضعها على الأرض استعداداً للصلاة، ذهبت إلى كل واحد من السجناء أحثهم على الاجتماع في صلاة الجماعة.
و هكذا دقت ساعة الدخول إلى الزنازين فدخلنا، و أوصدت الأبواب محدثة أصواتاً عظيمة و مرعبة.

استلقيت على الفراش مفكراً ماذا سيحدث غداً، و تساءلت عن أسباب إصرار رجال المخابرات على كفالة قدرها مليونا دولار وهو رقم ضخم جداً مقارنة بالقضية التي أثيرت ضدي، لأنّ قدر الكفالة تابعة إلى قيمة القضية، إنني

على علم بأن رجال المخابرات كانوا على علم بأنني حتى لو أطلقوا سراحي بدولار واحد فأنني لن أهرب، ثم أين أهرب.....؟ فجواز سفري منتهي المفعول، و لا يمكن لي عبور أي دولة من دول العالم. و أمريكا محاطة بالأطلسي من الشرق و الهادئ من الغرب و المكسيك من الجنوب و كندا من الشمال و كلا الدوليتين لهما اتفاقية تسليم المطلوبين إلى أمريكا.

كنت أعتقد أن المخابرات الأمريكية تعيش لحظات انتظار لتحقيق أهداف كثيرة. أولها: هو فيما إذا تدخلت دولة من الدول التي تعتقد أن حركتنا مرتبطة بها. و هي كما كانوا يعتقدون إنها إيران، فإذا تدخلت إيران فيها فمعناه أن عامل الربط متحقق و أن مجرى التحقيق سيكون بذلك الاتجاه، أما إذا قامت إحدى الدول الإسلامية في الشرق الأوسط بإصدار تهديد ضد المصالح الأمريكية فان إشارات الارتباط مع تلك الحركة سيكون مفتاحاً لهم للقضية، كذلك الحال كانت المخابرات الأمريكية تعتقد أن التجمع الموجود داخل أمريكا هو عبارة عن خلية نائمة قد يمكن لها أن تتحرك بإشارة من أحد الأطراف الدوليين، فإذا بقيت في السجن فإن الاتصالات و الجهود سوف تكشف هوية تلك الخلية، كذلك و في نفس الوقت كانت المخابرات تطمح في أن لا تدخل في المشكلة السياسية، تلك المشكلة هي أن أحوّل القضية برمتها إلى قضية سياسية و ليست قضية إجرامية. و عندئذٍ فإن القانون الجنائي الأمريكي لا ينطبق على مجرياتها.

فإذا تحولت القضية إلى قضية سياسية، فذلك يعني أنني أنا الذي سوف أحاكم السياسة الأمريكية في المحاكم و سأحاكم المواقف الأمريكية في مساندة صدام في قتل الآلاف خلال الحرب، و استعماله الأسلحة المحرمة دولياً ضد الشعب العراقي و ضد الإيرانيين و هكذا، و إن كان قرار الحكم لا يمكن له أن يتحول إلى عقوبة فعلية تطال القادة الأمريكان، و لكنه قضية دولية ستهتز أمريكا من جرائها أمام منظمات حقوق الإنسان و منظمات الأمم المتحدة و أمام الصحافة، وكذلك فان الإفراج عني في تلك اللحظة سيفتح أمامي المجال للتفكير في هذه المهمة التي كنت أفكر بها فعلاً في العمل عليها و تحقيقها.

لم أنم تلك الليلة و إنما بقيت أعيد حساباتي و أوراقي، فالقضية بدأت تزداد تعقيداً في أجواء ساخنة مملوءة بالتوقعات، في حالة بدأت تنتقل من مرحلة إلى مرحلة، و من وضع إلى وضع، فالمخابرات الآن تبدو في حالة جمع و ترتيب كل أوراق حياتي و كافة أوراق المخالفات التي عملتها سابقا، و سيحولون الوضع من الدائرة السياسة إلى الدائرة الإجرامية و سأتحول في

عرف القانون و أمام الجاليات الإسلامية إلى إنسان مجرم بدلاً من أن أكون إنساناً ناشطاً سياسياً أقاوم و أكافح في سبيل رفع الظلم عن بلادي و عن شعبي.

<u>**حقيبة السجن:**</u> في السجن يتحول الإنسان إلى شخصية أخرى، لأنّ شخصية الإنسان هي الأفكار، فإذا فكر بشيء كان أبن تلك الفكرة و متى ما تمكنت الفكرة من سلوك الإنسان فانه عندئذٍ سيكون تابعاً لما تفرضه عليه الأفكار، السجن له فلسفة و له سيكولوجية خاصة تنعكس بصور متباينة على اختلاف البشر، فهنالك الكثير من الناس تحولهم السجون إلى أبطال، و هناك من تحولهم السجون إلى أناس مشردين خاوين من فهم الحياة.

السجون الأمريكية في الحقيقة لم توضع أو تبنَ للانتقام من الناس، أو من المخالفين للقانون، و إنما الهدف الرئيس منها هو العدالة أولاً، ثم الإصلاح ثانية، فلم أجد هنالك من السجناء في السجون الأمريكية و هو يلعن مثلاً الحكومة أو السلطة التي وضعته في الزنزانة، معظم الذين التقيت بهم كانوا يرددون: هذا ما أنتجته أيديهم، لذلك فمن الأمور المهمة التي كانت السلطات الأمريكية تنظر إليها في موضوع اعتقالي هو الاعتداء أو القتل الذي أتعرض له من زملاء السجن بسبب الإعلام الذي كان يوحي للناس بأنني شخصية إرهابية، لذلك فمن أولى الأمور التي يجب على السجين أن يلتزم بها هي الابتعاد عن حديث أسباب دخوله السجن، أما في قضيتي فان التلفزيون قد عرض كل شيء عنا و صار المساجين يعرفوننا من صورنا التي قدمها التلفزيون.
و لكن الخطورة موجودة و بصورة ليست مأمونة من قبل الكثير من نزلاء السجون. و ربما بسبب الكراهية للعرب أو للمسلمين أو للون أو غيرها، أو بسبب القضية السياسية و ربط الموضوع بإيران، التي يرى الشعب الأمريكي أنها معتدية، و أن الإيرانيين يجب أن يعاقبوا، و لكنني تمكنت من تأمين هذا الجانب بإنشاء صداقة و مودة مع من حولي خصوصاً بعدما دخل قسم منهم الإسلام.

كان الهم الكبير الذي يقلقني في هذا الليل هو وضع زوجتي و التي قد يساومني هؤلاء المخابرات في التضييق عليها، و هي قضية صعبة بالنسبة لنا نحن الشرقيين أو المسلمين، فكنت أفكر لو أنهم طردوها من أمريكا أين تذهب هذه المرأة مع الطفلة الصغيرة، فليس لديها أي وثيقة سفر للمغادرة فلعلهم عندئذٍ يسلمونها إلى بلدها الأصلي العراق، لذلك فإنني قررت أن

أخبرها بأن تخفي نفسها عن العيون إذا هي لم يُلقَ القبض عليها، كما كنت قلقاً من أن يسمع أهلي في العراق بموضوع اعتقالي في أمريكا، فتصورهم سيكون متطرفاً تجاه فهم السجن و السجناء، فالأفلام الأمريكية التي تصل البلدان العربية تُظهر السجون الأمريكية على أنها ساحات للقتل و هي مملوءة بأولئك المجرمين من السود الذين تتملّكهم و تسيطر عليهم صفات القتل و الإجرام.

لم أنم الليلة حتى الثانية عشر بعد منتصف الليل عندما قمت مؤديا صلاتي خاشعاً لله و شاكراً له أن أقود هؤلاء المجرمين إلى مسلمين، و أن أكون من بنى أول لبنات الإسلام في هذه البقعة .
نمت على أمل أن يفتح الله لي في هذا السجن لأنتقل إلى محيط أوسع لتبليغ الرسالة، و على أمل أن يجعل الله لي خلاصاً من هذه التعقيدات القانونية.....
صار الصباح و استيقظت على صوت المنادي لتناول الطعام، بدأ المساجين بتناول أطعمتهم حسب التسلسل المعهود حتى إذا وصل الأمر إلى رقمي و هو الثالث و اقتربت من الحارس و إذا هو صاحبنا السجان الأسود فقدم لي الطعام في ما يشبه الصينية، و قال لي انظر ما بداخلها، أخذتها و أنا أعتقد إنه قال ذلك لوجود طعام خاص لي في المحتوى.

جلست لأتناول طعامي فوجدت بيضتين ثم قطعة من الكيك ثم وجدت على جانب قطعة الكيك نسخة من القران الكريم ذي حجم صغير، فرحت أشد الفرح بحصولي على نسخة من الكتاب الكريم فهو ربيع القلوب و أنيسها، و خصوصاً في هذه اللحظات، ترددت في البداية في قبول نسخة الكتاب الكريم خوفاً من أن يكون ذلك مصيدة، فتحت القران فوجدت ورقة صغيرة من هذا الرجل تقول الورقة ما معناه: الله سيساعدني إذا ساعدتك، فكرت في الأمر جيداً في قدرة هذا الرجل على القيام بعمل ما، هذا الرجل ربما يريد المساعدة و لكنه غير قادر على عملها، فالتعاطف معي قد يدفعه إلى الإقدام على عمل يذهب كلانا في طامة مزعجة، فما عساه أن يفعل ....؟ فحيطان السجن الخارجية عبارة عن أسلاك شائكة عرضها تقارب أربعة أمتار و علوها قد يصل إلى خمسة أمتار. و الحرس يحيطون بالمبنى من كل جانب و مكان، هذا بالإضافة إلى صعوبة الخروج من العنبر نفسه، فكيف لنا بالوصول إلى الخارج، و حتى لو وصلت إلى خارج السجن فكيف أعثر على طريق للهرب، و أن هربت فرضاً فأين أهرب...؟ هل إلى بيتي...؟ أم أهرب إلى ولاية أخرى....؟ أم أبقي في البيت سنين عدداً ....؟ أم ماذا...؟ أو ربما قد

يكون الهرب إلى الخارج خارج الولايات المتحدة و لكن أين....؟. إلى كندا أو المكسيك.
هذا هو طريق البر، أما طريق البحر فلا أمل فيه، فالوضع يكاد يكون مستحيلاً في أن أتمكن من الهرب، و حتى لو هربت هل أن ذلك سيخدم القضية التي من أجلها أعيش و من أجلها ضحيت و من أجلها قدمت...؟ و هكذا بدأ سيل الأسئلة يتراكم في ذهني، و تتزاحم الأفكار و تتصارع في وصولها إلى مركز القرار في العقل.

قلت في نفسي إنه ربما يعني بالمساعدة امراً آخر و موضوعاً لا علاقة له بالهرب و غيره و عليه فلماذا لا أسأله عن ذلك و استوضح منه الأمر.....؟ أخذت الورقة مزقتها و رميتها ثم أخذت القران الكريم و وضعته في جيبي و أنا في غاية الاعتزاز به و كأنني لأول مرة ألمس كتاب الله أو أراه، و قفت على الشباك أنتظر الرجل الأسود المسلم لأعرف منه ماذا كان ينوي في ورقته هذه. حاول الرجل الاقتراب من الشباك و كلما اقترب كان بقية السجناء يجتمعون حولنا للحديث معه و معي، و بعد محاولات عديدة تمكن الرجل من أن ينقل لي رأية بأنه على استعداد للمساعدة بكل أنواعها، سألته ماذا تقصد كل أنواع المساعدة....؟ أجاب كل ما استطيع عمله، قلت له: لقد عملت الكثير و أنا أشكرك على ذلك، قال لي هل هنالك في هذا السجن من اعترف عليك، و جاء بك إلى هذا المكان...؟ قلت لا، قال يمكن لي مساعدتك في هذا الجانب، لم أفهم ما يقوله، قلت له إنني سأطلب منك حاجتي متى ما وجدت ذلك.

②③

◖ الفصل الثالث والعشرون ◗

خاصرتا المساومة






<u>(صورتي كما تخيلها رسام الصحف)</u>

إستدراج ليس في محله: كان كل وقتي في هذا السجن مكثفاً. فالصباح نمارس الرياضة ثم الإستحمام وقتاً ليس بالقصير، ثم الصلوات و قراءة القرآن و الحديث مع السجناء، ثم التفكير ثم الخروج إلى الشمس و هكذا، و كنت أعيش وقتاً مملوءاً بالحيوية و النشاط. و ذلك لكي أستمر في مواصلة المواجهة، و كنت أعتقد بأنني أملك القدرة على تحويل أكثر السجناء إلى الإسلام، لأنّ إسمي هنا بدأ يأخذ دوره في صبري و ثقافتي و تديني و علاقتي من المودة و النصيحة للآخرين، و لو قُدّر لنا أن نلتقي بالبقية من نزلاء العنابر الأخرى لكانت صلاة الجماعة تستوعب عدداً كبيراً منهم.

و في أحد الأيام نودي على إسمي للحضور للمقابلة، سألت عن الجهة التي ستقابلني...؟ لم يخبروني، ذهبت برفقة رجل البوليس إلى غرفة المقابلة فجلست فوجدت هنالك رجلين لم أعرف من هما. اقتربا مني، ثم أخرجا هوياتهما وعرّفا أنفسهما بأنهما من المخابرات الأمريكية (FBI)، رحبت بهما ثم جلست معهم لأعرف ما يريدون...؟[1]

جلس هذان الشخصان من المخابرات و هما يحملان ملفاً ضخماً. وضعاه على الطاولة، ثم بدأ أحدهما بالكلام بالتعريف عن نفسه، و أنه جاء إلى هنا كمحاولة منه للتفاهم معي، و أنه بعدها سوف ينقل الصورة إلى المسئولين في

---

[1] غالباً في حالات انتزاع المعلومات من السجين تقوم الجهة المدعية و هي الحكومة الآن في قضيتي، أو المخابرات بعملية المساومة بشأن انتزاع المعلومات مقابل تخفيف الحكم في القضاء، و هذه عملية قد تطول لفترة قبل أن يذهب الشخص إلى المحكمة الفعلية، أي بمعنى آخر إن عملية المساومة تبدأ من حين ساعة الاعتقال و لحين التقديم إلى القضاء، أما إذا صدر الحكم فليس هنالك من مساحة للمساومة، و بما أن التعذيب في الولايات المتحدة للسجناء ممنوع، بل لا يمكن التفكير به أو الإشارة إليه، فإن انتزاع المعلومات يتخذ خطوة أخرى كمدخل أو طريق في حيز المساومة، فالكثير من الناس يعتقد أن التعذيب في السجون الأمريكية هو أحد أهم الأمور في انتزاع الاعتراف، و لكن الواقع عكس ذلك تماماً، فالنظام الأمريكي قائم على فكرة تنوع مصادر القرار، تلك الفكرة لا تجد للفائدة الشخصية فيها مجالاً للعمل، فمثلاً هنالك القضاء و القضاء مستقل عن الحكومة، و هنالك هيئة السجون و هي هيئة قد تكون أهلية أو حكومية و ليس من مصلحتها أن تقوم بتعذيب شخص لانتزاع إعتراف منه، كذلك الأشخاص الموظفون في هيئات التحقيق فهم يتصرفون كأفراد و ليس من مصلحتهم الذاتية أو المادية إخضاع الآخرين للتعذيب أو القسوة، كما أن منظمات حقوق الإنسان و الحقوق المدنية نشطة جداً، و لها دور كبير في التأثيرعلى مصادر القرار، فرجل الشرطة مثلاً لو حاول أن يتعدى صلاحيته في إهانة السجين أو ضربه أو غيرها فإنه يضع نفسه أمام مساءلة كبيرة أمام القضاء و أمام الحكومة و أمام الآخرين. و هو ما يؤثر بالأخيرعلى وضعه و وظيفته و هو الأمر الذي لا يرجوه الجميع

جهاز المخابرات، و أنه قد يمكن بمسعاه هذا أن يساعدني في التخلص من ورطة السجن.

ثم بدأ أولاً بالحديث عن الجانب القانوني لقضيتي التي ستكون عقوبتها كذا سنة في السجن، فطرح أولاً أمامي مواقف و مخالفات قديمة يعود عهدها إلى السنين الأولى من وجودي الولايات المتحدة، و هو ما أثار عجبي و التي كانت بضع مكالمات تلفونية بشكل ما قمت بإجرائها في شهر ديسمبر من سنة 1979 بطريق غير قانوني إلى العراق و لم أدفع بدلها، فقال لي: أن القانون الأمريكي و شركة التلفون إذا رفعت هذه المخالفة إلى القضاء فهنالك خمسة سنوات سجن، ثم قال:بأننا لو تابعنا التحريات فسيكون هنالك عشرات المكالمات التلفونية غيرالقانونية و التي سيكلفني كل منها كذا فترة سجن، كما أثاروا قضايا قديمة جداً، مثلاً تنازعت يوماً مع إحدى شركات تأجير السيارات (Hertz)[1]

رفعوا هذه القضايا أمامي و ظهر من خلال نتائجهم الأولى ضمن مادة الحكم التي من المتوقع أن تلحقني فيما لو رفعوا القضية إلى ستة سنوات سجن، و هكذا توالت القضايا يتلو بعضها بعضاً ليصل عدد سنين مدة الحكم إلى عشرين سنة أو يزيد.
استمعت إلى حديثه بأجمعه و سجلت نقاطه بشيء من الجديّة محاولاً أن أظهر برودة الأعصاب أمامه، مع أنني كنت في غاية الألم و الحرقة، فالموقف كما يقول أهل العراق (موقف جبان) لا رحمة فيه و لا رجولة، ففي ظرفي الحالي و مكاني فان قدرة الدفاع عن النفس قليلة، وجدوني شخصاً قد سقط سلاحه من يده لا يلوي على شيء في رد الاعتداء عليه في هذا المكان من السجن .

كان أمامي أن لا أترك الأمور تسير بالاتجاه الذي رسموه و وضعوه لي، و إنما يجب عليّأن أحوّل كل قدراتي في سبيل المطالبة بالحق و إبعاد التهم عن

---

[1] بسبب أن تلك الشركة أجّرت لي السيارة مع إضافة 250 ميل لكل يوم، و بعد إرجاع السيارة قالوا أن تلك الكمية من المسافة لا تشمل اليوم الواحد و إنما لجميع فترة التأجير و بعد مداولات لم أدفع لهم ما طلبوه و كانت قيمتها كما أتذكر 125 دولار، و يبدو أن تلك الشركة قد أقامت دعوى ضدي و هو إجراء روتيني تقوم به الشركة، و يقوم به أحد الموظفين ممن يتقاضى نسبة على أتعابه فيما لو تمكن من جمع الأموال، كذلك ذكروني بحادثة شجار حدثت بيني و بين أحد مخابرات صدام في مزرعة من المزارع عندما ضربت ذلك الصعلوك ضرباً مبرحاً لاعتدائه على الشخصيات الوطنية و الدينية، مما حدى بي أن أذيقه درساً قاسياً

نفسي، فهذا الشخص الذي جاء لمساومتي قد لا يعرف بصورة مفصلة أصل المشكلة، و إنما هو شخص مطّلع على ما قدمه إليه مكتب التحقيقات الفدرالي بشأن قضايا اختراق القانون، فهو غير مطلع على جوانب المسألة السياسية و الوطنية، أو دوافع القضية و عندئذٍ فإن التقريرالمستخلص من مقابلتي سيكون بالاتجاه القانوني الصارم الذي يظهرني بالصورة التي خططوها لي، تلك هي الصورة الإجرامية و ليس الصورة السياسية، وهو ما سوف يعقد القضية بصورة لا تخدم الإتجاه الذي نكافح من أجله، و عليه فإنني يجب أن أنزل إلى ساحة المعركة لأواجه قضية التجريم كما هي المواجهة أمام القضية السياسية.

سألت الرجل فيما إذا كان على اطلاع بأصل القضية...؟ فوجدته قليل التفهم لها، وعليه وجدت أنه لمن الضروري شرح بدايات القضية، و هكذا فعلت معه و شرحت له دوافع هذا العمل و كيف نعيش نحن العراقيين تحت نير نظام صدام، فشعرت بأنه بدأ يتفهم الموضوع و بدأ بالإصغاء من جانبي، ثم واصلت الطرح بصورة مأساوية بعيدة عن التعقيدات القانونية التي جاء من أجلها، و قد حاول هذا الرجل في البداية تجاهل التوجه الذي حاولت به ابتداء الموضوع، و هو التوجه الإنساني الوجداني، و لكنه فيما بعد بدأ بالإصغاء بصورة فضولية في تفهم الوضع العراقي، و كنت كلما استرسلت في الموضوع حاول الرجل معرفة العلاقة الإيرانية بالقضية العراقية محاولاً هو أن يفهمني بما يملكه من خلفيات يحملها تجاه إيران، و لكنني بسّطت له الموضوع قائلاً له: هل تعرف أن هنالك دولتين و هنالك شعبين و هنالك قوميتين لكل منهما وضعها الخاص، و حالتها الخاصة على شتى المستويات. مع التأكيد من قبلي على عمق الصلة و المشتركات الدينية التي تجمع الشعبين، ثم أوضحت له و بشكل مباشر محاولات الحكومة الأمريكية في اعتبار قضيتي على أنها تهديد للأمن الأمريكي إضافة إلى ربط مجريات الأحداث بما يسمونه بالتطرف الإيراني.

كان الرجل يسمع بأدب و لكنه لم يبدي تفاعله الذي كنت أتوقعه، بل كان يحرك رأسه بشكل يدل من خلاله استيعابه لما أقدمه في حديثي، استمرت المحادثة ما يقارب الثلاث ساعات. كان الجو فيها هادئاً نوعاً ما بعد ما كان في البداية متشنجاً للطرفين، و شعرت من خلال هذه الفترة بأنه يحاول الحصول على تنازلات من قبلي تحت ضغط التخويف من إجراءات القانون الصارمة، و لكنني في الواقع كانت تراودني شكوك بأن هذه المناورات التي لم أعهدها و لم أكن قبلاً على علم بها ما هي إلاّ تمنيّات من قبل أجهزة

المخابرات، لأنّ الكلمة الفصل هي للمحكمة والقضاء و الذي غالباً ما يكون قراره حيادياً فيما إذا عرض الطرفان قصتهما بالوجه المقبول.

ألإعصار المتأخر: جمع الرجل جميع المعلومات التي تحادثنا عنا ثم أكد أنه لا يمكن له التدخل في مجريات الأحداث و مجريات القضاء و ما دوره إلاّ لتوضيح مسار و مجريات المحكمة المقبلة، و أن الجانب المدعي (المخابرات الأمريكية) على استعداد للحديث معي في شأن المنفعة المتبادلة لكلا الطرفين.

لم يوضح هذا الرجل في حديثه ماذا كان يقصد بالمنفعة المتبادلة في حديثه، و لكنني شعرت أن المقصود من ذلك هو ملء فراغات المعلومات التي تفتقدها المخابرات الأمريكية بشأن العراق و العراقيين و علاقة ذلك بالشأن الإيراني، لذلك قلت في نفسي: ما يضرني لو سألتهم عن طبيعة المعلومة التي يريدون الحصول عليها، و من أجلها يمارسون هذا النوع من الضغط، فالمعلومة قد لا تكون مؤكدة في إدراكهم لمصدرها و أهميتها، فهم مثلاً قد يحملون تصوراً بأنني من المطلعين على قضية ما، و هو ما يرغبون من خلال ذلك انتزاع المعلومات عنها، و لكن في واقع الأمر أجد نفسي في منأى عن المعرفة الحقيقة لما يقصدون، و هكذا تراني وجهت سؤالي المباشر إليهما و سألتهما عن غرضهم من هذه المقابلة و ما يتوقعون الحصول عليه من معلومات التي من المفترض أن تخدم كلا الطرفين...؟ انتظرت جوابهما و اعتقدت أن ذلك سيكون واضحاً و مباشراً، أجابا بأنهما يبحثان عن الحقيقة و عن الدوافع لما قمنا به، معناه أنهما يريدان أن أخبرهما عن كل شي أعرفه، و عن كل شاردة و واردة متعلقة بالقضية العراقية و القضية الإيرانية، و من يدري أين تقف نقطة الاقتناع عندهم في إعطائي شهادة عدم الكذب ؟ أم ماذا..؟

و لذلك وجدت أن حديث التعاون معهم بالمفهوم المخابراتي قضية لا تختلف في شأنها عن مفهوم العمالة، لما له من انحطاط في معنى الإنسان، سألتهم فيما إذا كانوا قد اطلعوا على مجريات التحقيق الأولية التي دارت إبان اليوم الأول لاعتقالي ؟ أجابا بالإيجاب، سألتهما عن طبيعة المعلومة المفقودة التي يرغبان بالحصول عليها من هذا التحقيق...؟ لم يجيبا، بل سكتا فعرفت من ذلك إن الخطة الموضوعة هي الحصول على قدر من المعلومات التي تخص الوضع العراقي الإيراني و المعارضة العراقية و شخصياتها و أحزابهما، و من المؤثر فيهما و من ثم برمجة كل تلك المعلومات على حسب الحاجة في خدمة الأهداف التي يرمون إليها.

من جانبي المعلومات التي أملكها هي معلومة عامة ليس فيها ما هو سري جداً ما عدا تفاصيل تحركات المقاومة في الداخل و تخطيطها، و الذي أعتقد بأن الأجهزة الأمريكية المخابراتية على علم بكل ما هو موجود من تحركات علنية و علاقات سياسية، و لكن الذي ظهر هو عكس ذلك، حجم المعلومات المخابراتية تجاه القضية العراقية بتفاصيله يكاد على الأقل أن يكون غائباً بالشكل الإجمالي عن غرف المخابرات الأمريكية، حتى على مستوى الوضع الحكومي للعراق، فتشكيلة الأجهزة المخابراتية لصدام و قيادييها و كيفية عملها و ارتباطها تكاد تكون غير واضحة المعالم عند الساسة الأمريكان، و ينطبق ذلك أيضاً على المعلومات للمعارضة العراقية و تشكيلاتها و تفرعاتها و انتماءاتها الدولية و ولاءاتها و تأثير الدول على قرار فصائل المعارضة.[1]

و لقد أدركت منذ بداية المواجهة مع الأمريكان أنهم يعتقدون الفهم الصحيح لواقع قطرنا، و هو ما جعلني أجاهد و بكل أسلوب أمام طرح هذا الموضوع بالطريقة التي يمكنهم إدراكها. و من ثم تغيير موقفهم تجاه صدام و نظامه المتعسف.

و هكذا تولدت لدي قناعة و وجدت أنه من الضروري تثبيتها و العمل على ضوئها. تلك هي الالتزام بالإتجاه الذي يعكس شخصيتي السياسية التي تطالب بمبدأ الحوار مع الإدارة الأمريكية، و لكن على قاعدة المساواة و اللاذيلية، و ان المدخل لتلك العملية هو الإقدام على التخطيط لتغيير نظام الحكم في العراق. بمعنى آخر أن نتفق منذ البداية على هدف الحوار لا أن نتركه للزمن، ذلك الهدف الذي لا يقبل التأويل هو الاتفاق على إزاحة صدام، فإن اتفقنا عليه فإن طريق الحوار معي أنا شخصياً و من الممكن أن أحاول جاهداً إشراك آخرين فيه، حتى و إن رفضت الحركة الإسلامية هذا المنطق، و لهذا كنت من أشد المتزمتين أن تتعامل معي عناصر مكتب التحقيق الفدرالي كشخصية تقبل المساومة بحجة الحفاظ على حياتي، و كنت أناقش هذا الموضوع و أؤكده في كل اجتماع، و اعتبره الحجر الأساس لهدفي و

---

[1] و قد يمكن لي تفسير ذلك إذا افترضنا أن العراق قطر من الأقطار العربية لم يحتل في الشأن الأمريكي حيزاً كبيراً كما هو حال القضية الفلسطينية و قضية الخليج و مصر و السعودية، و هو ما ترك فراغاً واضحاً في الفهم الأمريكي تجاه العراق برمته و في نفس الوقت فسح المجال واسعاً أمام النظام الصدامي ليسرح و يمرح في شراسته تجاه الشعب و تجاه دول الجوار و ليمارس جرائم قلما تجد لها مثيلاً في تاريخ العراق.

هدف من خلفي من مبادئ الحركة الإسلامية، و هكذا و بعد مداولات كثيرة ما بيني و بين عنصري المخابرات لم نتوصل إلى أي نقطة تجاه مطالبهم، و بقيت مصراً على الهدف الأساسي و هو ضرورة فهم القضية العراقية و قضية الشعب العراقي من خلال هذه الفرصة التي يمكن لها أن تفتح أبواب المصالح و الفهم المشترك الذي يخدم الطرفين.

سألتهما ثانية و قبل المغادرة: هل لكما أن تطلعاني على مشروعكما المنشود التعاوني؟

قال: إنه مشروع واضح لك و لنا

قلت: ربما لكم، و لكن ليس لي

قال : أين تتواجد المقاومة العراقية الآن؟

قلت: معظمها في إيران ثم سوريا

قال: لماذا...؟

قلت: لأنها ملاصقة للعراق أولا، و لأنها في حالة عمليات حربية و هو الجو المناسب للمقاومة

قال: ما هدف المقاومة الآن...؟

قلت: إسقاط النظام في العراق

قال: و المستقبل...؟

قلت: نظام تعددي ديمقراطي متعدد الأحزاب

قال: و لكننا لا نعلم عن كل ذلك و عن مشاريعكم المستقبلية و عن أفكاركم و عن تفرعات أحزابكم الصغيرة و دور ليبيا و مصر و سوريا و تركيا في صناعة الرأي، و فيما بينكم و بين إيران.

قلت له: إذن تريد أن تبحث معنا عن معلومات أليس كذلك...؟

قال: كل عملنا هو معلومات

قلت: إذن تريد أن نتعاون معا لكي تعطينا أنت معلومات عن مشاريعكم في المنطقة، و نحن كذلك نعطيك مشاريعنا في المنطقة.....؟

ضحك الرجلان.

قلت: بمعنى آخر هل تبحث عن عميل جديد ؟ أم شريك جيد؟

قال: التسميتان خطأ

قلت :إذن سمها أنت......؟

قال: معرفة أكثر لما يهم الطرفين

قلت: جيد، ثم أضفت له: و كيف لي الآن أن أساعدكم.....؟

قال: إن كنت أدركت ما أقوله فمن الممكن أن نبدأ الحديث

قلت: أقبل

قال: على المستوى الفردي أم الحزبي
قلت: بالتأكيد على المستوى العام
قال: و هل لكم أن تبدأون الحديث بدون مقدمات معنا، و في ظروف سرية لكي لا تعلم دول الجوار....؟
قلت: معكم كمخابرات ؟ أم كدولة؟
قال: مخابرات
قلت: هل ممكن أن نتفق على هدف...؟
قال: بعد الحوار
قلت: و إسقاط صدام شرط من شروطها؟
قال: لا ليس ذلك.
قلت: إذن إن لم تحقق أهدافي كيف تطلب مني أن أعمل حسب أجندتك؟
قال: نضع أجندة مشتركة.....
قلت: زوال النظام شرط.
قال: لا يمكن ذلك في الحديث مع دولة كبرى
قلت: إزالة النظام لنا قضية أكبر من كبرى، و هو شرط مسبق لكل حديث، و إلاّ فإن الذيليّة ليست من شيمتنا، و لا أنا محتاج إلى أن أغادر سجنكم الجميل.
قال: لا تتسرع
قلت: أرجو أن نتحدث بدبلوماسية لكي نصل إلى الحقائق.
قال: أنت ذكي و تدرك، و قد صار الموضوع أمامك واضحاً، هذا تلفوني فإن وافقت أنت أو من هم معك فاخبرني
قلت له: أنت لست سياسياً أبداً، و لا رجل مخابرات ناجح
قال: اعتذر
قلت: شكراً لك
ودعني الرجل ثم عدت إلى زنزانتي لأراجع حساباتي من حديثي مع هؤلاء عناصر الضغط[1]

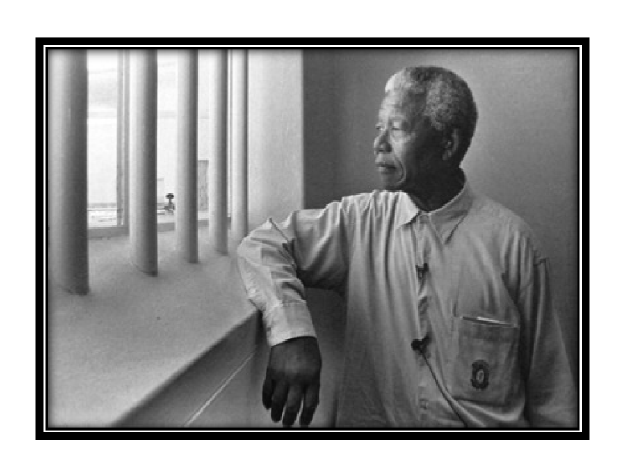
---

[1] من الواضح أنهم ليسوا سياسيين من النوع الذي واجهته في أيام التحقيق الأولى إنهم رجال مبيعات Salesmen يريدون أن يبيعوا رأيهم بدون أن يقدموا بضاعة بالمقابل، إنهم كانوا يبدون لي عناصر شراء الذمم و تجنيد الأشخاص بطريقة مهذبة و دقيقة و ضمن مرحلية تبدأ من هذا النوع من الحديث

②④

◗ الفصل الرابع و العشرون ◖

سجن MCN
سجن الصناديد



مزيج من التناقضات: في صباح أحد الأيام و بينما نحن في حالة تنظيف الزنزانة نودي بإسمي من قبل الحارس الشاب المسلم فتحركت باتجاه السياج الحديدي لأعرف ماذا يراد مني، قال لي انه يطلب مني أن أجمع ملابسي و جميع الأشياء العائدة لي ثم مرافقته... تعجبت من الأمر، و تعجب الجميع من ذلك، لأنّ السجين في هذا المكان لا يغادر السجن إلاّ عندما يفرج عنه أو يصدر ضده حكم المحكمة، و في كلتا الحالتين فإنني لازالت أوضاعي القانونية لم تصل إلى هذه المرحلة بعد.

و غالباً ما تسمى فترة الاعتقال هذه (الاحتجاز) و هي الفترة ما بين الاعتقال و بين إصدار الأحكام أو الخروج بكفالة، و مع أن القانون الأمريكي لا يسمح باحتجاز الإنسان لأكثر من 24 ساعة قبل عرضه على المحكمة أو هيئة المحلفين، أما في حالتي التي أنا عليها فان الاستدعاء، ثم النقل إلى مكان آخر أو غيرها فهو أمر غير مألوف للجميع، لذلك فإن أصدقائي من المساجين تعجبوا من الأمر و تصوروا أن هنالك شيئاً من المؤامرة ضدي من قبل الحكومة[1]

أخذت ملابسي بسرعة و وضعتها في كيس صغير فيما اجتمع حولي السجناء مذهولون لما يحدث، و عندما كانوا يسألونني عن سبب نقلي من مكاني كنت لا أفقه الإجابة و أجيبهم بأنني لا أعلم، و كان البعض يتأوه لما يحاك لي من قبل الحكومة الأمريكية من محاولات للتضييق و انتزاع الاعترافات، قال لي أحدهم بأنني يمكن لي أن ارفض الانتقال و ذلك بالإعلان عن رفض خروجي من الزنزانة، ضحكت في وجهه و قلت: إن الأمر لا يتطلب هذا النوع من المعاندة، و لذلك أسرعت في جمع ما تبقى من ملابس ثم الحذاء و بقية الأمور و الأوراق، ثم بدأت بالتحرك نحو باب العنبر للخروج، فبدأ الجميع بتوديعي طالبين مني دوام المراسلة على عنوان السجن هذا، فأخبرتهم بأنني لا أعرف أسماءكم كاملة فكيف لي أن ابعث لكم بالرسائل...؟ و بسرعة كتب الجميع أسماءهم على أوراق صغيرة و وضعوها في جيبي، اصطحبني الحارس إلى الغرفة الرئيسة و هنالك أعطوني بعض ما كان عائد لي من

---

[1] و قد كان قرار النقل صاعقة على رؤوسهم لم يكن منهم إلاّ السب و الشتم على الدولة و على المخابرات، أما بالنسبة لي فان الأمر بدأ واضحاً، خصوصاً بعد المقابلة الأخيرة التي سلطوا فيها ضغوطاً علي في قبول عروضهم في التعاون معهم أو بيع أفكار التضحية إلى مخططاتهم و ما يريدون العمل فيه، و الآن فإن مراحل الابتزاز بدت بأجلى صورها في تحويلي من سجن إلى سجن، فالنقل للسجين هو عقاب ما لم يصدر حكم المحكمة ضده في القضية المتهم بها، عند ذلك يوزع السجناء على حسب نوعية العقوبة التي يتلقاها

مفاتيح و حقيبة نقود و غيرها، ثم شدوا وثاقي جيداً بالسلسلة الحديدية، فصعدت السيارة المعدة لنقل السجناء فأخذتني بعد ساعة كاملة إلى مركز مدينة ميامي حيث تقع إدارة السجون الرئيسة، و هنالك جلسنا في غرفة واسعة فيها مجموعة كبيرة من السجناء كل جاء من سجنه من أطراف المدينة إنتظاراً لرجوعه أو لنقله إلى السجن.
و بعد مرور ساعتين نودي بإسمي مع مجموعة أخرى و ربطونا كل اثنين في سلسلة حديدية و أدخلونا السيارة، و تحركت إلى أطراف ميامي في مكان لم أتمكن من تحديد اتجاهه إلى أن واجهتنا بناية ضخمة محاطة بأسلاك عالية و أبراج للمراقبة، فتحت الباب الخارجية فدخلت السيارة، ثم سارت عشر دقائق إلى حين وصولها إلى حيث البناية الرئيسة، فبدأوا بإنزالنا من السيارة، و عندما صرنا داخل البناية فكوا السلاسل الحديدية ثم بدأوا بتفتيشنا كما هي العادة، نزع الملابس تماماً، وضع اليد اليمنى و اليسرى على المناطق الخاصة، ثم التفتيش الدقيق بين ثنايا الجسم.

بعدما انتهى التفتيش لبست ملابسي فدخلت غرفة صغيرة أعطوني فيها ملبس السجن ثم حذاء مطاطي، و ملابس داخلية ثم فرشاة أسنان و صابونة و بطانية، بعدها انتقلت إلى غرفة أخرى مع موظفة سوداء اللون عمرها في أواسط العشرينيات بدأت بالكلام معي ثم سألتني مجموعة من الأسئلة تختص بالوضع الأمني أثناء وجودي في السجن، و هل هنالك من تهديدات على سلامتي...؟ نفيت كل ذلك و قلت لها ليس لي عدو يهددني في داخل السجن، و إن إقامتي في السجن السابق كانت مريحة، و لا أعرف ماذا سيحدث هنا....؟، قالت لي: إن هذا السجن هو من أفضل السجون، و هو عبارة عن هيئة إصلاحية يقوم السجين أثناء إقامته ببعض الفعاليات و النشاطات التي تساعد على تأهيله للحياة العامة، سألتها عن نوعية المساجين هنا، و ما هي نوعية التهم الموجه لهم ....؟ لم تخبرني بذلك، و قالت إنه سجن يحوي شتى أنواع التهم، و شتى أنواع البشر و ما على الإنسان إلاّ أن يكون واعياً لما حوله و أن لا يتكلم بشيء يودي به إلى هلاكه.

سألتني عن نوعية الأدوية التي أطلبها إن كنت مصاباً بأي نوع من المرض، أخبرتها بصعوبة التعايش مع آلام المعدة، ثم حددت لي موعداً مع طبيب السجن لإعطائي جرعة الدواء، دخلت السجن[1]

---

[1] و هو عبارة عن بناية بطابقين يحوي الطابق مجموعة من الغرف مصطفة إحداهما بجانب الأخرى، و في وسط البناء ساحة نظيفة فيها كراسي للعب الورق، ثم طاولة بليا رد

أخذوني إلى الزنزانة رقم (301) فكان مكاني هو السرير الأعلى، و أخذ صاحبي السرير الأسفل، و كان صاحبي في هذه المرة شاباً يتكلم الإسبانية بصعوبة عمره لا يتجاوز 25 سنة يبدو على هيئته التهور و العصبية، لذلك قررت مصادقته للابتعاد عن شروره، خصوصاً و نحن نسكن في غرفة واحدة صغيرة تغلق ليلاً و لا أحد يشعر بنا فيما إذا قتل أحدنا صاحبه[1]

كانت فترة تناول الطعام مقسمة إلى ثلاثة أوقات، الوجبة الأولى في الصباح تكون بحدود الساعة الخامسة صباحاً، و هو وقت مزعج جداً بالنسبة لي، لا أتمكن من تناول أي طعام في تلك الساعات المبكرة من اليوم، و الوجبة

كذلك بعض أمور التسلية الأخرى، البناية مغلقة من الأعلى مضاءة جيداً، و في كل غرفة هنالك سرير بطابقين و في داخلها حمام أي مرحاض مكشوف في زاوية الغرفة، طول و عرض الغرفة 3×3 أمتار، و في الغرفة شباك يطل على الخارج محكم الغلق حتى البراغي التي فيه ملساء في الوسط تمنع الإنسان من محاولة فكها أو غيرها من الأمور، و هنالك أيضاً في كل طابق ثلاث حمامات للغسل نظيفة جيدة،ثم مكتبة، و غرفة للرياضة

[1] كان هذا الشاب يحمل تصورات إجرامية غريبة، كيف نقتل الإنسان..؟ و كيف نتخلص منه..؟ و هل يدفنه... أو غيرها..؟ و كان هذا الشاب هو أول من اكتشف ماكينة (المثرمة) التي استعملها صدام أثناء حكمه للتخلص من رموز معارضيه، اكتشفها في باطن عقله الإجرامي، و كان يتكلم الانكليزية الركيكة، و ظل يشرح لي كيف إنه سيصنع مثرمة و يتخلص من الذين يقتلهم، و كان دائم القول إن ذلك عظيماً، وإنه إذا خرج من السجن سيعمد إلى صناعتها، جرى بيننا حديث طويل حول وجود الله، و حول الإنسان و حول الآخرة و كان الشاب يصغي جيداً لما أقوله، و كنت أهتم بأحاسيسه و تصوراته و انتبه لما يقوله، و قد سألته يوماً فيما إذا كان مسيحياً أم أنه على دين آخر...؟ فأجابني بأنه لا يعرف إسم دينه الذي ينتمي إليه، و بعد مناقشات مستفيضة قال أعتقد أن ديننا اسمه (هودو) قلت له هل تعني (يهود)...؟ قال لا، قلت هل أن موسى (Mosus) هو اسم النبي لذلك الدين...؟ قال لا ... انه يعرف اليهود، و يعرف المسيح، ولكنه ليس منهم، سألته هل سمعت عن الإسلام شيئاً....؟ قال: و قد أشار بيده علامة إطلاق النار و هو يقول (بم بم) أي أولئك الذين يقومون بعمليات القتل، أجبته لا، ثم سألته هل تعرف محمد علي كلاي...؟ قال نعم إنه رجل عظيم، قلت هل تعلم إنه مسلم، قال: لا، قلت: هل تنتمي إلى دينه الذي ينتمي إليه..؟ قال نعم، قلت له إذن أنت مسلم، قال أنا مسلم... ثم نطق الشهادتين بصعوبة ... قلت له: أنت الآن ولدت من جديد، وإنك أصبحت أخاً لمحمد كلاي،قال: و ما أعمل الآن...؟ قلت له عليك أن لا تؤذي أحداً و لا تفكر بالاعتداء على أحد، قال: إذن كيف أعيش...؟ قلت له ما تعني...؟ قال إن شغلي سرقة البنوك، وهذا اختصاصي الذي دخلت من أجله السجن، و نحن عصابة ضخمة و قوية، و أنا ثري جداً و لدي أموال جمعتها من عمليات السطو على البنوك، فكيف لي أن اترك هذا العمل المربح لأعمل في دائرة أو محل تجاري لأكسب منه ما يسد رمقي فقط .....؟ قلت له: يا عزيزي فكر جيداً و سوف أساعدك على صناعة قرارك، بقيت معه في الغرفة نتحدث دائماً عن أمور الحياة، و عن السياسة أحياناً و كان شغله الشاغل هو كيف يعيد تشكيل عصابته إذا خرج من السجن، و كيف يتخلص من همّ قاده إلى مصير السجن

الثانية هي الساعة الثانية عشرة ظهراً، و الثالثة حوالي الخامسة عصراً و هي العشاء، و كان المطعم الذي نذهب إليه نظيفاً جداً فيه طاولات نظيفة و أنواع من العصير و الماء.

كانت الأوقات هنالك تمر بصعوبة بالغة بسبب انعدام وسائل الاستفادة بالنسبة لي، و قد تمكن الأخوة من إيصال نسخة من القرآن و نسخة من مفاتيح الجنان إلى السجن فكانت فرحتي بها لا توصف فجلست أصلي تقريباً كل نوافل اليوم بكل مستحباتها، ثم أقرأ أجزاءاً من القرآن ثم أحفظ بعضها[1] و في أواسط اليوم نخرج إلى ساحة ملحقة بالسجن نتمشى فيها و نتزود من شعاع الشمس، و كنت في هذه الفترة أمارس رياضة الركض حول الساحة لكي أبقي جزءاً من الحيوية في جسمي حتى أواصل قوة الجسم في مواجهة الضغوط... في هذا السجن كان لي إمكانية الاتصال بزوجتي يومياً، و كانت المكالمات مسموحاً بها من تلفون موجود على الحائط مكتوب إلى جانبه عبارة تقول: إن هذا التلفون مراقب وعليك أن تحترس في الحديث، و كان معظم السجناء يتصلون بعوائلهم أو أصدقائهم.

تعرفت في هذا السجن الذي كان يضم حوالي خمسمائة شخص أو هكذا بدى لي و ربما كانت هنالك أقسام أخرى لا علم لي بها على أنواع مختلفة من الناس فيهم المثقف و فيهم العسكري و فيهم المجرم و هكذا و كان معظم من معي في هذا السجن هم تجار المخدرات الذين يتعاطون نقل هذه المواد إلى داخل الولايات المتحدة. و كان فيهم ضابط برتبة عقيد في الجيش الأمريكي رجل في أواسط الستينيات طويل القامة قوي الشخصية مثقف متمكن من وضع أفكاره و صياغتها محب للآخرين، و عندما تعرفت عليه كان يقضي معظم أوقاته معي و يحدثني عن وضعه في الجيش و عن عملياته في نقل المخدرات من خلال وجوده في كولومبيا كضابط طيران، و كيف تمكن في مرات عديدة من نقل كميات ضخمة من هذه المادة المخدرة الخطرة حتى ألقي القبض عليه قبل سبع سنوات و هو يقضي الآن سنته الأخيرة ليخرج بعدها إلى عالم الحرية.

---

[1] كان الذي قام بهذا العمل مشكوراً إخوة أعزاء من المنطقة الشرقية للجزيرة و قد أوصلوها لي من خلال مكاتب القضاء، و بالفعل كان الإخوة من تلك المنطقة و من البحرين من أفضل ما رأيت في التضحية و التفاعل مع القضية العراقية

و في أحد الأيام قررت أن أذهب مع الداعية الكاثوليكي للاستماع إلى دعواتهم و صلواتهم، فسجلت إسمي لدى الحارس المسؤول عن ذلك، و عندما حان الموعد سألني الرجل الداعية فيما إذا كنت كاثوليكيا فأجبته بالنفي، قال إذن ماذا تصنع معنا قلت له أريد أن أعرف نقاط الاشتراك ما بين الكاثوليكية و الإسلام[1]

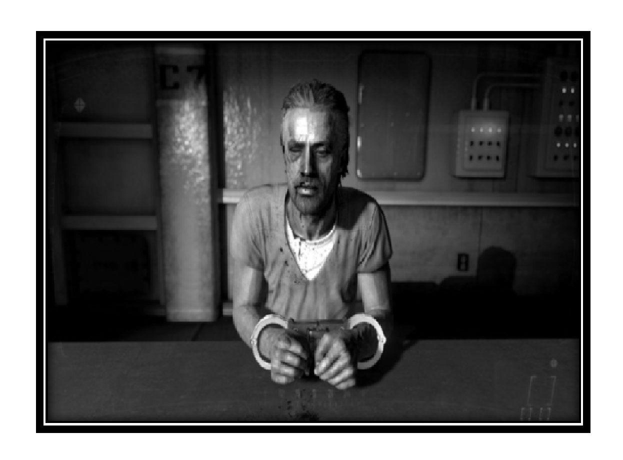
---

[1] و فعلاً ذهبت و بدأ الرجل يتحدث عن المسيح و دوره في هداية الناس و غيرها من الأفكار التي يرددونها دائماً في مجالسهم، و عندئذٍ تدخلت و بصورة هادئة أتحدث معه حول طبيعة المسيح و طبيعة ولادته، و طبيعة الأنبياء ثم علاقة الأنبياء مع الله و مع الأرض، ثم تطور الحوار و اتخذ جانباً علمياً (و هو ما كنت أرغبه أنا) و كان هذا القس الذي يتحدث طبيباً له معرفة واسعة بالعلم و بتطوره، و بدء الحاضرون من السجناء ينشدون إلى هذا النوع من الحديث و يشاركون فيه، و كنت من خلال ذلك أقدم آراء الإسلام و آراء القرآن في الإنسان و في الخلق و في الأنبياء و كان معظمهم ممن يطلب الاستزادة عندما يحاول هذا القس الطبيب أن ينتقل من موضوع إلى موضوع تهرباً من الإحراج، و كان مؤدباً جداً في طريقة انتقاله تلك، بينما كان المساجين يطالبون بعدم الانتقال إلاّ بعد إعطاء الموضوع حقه من النقاش، و بعد رجوعنا إلى السجن كان ثلاثة ممن كانوا معنا في موعظة ذلك اليوم قد طلبوا مني أن نتحدث عن نفس الموضوع، و كنا نقضي يومياً ساعات طويلة في الحديث عن الأديان، و عن طبيعة الإسلام، وعن دور العقل في هذا الدين، و كان هؤلاء الثلاثة من الأمريكان المثقفين، و من رجال الأعمال المتهمين بتهم المخدرات، و بعد أسبوع من النقاش اعتنق اثنان منهم الإسلام، و بقي الثالث في وضع حرج لا يدري ما يفعل

②⑤

◖ الفصل الخامس و العشرون ◗

رجال المخابرات
مرة اخرى



كبرياء... : في عصر أحد الأيام و بينما و أنا جالس مع بعض السجناء نودي باسمي في مكبر الصوت أن أحضر إلى غرفة الاستعلامات، فتوجهت مباشرة إلى هناك، ثم جلست على الكرسي انتظر من سيأتي و ما خبر هذا النداء، و بعد هنيئة ظهر شخص قصير القامة أصلع الرأس يرافقه رجل قوي الجسم مفتول العضلات يظهر على شكله إنه رئيس عصابة، تقدم مني الرجل القصير سائلاً عما إذا كنت أنا السيد شبر أجبته بنعم، ثم صافحني فطلب مني إذا كان هنالك من مانع لدي من الحديث معي...؟ قلت أنا على استعداد، قدم إسمه لي ثم أخرج هويته بأنه من رجال المباحث، ثم قال لي أنه يريد الحديث معي قبل موعد المحكمة التي ستكون خلال أسبوع من هذا الوقت، و هي إعادة محكمة قبول كفالتي ثانية في الخروج من السجن لحين موعد المحكمة الرئيسة.

قلت تفضل و قل ما عندك: قال إن العالم اليوم قادم على موجة من الإرهاب يقودها مجموعة من المتطرفين القادمين من مناطق الشرق، ثم استمر بالحديث الذي كان الشخص الآخر يشاركه فيه مركزين على أهمية رفض الإرهاب، و كانت أحداث لبنان أنذاك ساخنة في تعقيداتها بعد الغزو الإسرائيلي للبنان، ثم قال أنه جاء لمعرفة رأيي في قضية الإرهاب، طبعاً المقدمة و الحديث الذي بدأه هذا الرجل طال لمدة نصف ساعة تقريباً في الوقت الذي كنت فيه منصتاً لما يريد أن يقوله، و بعدها طلب رأيي في الإرهاب، لم أتردد في أن أقول له مباشرة أن الإرهاب ظاهرة ليست خطرة على الحضارة الغربية فقط، بل هي خطرة على الإسلام أيضاً، لأنّ الإسلام دين يحارب بسلاح الفكر و الكلمة الهادئة، ثم أضفت: و لكن الإرهاب الذي تعرفه أنت و تتكلم عنه الآن ليس بالضرورة هو ما افهمه أنا، فأنت الآن تعتقد في رأيك بأنني أنا إرهابي، فسألته و بصورة مباشرة و طلبت منه أن يجيب وجهاً لوجه، سكت، طلبت منه الجواب و إلاّ فلا معنى للحديث، قال: إن التقارير تقول عنك هكذا، قلت له: و لكن ما تقول أنت.....؟ لاذ بالصمت، و أراد أن يقول شيئاً ثم سكت، عاونه الرجل الثاني في ورطته قائلاً: لعلنا بهذه الجلسة يمكن أن نحل مشكلة الإرهاب و يعترف احدنا بأنه المخطيء.
قلت له حسناً لنبدأ من هذا المجال و لنتوسع فيما بعد إذا كنتم ترون بأن مجال الخطأ موجود في حيز التشخيص لديكم.

سكت كلاهما و قالا إن المحكمة ستقرر هذا الأمر...تأوهتُ في وجهه مبدياً جزعي من المناورات التي يناورونها.

ثم قلت لهم بثبات: قولا بصريح العبارة ماذا تريدان تحقيقه....؟ قال أحدهما: لا تظهر لنا عدم معرفتك، و بتهكم، و بنوع من الهجومية.
ثم أضاف الثاني بتهكم أيضاً: لحد اليوم لا تعرف لماذا نقابلك بين الفينة و الأخرى...؟ إلاّ تعلم بأنك طالب دكتوراه......؟
قلت بضحكة إستهزائية: إن شهادة الدكتوراه أول ما علمتني أن أتعلم الصمت و أن لا أقول إلاّ ما أعلم، وإن كنت أعلم كل العلم فسأقول منه القليل، و ها أنذا أقول لكم كل ما أعلم، و ليس لي أي منفعة في إخفاء ما تعتقدون بأنني أخفيه، أو أنني أتجنب قوله ما لم تقولون لي انتم ما تريدون..؟

سكتا كلاهما بينما أدرت راسي يمنة، و يسرة محاولاً التأثيرعليهما نفسياً في سياق البوح بما يريدان أن يقولاه، ثم التفت فجأة لأحدهما و قلت له بنبرة حادة: كم مرة رأيتني في حياتك.....؟
لم يجب، و اكتفى بهز كتفيه دلالة عدم رغبته في الجواب، ثم واصلت: علّها المرة الأولى، أليس كذلك؟... لم يجب
قلت له:هل تريد أن ننقل القضية إلى المحكمة و ندخل حلبة الصراع من خلال المحكمة....؟
أجاب: ربما.
قلت حسنا أنا مستعد، و لكن عليك يا صديقي أن تعلم أن المحكمة لن تكون حول القضية البسيطة التي اعتقلتموني بسببها، و إنما ستكون محكمة كبرى سأتمكن أن أضع السياسة الأمريكية تجاه العراق في قفص الاتهام و سوف نفتح ملفات الملايين الذين قتلوا في العراق بسبب الدعم الأمريكي للنظام هناك، هل تعلم ذلك....؟، و بالضبط هو ما سوف افعله، و سوف نرى من منا على حق، و من منا على باطل، و أكملت كلامي بجرأة لم أعهدها من قبل و قلت: إنكم قوم لا تفهمون معنى أن تظلموا، و أن تقتلوا إنساناً بشكل بطيء، ففي عرفكم القتل هو الدم و الرصاص، و الحياة هي فقط الهواء الذي يجب أن نتنفسه، أما نحن فقد تجاوزنا حدود الأرض لنقدم مفهوماً آخر لقتل الإنسان و ذلك عندما تسلب منه إرادته و تنصّبون ديكتاتوراً يناسب سياستكم و يفتك بشعبه و تشبعونه مالاً و عتاداً و أسلحةً متطورة ثم و بكل وقاحة تقولون للعالم ليس لنا شأن بالعراق، و أن صداماً هو رجل عراقي مسئول عن شعبه و لا نتدخل في علاقته معكم.... إننا سوف نحول هذا المفهوم إلى مفهوم متحرك مختلف عما هو في قاعة المحكمة، و ستكون السياسة الأمريكية هي

المتهمة فيها ليس أنا، و ستدفعون ثمن كل شيء أمام الرأي العام و العالم أجمع، هل هذا ما تريدونه....؟

قام أحدهما ليأتي لنا بثلاثة أكواب شاي، لم أشكرهم و إنما واجهتهم بصراحة واضحة و قلت لهما بتحدٍ لا تخطئه العين أو العقل و قلت: بأنني أريد أن أنقل لكم رسالة واضحة لا تقبل التغيير، إذا اعتقدتم أن هذا السجن الحقير سوف يغير من مسؤوليتي تجاه شعبي، و من رأيي تجاه مخابراتكم فأنتم مخطئون (You are dead wrong)....؟ و إذا كنتم قد جئتم للمساومة فأهلاً بكم، و لكن الآن أنا الذي أساومكم و عليكم أن تختاروا قبول مساومتي و شروطي أو رفضها فأنتم و سياستكم في قفص الاتهام في الأسابيع الآتية، أما أنا فيمكن أن أموت و قد أعدم، و قد تدبرون طريقة ما لقتلي، و لكن تصوروا لو فتحت الآن ملفات الحرب العراقية الإيرانية و ظهر فيها دوركم، تخيلوا ماذا ستكون النتيجة....؟ هل تعتقدون بأن هنالك صحيفة أو قناة تلفزيونية لن تتناولها.....؟ إن سحركم انقلب عليكم، فما عليكم إلاّ أن تعترفوا و تقبلوا شروطي.

نظرت إليهما فرأيت أحدهما يجفف عرقه عن وجهه، وآخر يشرب الماء بهدوء،و كنت ألاحظ حركتهم تدل على الغليان و التوتر، ثم قال أحدهم: هل هذا قرارك سيد شبر أم هناك مجال للمساومة أو حديث آخر....؟
أجبت: أبداً، إلاّ إذا.... و سكتت
و سكت الآخران، ثم قال: إذا ماذا.....؟
قلت: إذا قدمت الحكومة على لسان جهاز المخابرات إعتذاراً واضحاً بخطئها في تشخيص المشكلة و الإتهام، ثم إعادة النظر في دراسة ملف الحرب العراقية الإيرانية مجدداً.
قالا: لا نعتقد ذلك.... و هنا وقفت و صافحتهما و قلت لهم إذن بيني و بينكم المحكمة، ثم أدرت ظهري لهما دون النظر إلى الوراء لمعرفة ردة فعلهما، و أنا متأكد أن قراري حطم إرادة الاستعلاء فيهما، و أضعف ما في داخلهما من روح المواجهة.

②⑥

◖ الفصل السادس و العشرون ◗

هيكل المحكمة



طرقت باب الزنزانة في الساعة الخامسة صباحاً ناداني الحارس لكي أهيء نفسي للذهاب إلى المحكمة، توضأت للصلاة، ثم اقتادني الحارس إلى غرفة صغيرة، أعطوني ثيابي الخاصة التي كنت ألبسها عندما اعتقلوني، أحسست أن بنطلوني أصبح واسعا عليّ شيئاً ما، عرفت أنني بدأت أفقد وزني، لبست و صليت صلاة الفجر، ثم صعدت في سيارة خاصة، قيّدوا أيدينا جميعاً إلى الأمام، و وضعوا أثنين أثنين كما في كل مرة من الذهاب إلى المحكمة، و انطلقت السيارة إلى ميامي المركز الرئيس للمحكمة، عندما وصلنا بدأوا بتوزيعنا كلٌ إلى المكان المخصص له في المحكمة.

كنت في المحكمة رابط الجأش هادئاً، و قد هيأت نفسي للمواجهة الكلامية من أي نوع كانت، كانت القاعة مرتبة و راقية بتصميمها و هندستها، بعد دقائق وقف الجميع عندما دخل القاضي، و هذه المحكمة كانت قد أعدت للنظر فيما إذا كنت أستطيع أن أخرج بكفالة مالية أو لا، كان القاضي إمرأة في أواسط الأربعين، الظاهر من شكلها أنها لطيفة، صاحت باسمي فوقفت قبالتها مع المحامي. و في الجهة الأخرى وقف رجال من المخابرات الأمريكية بالإضافة إلى نفس المدعي العام السابق (Neil Karandabel)، نفس الأشخاص الذين حضروا المحكمة الأولى، لم ألتفت إليهم كثيراً بل كان نظري مركزاً على القاضية.

بدأ محامي الادعاء بقراءة مواد التهم، و بأنني أمثل خطورة على المجتمع الامريكي و ما الى ذلك من اتهامات ملفقة خلال كلام من المدعي العام الذي استغرق 25 دقيقة تقريباً، و لكنني لم أتأثر كثيراً بالذي ذكره هذه المرة، و كنت قد سمعت كل ذلك في المرة السابقة، بدأ محامي الدفاع بالكلام عن شهادتي، و شخصيتي، و عن مكانتي في عائلتي و غيرها من الأمور التي تؤكد للقاضية مصداقيّة كلمتي و التزامي الحضور إلى المحكمة في المواعيد التي تحددها فيما بعد، و إنني لا يمكن لي أن أهرب أو أختفي أو ما شابه، و بعد مداولات عدة قررت النيابة و الادعاء تحديد مبلغ مليون دولار ككفالة بدلاً من المليونين التي كانت المخابرات قد أقرتهما سابقاً في الجلسة الماضية، رفضت القاضية المبلغ المذكور، فطلب المدعي نصف مليون، ثم بعد رفض القاضية قُلّلت الكفالة إلى ربع مليون.[1]

---

[1] في الصراع مع الجهة القوية مخابرات كانت أم سلطة بوليس، من المهم جداً أن تبين لهم قدراتك في المواجهة أي أن تريهم القفازات التي سوف تتلاكم بها معهم، و أن لا تتركهم يفكرون بضعفك و عدم قدرتك على الصراع. و الصراع هنا هو الصراع الطويل النفس،

فالقاضية و بما معناه قالت: إنني لا استطيع أن أترك رجلاً بتأريخه و مصداقيته هذه التي قالها المحامي في السجن، لذلك قررت و قبلت مبلغ الربع مليون ككفالة، ثم ضربت بمطرقتها على الطاولة و أعلنت انتهاء الجلسة، وقف الجميع حينها بعد أن همّت القاضية بالمغادرة.
إن ربع مليون دولار يعتبر أيضاً مبلغا كبيراً في القضايا السياسية أو الدولية، فهذا المبلغ يطلب في القضايا الأصعب كالقتل و تجارة المخدرات مثلاً، أما بالنسبة لي فقد كان المبلغ كبيراً، و من الصعب جداً تأمينه، و يجب أن يدفع أو يرهن ما قيمته ممتلكات، و دفع 10% من المبلغ نقداً.[1]

رجعت إلى السجن بعد أن انتهت المحكمة و أنا أفكر كيف أن الله عز وجل لن يتركني وحيداً، و انه كفيل بمد يد المساعدة لي، كنت داخل السجن لا أعرف ماذا يجري في الخارج، و قد أخبرت زوجتي و الأصدقاء و الإخوة العاملين بالأمر و طلبت منهم السعي في توفير المبلغ، حاول الكثيرين من الإخوة جمع المبلغ للكفالة، و لكن المبلغ كبير و معظم الإخوة أحوالهم بسيطة، حتى أن بعض الإخوة حاول في أوروبا جمع المال من الجالية هناك، و لكنه لم يستطع، و في هذه الأثناء بادر أحد الإخوة الغيارى ممن دفعته الحماسة الوطنية و الحس العربي إلى تقديم المساعدة في رهن بعض عقاراته في الولايات المتحدة، هذا الأخ الشهم برز إلى واقع الأحداث بعد أن حرّكته كوامن التفاعل مع المحنة التي نعيشها في داخل السجن و في نفس الوقت كانت السلطات الأمريكية تتسابق مع الوقت مستعملة شتى أنواع الضغط عليّ بصورة هادئة و غير مباشرة في محاولتهم انتزاع المعلومات التي يريدونها و التي يعتقدون بأنها كامنة في صدري.

و بعدما رجعت إلى السجن كنت أقضي وقتا طويلاً في زنزانتي أفكر و أفكر، لم نكن نخرج إلى الباحة الخارجية إلاّ فترة قصيرة جداً، و كان هذا القسم من الأقسام الشديدة هنا التي يوضع فيها السجين إلى حين يثبت بها حسن سلوكه و أخلاقه. و بعد فترة ناداني أحد الحراس لكي انتقل إلى قسم آخر نستطيع فيه أن نخرج إلى الباحة الخارجية كل يوم و لوقت أطول نمارس فيه الرياضة أو

فالضعيف هنا يموت تحت أقدام القوي، فعندما واجهت المخابرات في اللقاءات الماضية التي سبقت المحكمة كانت ورقة المعركة هي القضية السياسية في مجريات المحكمة، و هي السيف الذي نازلتهم به، و تمكنت من أن أثنيهم عن إبقاء الكفالة مليوني دولار و تقليلها إلى ربع مليون

[1] كان الانتصار ساحقاً و هو معناه أنني الآن أسير في الطريق إلى النصر الجزئي

أي عمل نحبه، و كذلك الحال بالنسبة لغرف السجن، دخلت غرفة فيها ستة أسرة و قد كان المكان كبير حتى أتمكن من التحرك بسهولة أكثر و أصلي صلاتي في منتصف الليل[1]

عشت فترة طويلة في هذا القسم من السجن، و كانت معظم أوقاتي أقضيها في التفكير و محاسبة نفسي و مراجعة الماضي و غيرها من الأمور التي تصب في اتجاه تهذيب النفس و ذات الإنسان، فالجانب الداخلي والنفسي، و الثقة بالمبادئ، و فهم الواقع هي من أهم عناصر القوة التي يمكن للإنسان أن يستنتجها في مثل هذه الظروف، فالوحدة لوقت طويل و الإحساس بالفراغ، و غموض النتيجة تجعل الإنسان مثالاً لأي إحباط و ضعف و نسيان للمبادئ التي دخل بسببها السجن، و عندما يطغى الجانب الفردي الذاتي على مسيرة تصرفات الإنسان فإنه سوف يؤثر ذلك على المنهج الفكري العقائدي للقضية التي دخل بسببها السجن، و هنا لعله من أهم القضايا التي يجب على صاحب المبدأ أن يتحلى بها هو نسيان جانب الذات، و البقاء مستعداً لمواجهة الطوارئ ...[2]

---

[1] و حتى إنني كنت أخرج ليلاً إلى الفناء الخارجي أصلي بعيداً عن العيون، و خاصة أن الغرف لم تكن تقفل أبوابها ليلاً و هذا أمر استغربته بادئ الأمر، و في أحد الأيام جاء أحد الحراس فوجدني أصلي في الفناء الخارجي، و لم أكن أعرف أن الخروج ليلاً كان ممنوعاً، و بينما كنت أصلي و اقرأ الدعاء، انتبهت و إذا بالحراس يقفون منتظرين انتهائي من صلاتي، و بعد دقائق انتهيت فنظر إلي أحدهم، و قال بكل تهذيب: نحن نحترم ما تفعله، و لكن اسمح لنا أن نقول لك إنه من الممنوع عليك أن تخرج ليلاً إلى هنا فنرجو منك أن تؤدي صلاتك داخل الغرفة، شكرتهم، ثم رجعت إلى غرفتي حيث كان هناك مجال واسع لسجادتي

[2] حاولت جاهداً أن أشغل وقتي بحفظ أجزاء من القرآن الكريم، و بعض الأدعية، و كتابة الشعر و بعض الأفكار من هنا و هناك

②⑦

◗ الفصل السابع و العشرون ◖

هيئـة المُحلفين

Grand Jury



هنا تسكب العبرات: حاولت جاهداً مع الإخوة أن يعجّلوا بموضوع الإفراج عني بالكفالة لكي يتسنى لي المقاومة في الشأن القضائي و أنا خارج السجن، و لكن الظرف لم يكن بتلك السهولة فالأمر كان يتطلب أن نجد من يكون مستعداً للدخول في هذه القضية و المجازفة لوضع جزء كبير من المال مقابل إطلاق سراحي، و الأمر هنا لا يقتصر على المال فحسب، و إنما ينعكس على الحالة السياسية لتلك الخطوة في ما لو فكر أحد المتمولين أن يخوض غمار هذه المجازفة، فأحداث الشرق الأوسط و سخونتها و خاصة في لبنان غيّرت الواقع و جعلت الكثير من الأصدقاء يترددون في الإقدام على مساعدتي في السعي و المساندة القضائية، الصورة العامة التي عكستها وسائل الإعلام الأمريكية باتت مضخمة جداً تحمل كل معنى التشويه لقضيتي و شخصيتي، فالكثير من الشخصيات التي تعمل في مجال التجارة اعتذرت عن تقديم المساعدة خوفاًعلى مصالحها وعلى وجودها في الولايات المتحدة.

و لكن القرار الصعب الذي كان يجب أن نتخذه في مثل هذه الظروف. هو الطلب في الحضور إلى هيئة المحلفين التي أشرحها و أختصر عملها بالتالي:[1]

---

[1] هيئة المحلفين (Grand jury) و هو نظام تتعامل به القوانين القضائية الأمريكية في حالة الجرائم الكبرى. و ملخصه: إذا حدثت جريمة سواء أكانت جريمة قتل أم جريمة تزوير أو سرقة أو تهريب أو ما شابه، فإن القضاء الأمريكي يجب أن يقدم القضية إلى هيئة تسمى هيئة المحلفين، هذه الهيئة يتم إختيارها عشوائياً و غالباً عن طريق كتاب التلفون (Yellow Pages)، يختارون مثلاً مائة إسم ثم يستدعون تلك الأسماء للمقابلة، و يجب على الشخص ذكراً كان أم أنثى أن يحضر للاستدعاء، ثم تقوم لجنة خاصة بالتحقيق مع ذلك المرشح، فتوجه له أسئلة عامة لمعرفة فيما لو كان هذا الشخص يحمل أفكاراً معادية أو مؤيدة لحالة الشخص المتهم، و الذي في الواقع لا يعرف ذلك الشخص المرشح عن قضية ذلك المتهم. و هكذا نرى اختيار هيئة المحلفين عملية معقدة و طويلة لها سياقاتها القانونية و العملية، أهم ما فيها أن يكون عضو الهيئة محايداً بالكامل في حبه أو بغضه أو تعاطفه أو ميله أو رغبته أو غيرها تجاه المتهم، بل يجب أن لا يملك أي خلفية لا دينية و لا عرقية و لا قومية و لا أي نوع من أنواع الاختلافات التي تؤدي إلى أن يقف عضو الهيئة موقفاً معادياً أو محابياً للشخص المتهم، فإذا ظهر أي كراهية أو حب من قبل هيئة المحلفين تجاه المتهم أثناء المرافعة فعلى ذلك الشخص تقديم إستقالته و الخروج من هيئة المحلفين فوراً، لان ذلك سيعرضه إلى عقوبات شديدة إذا ظهر أن الحب و الكراهية موجودة تجاه ذلك الشخص... و كما ذكرت فإن انتقاء هيئة المحلفين صعبة جداً و مضنية، و لكنها قضية تمثل أعلى درجات العدالة و حق الإنسان في الدفاع عن نفسه، فإذا كان الشخص الموجه له الاتهام مثلاً أسود أو مسلماً أو مسيحياً... أو عربياً.... الخ، فإن اللجنة التي تختار الهيئة ستوجه السؤال إلى المرشح مثلاً هل تحب العرب أولاً تحبهم ....؟ فإذا قال أحبهم سوف لا يكون مرشحاً ناجحاً، و إذا قال لا أحبهم أيضاً يسقط من الترشيح، ثم يسأل هل تحب المسلمين أولاً تحبهم؟، و هكذا

كانت هيئة المحلفين تتكون من 11 شخصية: أربع نساء و سبعة رجال، و القاضي يستمع إلى طرفي النزاع فقط، لكي يتأكد من أن الأسئلة و النقاشات تسير بطريقة دقيقة و غير إستفزازية.

بدأت الجلسة في الثامنة صباحاً، و كان القرار أن تكون الجلسة بدون حضور المحامي لأنها ستعكس جانباً من الثقة بالنفس و الاطمئنان إلى عدالة المحكمة، و أن تجري بصورة طبيعية لكي تتمكن الهيئة من إكتشاف شخصية المتهم على حقيقتها، و من خلال كلامه.... القاعة كانت غرفة عادية من قاعات المحكمة، يجلس أعضاء هيئة المحلفين إلى الجانب الأيمن من قفص الاتهام كما يجلس القاضي على منصته الأمامية، ثم هنالك طاولة الادعاء و طاولة الدفاع [1]

كان من المهم علينا أن نكتشف نوعية تلك الشخصيات بدقة متناهية و بدون أن نخطأ في ذلك، فمثلاً الرجل الأسود أقرب إلى فهم قضيتنا من الأبيض، و الرجل ذو الأصل اللاتيني يسهل نقل الصورة إليه بشكل أفضل من الأمريكان، و الأمريكان أفضل في فهمنا من اليهود، و المرأة أيضاً عندما

حوالي خمسين سؤالاً من هذا النوع حتى يختاروا ما بين 9-11 شخصاً محايدين تماماً، لا هم مع، و لا ضد صاحب القضية، لأنه في الحالتين سيكون الحكم غيرعادل. دور هيئة المحلفين هو التأكد من حياديّة السلطات التنفيذية في أن عملهم في الاعتقال كان بدوافع عقلية، أو لأسباب مخالفة للقوانين، و ليس لشيء آخر، دورهم في كل ما يجري هو إما أن يقولوا إن هذا الشخص الواقف أمامنا (متهم) (Indicted) أو (غير متهم)(Non-Indicted) فقط لا غير، فإذا كان قرار الهيئة بتوجيه الاتهام إلى ذلك الشخص، فإنه عندئذ سوف يحاكم في المحكمة، و إذا كان غير متهم يطلق سراحه على الفور و بدون تأخير، و طريقة عمل الهيئة هو الاستماع إلى مجريات القضية من قبل الشخص الذي تم إلقاء القبض عليه من قبل السلطات، و قدمته إلى القضاء لمواجهة التهم التي وجهت إليه ابتدائياً، و على هيئة المحلفين أن تستمع إليه مباشرة لا من قبل المحامي أو شخص آخر، مع العلم بأن للمتهم الحرية في أن يكون هنالك من يدافع عنه أمام هيئة المحلفين.... و هيئة المحلفين باعتبارهم أفراد من الشعب الأمريكي ليس في نفوسهم من بغض أو كراهية تجاهي فإنهم سوف يبرأوني، و إذا برئت فإنني عندئذٍ سأقاضي الحكومة الأمريكية و سيتحول الأمور إلى معركة سياسية حامية الوطيس، تؤثر على مجريات السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط، و ستعاد لي كل الحقوق التي سلبت مني أيضاً، و قانون هيئة المحلفين هو أن يقرر المقبوض عليه خلال مدة أسبوع من رغبته في الذهاب إلى الهيئة، أو لا، فإذا لم يحضر المتهم فان قرار (الاتهام) سيطاله أوتوماتيكياً و هو (توجيه التهمة بالذنب و ليس الذنب)

[1] من الأمور المهمة في مثل هذه الحالات المصيرية في حياة الإنسان الذي يحضر في الدفاع عن نفسه أمام هيئة المحلفين، أن يكتشف نوعية شخصيات الهيئة، في الوقت الذي يحظر القضاء على الهيئة أن تبدي أياً من الإشارات السلبية أو الايجابية في تعاطفها أو عدم تعاطفها مع الشخص الماثل أمامها أثناء المرافعة

تنقل لها الصورة يجب أن تتناول الوضع العائلي، فهو أقرب إلى التأثير مما هو عند الرجال، كذلك من الأمور الرئيسة في مدينة ميامي هو العنصر اليهودي الطاغي على أعداد السكان و هؤلاء بالتأكيد سوف لا يتعاطفون مع هذه القضية أبداً حتى و إن أظهروا عدم انحيازهم إبتداءاً، و لذلك فالتمييز و البحث أو الحدس في نوعية أعضاء الهيئة أمر مهم جداً، و كان كما ذكرت العنصر اليهودي هو أخطر عامل من عوامل النجاح أو الفشل هنا في قضيتنا..... و من خلال الحدس و بعد أن حدّقنا في وجوه أعضاء الهيئة كان اعتقادنا بوجود رجل يهودي واحد، أو ربما امرأة يهودية أيضاً في الهيئة،[1] و اثنان من الأسبان اللاتين، و إثنان أسودان، و البقية من التسعة هم أمريكان عاديون، هذه هي النظرة الأولى لنا التي لا نعرف مدى صوابها أو عدمها، و لذلك كانت إستراتيجية العمل و الدفاع تتغير حسب ما هو واقع على الأرض و في تلك اللحظة بالذات.

بدأ المدعي العام لجهاز المخابرات يعرض القضية بشكل يدل على الحقد و الكراهية و التشويه، ثم أكمل كلامه قائلاً: إن هؤلاء هم عبارة عن مجموعة من الناس ترمي إلى إثارة الوضع الأمني في البلد بمساعدتهم إرهابيين لضرب الأمن القومي، و البنى التحتية في الولايات الأمريكية بسبب موقفها من الحرب الإيرانية العراقية، ثم بدأ يشرح للهيئة دوري المباشر في التخطيط للعملية، ثم أشار إلى خطر الإرهاب و انتشاره ما بين الحركات المؤيدة لإيران و خصوصاً بين العراقيين الذين يعارضون نظام الحكم في العراق، ثم طالب هيئة المحلفين بتوجيه التهمة لنا لكي تحاكمنا المحاكم الامريكية.

و بعد ساعة تقريباً من كلام الادعاء رفعت الجلسة لمدة 10 دقائق للاستراحة، ثم دخلنا القاعة ثانية و جاء دورنا في الدفاع، و كان الأخ د. حسان قد هيأ نفسه جيداً، و ارتدى بدلة جديدة، و ربطة عنق زرقاء، وقف بكامل الأناقة كي يتكلم بكل حرية بعد أن ظهر أمام الهيئة بأنه إنسان ذو مستوى عالٍ من القدرة و الثقافة، و كما ذكرنا في السابق فإن هيئة المحلفين و حتى هذه اللحظة لم يطّلعوا على الموضوع و لم يسمعوا بأوليات القضية قبل هذه الجلسة، و إن المعلومات التي تقدم الآن هي التي يسمعونها لأول مرة من الطرفين الحكومة و نحن.

---

[1] معرفة شكل اليهودي من غير اليهودي تعتمد على الخبرة و على الشكل الذي يقترب أحياناً من شكل الأنف و شكل التصرفات و طبيعة التفكير و الشعور بضيق النظرة. و هذه ليست بالضرورة أن تنطبق على كل اليهود، بل إنها قضية تحتاج إلى ممارسة

بادئ الأمر عرّفهم الأخ بنفسه قائلاً: عملي طبيب أعمل الآن في 7 مستشفيات في ميامي و كنت في السابق قد عملت طبيباً في سجن (أبي غريب) قبل أن أسافر إلى أميركا: و ها أنا اليوم أروي لكم بعض ما عاينته في ذلك السجن كشاهد أول (First witness) و هي شهادة ليست مروية عن و عن، و إنما ارويها لكم بكل وضوح من شاهد حي هو أنا..... كنت أطّلع على أجساد الذين يؤتى بهم للإعدام في بغداد فأرى آثار التعذيب من الضرب الذي كان السجناء يتعرضون له في ذلك السجن، و كم رأيت بعضهم من دون أعضاء من شدة التعذيب، و لم تستثن مشاهداتي على الرجال، و إنما كانت غالبية كبرى من الأمهات، و من الشابات و من الأطفال أيضاً، و كذلك الشيوخ، و كان الناس الذين يؤتى بهم إلى مقاصل الإعدام التي تبتدئ يوماً في الأسبوع منذ الفجر حتى ساعة متأخرة من الليل، تقطع بها الرقاب الواحد تلو الآخر، و كنا نسمع كل حركة من حركات المقصلة (آلة الموت)، مع صرخات المعدمين من النساء و الأطفال و الرجال، و كنت أشرف شخصياً على المقتول بعد أن يبرد جسده من جراء تدليه من الحبل ثم الموت، و كنت أعرف بأن التهمة الموجهة ضدهم عبارة عن تهم لا تكاد تذكر مثل: الانتماء إلى حركة فكرية، أو إهانة الرئيس، أو عدم الذهاب إلى الجيش أو غيرها. و قد شاهدت بنفسي كيف أعدمت كوكبة من طلاب الجامعات في وجبة كبيرة كانت تضم الطبيب، و المهندس، و المدرس، و الزراعي و غيرهم.

كل ذلك حيث كان الأخ د. حسان يتكلم بلهجة حزينة و نبرة هادئة و كان ينظر من وقت لآخر في وجوه الموجودين فيتحسس علامات الأسى و الحزن ظاهرة عليها، لأنها مأساة إنسانية لا يتمكن صاحب المبدأ أو الضمير و حتى الإنسان العادي من إظهار اللامبالاة... ثم أضاف الأخ للجو حالة من التعاطف و المأساة علهم يفهمون ما اقترفته أيادي النظام الظالم في العراق.

و قد كانت الهيئة و بسبب تأثرهم و تفاعلهم مع الإحداث و بسبب ضرورة أن لا يظهروا تأثرهم يحاولون أن يغمضوا عيناً و يفتحوا أخرى، ثم ذكر بحزن حادثة مقتل أخيه على أيدي النظام تحت التعذيب و إجبار العائلة على أخذ الجثمان و الذي رأوا آثار التعذيب و آثار الطعنات على وجهه و باقي جسمه، ثم أخرج لهم من جيبه صورة له، و قدم أيضاً لهم تقريراً صادراً من منظمة العفو الدولية عن وحشية ما تعرض له أحرار العراق.

و لم ينس أن ذكر لهم مأساة اعتقال أبيه، و أمه و أخوته و أخواته و خصوصاً الوالدة، كذلك رواية التهجيرالمفزعة و رواية حادثة الأنفال، و كل جرائم النظام بشكل من المأساة الكبرى الواقعية.

كل ذلك و الحادثة عندما تروى لهم بذلك الجو الهادئ و كأنها أجريت أحداثها الآن. عكس لهم الصورة و كأنها ليست حدثاً روائياً، و إنما كانت حدثاً أو فيلماً متحركاً يعتمل في الذهن، و يستشعر به كل من سمعه، و كان في دفاعه ينتقل من قضية إلى أخرى بصورة عاطفية مأساوية كما حدثت، و كان بين الحين و الآخر يتوقف كي يرى تأثير ما يقول على سحنات وجوههم، ثم انتقل إلى حادثة مأساة عائلتي عائلة آل شبر ثم آل الحكيم، و آل بحر العلوم، و بصورة لا تقل مأساوية عما نقلها عن عائلته، و قد ركز الأخ على موضوع المرأة و كيف استعملها النظام كأداة ضغط على الأبناء و الآباء و الأزواج لتسليم أنفسهم، ثم ذكر إسم والدتي العلوية أم صلاح و هي قابعة الآن في سجن رهيب تنتظر عودة إبنها الذي هو الآن أمامكم، و الذي تتهمونه معي في نفس القضية كي يسلم نفسه إلى السلطات العراقية لإعدامه و قتله.

ثم قال لهم: انظروا أيها السادة، يا أيها المدافعون عن العدالة و رسالة أمريكا في حرية الإنسان، هل من العدل أن تتفق أهداف الولايات المتحدة الأمريكية مع أهداف أكبر طاغية في الأرض في تسليم السيد شبر إلى صدام لقتله لكي يطلق النظام سراح والدته من السجن؟

مرت الساعتان سريعة، و الأخ يتكلم و كأنه السيل، إذ كان الكلام نابعاً من قلب، و ليس من لسان، و كأن الله قد أوكل بنا في تلك اللحظات ملَكاً صالحاً ينطق بكل كلمة من كلمات المأساة الكبرى، و كنا و في أثناء المرافعة أمام الهيئة تغرورق عيوننا بالدموع فنسكت عن الكلام وعن الاسترسال، و كان القاضي في تلك الأثناء وعندما يغلب البكاء على وجوهنا يطلب منا إذا كنا نحتاج إلى فرصة أخرى فكنا نرفض ذلك بغية الاستفادة من الوقت.

و ما أن تمر الساعتان الأوليتان من المرافعة حتى بدأ على ثلاثة من هيئة المحلفين: إمرأتان و رجل قد ظهرت عليهم علائم التأثر و التفاعل الوجداني و الإنساني مع مأساة الواقع، و بدأ البعض الآخر بالإضافة إلى الأشخاص الثلاث من الهيئة يفرك عينيه كمحاولة منه في السيطرة على عواطفه من الدمع[1]

---

[1] و هو شيء ممنوع في جلسات هيئة المحلفين، و الأمريكان غالباً عاطفيون، و يتأثرون بسرعة للمواقف المأساوية الإنسانية، كما بدى على خمسة آخرين آثار الألم و التعاطف من خلال انفعالاتهم اللاإرادية تجاه هذه المأساة التي يظهر أمامهم بعض اشخاصها المضحين

ثم بعدها بدأنا نتساءل أمامهم عن سبب كل تلك المأساة...؟ و عن طبيعة استهتار النظام العراقي بحقوق العراقيين الأبرياء....؟ ثم قلنا لهم:لا نكتمكم سراً إذا قلنا لكم إن النظام العراقي ما كان له أن يمارس ما مارسه اليوم لولا الماكينة الإعلامية الكبرى و المساندة اللوجستية التي تبنتها الإدارة الأمريكية، خصوصاً بعد أحداث الثورة الإسلامية في إيران في شباط 1979.

إننا و من خلال عملنا الذي أظهره الأستاذ المدعي العام قد دبلج عملنا الإنساني لإنقاذ عوائلنا و أهلنا و المضطهدين من الشعب العراقي الطيب قد دبلجه إلى الوجهة السياسية، و نسي مآسي الشعب العراقي، و اعتقدت المخابرات الأمريكية بأننا شخصيات نرمي من ذلك إلى زعزعة الأمن في هذا البلد، ثم قال الأخ: إننا لم نتحرك في هذا العمل إلاّ استجابة لإنقاذ أرواح الناس من الأطفال و من الشيوخ و الأمهات لكي نخلصهم من واقع الذبح الذي أقره نظام بغداد الذي لا يطال فقط الشخص المعارض المطلوب، و إنما يطال أيضاً أقاربه من الدرجة الثالثة، و كذلك أي شخص يتستر عليه أو يؤويه، و تتذكرون يا أيها السادة و تعرفون كلكم قضية (راوول وينبورغ) الذي أنقذ آلافاً من اليهود المجريّين و ذلك بإقدامه على طبع وثائق مزورة من سفارته السويدية تسمح لهم بالانتقال إلى بلدان أخرى حماية لأنفسهم من القتل و الذبح من قبل السلطات النازية، و نحن الآن نقوم بنفس الدور في حماية أنفسنا و عوائلنا، إن (راوول واينبورغ) قد قلدته دول أوربا وسام الشجاعة من الدرجة الأولى. بعد أن اعتبرته السلطات النازية إنساناً مزوراً مجرماً، و لكنه بقي بطلاً تفتخر به أوروبا، و قد منحته أمريكا و كندا الجنسية الفخرية تثميناً لجهوده في مساعدة الآخرين بالجوازات المزورة التي أصدرها... إننا لا نختلف عن نيته في العمل و لا في المبادئ الإنسانية.

هل هنالك من أحد منكم يقبل في أن يقتل أفراد عائلته أو أبناؤه على يد سفاح قاتل و هو جالس هنا في أمريكا، و لا يتحرك باتجاه إنقاذه....؟ إنكم كلكم آباء و أمهات و إخوة و واجبكم و واجبنا أن ننقذ الأبرياء من شعبنا العراقي الطيب.

ثم إننا اليوم، و نحن نقف أمام القضاء العادل نريد أن نسأل حكومتنا (الولايات المتحدة) عن دورها في هذه الجرائم الكبرى، و مشاركتها في إرسال المستشارين العسكريين و التكنولوجيا العسكرية في قتل الأبرياء، و نتمنى أن تكون لهذه الجلسات و لهذا القضاء العادل تأثيرعلى سياسة الولايات المتحدة الأمريكية من خلال الهيئة المختارة من هيئة المحلفين الموقرة.

ثم شكرنا الجميع ......

ساد صمت قاتل في أرجاء القاعة بينما أخرج قسم من هيئة المحلفين مناديلهم لتنظيف أنوفهم و أعينهم من الدمع.

كانت هيئة الادعاء قد لاذت بالصمت القاتل، و كأن على رؤوسهم الطير، و كأنهم شخصيات كانت في حفلة جنائزية لا تلوي على شيء، أما المدعي العام فانه صار فارساً قد سقط سيفه من يده، بل إنه اكتشف في اللحظة الأخيرة أن عدوه على حق، و أنهم على باطل، المدعي العام و من وراءه من كل المخابرات الأمريكية بشتى أقسامها و قواها تقف اليوم عاجزة في أن تدرء عن نفسها وصمة العار التي ستلحقها في قرار الهيئة، هذه الفئات كلها كانت في بداية الجلسة منتفخة مملوءة بالحقد تتكلم بثقة بالنفس بأنها متحققة من الفوز، لما كانت تعتقد بأنها تملك من دلائل و شواهد دامغة على قدرتها في حسم الجولة لصالحها، أما الآن فقد رفع المدعي العام يديه إلى شاربيه و هو ينتظر ما ستؤول إليه النتيجة و قد أصابته حالة من الذهول تحولت شفتاه إلى لون فاقع الصفرة تنعكس من خلال حبات العرق التي تجمعت في محيط الشعر.

طلب القاضي رفع الجلسة ربع ساعة، ثم العودة مجدداً.

و أثناء مغادرتنا للقاعة اقترب بعض من هيئة المحلفين و صافحونا بحرارة قائلين لنا: بأننا كنا بارعين في المرافعة،عندها تأكدنا أن الفوز محقق لا محال، فالقرار الأول و الأخير هو قرار هذه الهيئة، فإذا أقرت الهيئة البراءة فإننا سنكون بعدها أحراراً، أما إذا قالت بعكس ذلك فانه يعني أن تبدأ إجراءات الحكم لمعرفة تفاصيل التجريم و مدة عقوبتها و غيرها من تفاصيل إجراءات و جلسات المحكمة و الشهود و ما إلى ذلك.

رجع الجميع بعد ربع ساعة، و جلست هيئة المحلفين، و هم كما ظهر لنا بأنهم ليسوا منزعجين، بل كان البعض يبتسم في وجه الآخر،و كأنهم قد اتخذوا قرارهم بالبراءة مسبقاً بدون أن يكون هنالك اتصال ما بينهم في هذا الأمر، كانت نظرات الهيئة و طريقة تفحصهم لملابسنا و شكلنا و طبيعة موقفنا و بساطتنا في الطرح، و في تاريخ عملنا السياسي، و العمل الفكري، و صراعنا مع الطاغية نبدو لهم و كأننا أناس جئنا من عالم آخر،عالم يكون فيه الفكر هو الحد الفاصل، كنا نتحسس هنالك و على شفاههم أسئلة من الصعوبة تجاوزها على الهيئة تلك. هي: ما الذي دفع طبيباً ناجحاً معروفاً في كل مستشفيات فلوريدا، و طالب دكتوراه في إحدى أرقي خمس جامعات أمريكية أن يضعا مستقبليهما على كف عفريت في الدخول في قضية خطرة قانونية كهذه القضية.....؟ إما أن يكون ذلك من باب الحماقة و الانفعال، أو أن

الموضوع موضوع فكري إنساني يبغيان من خلاله إنقاذ شعب معذب ينوء تحت حكم دكتاتوري متسلط.....؟ و بما أن المستوي العلمي و الثقافي لا يتلاءم مع الاحتمال الأول، فإذن الاحتمال الآخر هو الواقع، و هو الحقيقي، فإذن القضية في عرف هيئة المحلفين بدأت تتأرجح ما بين احتمالين، إما أن يكون الشخص الماثل أمامهم هو صاحب قضية مبدئية، أو إنه صاحب قضية إجرامية......؟ فإذا ذهبنا مع الاحتمال الذي دفعنا أن نقدم على هذه العملية هو من باب الدافع الفكري، فإذن لا يحق للحكومة الأمريكية أن تطلب منا المثول أمام هيئة المحلفين، لأنّ هيئة المحلفين يمثل أمامها أولئك الذين توجه لهم أصابع الشكوك الجنائية فقط.

و هكذا كانت القراءة الأولية في عيون الهيئة هو البراءة.. أما مشكلة المدعي العام فإنها كانت مثيرة للشفقة، إذ كان يصارع لحظات قاسية و هو الذي يمثل الحكومة الأمريكية التي فيما لو تغيرت أصول القضية من الإجرامية إلى الفكرية فإنها ستعاني الأمرّين، و ستكون الخسارة السياسية أكبر من أن توصف في هذا الجو المتلاطم من الأحداث الساخنة.
جلست هيئة المحلفين و أخذ كلٌ موقعه و بدأ القاضي يوزع الأدوار فطلب من الادعاء أن يقول ما يريد قوله بعد الشهادة تواً.
وقف المدعي العام قائلاً، و سائلاً الأخ د. حسان
- يا دكتور حسان هل تعرف السيد شبر.
- نعم.
-هل التقيته....؟
- نعم.
- كم مرة....؟
- مرات....؟
- عشر مرات، خمس مرات، مرة واحدة...؟
- لا أتذكر، مرات عديدة.

كانت نشوة الانتصار قد صعدت إلى رأسينا، و تأكدنا ما يشبه اليقين أن الأمر قد انتهى أصلاً، و علينا أن نخبر الجميع بالفوز، و لنزف لهم الحدث الضخم خلال الربع ساعة الآتية... و كانت نشوة الانتصار هذه قد منعت عقلينا عن التفكير، و بصيرتنا على التركيز، فالمباراة لم تنته بعد، و لكننا بدأنا مستهينين بكل الأسلحة التي يرفعها الآن الإدعاء، أو الحجج التي سيقدمها أمام الهيئة، و كأننا ننظر إلى الادعاءعلى أنه رجل بدأ يلفظ أنفاسه الأخيرة.
ولم نركز على أسئلته كثيراً، و لكنه استمر قائلاً:

- هل التقيت السيد شبر في فلوريدا....؟
- نعم.
- و في لويزيانا..؟
- لا.
- هل تستطيع أن تقول أين التقيته...؟
- قابلت السيد شبر أول الأمر في مؤتمر إسلامي عقد في السنة الماضية في إحدى الولايات الأمريكية الوسطى.
- و هل التقيت السيد شبر في العراق....؟
- لا .
- هل تعرفه من العراق.....؟
- أعرف عائلته.
- هل علاقتك به حميمة....؟
- جداً.
- من أين جاءت هذه الحميمية.......؟
أصحاب مصيبة واحدة و قضية واحدة و اختصاص واحد..
- عظيم.
- هل تذكر كل المواقف مع السيد شبر...؟
- ليس كلها، و لكن معظمها...

النظر إلى سيل، هذه الأسئلة التي تبدو ظاهراً بانها ساذجة و لكن هنالك ما هو مخفي فيما بعدها، و التي لم يتمكن الأخ من أن يدرك ما وراءها فهذه قضية لحد الآن جانبية جداً، و هيئة المحلفين أيضاً من جانبهم بدأ أحدهم ينظر في وجه الآخر متعجبين من نوعية الأسئلة التي لا تهم الموضوع الرئيس، و لكن القاضي أمرهم إلى الاستماع و التركيز، فالوقت الآن من حق الادعاء و له أن يقول ما يشاء، و أن يمارس الإستراتيجية التي يرغب في ممارستها و بدون قيود و هو ما يميز جلسات هيئة المحلفين التي تظهر بصورة طبيعية دوافع الأفعال التي يهتم بها الإنسان، و من خلال تلك الدوافع يمكن للمرء أن يستنتج مدى مصداقية الشهادة.
استمر المدعي العام في أسئلته.
- هل لك أن تميّز أو تخبر لون و أصاف السيد شبر..؟
- انه نحيف، طويل، أسمر، ذو شعر كثيف يبدوعلى محياه علامة الجدية، يميل إلى الهدوء.
- هل له أوصاف جسمية معينة، أعني هل هنالك ما يميز شكله مثلاً. هل له تسريحة معينه....؟ هل في وجه علامة معينه.....؟

- نعم .. نعم .. له شامة على جانب خده الأيسر أسفل العين
- و ماذا بعد..... ؟
- ملتحي .. بلحية خفيفة ناعمة سوداء اللون.
- و ماذا بعد......؟
- هذا كل ما فيه.
- يعني أنت د. حسان إنك لا تخطئ السيد شبر إذا رأيته في الشارع.... ؟
- بالتأكيد لا أخطئه، بل أميّزه من مكان بعيد.
- هل تتذكر أنك التقيت السيد شبر في أي مكان آخر غير فلوريدا، أو الولاية الوسطية التي ذكرتها.....؟
- لا أتذكر.
- ها ....ها ؟
ثم أضاف المدعي العام .
- هل التقيت السيد شبر خارج أمريكا في أوربا في آسيا في أستراليا.....؟

فكر د . حسان ملياً بالأمر، و تذكر بأننا التقينا في إيران في بداية 1983و لكنه لا يرغب بفتح الملف الإيراني،[1] و هو ما يعقد المسألة و تتحول الأمور إلى طريق يصعب السيطرة عليها، و لعل ذلك سيحول الأمور إلى منعطف تدخل فيه أزمة الرهائن و تأثيرها على الوضع النفسي لهيئة المحلفين.
ثم قال الأخ في نفسه فإذا قلت لا ماذا عن المدعي العام، و كيف يمكن له أن يثبت عكس ذلك...؟ لأنّ الإثبات يحتاج إلى وثيقة و ليس قول فقط، ثم قال في نفسه: ربما ذلك ممكن، و لكن بتوفر شرط واحد صعب الاحتمال و الحدوث. ذلك هو وجود تعاون ما بين المخابرات الأمريكية و الإيرانية، و هو فيما إذا حدث سيغير المعادلة، و بما إنه لا يمكن الركون إلى ذلك الاحتمال، إذن لا يمكن المراهنة عليها، و لذلك يجب إذن أن يكون الجواب ب (لا)...
- قال: لا لم التقِ بالسيد شبر إلاّ في أمريكا
- هل يمكن لك يا د. حسان أن تقول: لا أتذكر، أم أنك لم تلتق بالسيد شبر خارج أمريكا...؟ شيئان مختلفان، لا تتذكر شيئاً، و لم تلتق به شيء آخر، أيهما ممكن أن تجيب؟
- لم ألتق السيد شبر خارج أمريكا.....؟
- أمتأكد أنت..؟

---

[1] هذه هي قمة الخطأ و لا ندري لماذا ارتكب الأخ د. حسان ذلك مع أنه ذو شخصية إن تردد في شيء فإنه يتوقف عن الجواب، و كأن الأمر صار خارجاً عن إرادته لشيء لا نعلم لماذا

فكر الأخ د. حسان في الأمر، و وجد أن هنالك مصيدة، و لكن هذه المصيدة تحتاج إلى دليل قوي و ثابت لدحض الشهادة التي أنهاها تواً و لكن لا يمكن التراجع عن ذلك الآن، فالأمر الآن لا يحتمل إلاّ احتمالين إما التهرب ببطء، أو الوقوع في المصيدة... إذا كان هنالك دليل.[1]...
و لكن أين ذلك الدليل....؟ فهيئة المحلفين لا تدحض الحجج إلاّ بحجة أقوى،و الحجة الأقوى في هذا الأمر أن هنالك فلماً، أو لقطة فوتوغرافية تؤكد لقاءنا خارج أمريكا، و هذا مستحيل.... بدأت ماكينة الحساب تتحسن تدريجياً في عقل الأخ، و بدأ يعد العدة للمواجهة الجديدة، و لكن أية مواجهة هي، و من أي نوع ...؟ إنها تقترب و تقترب.

قال المدعي العام: هل سافرتما معاً أنت و السيد شبر إلى إيران...؟
- لا لم نسافر معاً (و هذا صحيح .... لم نركب طائرة واحدة أبداً)
- إذن يا د. حسان لم تلتق أبداً بالسيد شبر خارج أمريكا....؟
- نعم .. هذا صحيح.
- و لكن يا د. حسان إن الإنسان قد ينسى أحياناً، و مثلك طبيب معروف، و رجل أعمال و سياسي، و تعيل أكثر من عائلة و تشترك في الكثير من أعمال الخير و مساعدة الفقراء. قد يمكن لك أن تنسى حوادث كهذه.
- ربما... صحيح...ربما...ربما... و لكن هكذا أمور لا يمكن لها أن تنسى مع إنني أقول كل شيء ممكن...
و كان قد شعر بأن المصيدة تقترب منه رويداً رويداً، و أن الخناق يقترب من عنقه، و لم يخطر بباله بأن هنالك شيئاً موثقاً، لأنّ الشيء الموثق إن كان من المخابرات الأمريكية فإن هيئة الادعاء سترفضه لأنه وثيقة حكومية، و على المدعي العام أن يقول بالمصدر و إلاّ فان الرفض سيكون سبيله.
- و هل هنالك عمل مشترك ما بينك و بين السيد شبر غير قضية المعارضة العراقية و الاشتراك في مقاومة النظام العراقي؟
- لا ليس هنالك أي عمل مشترك من قبيل الأعمال التجارية أو غيرها، و إنما عملنا و علاقاتنا مقتصرة على وحدة الهدف.
- إذن لم تلتق بالسيد شبر خارج أمريكا أبداً، و انك تعرفه فقط و تلتقي به في أمريكا فقط...؟ و أنت تصر على ذلك، أليس كذلك يا د. حسان؟

---

[1] مع أن الموضوع برمته ليس له علاقة أبداً بمجريات الحادثة، و إنما حاول المدعي العام اختبار و تأثير علاقتنا بإيران لعل ذلك يغير من موقف هيئة المحلفين لا غير، و هو حتى و إن تم ذلك فإنه لا يغير من الحدث أبداً، و لا نعلم لماذا كان الأمر بهذا الصورة من رفض رؤية أحدنا الآخر في إيران

- تماماً مثل ما قلت
حرك المدعي العام يده إلى حقيبة كانت معه و أخرج صورة تجمعنا سوية و نحن نقف في صلاة الجمعة في طهران بينما ظهر خلفنا الشيخ رافسنجاني و هو يلقي خطبة الجمعة و خلفنا أيضاً الحرس الثوري بملابسه العسكرية و الآلاف من الناس تهتف هنا و هناك[1]
قدمها، و سأل المدعي العام: هل هذه صورتك يا د. حسان.....؟
- نعم
- و هل يمكن لنا أن تقول لنا من هو هذا الشخص الذي يقف إلى جنبك....؟
- السيد شبر
- إذن أنت و السيد شبر قد التقيتما في إيران...؟

لم يتذكر الأخ الصورة أبداً، و لم يعرف من أين جاءت...؟ و كيف وصلت إلى يد المخابرات....؟ فهي إذن إما من بيته، أو من بيتي أنا أو من المخابرات الإيرانية، أو التقطت من الأقمار الاصطناعية.....؟
و بمجرد أن نظر الأخ د. حسان إلى الصورة شعر بأنه فقد حياته، بل فقد شخصيته، و شعر بحرارة تشتعل في داخله و تأكل أحشاءه و تحيله إلى كيان أجوف.
مادت به الأرض و شعر بأن الغرفة تدور به، في ذات الوقت تحسس أن رجليه بدأت لا تحملانه و كأنهما مشلولتان، بل غير موجودتين... و قبل أن يسقط شعر بيد تمسكه و تسانده لكي يقول كلمته الأخيرة قبل أن يخسر الجولة التي كانت الضربة القاضية قد وجهت له من ملاكم محترف متمرس خزن كل قواه الفنية إلى اللحظة الأخيرة من الجولة الأخيرة، لكي يسقط بهدوء بعد أن تمكن فنياً و تمكن جسمانياً منه.... و قبل السقوط استند على الكرسي بضع ثوان، هذه الثواني كانت بالنسبة له تمثل إنعطافاً خطيراً في كل حياته و حياتي، بل إنها كانت الكافية أن تسقطه و إلى الأبد[2]
أراد أن يستعيد قواه، حاول أن يدافع، و لكن اللكمة الضخمة التي سددت له لم تزل تنتقل من عظامه إلى عقله و تفكيره.
و بينما هو يحاول إستعادة السيطرة على الموقف قال المدعي العام.....

---

[1] في نفس الرحلة التي سافرت بها إلى العراق و سوريا ثم عرجت على إيران
[2] لو ثبتت كذبة واحدة على الأقوال مقابل 99% كلام صادق فان الكذبة الواحدة تلك ستمحو كل ذلك العدد من حوادث الصدق، و هنا هي المصيبة التي حلت الآن، ستظهر كل تلك الشهادة أمام الهيئة كذباً و افتراءاً و تزويراً و سيصدر الحكم و ستسحب إجازة ممارسة الطب من الأخ د. حسان

- هل أنت بخير د. حسان..؟
- بالتأكيد أنا بخير، تذكرت عائلتي عندما هُجّرت إلى إيران، و هذه الصورة أثارت في النفس شجون الألم، و اعتذر عن ذلك
- تستطيع أن تجلس إن شئت
- بالتأكيد، فحوادث التهجير أشد على النفس من القتل، آه كم عانت عائلتي من الآلام و خصوصاً والدتي
- نتفهم ذلك د. حسان

ثم تدخل القاضي قائلاً: إعرض الصورة يا حضرة المدعي العام على الهيئة إن أمكن..؟

بالتأكيد.... أخذ الصورة رجل البوليس القريب من الجلسة ليأخذها لكي يريها إلى الهيئة.

توجه أخي الدكتور حسان إلى أولياء الله في لحظة صدق و رفع رأسه إلى السماء و طلب منه العون لإنقاذنا من هذه الورطة المهلكة....

ماذا عساه أن يقول ؟ و كيف سيدافع عن نفسه...؟ كان يسأل نفسه و يقول: لماذا لم أقل منذ البداية نعم، إنني التقيت السيد شبر في إيران....؟ فذلك أمر طبيعي، أما إنني أنفي اللقاء مطلقاً ثم يقام الدليل بحجة قاطعة فذلك أمر يثير الريبة و يثير الشكوك.

قال د. حسان للقاضي: دعني أراها أولاً، و كان يعتقد بأنها مفبركة أو مدبلجة، نظر إلى الصورة، إنها هي الصورة اللعينة، نعم إنها هي الصورة أو الحكم الفصل التي ستحول رياح المحكمة إلى الجانب الآخر، نعم إنها صورة واضحة جداً، نعم أتذكر الآن هذا الموقف، إنها ليست صورة مدبلجة، إنها حقيقية، إننا نحن الاثنان متعانقان و خلفنا إمام جمعة طهران الشيخ رافسنجاني.

إنها مأساة مروعة، كأن لسان حالنا يقول لنا: بأننا وددنا أنذاك أن تنخسف بنا الأرض، و لم نكن ما نحن عليه الآن.

وقف أخيراً الأخ الدكتور ثم جمع آخر قواه، ليقول بضع كلمات وجهها إلى هيئة المحلفين، و أراد من ذلك أن ينهي الصراع الداخلي فقال للهيئة: هذا كل ما لدي و أشكركم على اهتمامكم

ضرب القاضي بمطرقته و أنهى الجلسة، و تفرق الجميع راجعا كل من حيث أتى.

لقد وصلنا إلى نقطة الفوز بنسبة 99% و ما علينا إلاّ أن نحرز 1% لكي نحقق النتيجة و لكننا لم نتمكن.

بدأت الحرقة تأكل قلبي و تأكل تفكيري وعلي أن انتظر لحين مناقشات هيئة المحلفين ثم إصدار النتيجة.

فلو سارت الأمور كما كانت لأصدرت الهيئة قرارها في الحال بالبراءة، و لكن الأمور تغيرت و الوضع العام في حالة لا يمكن الوثوق بها.

طبعا قرارات هيئة المحلفين سرية، و الشيء الذي يعلن هو فقط النتيجة، و الذي يبدو كما فهمت من أطراف أخرى أن الهيئة انقسمت على حالها 50% برئ و 50% مذنب و امتناع عضو عن التصويت، و عليه كان يجب إحالة الموضوع إلى المحكمة العليا للمنطقة الجنوبية و مقرها في (اطلنطا جيورجيا) لدراسة الأمر و البت فيه، و هو ما حصل فعلا، و صارت جميع الأطراف تعيش في حالة من عدم الوضوح، الحكومة أي (FBI)، المحامي، أنا، الدكتور حسان، الجهات الأخرى، في الوقت الذي كانت الأحداث تتفاهم في الشرق الأوسط و كانت الأمور تسير من سيء إلى أسوء.

②⑧

◖ الفصل الثامن و العشرون ◗

المحكمة السياسيّة
أو رجعُ الصوت



الشهود و المساومة: و في جلسة مع المحامي المعني بالأمر كان هنالك رأيان، و كان هنالك جدل كبيراً و تعقيدات كثيرة، فالجانب السياسي الأمريكي المتمثل بالخارجية الأمريكية كانت ترى القضية و تنظر لها من المنظار الواقعي، بينما كانت المخابرات تتجه إلى التصعيد و القضاء و المزيد من الضغوط.

كان رأي كلا المحاميين في أن يكون الاتصال ما بيني و بين الأخ الكريم د. حسان من خلال المحامي فقط، و ليس من المستحسن أن يكون هنالك حوار ما بين المتهمين أركان القضية.[1]

---

[1] و ذلك لان المخابرات غالباً ما تستعمل أحد المتهمين ضد الآخر بطريقة ما، فقد تغري المخابرات ذلك الطرف و هو الضعيف غالباً، أو الشخصية التي تتشبث بشيء في الحياة، تغريه بأن يعترف على زميله الآخر أمام القضاء مقابل أن تقلل شدة العقوبة و عدد التهم الموجهة له، ذلك لان القضاء يتطلب شهوداً، و الشهود يجب أن لا يطعن بهم من الناحية القانونية، فشهادة رجل المخابرات غير مقبولة لدى القضاء، لان مفهوم الشاهد هو من رأى أو أشترك أو نفذ و ليس من سمع، و ما لم توثق تلك الشواهد بطريقة عملية فليس بالإمكان أن يقبل القاضي شهادة ذلك الإنسان مهما كانت درجته و مصداقيته، و لذلك فإن المخابرات غالباً ما تقوم بإغراء أحد المتهمين لكي يشهد ضد الآخر، فعندها يتبين للقضاء بأنه شاهد حقيقي، و ليس شاهداً نظرياً...... و قد استعملت المخابرات هذا الاسلوب الخبيث في وضع إسفين النزاع بيننا نحن أعمدة القضية المبدئية، كانت المخابرات تلح علي أن أشهد على الأخ المجاهد د. حسان، فإذا سقط أحد طرفي القضية فإن القضية كلها ستنكشف مما يستدعي القضاء أن يصدر أحكامه علينا كلينا، و كان رهان المخابرات إما أن أعترف أنا على د. حسان، أو هو يعترف علي، بمعنى آخر أن أقول بأن المخطط للعملية هو د. حسان لأنه قال لي إعمل كذا، و اذهب إلى كذا و ما إلى ذلك، و لم يكن دوري إلاّ المنفذ فقط، و إنني كنت أخشى أو كنت أريد الاسترزاق أو ما إلى ذلك للرضوخ لضغوط د. حسان، و عندها أكشف القضية برمتها لهم، و هم بالمقابل سوف مثلاً يطلقون سراحي أو يقللون مدة الحكم، أو إغراءات أخرى مثل الأموال أو المناصب مقابل الاعتراف على المشارك معي في القضية، و قد حاولوا مراراً أن يقدموا عرضهم بالأمر و بإغراءاتهم بأنني أنا السيد شبر رجل علمي جئت الى أمريكا لكي أدرس الدكتوراه، و إني لست من أولئك الذين يجرؤون على هذا الفعل، و أن د.حسان هو الذي ورطني لأسباب كثيرة منها طموحه الشخصي، و منها أنه في نزاع مع الجانب اليهودي في فلوريدا، فأراد من ذلك أن يخيف هذا الجانب و ما إلى ذلك من توجهات..... كما إنهم جاؤوا إلى د. حسان و طلبوا منه أن يكشف لهم الخطة و أن يقوم باتهامي بأنني المخطط للقضية، و أن هدف العملية هو تنشيط الجانب الإرهابي في أمريكا، و إننا نملك توجهات إيرانية، و أن السفارة الإيرانية كانت وراء عملنا، لكي نكون رأس الحربة في الصراع الدائر في الشرق الأوسط، و أن إيران سوف تستعملنا لنقطة هجوم و نحن في داخل أراضيها، هذا الأسلوب يكاد يكون الأسلوب الذي من خلاله تتقبل المحكمة مصداقية الشهود و هو في ذات الوقت يحقق للحكومة الكثير من الأهداف أهمها: الهدف السياسي، ثم الهدف الاجتماعي و غيره

و على أساس ذلك الاتجاه يجب على الطرفين الحوار من خلال المحاميين فقط، و أن الاتصال لو حدث فإنه يحدث من خلال المحامي فقط، المحامي من طرفه لكلينا غالباً ما يعمل لصالح موكله، و لا يهمه أن كان اللوم أو التهمة ستقع على هذا أو ذاك، و إنما همه الأول هو إنقاذ موكله من التهمة، لأنّ ذلك يزيد في درجته الحرفية في سوق المحاماة، فكان محامي د. حسن يعمل ضمن هذا المفهوم، و المحامي لي يعمل بهذا الاتجاه أيضاً، و لذلك فإن القضاء أو المخابرات رفضت أن يكون محامينا أنا و د. حسان واحد، و إنما قال لنا بأن ذلك سيقع تحت مفهوم تضارب المصالح (Conflict of Interests) و لذلك فقد يكون هنالك احتمال أن يتحول أصدقاء الأمس أعداء اليوم، و أن يعترف أحد الطرفين على الآخر لكي ينقذ رقبته أولاً، و يرمي باللوم على الآخر، و هو ما يحدث في أكثر من 90% من الحالات تقريباً التي تشترك بها أكثر من شخصية.
ففي العراق أو في بقية دول العالم غير الديمقراطي يحصل الإعتراف بتعذيب أحد الأشخاص ليعترف على إخوانه في التنظيم، أو في العمل ثم يقدم إلى المحكمة لنيل عقابه، أما في أمريكا فبسبب غياب التعذيب فإن الإعتراف لا يمكن له أن يحدث إلاّ بالإغراءات، و هو ما كانت تفكر به المخابرات الأمريكية في كسر أواصر العلاقة بيني و بين الآخرين من التنظيم و خصوصاً د. حسان.

<u>الانقسام القضائي...</u> أدى قرار هيئة المحلفين على الانقسام ما بين أعضائه الأحد عشر بانسحاب شخص واحد فكان أمام هذه الحالة أن تتحول القضية إلى المحكمة الأكبر، و هي التي ترعى المنطقة الجنوبية الشرقية و مقرها في (أطلنطا جيورجيا)، و كان لها أن تقول كلمتها في حالة التساوي في أصوات هيئة المحلفين.

و أمام هذا السيناريو كان أمام المسؤولين الأمنيين أن يعدوا العدة لقرار المحكمة الكبرى (District Court) كما أننا يجب أيضاً علينا أن نعد العدة بالمقابل للواقع الجديد في الذهاب إلى المحكمة، و قد ظهر أمام المخابرات الأمريكية أن هنالك إستحالة في أن يكون الإصدار من المحكمة الكبرى من صالحهم، و إنما أسوء الاحتمالات أن يُستدعى هيئة أخرى للمحلفين لسماع الموضوع، وعندها سيكون هنالك نتيجة معاكسة لما يريدونه في توجيه التهمة لنا لأنّ الموضوع، كلما تأخر يبدو أمام الجميع و المخابرات أيضاً أن القضية لا تسير باتجاه رياحهم، و إنما فرص النجاح لنا بدأت تقترب أكثر و أكثر، فهنالك أمور أساسية بحتة لم تتمكن المخابرات من إثباتها أبداً. منها:

- عدم توفر نيّة مخالفة القانون الأمريكي
- قيام المخابرات بنصب الشرك لأمور سياسية و ليست إجرامية.
- غياب التاريخ الإجرامي لملفاتنا.
- قوة احترامنا في المجتمع و شهاداتنا.
- غياب فرص التعاون مع أي بلد أجنبي.
- عدم وجود نص قانوني بحرمة هذا العمل.
- التعاون الوثيق ما بين المخابرات الأمريكية و العراقية. و هو أمر فيه أكثر من قول.
- قدرة و قوة الدفاع من المحامين و غيرهم.

و لكن الوضع مخيف في مثل هذه الأمور، و في ظرف فشل المخابرات في النجاح في القضاء سيكون أمامها عدة احتمالات، إما تغييرالحقائق بطريقة ما، بمعنى آخر تقديم أدلة مخالفة للواقع، أو الحوار، أو الإغتيال.

<u>خيارات صعبة... جداً:</u> في رأينا إن الخيار الثاني هو الحل الذي كنا نتوقع أن تلجأ إليه المخابرات، و الذي كنا نرى فيه من الواقعية لكلا الطرفين، و فعلاً بعد عشرة أيام اتصلت المخابرات و طلبت من خلال المحامي أن يكون هنالك حوار ما بيننا من خلال طريقة تسمى (Cross Examination) أي أن يوجه محامي المخابرات أسئلته إلينا، ثم يوجه محامينا أسئلته إلى المخابرات، و هي طريقه تستعمل لمعرفة نيّة كلا الطرفين تجاه الطرف الآخر.

و هكذا كانت أولى الجلسات، و تبين من خلالها و بوضوح أن الجانب المخابراتي ليس لديه من مانع في أن يستمر في الحوار بصورة خارج المحكمة (Settelment out of the court) أي إتخاذ القرار خارج حدود المحكمة، أي الحوار أولا، فإذا لم نتمكن من التوصل إلى حل فإن الذهاب إلى المحكمة هو الحل... و لكن أين هي المشكلة الكبرى التي عطلت المفاوضات، و عطلت المساعي بهذا الاتجاه.....؟ ذلك هو إصرار الجانب المخابراتي على قضيّة مركزية. تلك هي أن أحدنا يجب أن يقدم نوعاً من التضحية، أي بمعنى آخر يجب أن يكون هنالك شخص ما من المجموعة التي أقدمت على هذا العمل كبش الفداء و بعدمه أي بعدم وجود ضحية قانونية فان الطرف الآخر- أي طرفنا- ربما الآن أو بعد 20 سنه سوف يقيم دعوة قضائية على الحكومة و المخابرات و يطالب بتعويضات كبيرة عن الضرر الذي لحقنا من جراء عمل المخابرات، أما إذا كان هنالك ضحية فإنه سيكون أمام القانون مذنب. و

الذنب سوف لا يلحق فقط بالشخص، و إنما بالقضية نفسها، وعند هذه النقطة فإنه لا يحق لنا الآن و لا مستقبلاً أن نرفع دعوى قضائية ضد الحكومة.

و كانت الحكومة و المخابرات تصرعلى إلحاق تلك التهمة أي كبش الفداء بي أنا لكي تتخلص مني كلياً و تتخلص من عملي و نشاطي و غيرهم.

توقفت المفاوضات عند هذا الحد. في ذات الوقت كان أمامنا خيار قرار هيئة المحلفين الذي ربما يصدر في أي وقت من قبل المحكمة الكبرى و نحن نمتلك ثقة كبرى بأنه سيكون من صالحنا، و لو شعرت المخابرات بأن القرار سيكون كما نراه نحن فأنا شخصياً أعتقد و أصر على قناعتي بأن المخابرات ستتبع الطريق الثاني ذلك هو الاغتيال أو ما شابه.... لأنّ الوضع في مثل هذه الحالات سيكون له أثر كبير على مصداقية المخابرات على العموم، و خصوصاً إننا كنا نشد العزم لما بعد صدور قرار هيئة المحلفين الذي سيكون برفع دعوى قضائية كبرى ضد المخابرات... و إن فزنا -و هو المتوقع في تلك الدعوى- فان المخابرات ستواجه امراً معقداً جداً لا مجال للحديث عنه الآن و في هذه الصفحات.

إذن أمامنا خياران أحلاهما مر، و لكن في مثل هذه الأمور،عندما تقتنع المخابرات بأنها أخطأت أو أنها ستقع في مصيبة خسارتها في المحكمة فإنها تبادر كما ذكرت إما إلى الاغتيال أو إلى تهريب ذلك الشخص إلى خارج أمريكا للمدة القانونية التي تسقط بعدها التهمة و ذلك بعد الاتفاق على التفاصيل التي هي معقدة جداً و ليست من مجال اختصاصنا، فأحياناً كما نرى عدالة قضيتنا بشكل لا يقبل الشك أبداً، و لكن في أحيان أخرى كنا نعيش هاجس الانتقام، أو إشغالنا بقضية أخرى غير هذه القضية الأساسية، ثم توجيه طاقاتنا إلى جهة أخرى لنقع في فخ آخر من فخاخ المخابرات الرهيبة.

و بعد مناقشات مطولة و رد و بدل و إرشادات، و بعد أن عرفنا أن الإخوة في خارج أمريكا و في المعارضة العراقية لا يمكنهم من أن يتحركوا على مستوى القضاء و تعقيداته، و إنما دورهم ربما ينحصر إذا تحولنا إلى الصراع السياسي فسيكون للمعارضة قولها و موقفها في رفد قدراتنا بطاقات علمية و تخصصية في الشهادة العلمية أمام القضاء.

و هكذا صار الرأي الأخير بأننا نساوم المخابرات بسلاح (الطرح السياسي) للمحكمة القادمة، أو التوصل إلى حل يرضي الطرفين.

معنى أن تتحول القضية في القضاء إلى قضية سياسية. يعني أن تقدم أمام القضاء مواقف الولايات المتحدة في مساندتها للنظام العراقي و تزويده بأسلحة الدمار الشامل و الأسلحة الكيماوية و الكثير من آلة القتل التي يستعملها الآن ضد الشعب العراقي، و هو ما سوف يتطلب -في سياقات المحكمة- استدعاء الكثير من صنّاع القرار في الولايات المتحدة للشهادة في تلك المحكمة..... و فعلاً تم الإتصال بمحامٍ خاص في واشنطن لترتيب الجوانب القضائية للمحكمة الآتية[1]

القرار سوف يتم فقط لو تمكننا من النجاح أو الفوز، فليس هنالك من غالب أو مغلوب على المستوى الشخصي و إنما القضية برمتها ستنعكس سياسياً بشكل سلبي على سمعة أمريكا في العالم، بل ربما أن المحكمة الكبرى سوف تعطل القرار لمدة أطول لإعطاء الفرصة لكلا الطرفين في التوصل إلى تفاهم خارج نطاق المحكمة.

تأخر قرار محكمة المقاطعة، مر أسبوعان و لم يصل الجواب من (أطلانطا) عندئذ طلب المحامي جلسة تفاهم مع مكتب التحقيقات الفدرالية، ثم قدم لهم طلباً رسمياً بنيّة الدخول في الحلبة السياسية في مجريات المحكمة، لم تعترض المخابرات على هذا القرار، و لكنها أبدت امتعاضاً شديداً و واضحاً و هددت بصورة مبطنة في أن نتائج هذا القرار ستنعكس عليّ أنا لأنني في ذلك الوقت كنت لا أزال تحت رحمة السجن، و لازلت محدد الحركة و الخيار، مع أننا لا ندري ما هو معنى التهديد و ما ستؤول إليه النتائج.

---

[1] و من الواضح أن هذا النوع من المحاكم، مع إنه لا يتم فيه التوصل إلى قرار تجريم أو غيره، و لكنه يزعج الإدارة الأمريكية، و يؤدي إلى سقوط الكثير من الشخصيات بالاستقالات أو الخروج من المناصب كما حدث في قضية إيران-كونترا التي أسقطت الكثير من الأسماء الكبيرة مثل (بويندكسر) مستشار الأمن القومي للرئيس ريغان

②⑨

◗ الفصل التاسع و العشرون ◖

الإنفجار و أسراره
بعد 25 سنة



كسر الصمت... هل له من مخارج..؟ قبل منتصف الليل بقليل من يوم 11 حزيران عام 1985 بينما غادر رجال الأعمال في يوم جمعة مدينة (Fort Lauderdale) (مدينة اليهود) و تحولت إلى مدينة هادئة خالية من زحمة الموظفين و الأعمال، دوى إنفجار ضخم في الشركة الكبرى التي يملكها (جول) و هي شركه متخصصة بالطباعة و الإعلان و النشر، الشخص الذي تعاون مع المخابرات الأمريكية، و مع الحكومة العراقية بشأن تسريب المعلومات، و هو ذات الشخص الذي هدد د. حسان و قام بابتزاز السفارة العراقية في استلام الرشوة الكبيرة التي كان أحدهما هو استلامه سيارة من النوع الثمين، بالإضافة إلى رشوة مالية لم نعرف قدرها.[1]

و قد دمر الانفجارالشركة بأجمعها، و أحرق نصف القاطع و البناية التي تقع فيه... و عندما هرعت سيارات الإسعاف و الإطفاء إلى المنطقة و أخمدت النار، و سيطرت على الحريق لم يكن هنالك أية ضحايا، حيث كان وقت الانفجار مخططاً بشكل منسق في أن يكون في الوقت الذي غادر الناس أعمالهم.

ضجت المدينة المهمة و الكبيرة برجال الأعمال و تسربت الأقاويل، و بدأت الصحف بالتخمينات التي وجهت الإتهامات تماماً إلى مجموعتنا و خصوصاً إلى د.حسان باعتباره العدو الأول لصاحب الشركة لأنه الشخص الذي قام بالوشاية و التعاون و اشترك في تسريب المعلومات إلى المخابرات، و قد كان الناس قد عرفوه أثناء فترات الاعتقال عندما أجريت معه مقابلة تلفزيونية و سئل عن السبب في تعاونك مع المخابرات، و إفشاء العمل الذي كان يقوم

---

(1) Print Shop Damaged By Blaze Cause Undetermined For Late-night Fire، October 11، 1987|By BOB FRENCH، Staff Writer، FORT LAUDERDALE -- A two-alarm fire late Friday night caused an estimated $200،000 damage to a printing company، fire officials said. The blaze at Mr. Quick Print، 2741 E. Oakland Park Blvd.، broke out at 11:18 p.m.، fire Lt. Bill Sharp said. It was brought under control in 15 minutes. No one was injured. FBI، police and Fire Department investigators have completed an investigation of what is left of Printing and Marketing Consultants Inc.، the shop owned by Joel Feinstein، who last month helped the FBI crack what it called an international conspiracy to print phony Iraqi passports and military identification cards.

به السيد شبر و د. حسان فأجاب: إنني كنت أعتقد بأنني أخدم بلدي في الكشف عن شبكات إرهاب.....

أما أنا فإنني لا زلت أنذاك أقبع في السجن، فليس من المعقول أن تتسرب الشكوك تجاهي في المشاركة في العمل و ترتيب مخطط الهجوم و تفجير شركة (جول).

و كان إصبع الاتهام يجب أن يتوجه أولاً إلى د. حسان باعتباره الشخصية المتضررة من صاحب الشركة.... استدعي مباشرة الدكتور حسان إلى مقرالمخابرات، و طلبوا منه الحضور لتقديم إفادته أمام الهيئة المتخصصة في هذا الشأن، لأنه الشخص الوحيد الذي يشك فيه في تلك الفترة مع عدم وجود الدليل.... ضايقته المخابرات و طلبت منه تفاصيل تحركه خلال الأسبوع الذي سبق الانفجار، و تثبيت الأماكن التي كان فيها، و المكالمات التلفونية التي أجراها و الأشخاص الذين قابلهم، و كل ما يخصه مما هو متعلق بأعماله في تلك الفترة منذ خروجه من السجن و إلى الآن..... فقدم لهم تلك الوثائق عن كل مكان ارتاده خلال تلك المدة، مثلاً قائمة شراء حاجيات من صيدلية، أو مكالمة تلفونية، في كذا وقت أو الذهاب إلى المستشفى في الوقت المحدد و هكذا. و بعد مداولات و محاولات بدأت الشكوك تحوم على شخصية د. حسان بأنه الشخص الوحيد الذي من الممكن أن يقدم على هكذا عمل، أو ربما المنظمة المفترضة التي كانت خلف د. حسن أو خلف قضيتنا نحن، و ذلك حسب الفرضية التي تقول: أن عملنا لم يكن عملاً شخصياً، و إنما هو عمل منظم وجوهه هم صلاح، و حسان أما جسم تلك المنظمة الكبير فهو غير معروف. و هو ما يعني القدرة الضاربة و القوه التي تمتلكها تلك المنظمة في الرد مباشرة على تلك الخيانة التي قام بها (جول).

و هنا ظهرت الاحتمالات التي كانت المخابرات تشك في وجودها، و كانت الفرضية تتضمن كوننا لسنا أشخاصاً، و إنما منظمة كبيرة و ضخمة قدراتها تمتد من الشرق الأوسط إلى أمريكا. فإذا كانت تلك الفرضية قائمة فهذا أمر كبير و مهم مع عدم توفر الدليل على إرهابية تلك المنظمة و معاداتها للنظام الأمريكي.

إذن تغيرت الآن قواعد اللعبة تماماً، و بدأ الأمر يتخذ طابع المواجهة و طابع الانتقام و الرد بالمثل، أي بمعنى آخر، و كأنّ الانفجار يقول للحكومة و المخابرات: إما أن تطلقوا السيد شبر، أو أن تنتظروا الرد الأكبر، و كذلك فإن منطوق ذلك الانفجار يريد أن يصرح بأن كل أولئك الذين تعاونوا مع المخابرات، و شهدوا ضدنا فإن يدنا ستنالهم بطريقة أو بأخرى، و هي إشارة

صريحة إلى المخابرات و الادعاء العام، و كل أولئك الذين وقفوا موقفاً سلبياً من قضيتنا.
إنها محاولة من قبلنا -كما تراها المخابرات الأمريكية- في الضغط على تحقيق مطالبنا بطريقة الضرب بالعمق لا بطريقة الحوار و ذلك بعد أن:

- تأخر قرار هيئة المحلفين من المحكمة الكبرى.
- رفض تسييس المحكمة.
- رفض قبول شرط العمل على إسقاط صدام في المفاوضات.
- رفض عدم تجريم الأشخاص المشتركين في العملية.
- زيادة الضغط على السيد شبر في سجنه

و هكذا كان في مفهومهم أننا نفكر باتجاه إقرار الأمر الواقع، و فرض رأينا الذي في مثل هذه الحالات يكون الرد الكبير الذي قمنا به -و في اللغة التي تفهمها المخابرات الأمريكية- هو الضرب بالسلاح الخفيف و لكن بدون ضحايا، و هي الطريقة التي غالباً ما يفهمها الطرف الآخر في إرسال الرسالة التي تقول: بأن هنالك رداً أقوى إن لم تحققوا المطالب العادلة لقضيتنا، و إننا إن ضربنا في المرة المقبلة فإننا سنضرب بشكل أقوي و أعنف (كما يشير إليه منطق الاشياء).
و مما يعزز ذلك أن تلك النظرية لدى المخابرات الأمريكية هي تقرير خبراء المتفجرات الذي استدعي من العاصمة واشنطن، الذي أكد أن الانفجار مدبر من قبل مجموعة متخصصة جداً في تحديد حجم الانفجار، و تجنب الضحايا في الأشخاص و ضرب الهدف المحدد بشكل حرفي كبير، و قال التقرير أن الانفجار شبيه بتلك التي يقوم بها (حزب الله) في لبنان، أو الأحزاب المعارضة للوجود الأمريكي في الشرق الأوسط.
و قررت تلك اللجنة أن هناك تشابهاً ما بين بعض نقاط الانفجارالذي حدث في بيروت و بين هذا الانفجار.
و قد كانت هذه التصريحات قد صبّت الزيت على النار، و حولت هذه المنطقة إلى منطقة مخابراتية في البحث عن خيوط تلك المنظمة الكبرى التي يقودها هذان الرجلان في ضرب المصالح الأمريكية في حالة الاستمرار في المواجهة.

و بعد لقاءات و مداولات كثيرة، و حرب نفسية ضخمة و بغياب دليل الانفجار، و عدم قدرة المخابرات على العثور على أية إشارة إلى من يمكن أن توجه له أصابع الاتهام.... أمام كل ذلك كان الشخص الوحيد الذي تحوم حوله الشبهات هو د. حسان فقط، لأنني كنت -و كما ذكرت آنذاك- أقبع في

السجن، مع أن الفرضية التي جاءت بها المخابرات فيما بعد هو أن هذين الرجلين صلاح و حسان جزء من التشكيلة الكبرى لتلك المنظمة التي خططت لإسقاط صدام حسين، و خططت لصناعة تلك الوثائق و تمكنت من تحقيق الكثير من الأعمال و الانجازات، تلك المنظمة من الممكن أن تكون قد بادرت بنفسها و بدون علم هذين الرجلين في تفجير مقر الشركة..... و لكن هذه الفرضية بالتأكيد هي التي من الممكن أن تتخذ كبداية.

و لكن السؤال الكبير الذي يمكن أن يسأل هو: من يقود تلك المنظمة....؟ و ما هي هويتها....؟ و هل إنها ترمي الأذى بالنظام الأمريكي...؟ أو إنها تملك إستراتيجية لضرب المصالح الأمريكية...؟ أم إنها منظمة هدفها الأول هو إسقاط صدام و التخلص منه...؟ و بما أن المخابرات قد وقفت حجر عثرة في طريق تحقيق المخطط في إسقاط صدام. فعندئذ يجب إزاحة ذلك العائق، و ضرب أمريكا بالقدر الذي أدى إلى توقف عملية إسقاط النظام في العراق، هذه الفرضية صارت هي الأقوى، و بدأت الضغوط تنهال علينا في تقديم المعلومات عن المخطط الذي يقف خلف تلك المنظمة، أو عن المنظمة نفسها هل هي (الدعوة)...؟ (حزب الله)......؟ أو أيا من تلك المنظمات التي تتبنى في أصول أفكارها إزاحة صدام من الحكم....؟

كان الطريق الوحيد الذي تملكه المخابرات الأمريكية هو الضغط و المساومة و تقديم كبش فداء، الضغط على الشخصين المعروفين اللذين هما أمامنا الآن، و تهديدهما و توعدهما بالأسوء، و المساومة معهما على الإفراج و التعاون.

و هكذا كان أول هدف للمخابرات هو العمل مع د.حسان في التأكد من أنه فعلاً لم يكن على علم بالتخطيط للانفجار، و على ضوء تلك المعلومة سلباً أو إيجاباً يمكن الترتيب لبقية مراحل التحقيق..... و جاءت هنا المخابرات إلى د.حسان بالطريقة الاستفزازية المعروفة بالتهديد ثم التجريم في المحكمة القادمة[1] و هكذا حدث رد و بدل و مشاحنات ما بين الطرفين توصل

---

[1] و هذا في وضع د. حسان معناه إنه لو أصدرت المحكمة ضده أية أحكام مهما كانت مخففة فإن ذلك يوجب عليه أن يخسر شهادته في ممارسة الطب في أمريكا، و هو أمر فيه الكثير من الإجحاف له، لان ذلك يعني أن حياته بالكامل ستتغير في أن يتعامل مع الواقع التجاري و الواقع الاجتماعي بوضع آخر مختلف عن وضعه الحالي كطبيب لا يملك القدرة على ممارسة الطب، و سيكون قدره أو حجمه المالي محدودا جداً و على البنوك التي أقرضته القروض الضخمة الكبيرة أن تسترد تلك القروض الآن منه، و بعدمها سيتدخل البنك ليفرض عليه قانون تصفية ممتلكاته و سحب معظم ما يملك من عقارات و أموال و غيرها،

المحامي من قبل الطرفين إلى حل وسط، ذلك الحل هو الخضوع إلى جهاز كشف الكذب للتأكد من صحة أقواله، فوافق على ذلك[1]

و قبول د. حسان بتعريضه إلى ذلك الجهاز يعتبر مجازفة كبرى للطرفين، بل تحديّاً ضخماً له، لأنّ ذلك دليل لا يستهان به على صدق موقفه من كذبه، بل دليل يمكن الركون إليه في طريقة التعامل... في ذات الوقت فانه اختبار لسوء نية المخابرات.

كانت نتائج اختبار الكذب مرضية لأجهزة المخابرات عندما أكد ذلك الجهاز بأن د. حسان لا علم له بالانفجار و التخطيط له.... عندها اقتنعت المخابرات بتلك النتيجة من الجانب الشخصي لا الجانب العام.

و لكن السؤال الأكبر الذي يطرح نفسه و يلح هو: و ما علاقتي أنا في الانفجار، هل أنا المخطط للانفجار فعلاً و أنا داخل السجن.....؟ أم أن المنظمة التي تريد إسقاط صدام قد قامت به إنتقاماً لاعتقالي......؟، أم إنه إنتقام من الشخص الذي سرّب المعلومات إلى السفارة العراقية......؟

<u>و أخيراً... هل للمعاداة السياسية من مبادئ..؟</u> و في السجن اتصلت بي المخابرات و جاؤوا و بشكل هستيري، و بطريقه تختلف عنها في المرات السابقة. جاؤوا إلى السجن الثاني و استدعوني للمقابلة، و كان الوقت صباحاً حوالي العاشرة، بعد أن نودي عليّ فاستجبت و ذهبت إلى حيث قاعة المقابلات، و كان هنالك أربعة رجال مخابرات أحدهم هو الرجل الأصلع القصير الذي أعتقد بأنه مدير الجهاز في ميامي كما ظهر لي و معه 3 آخرون واحد منهم كما قدموه لي متخصص و لكن لا أعلم ما هو تخصصه، و الثالث أعتقد انه ليس من (FBI) و إنما من (CIA)، والرابع عربي لبناني أو سوري من واشنطن العاصمة.

جلسوا.. و جلست.. و دار الحوار التالي:

و هو أمر في غاية الصعوبة بالنسبة له، و لذلك فانه يجب أن يخرج من هذه القضية بريئاً 100% و إلاّ فالثمن كبير... و المخابرات على علم بنقطة ضعف وضع الدكتور حسان، و كانت تهدده دوماً على هذه النقطة و التي بدأت تضغط باتجاهها في كشف خيوط الانفجار و خلفيات المنظمة القادرة على أحداث ذلك

[1] مع أن هذا الاختبار لا يؤخذ به في محاكم الدولة و إنما هو قرينة تستفيد منها المخابرات لمعرفة بعض صدقية الشخص المقابل فيما إذا كان كاذباً أم صادقاً، و الواقع أن هذا الاختبار له من الواقعية و المصداقية ما لا يمكن المناقشة فيه، فالكذب يظهر كذباً، و الصدق يبقى صدقاً، إلاّ إذا تمكن الإنسان داخلياً في أن يقنع نفسه بعكس ذلك و هو محاولة صعبة جداً عند ما يمارسها الإنسان أمام الاختبار

- قلت مبتدئا: أهلا بكم ثانية، ثالثةً، رابعةً، عاشرةً، أصدقائي القدامى، و أصدقائي الجدد، و أنا محظوظ أن أكسب صديقاً جديداً كل يوم
- نحن أيضاً نرحب بك سيد شبر
- ما الأمر؟ أراكم مرتبكين اليوم هل من جديد؟ أو هل من مشروع تريدون تقديمه اليوم؟
- ربما، و لكن أمر اليوم غير الأمر السابق، قالها رئيسهم
- هل تغيرت قواعد اللعبة....؟ سألتهم
- لا أبداً فالشروط هي كما كانت و المشروع كما قلنا لك، و يبدو أن موقفك هو هو كما كان، أليس كذلك...؟
- كذلك ما لم نغير مفهوم المشروع، فان أصررتم على بقاء النظام فأنا على موقفي، و إن أصررتم على الكلام بدون مشروع فأنتم على موقفكم.
- أنت تلعب بالنار سيد شبر
- أعرف، و لكن ليس لي غير هذا الخيار، هل لكم مساعدتي على إيجاد خيار آخر يضمن لي حقي في أن أعيش في الحياة، و أن يعيش شعبي بأقل أسس الحياة الكريمة...؟
- عندنا رأي، قال اللبناني
- تفضل عزيزي فأنا أحب الآراء الجديدة
- هل لنا أن نتفق على مخرج للازمة بيننا و بينك؟
- بالتأكيد.. قلت
- لماذا لا نترك الشروط المسبقة و نتكلم بمنطق الحوار
- جيداً، قلت
- أسألك: هل تدربت على السلاح..؟
- مقدمة لا تشبه السؤال، قلت له و ابتسمت
- ماذا تعني؟ سألته
- لنترك الشروط المسبقة فرضاً، و قل لي ما فرضيتك
- تعرف إنكم فجرتم شركه (كذا) التابعة إلى (جول)، و أنا لو كنت بمكانكم لعملت نفس الشيء مع من كشف مخططكم أمام المباحث الأمريكية[1]
- أها.... أجبته، لكي أعرف ماذا يريد أن يقول...
- نحن الآن ممكن أن نتكلم بالموضوع مع أنك وعلى حسب علمنا، ليس لك أي ضلع في ذلك الانفجار.

---

[1] إسلوب دقيق في التعبير و في الحصول على المعلومة

- أها
- فأنت في أمان من الحديث لأنك بالتأكيد لم تشترك في الانفجار
- أها
- هل أنتم غاضبون على طريقة تعاملنا مع الأمر..؟ ..
- لم أجب.
- تعرف أن هذا الأمر يحدث لأول مره في تاريخ أمريكا من ناحية دقة الانفجار و عدم ترك أي أثر على الفاعلين..؟
- أها.. مع ابتسامة
- هل تدربت أنت على السلاح قبلا..؟ سأل الشخص الذي هو من واشنطن
- كلاشنكوف فقط، و رصاصة واحدة فقط
- من تعتقد عمل الانفجار من شخصيات منظمتكم...؟ سألني رئيس المخابرات
- أها...... باستهزاء
- كيف تعتقد في إدخالهم السلاح...؟
- أها .... بعدم إكتراث ثم أوقفتهم، و قلت لهم: ايها السادة إن وقتكم ثمين، و وقتي أيضاً، مع أنني داخل السجن، و لكن قولوا لي ما تريدون بالضبط....؟ فأنا لا أريد أن أسمع الترهات من الكلام (Non sense) .. و إذا لم تقولوا ذلك فإنني سأنهي المقابلة الآن.
- عذراً، قالوها كلهم..... ثم بادر رئيسهم إلى الطلب من المجموعة، و خصوصاً الشخص من واشنطن أن يقول ما عنده، و كيف يمكن لنا أن نتعاون بجد
- رجوع الى الماضي، أم بداية جديدة....؟ أم إستمرار للسابق..؟ كلٌ له طريقه قلت لهم
- كيف ما تريد
- و لكن أراكم بروحية أخرى الآن مختلفة عن السابق، هل الانفجار غيّر تفكيركم و إستراتيجيتكم..؟ و الآن صار تقديم الأهم على المهم....؟
- بالتأكيد الأمور تتغير بالساعات، و علينا أن نكون قريبين من الحدث.
- بدون شروط..؟ قلت... أليس كذلك؟
- بدون شروط
- بكلمة واحدة، إنقلوها الى رؤسائكم: إن من مصلحة الطرفين تغيير النظام في العراق لنتفق على الفكرة، قلت

- و إن اتفقنا...؟ هل هنالك من معلومات لديك عن الانفجار....؟
- مقايضة أم، إستراتيجية..؟ قلت
- سمها ما شئت سيد شبر.
- انتم مطالب منكم الآن، و كما يبدو لي أن مسؤوليكم قد ضغطوا عليكم في الحصول على معلومة الانفجار. أليس كذلك...؟ سألتهم
- أمر مريع بالنسبة لنا
- وهل أنا مفتاح لذلك كما تعتقدون؟
- بالتأكيد.. أجابوا
- هذا موضوع منفصل تماماً عن الموضوع الأول، أنا أريد أن أرى موقفكم مما قلت الآن في اشتراك مصلحتينا في إسقاط النظام و إن الانفجار ما هو إلاّ ظاهرة أو عرض، و الأعراض لا تناقش مع شخصيات مهمة مثلكم، و إنما يجب أن نناقش الأمراض، و المرض الذي أتكلم عنه هو النظام العراقي، فإن ناقشناه بجدية فأمامنا فرصة لإزالة الأعراض.
- سكت الجميع

استمر النقاش ربما أكثر من أربع ساعات مع احتدام في الآراء، استنتجت بأنهم غير جادين في مناقشة موضوع إسقاط النظام، و إنهم جاؤوا فقط للحصول على المعلومة التي تخص الانفجار، و بعدها سيعودون لمماطلتهم و وعودهم، فليس من العقل أن نستمر في حوار الطرشان و بدون مبادئ لذلك الحوار.

صافحتهم و قلت لهم: أنا جداً آسف أن نستمر على ما نحن عليه إلاّ أن يكون هنالك جديّه في النتائج، و أنا أرى فيكم بأنكم عناصر تحقيق أكثر منكم عناصر حلول، و أتصور أننا لكي نكون علميين يجب أن نحدد أولوياتنا، و لذلك فإنني أطلب منكم و بكل مودة أن ترجعوا إلى مدرائكم و تقولوا لهم، و تنقلوا رأيي و رأي المعارضة العراقية، في أننا مشتركون في الهدف. ذلك الهدف هو خطورة النظام العراقي علينا كلينا، و لكن الفرق هو بعد النظرة و اختلافها ما بيننا، وأعتقد بأننا يوماً ما سنتوصل إلى ذلك، فالزمن كفيل بذلك، و لكن يجب أن لا يسبقنا الزمن فنكون من الخاسرين، أما الجانب الشخصي لي فإني -و كما ذكرت لكم قبلاً- إنها محكمة سياسية و ليست إجرامية و عندها لكل حادث حديث.

صافحتهم و قررت أن أنهي الحوار العقيم معهم.

و لكن من دبّر الإنفجار...؟

و من كان خلفه......؟

سؤال جداً مهم و أساسي لعل الكتاب بأوراقه هذه لا يستوعب أفكاره، بل ربما علينا أن نبحثه في وقت آخر، و ربما في ظرف غير هذا الظرف.[1]

---

[1] Miamі Herald - June 11، 1985 - 2BR BRWD، FBI TEAM TO SIFT RUBBLE AT FIRE FOR BOMB EVIDENCE: A team of 20 FBI agents was assigned Monday to search the rubble at a bureau informant's Fort Lauderdale print shop for any evidence that it was destroyed by a bomb. The agents will use a 60-ton crane to remove debris from Printing and Marketing Consultants Inc.، 2773 E. Oakland Park Blvd.، which was destroyed Sunday by a spectacular fire that also damaged four adjacent businesses. The reports of an explosion، the buckled walls، the quick spread of the fire and the...

③⓪

◗ الفصل االثلاثون ◖

الإفراج



لا يعني الافراج شيئاً غير تغيير الموقع كانت أيام السجن كلها أوقاتاً منتجة بالنسبة لي، فقد كنت قد قررت أن أهتم بنفسي و خلجاتها و أن أكتشف أماكن الضعف و الوهن و المرض الذي تراكم في خضم السنين الماضية التي كانت تمر سريعا و بدون أن نشعر بها، و نشعر بتأثيرها على عقولنا و نفوسنا و التي كانت تترك أكثر من جرح و أكثر من أثر، كل ذلك انعكس على مستوى تفكيرنا و رؤيتنا لما يجب أن نكتشفه في مسيرة الحياة.

فقد كانت مشاغل الحياة و تعقيداتها السياسية و الدراسية و العائلية تأكل منا الكثير من الأوقات و من الجهود بحيث لم تترك لنا تلك المشاغل من فرصة لمراجعة و دراسة ما علق في ذاتنا من أمراض و رواسب، فقد وجدت أن هذه الفرصة هي من أهم ما يجب عليّ أن أفضي إلى مساحة نفسي، لكي أعرف ما بداخلها و كيف تسللت الأمراض الفكرية إلى داخلها بشعوري أو بعدمه...؟ كنت فعلاً و في تلك الفترة أعيش حالة المكاشفة مع نفسي الأمّارة بالسوء التي غالباً ما ترفض كل ما من شأنه أن يغير من طريقة عملها و فهمها للحياة، إلاّ إذا كان هنالك ظرف آخر مختلف عن ظروف الحياة العادية التي نعيشها يومياً، ذلك الظرف يجب أن يكون من الظروف التي تعاكس هوى النفس، و تتجه بغير هواها، و كما يقول الاقتصاديون أن الأزمات هي الفترة التي من الممكن أن تكون الأفضل في التجديد.

كانت القوانين تفرض عليّ أن أقف أمام القاضي في عرض قضيتي مرة أخرى لكي تعاد قراءة الكفالة التي من الممكن أن يقررها القاضي بكمية أقل من المرات السابقة، و هو غالباً قاضي آخر غير القاضي الأول، و قد ذهبت مرات عديدة إلى المحكمة و كان الأمر و في كل مرة أن تقف المخابرات الأمريكية موقفاً ضاغطاً للاستجابة لمطالبهم، أو لعدم السماح لي في الحصول على قرار الإفراج بالكفالة، و هو عنصر ضغط كبير على السجين، بل جزء من محاولة المساومة ما بين المخابرات و بين السجين، و كانوا في كل مرة يأتون لي لكي يساوموني، كنت أقول لهم: أمامكم الزمن فاعملوا ما شئتم بما لديكم من القدرة، أما أنا فيجب أن أفضح ديمقراطيتكم و انفعالاتكم و قلة إنسانيتكم، و سوف تعكسون دوماً صورة سيئة تنعكس على نظرة الآخرين من شعوبنا الى سلوككم و الى مستقبلكم، و هو بالتأكيد ما سوف يزيد من حقد تلك الشعوب عليكم أمام إصراركم على مساندة ذلك الطاغوت، فأنتم اتخذتم من القضية المبدئية الكبيرة و المهمة طريقاً لضربي شخصياً لا لسبب إلاّ لأنني أريد أن أقول لتلك الشعوب بأنكم أحراراً و بأننا من يجب أن يعمل في إزالة روح العبودية و الذل التي فرضتها الأنظمة. تلك التي ساندتموها و

ضخختم فيها من المال و من الخبرة و السلاح... و عليه فإنني سأبقى في سجنكم شاهداً إلى اليوم الذي ترون بأنني حتى في سجني فإنني صوت و قضية.

شعرت المخابرات بأن أسلوب الضغط على عدم السماح بالمحكمة في قبول الإفراج بالكفالة لا يجدي نفعاً، و إنني أزداد تصلبا كلما زادوا هم في تشددهم، حتى وصل الأمر و في آخر جلسة من الجلسات عندما نودي باسمي أن أذهب صباحاً إلى المحكمة، و كانت القاضية إمرأة كبيرة العمر تبدو أنها اسبانية أي من اللاتين الأسبان و يبدو أنها كانت مثقفة و عاقلة، حضرت أمامها وعرضت القضية فسألت المخابرات عن تقليل الكمية من الكفالة، وافقت المخابرات و قد أعماهم الله بشكل لم أكن أنا أعرف أسبابه، فما كان من القاضية إلاّ أن قالت كلمتها و تغير كل ما كان سابقاً في قبول الإفراج عني بكفالة قيمتها مبلغ يعتبر مناسباً في قضية كقضيتي... فقلت لها شكراً، ثم رجعنا إلى السجن.

تمكن الإخوة في الحركة الإسلامية أن يجدوا قدراً من المال لكي تدفع كفالةً لإخراجي من السجن مؤقتا لحين أيام المحكمة التي من المفترض أن تحدث في مده يقررها القضاء، و كانت أموال الكفالة قد تبرع بها أحد الإخوة من الأقارب (فتح الله أمامه أبواب الرحمة، و رزقه من كل خير و حسن عاقبة) بالإضافة الى بعض التبرعات من أناس آخرين، و كان شرط الإفراج هو وضعي تحت قرار (Probation) التي يجب على أثرها أن أسجل حضوري في دائرة المخابرات مرتين أسبوعياً أو حسب ما قررت المخابرات.

رجعت إلى مدينتي مع عائلتي و جامعتي، في الوقت الذي كان الكثير من المعارف قد وجد ذلك سبباً في الابتعاد عني خوفاً من الملاحقة و المتابعة، إذ أنني أقدّر لهم كل ذلك، لأنّ الظروف معقدة جداً و صعبة و خصوصاً إذا تفهمنا ظروف العراقيين في علاقاتهم بأهلهم داخل العراق و الخوف من انتقام النظام منهم.
عشت أياماً صعبة جداً و مملّة، فتحركاتي محسوبة و علاقاتي محسوبة و كلها تتطلب استحقاقات في قضية يصعب على الإنسان أن يواصل في ذلك الجو المكهرب.

كانت الأجواء مشحونة، و كانت احتمالات الاغتيال واردة، و المراقبة مستمرة من قبل المخابرات أو أعوانهم ممن لا يعرفهم أحد، و هي تبحث عن

خطأ بسيط لكي تكون لهم الحجة القانونية في إعادتي إلى السجن، و كنت كلما ذهبت إلى شقة لتأجيرها أجد في اليوم التالي رفضاً من قبل المالك لسبب لا أعرفه، حتى قررت فيما بعد أن أستأجر مكاناً بعيداً ما عن محيط الجامعة، و كنت أنذاك أستعمل الدراجة النارية في التنقل تجنباً للمشاكل، كما بدأوا أيضاً يحاصرونني من ناحية الرزق و الاستمرار في الحياة المعيشية، فقد كانت الحكومة تدفع لطفلتنا الصغيرة بعض المواد الغذائية مثل الحليب و الجبن وغيرها من الأمور. فقد فوجئنا يوماً بإيقافها و بدون سبب مباشر، ثم بدأت شركات التلفون تضع شروطاً تعجيزية لمد خط التلفون، فقد طلبوا مبلغاً كبيراً كتأمينات مسبقة لانجاز تأمين الخط التلفوني.

و مع الظروف الصعبة المحيطة بي لم تتوقف حركتي في مواصلة الجهاد ضد نظام صدام في العراق، فقد بدأت أتحرك بصورة تختلف عن الصورة الأولى التي كنت عليها قبلاً، فالسفر الآن ممنوع عليّ إلاّ إذا قدمت طلباً إلى القاضية التي قبلت شروط الكفالة، و هي معاملة صعبة عليّ أن أقدم أسباباً مقنعة للسفر، فبقيت في المدينة أسكن في إحدى ضواحيها، ثم أسجل حضوراً مرتين في الأسبوع مع أجهزة المخابرات، للتأكد من وجودي في البلدة، و ليس ذلك فقط، بل أن أصدقاءنا الأعزاء من الجنسيات العربية الأخرى وجدت أن هناك الكثير منم حاول تجنب زيارتي أو اللقاء بي. و أنا أعذرهم في ذلك، بينما كان آخرون لم تثنيهم الظروف عن تقديم المساندة و الاستمرار في العمل و التنسيق.

③①

◗ الفصل الواحد و الثلاثون ◖

عَودٌ على بدء
أو المشروع الجديد



الاستمرارية صفة الحياة: و قد بادرت في أول أسبوع من الإفراج عني إلى تبني مشروع غريب على مسامع الإخوة العاملين معي في القضية العراقية أنذاك. ممن هم موجودون على الأرض الأمريكية أو الأوربية، و ذلك في تبني فتح مكتب للقضية العراقية في واشنطن العاصمة، و عرضت عليهم أن أكون أنا الذي يديره حتى تقرر المحكمة مصيري، إما بالسجن أو الفرار أو البراءة، و قد عملت بجد و نشاط لإقناع الإخوة العاملين بأهمية هذه الخطوة لأنّ الظروف السياسي و علاقتها مع الظرف و الحكومة الأمريكية و المخابرات، مع أنها لا زالت متشنجة تجاهنا و لكنها أدركت فعلاً من نكون نحن...؟ و ما هي مبادئنا و أخلاقنا و أهدافنا..

في الوقت الذي أصيبت بصدمة في عدم تقديم أية تنازلات، و لا أية معلومات كانت المخابرات تبحث عنها. مثل: شكل التنظيم في أمريكا و في أوربا و في بقية أقطار العالم التي كانت تصر إصراراً منقطع النظيرعلى معرفة هذا الجانب، و لذلك كانت خطوة الإفراج خيبة أمل لهم، و التي جعلتهم يعدون العدة إلى يوم المحكمة لرد الانتقام.

كان رأيي في موضوع فتح مكتب للمعارضة العراقية في واشنطن و الأسباب الداعية إليه هو أن الحركات في العالم عليها أن تستفيد من لحظات تاريخية تمر بها أو في ظروف خارجة عن إرادتها، مما يدعوها إلى تحويل مسار عملها نحو إتجاه مختلف، فمثلاً تم إعلان تشكيل أفواج المقاومة اللبنانية (أمل) هويتها و ذلك بعد حدوث الانفجار الضخم في إحدى معسكرات تدريبها في أواسط السبعينيات مما اضطرت القيادة أن تعلن وجود منظمة أمل و إعلان برنامجها العام، و هكذا بقيت التشكيلات و التنظيمات الأخرى و خصوصاً المقاومة منها.

أنا شخصياً تحسست بأن الواقع السياسي في الولايات المتحدة يتطلب تسويق أفكار المقاومة و المعارضة العراقية إلى بقية السياسيين الأمريكان من قبيل أعضاء الكونغرس و رجال الأعمال و غيرهم من غير الأمريكان، كما وجدت أيضاً أن الحكومة الأمريكية نفسها بحاجة إلى معرفة فلسفة حركتنا. و هو ما يفرض علينا كأناس مغيرين أن نفكر بأسلوب استباقي، و الإقدام على فتح ممثل لنا في واشنطن العاصمة، ثم محاولة فتح قنوات حوار ما بين الجهات الحكومية وغير الحكومية الأمريكية و بين أطراف من المعارضة العراقية التي تعيش معظم قيادتها في إيران، وعليها أن تتفهم مدى الارتباط الذي يجمع ما بين الإيرانيين و بين العراقيين، و هل أن الجامع مصلحي

براغماتي...؟ أم جامع فكري...؟ و هل أن تلك الحركات العراقية تحمل نفساً إرتجالياً -كما يقولون هم- شأنهم شأن القادة الإيرانيين..!!

في تلك الأوقات كان الحديث مع الأمريكان يعتبر في عرف الوضع السياسي العراقي أقرب إلى الكفر و الخيانة منه الى الواقعية، و هو ما يؤمن به جميع أطراف المعارضة من الحركات الإسلامية و الحركات اليسارية، بل ربما كل أطياف التشكيلات العراقية سواءاً أكانت تلك التي تعمل على الساحة الإيرانية أم الساحة السورية أو حتى على الساحة الغربية، بالمقابل كانت الولايات المتحدة ترى أن الوضع الذي تعيشه الحركات الإسلامية العراقية لا يتعدى أن يكون صدى لما يقوله الإيرانيون..... و لذلك فإنهم (أي الحركات الإسلامية العراقية) كانوا في وضع أقرب إلى التقوقع منه إلى الانفتاح العالمي، و للأمانة نقول أن الموقف الأمريكي الرسمي هو ليس الموقف الذي تتبناه القوى المخابراتية، و هو الموقف الذي بيّنوه لي في حواراتهم. و هو الحوار المشروط و لكن ليس مع وجوبيّة التعاون، أما القادة السياسيون و وزارة الخارجية و مراكز البحوث وغيرها فكانت تبحث عن الفرصة لمعرفة هوية المقاومة العراقية و كيفية تعاملها مع الأحداث....؟ و كيف تنظر تلك الحركات إلى الوضع الغربي، مع أن معظم أدبيات تلك الحركات كانت متشنجة تجاه السياسة الأمريكية في تعاونها مع النظام العراقي و تشددها من الموقف الإيراني و مساندة الطرف العراقي في الحرب.

كانت آرائي هي الاستفادة من فسحة الحرية التي يمنحها القانون الأمريكي لحركات المعارضة السياسية. و ذلك بفتح مكتب سياسي يقدم إلى كل السياسيين أجوبة على الأسئلة التي تدور في أذهانهم عن هوية تلك المقاومة و أصالتها، و التي لم أكن في وضع و أنا داخل السجن أن أناقش هذا الموضوع مع المخابرات. و ربما يعبر عن إستسلام أو عن ضعف.
و لكن الطلب قوبل بالرفض من قبل جميع فصائل المعارضة العراقية، و لم يجهدوا أنفسهم بمجرد التفكير في واقعية الخيار، بل أصروا على استمرار حالة السلبية و بصورة متشنجة ضد الولايات المتحدة، منطلقين من مواقف أيديولوجية و مواقف سياسية.

مات المشروع المقترح و الذي كنت أعتقد أنذاك بأننا لو تبنيناه في تلك الفترة لكانت هنالك فرصة كبرى لنا في كسب الوقت في إسقاط النظام، و لفتحنا باباً مع الإدارة الأمريكية من منطلق القوة لا منطلق التبعية في تفهم مواقفنا و آرائنا في كل برامج المعارضة. و ربما كنا في موضع يتمكن من حفظ الكثير مما تعرض إليه الشعب من ويلات و حروب التي كانت منطلقة من الفهم

الخاطئ التي تملكه أمريكا عن واقع النظام الصدامي، ولكان ربما ذلك كافياً للولايات المتحدة في أن لا تدع صداماً يتجرء على الدخول إلى الكويت، و من ثم الدخول في حرب الخليج 1991، بينما وجدنا العكس في تلك الحرب، و جدنا أن سوء الفهم الأمريكي جعل الإدارة الأمريكية تتخوف من التطرف العراقي الذي كانت تعتقد بأنه جزء من التطرف الإيراني (على حسب قولهم) و هو ما سبب لهم مشكلة كبرى في أن يقودوا حرباً أخرى في سنة 2003 لإسقاط النظام الذي رفضته أمريكا المخابراتية. و بسبب سوء الفهم ذلك في إسقاطه في الحرب الأولى في سنة 1991، و ذلك بعد أن استداروا ثانية ضد المنتفضين العراقيين من الشعب الذي أسقط النظام أنذاك فسمحت القوات الأمريكية للطاغية أن يسحق شعبه بطريقة غاية في الوحشية تحت نظر و مسمع القوات الأمريكية التي وصلت إلى مشارف السماوة.[1]

---

[1] انتفاضة 1991 في العراق أو الانتفاضة الشعبانية هي مجموعة من عدة مظاهر للاضطراب و عدم الاستقرار في مناطق جنوب العراق، و شماله و قعت مباشرة بعد حرب الخليج الثانية تسمى بالانتفاضة الشعبانية، لقيامها في شهر شعبان من العام الهجري. شملت الانتفاضات قيام مواطنين عزل بمحاصرة المعسكرات و الدعوة إلى إسقاط النظام، و بعد قيام القوات العراقية بعمليات قمع للمواطنين تحول الأمر إلى انتفاضة شارك فيها مسلحون و عناصر من الجيش العراقي بأسلحتها و آلياتها العسكرية، إضافة لعناصر من فيلق بدر التابع للمجلس الأعلى الإسلامي في العراق، إضافة لقوات البشمركة التابعة الى الحزب الديمقراطي الكردستاني،و الاتحاد الوطني الكردستاني و كذلك مسلحون من المواطنين العراقيين في الجنوب، و اندلعت الانتفاضة في أربع عشرة محافظة من أصل ثمانية عشرة و هو تعداد المحافظات التي يتكون منها العراق. أي بمعنى خروج أكثر من 77% من الشعب العراقي منتفضاً على النظام الحاكم آنذاك، و استمرت الانتفاضة إلى أن تم إبادتها بتدخل عسكري و إبادة بشرية كبيرة من قبل النظام الحاكم الذي كان يرأسه صدام حسين، كان للهزائم المتلاحقة التي مني بها العراق نتيجة الحروب التي كان العراقيين يجبرون على خوضها، و الخسائر و التدمير الذي لحق بالعراق و المنطقة الجنوبية تحديداً، و بالأخص هزيمة الجيش العراقي في حرب الخليج الثانية و عدم مبالاة النظام بالخسائر، و استمراره بالتبجح بالنصر كان لها الدور الرئيس في تعاظم نقمة الشعب على السلطة الحاكمة، بدأت الانتفاضة من مدن جنوب العراق. و تحديداً مدينة البصرة بعد انسحاب الجيش العراقي من الكويت و تدمير آلياته من قبل القوات الأمريكية. الأمر الذي اضطر الجنود العراقيين للعودة سيراً على الإقدام إلى العراق. وعلى أثر هذا قام أحد الجنود العراقيين في فجر الثاني من آذار من عام 1991 بإطلاق النار على صورة كبيرة للرئيس العراقي أنذاك صدام حسين، و انهال عليه بالشتائم و السباب و كان هذا في ميدان يدعى (ساحة سعد) في البصرة لتنطلق شرارة الانتفاضة الشعبية التي سرت بسرعة كبيرة جداً في أنحاء العراق. و بحلول الصباح كانت الاحتجاجات تعم محافظة البصرة والهارثة و الدير و بدأ الثوار باستهداف مراكز الشرطة و معسكرات الجيش العراقي في المدينة. و خلال يومين فقط عمت الانتفاضة أغلبية مناطق العراق الأخرى و منها ميسان و الناصرية و النجف و كربلاء و

و لم تكن الإدارة الأمريكية هي الوحيدة التي تمتلك سوء الفهم ذلك، و إنما كانت الحكومات العربية المحيطة بالعراق، و خصوصاً دول الخليج تشاطر أمريكا في رأيها، و لكنها أي تلك الدول العربية لم تنطلق من المنطلق الأمريكي في تحليلها للواقع، و إنما كانت الدوافع لتلك الدول هي دوافع فئوية، بل طائفية ضيقة لا تنم عن نضج و انفتاح و معرفة بالشعوب، و إنما كانت تلك الدول أسيرة لموروثاتها العتيقة في فهم الأمور، خصوصاً من الناحية الطائفية التي كانت تتحكم في سلوكهم، و هو ما دفعهم إلى العمل بشكل مكثف لإقناع الولايات المتحدة في الالتفاف ثانية و مسانده صدام في تحطيم الثورة و تحطيم الانتفاضة الشعبية التي استعرت في كل مناطق العراق، حتى واجهها النظام بوحشية لم يسبق لها مثيل في تاريخ الثورات.

خرجت من السجن و أنا أحمل مفهوماً مختلفاً عما كنت قد فهمته في السابق، فالإحداث السياسية و التحقيقات و عقلية المخابرات أضافت خبرة كبيرة لي في فهم الواقع الأمريكي، و كنت أنذاك استشعر بأننا كحركة تريد تغيير النظام في العراق، و تريد استحداث مجتمع ديمقراطي عليها أن تدخل في عمق السياسة الأمريكية لمعرفتها من الداخل، فهي عبارة عن غابة واسعة مملوءة بألوان المعادن الثمينة و علينا أن نكتشفها، و أن نتعلم كيف اكتشفها الآخرون و تمكنوا من تسيير تلك الطاقات نحو تحقيق أهدافها المتنوعة، كما حدث في فلسطين و غيرها من مناطق العالم الأخرى.
كان الجميع يتعامل مع أمريكا على إنها شر مطلق، و لا يمكن لهذا الشر المطلق أن نجد في زواياه مكاناً و لو كان صغيراً للخير، و كنا أيضاً نعتقد أن أمريكا هي جهة واحدة و رجل واحد، كما هو حال دولنا في الشرق الأوسط حين يمثل الدولة الحاكم الفرد و هو الذي يقرر هوية تلك الدولة.

هذا التصور هو الذي جعلنا نتعامل مع الآخرين و خصوصاً الدول الغربية من منظور التشنج و الانفعال، و نرى الغرب بأنه حضارة أقيمت لتحطيم ديننا و مبادئنا، و أن أولى مهماتنا هو القضاء عليها كدول و كحضارات. و

واسط و المثنى و الديوانية و بابل و سرعان ما وصلت إلى مدن شمال العراق دهوك، سليمانية، أربيل و كركوك و في ظل هذه الأوضاع المتأزمة بدأ النظام باستخدام أساليب القمع كافة، لإيقاف الانتفاضة و باستخدام طائرات الهليكوبتر التي أرسلتها أمريكا للنظام بحجة نقل الجرحى و المصابين من الكويت إلى العراق، إلاّ أن النظام استخدمها بقصف المدن و إيقاف الانتفاضة، و وصل الأمر بالسلطة لاستعمال الأسلحة الكيماوية ضد المواطنين

قد توالت الموروثات تلك خلال أكثر من ثلاثة أرباع القرن الماضي، و ازدادت في القسم الأخير منه خصوصاً بعد ما بدأت التأثيرات الصهيونية تلعب دوراً بارزاً في صنع القرار الأمريكي، و الذي انعكس على مفاهيمنا، على أن ذلك الانعكاس هو الموقف الأمريكي بذاته، و ليس هو الموقف المفروض عليها من قبل القوى العالمية الصهيونية المتنفذة في أمريكا.

في أثناء فترة الخروج من السجن، بينما أنا أعيش في فترة التجربة (Probation) في مراجعتي لدائرة الاستخبارات لتسجيل وجودي في المدينة مرتين في الأسبوع، كانت المخابرات أنذاك قد غيرت في إستراتيجيتها في التعامل خصوصاً بعد السر الكبير للانفجار الذي حدث في مدينة (فورت لوديرديل).
فملف المحكمة السياسية كان شبحاً كبيراً ماثلاً أمام الجهات المخابراتية، و كان من الممكن أن ينقلب على مخططاتها في كشف المستور من خفايا الحرب العراقية الإيرانية، كان من الجانب الآخر الدكتور حسان يمارس ضغوطاً هائلة في استعجال قرار هيئة المحلفين، و الذي من المفترض أن لا يتجاوز مدة أطول، و كان عنصر الضغط هو أن تتحول المحكمة إلى حلبة سياسية.... من الجانب الثاني كانت المخابرات قد استعملت ورقة الانفجار لإلصاقها بالدكتور حسان، ثم إعادته إلى السجن ثانية، و تهديده بسحب إجازة ممارسة الطب.
استمرت عمليات التجاذب ما بين الجميع، و كنت أنا الشخص الوحيد الذي يتحرك بدون خوف لأنني لا أملك ما أخسره، فالسجن لم يكن بالنسبة لي شيئاً مخيفاً ما دامت احتمالات الترحيل لتسليمي للنظام العراقي غير موجودة، و كذلك أمور المعيشة اليومية، فالجوع و التشريد هو ليس هنالك بأتعس مما أنا أعيشة الآن.

كنت أتحرك بقوة هائلة و بعزيمة ماضية في تهيئة أمور المحكمة السياسية، و كانت عناصر المخابرات التي كانت تلتقي بي عندما أذهب لتسجيل حضوري في بنايتها الواقعة في قلب المدينة، تحاول أن تتفهم ماذا يدور في ذهني، و ماذا أريد أن أفعله في شأن أستراتيجية المحكمة...؟ كان كل ذلك يجري في ظل فضائح أمريكا الواسعة و ضغوط عالمية بشأن الحرب العراقية الإيرانية، و أحداث بيروت المعقدة، و انفجار مقر المارينز المشهور، و اشتعال النار في منصات النفط في الخليج و انخفاض الأسعار المفاجئ في سوق البورصة، كل ذلك من الأشياء التي بدأت تهدد الوضع الاجتماعي الأمريكي بصورة كلية.

③②

◗ الفصل الثاني و الثلاثون ◖

الصفقة



مغامرة أم قرار..؟ إتصل المحامي الخاص بي، و طلب مني المجيء إلى فلوريدا لمناقشة موضوع الدفاع الذي هيأه، لكي تبدء جلسات المحكمة في الشهر العاشر، و بينما أنا أستعد للسفر إتصل بي د. حسان و طلب مني أن يقابلني بعد أن كان كلا المحاميين و الجهات الحكومية الأمريكية قد منعت أي نوع من الاتصال فيما بيننا سواء أكان تلفونياً أم شخصياً. استغربت من المكالمة و تأكدت منه إن كان جاداً في موضوع اللقاء معي أم لا...؟ و كنت أقول له بما معناه: سوف لا أملك ما سوف أخسره إذا لحق الأذى بي، و لكنك سوف تخسر الكثير إذا أرادوا أن يؤذوك، لذلك فليس من صالحك الاتصال بي، و دعنا نعمل كل على انفراد، و لكن بنفس الاتجاه، و ليكن اتفاقنا من خلال المحاميين اللذين يعملان ضمن تنسيق مدروس، و لكنه أصر على ذلك.

ذهبت إلى فلوريدا و قابلت المحامي ثم عرّجت إلى الفندق للبقاء طالما نحتاج تهيئته للمحكمة، و لكن قبل أن أوقع أوراق الحجز في الفندق اتصلت بالأخ فاخبرني بأنه يحتاجني على وجه السرعة.
و عندما وصلت إلى البيت كانت المخابرات قد سلمت تواً من خلال المحامي شروطها في الحوار و الذي كان لي أنا و د. حسان أن نتباحث فيه قبل رؤية المحاميان.

فلقد بدأ مكتب التحقيقات الفدرالية بالاستجابة الجادة. و هم الآن قد غيّروا من خطتهم في التعامل مع قضيتنا مع منطق الأشياء، و كان التغيير الذي يبدو قد ظهرعلى أرض الواقع هو حصيلة عدة أشياء أهمها هي:

- الصمود في عدم تقديم أية تنازلات و الجدية في الاستمرار و عدم الخوف و التردد.
- قوة و عدالة الطرح السياسي للمحكمة.
- قوة و عدالة القضية و التعاطف السياسي معها
- الجو العام و الضربات التي تلقتها أمريكا في لبنان.
- الضعف في موقف العراق تجاه الاستمرار في الحرب.
- التهديد العالمي للموقف الأمريكي.

كان القرار الأمريكي أو قرار مكتب التحقيقات الفدرالية يتضمن الشروط التالية و التي سأضعها على شكل نقاط، و في هذا الليل قد نقلها رئيس المكتب إلى المحامي لإخبارنا بالأمر:

1. الاتفاق على قبول التحكيم خارج المحكمة (Settlement out of the court) أي أن الطرفين سوف يوافق كل منهما على قرار

الاتفاق ما بينهما و ينقله إلى المحكمة للتصديق و عندها سيقرر القضاء على ضوء الاتفاق ذلك ماذا يجب أن يكون.

2. إسقاط التهم كلها عن كل المشتركين بالعملية، أكرر إسقاط التهم و ليس التبرئة (Dismiss)، ما عدا السيد شبر.
3. يعترف السيد شبر بأنه مذنب.
4. يطرد السيد شبر خارج أمريكا خلال مدة 15 يوم بإرادته
5. لا يحق للسيد شبر بالرجوع إلى أمريكا إلاّ بعد موافقة المدعي العام الأمريكي، و بعد 5 سنوات
6. عدم قيام أي من الطرفين بمقاضاة الطرف الآخر قضائيا في المستقبل.

هكذا كانت الشروط التي تم رفعها إلى المحاميين و التي كانت المخابرات تتوقع الإجابة عنها خلال 24 ساعة، و إلاّ فان الخيار في حالة الرفض هو الذهاب إلى المحكمة الجنائية و الدخول في معركة القضاء. انتهى.

قدمت هذه الشروط إلى محامي د. حسان ثم قدمها المحامي إلى محامي الدفاع المسؤول عن قضيتي، و لكن قبل إعطاء الموقف الرسمي كان علينا أن ندرس تلك الشروط و نجيب المحامي بصورة رسمية ثم نتخذ الإجراءات لتبني الموقف الصحيح و الذي يخدم القضية الأم.

كان أمامنا الخيارات التالية في خضم شروط الحكومة و المخابرات:

1. خيار الذهاب إلى المحكمة الجنائية و إصدار الأحكام، و من ثم الطلب من القضاء تحويل القضاء إلى قضية سياسية، و هذا يتطلب أن يكون هنالك قرار قضائي ربما بسجننا كلنا أو بعضنا أو أحدنا، أو إلغاء أي حكم جنائي و براءتنا، ثم قيادة الخطوة الثانية التي تتطلب مبلغاً كبيراً من المال.
2. خيار النقاش و شروط المذلة و التبعية للقرار المخابراتي في التعاون على مستوى المعلومات أو ما شابه، و هو الخيار الأول الذي طالبونا به، و قد رفضناه جملةً و تفصيلاً، و وجدنا فيه من الذيلية ما تنأى نفوسنا عنه فضلاً عن عدم مبدأيته.
3. خيار النقاش و الحوار في الشروط المقدمة.
4. خيار القبول بكل ما جاء في مذكرتهم.

و أمام هذه الخيارات الأربعة كان أمامنا أن ننقل الرأي إلى الإخوة في المعارضة بفصائلها في الاستعداد لإمكانية الاستمرار في الصراع السياسي من خلال المحكمة المسيسة التي قد تأخذ سنين، و التي قد تكلف مبلغاً ضخماً جداً من قبيل أجور المحامي أو دعوة الأخصائيين في القضية العراقية من أساتذة الجامعات و الباحثين في مراكز البحوث.....

و بعد المداولة وجدنا أن ذلك قد يكلف أكثر من 150 ألف دولار على أقل التقادير، و في حالة الفوز في هذه الحالة التي قد تستغرق أكثر من سنتين سيتم فضح السياسة الأمريكية، و فضح مخططاتها المخابراتية، و سيكون نصراً ضخماً كبيراً ليس فقط للمعارضة العراقية، بل لكل الحركات المبدأية التي تعمل في العالم، و سيصاب النظام العراقي بصدمة كبرى قد تضطر أمريكا في العمل على إسقاطه، هذه النتائج مع أهميتها كانت تتطلب إستعداداً كبيراً لا على المستوى الشخصي من قبلي أنا، بل يجب أن تكون القضية هي هم المعارضة العراقية برمتها، و أن تلتزم مادياً و معنوياً.... و لكن الشيء الذي حدث هو عدم الاستجابة من قبل كل أطراف المعارضة و خصوصاً الإسلامية، و كانت لا ترى في ذلك مجالاً لها في العمل أو في التوجه.

الخيار الثاني في قبول شرط الذيلية فانه خيار لا نقاش في بدائيته، و عدم قبول فكرته.
خيار الحوار في الشروط المقدمة و محاولة تعديل قسم منها، رفضوا ذلك جملةً و تفصيلاً، و أنها شروط اتفقت جميع الأطراف السياسية و المخابراتية على وضعها و أي تغيير فيها مرفوض، إما قبولها كلها، أو رفضها كلها.

الخيار الرابع و هو خيار التبرئة للجميع ما عداي أنا صلاح شبر فإنني و إن كنت لا أعرف تبعاته و خطورته، و لكنه على أية حال سيكون ضرراً شخصياً أولاً و آخراً، في الوقت الذي كنت قد قررت مغادرة الولايات المتحدة حيث صار من الصعب الاستمرار في العيش في هذا القطر، بل كنت أعتقد بأن الاغتيال سيكون مصيري لو بقيت هناك، في ذات الوقت سيحقق هذا الأمر براءة الآخرين و العودة إلى عوائلهم، كل هذا تم في ظل رفض المعارضة العراقية فكرة تبني مكتب واشنطن لتمثيل الحركات الإسلامية العراقية.

كانت التضحيات كبيرة و ضخمة ليس على شخصي فقط، بل على الآخرين و خصوصاً د. حسن الذي كانت خسارته فادحة و كبيرة بسبب احتمال خسارة

شهادة ممارسته الطب و غيرها، فمن الصعوبة بمكان أن يشعر المجاهد أو المضحي بأن التضحية التي يبذلها هي أكبر من حجم تحمله لأنّ ذلك سيخلق حاجزاً نفسياً كبيراً لديه و لدى عائلته و لدى الآخرين من العاملين في حقل المعارضة. مما يؤخرعملية الإقدام على عمليات المبادرة إلى التضحية أو ما شابه.[1]

و هكذا صار القرار من قبلي أن أرفع الحمل الثقيل، و أن أكون عند قدر النيّة التي تمتلك مشاعري و عقلي و أحاسيسي في أن أكون الشخص (المذنب) في عرف القانون الأمريكي، و لم لا...؟ فالعظماء في التاريخ كانوا يوماً ما و في غفلة من الزمن مجانين و مجرمين و عملاء و صعاليك، إنها حياة المواجهة و حياة الجهاد و علينا أن نستعد لكل ظرف و كل تغيير و كل صعوبة تواجهنا في هذه الطريق الطويل[2]

و لم أتأسف أبداً، و لم أتردد في أن أكون (المذنب) لأنني فعلاً كنت الشخص الذي يسعى إلى حتفه، و إلى نهايته في سبيل القضية الكبرى قضية العراق العزيز، فالتضحيات الجسام هي من يقوم بها أهلها، و من هيأ نفسه لها، كما أن القضية الكبرى تحتاج إلى كبار النفوس و كبار الهمم، كما أنني لا يمكن

---

[1] بعض مقتطفات من الصحف التي تصدر في فلوريدا بشأن رؤيتها للقضية، بعد الموافقة على شروط الاتفاق في معالجة الوضع خارج نطاق المحكمة...

Perhaps most importantly، research and investigation into Dr. Redha Hassan found that he was arrested by the FBI in 1985 for forging 2000 Iraqi passports and military I.D. cards and seeking to forge 2،000 more. Dr. Hassan asked his next-door-neighbor and print store owner Joel Feinstein to make the passports and IDs. According to Feinstein، Dr. Hassan claimed the documents were for his family in Iraq. Feinstein reported the request to the FBI، and became an operational asset for the federal government، leading to Hassans arrest. Also arrested were two of Farris's uncles and a "pro-Khomeini" activist identified as Salah Jawad Shubber. Interestingly، Dr. Hassan، who also went by the name Redha K. Alsawaf، was also the President of the now defunct Florida non-profit organization World Orphanage & Refugee Relief Foundation at the time of his arrest. Authorities dropped the charges against Hassan، and Shubber ultimately pled guilty to conspiracy charges.

[2] كان النظام السابق يصف عظماء و قادة البلد و مفكريه بألقاب من هذا القبيل و كذلك والدي الخطيب الكبير كانت تقارير المخابرات تصفه بالألفاظ التي لا تتناسب إلاّ مع مستوى أخلاق الذين قتلوه و قتلوا الشهيد الصدر و البقية من العلماء و العظماء

أن أخيب ظن أخي و عزيزي و شريكي الدكتور حسان. و لو بقى كما هو لقدم للإسلام و للعراق أكثر مما أقدم أنا لو بقيت خارج السجن. فالقانون الأمريكي سوف يسحب شهادة ممارسة الطب لو اتهم بجنحة بسيطة. و سحب شهادة الاختصاص مؤلمة جداً و خسارة كبيرة[1]

و هكذا كان القرار من قبلي أنا شخصياً أن أكون المسؤول الأول، و أن أتحمل أعباء القضية و أقبل بكل الشروط التي جاءت في مذكرة الاستخبارات ما دامت تلك الشروط لا تمس الكرامة و لا تمس المبادئ التي عشنا و جاهدنا في سبيلها.
و في اليوم الثاني ذهبت إلى المحامي الخاص بي و قدم لي العرض المخابراتي مكتوباً و سألني فيما إذا كنت أرفضه أم أقبله...؟

سألته ما هي احتمالات النجاح لو رفضتها......؟ قال لا أعلم أبداً، و لكننا مستعدون و أننا قد كتبنا الدفاع، و أمامنا أن نعرف ماذا عند المخابرات من وثائق ضدنا.
أخبرت المحامي مباشرة بأنني سأعترف بالذنب و سأوافق على طردي من الولايات المتحدة الأمريكية.

- و لكن كيف تقول ذلك سيد شبر..؟ لماذا تكون كبش الفداء..؟
- و من تعتقد يمكن أن يكون كذلك..؟
- البقية المشتركون معك
- و لكنهم سيصابون بإحباط من العمل مستقبلاً ضد النظام الدكتاتوري.
- هذا شأنهم.
- لا، و لكنه شأني أيضاً
- أنت تريد إنقاذ نفسك، أم إنقاذ الآخرين...؟ يعني د. حسان و الآخرين
- إنقاذ القضية أولاً، و الآخرين ثانياً، و نفسي ثالثاً

---

[1] فا لرجل عملاق في عمله و في مواجهته لأعداء الإسلام و العروبة، فقدراته أكبر من الكثير من أولئك الذين أرادوا له أن يسحق أو أن يدخل السجن، فقد تعاونت كبرى صحف أمريكا وهي صحيفة (ميامي تربيون) في الدخول إلى الجانب المخابراتي ضده لسحقه و التخلص منه و رميه في السجن، و قد عملوا المستحيلات في سبيل تشويه صورته و سمعته أمام الرأي العام في الولاية، و لكنه كان أقوى من كل ذلك، كان شوكة في عيون الأعداء الذين عملوا جاهدين في سبيل التخلص من هذه الشخصية العملاقة..

- سيد شبر.. لا أحتمل ما تقول. لعلك مرهق من السفر.
- أنا في كامل قواي العقلية و النفسية يا سيد (سالنيك).
- أتعرف ماذا يعني أن تعمل ذلك....؟
- بعض الشيء... و لكن إشرحه لي لو سمحت..؟
- عليّ أن أشرحه لك بكل التفاصيل.
- تفضل.
- هذا معناه بأنك ستحمل في تاريخ حياتك ماضياً إجرامياً. و أينما ذهبت وستلتصق بك التهمة في عملك و في مستقبلك و في مشاريعك الاقتصادية و الفكرية و البحثية.
- قاتل..؟ سارق؟ جاسوس؟ أو أي شيء.
- لا، سيكون هنالك تاريخ لا يمكن أن ينمحي إلاّ بعد 5 سنوات، و سيكون من الصعب عليك أن تحصل على وظيفة أو قرض أو أن تقبل في بعض المؤسسات.
- و ماذا بعد...؟ هل سيقولون عني رخيص، خائن، عميل...؟
- هذه أهون من تلك
- و ستقف منك الحكومات الغربية كلها موقفاً سلبياً.
- إذن ما هو رأيك...؟
- أن نرفض العمل ليشترك الكل في الذنب.
- و إن عملت ذلك.... ؟
- لماذا يجب أن تتحمل وحدك نتائج العمل....؟
- لأنني أنا الذي بدأت به فعلاً، و كنت أنوي أن أسقط الطاغية في العراق، و أن أساعد أهلي و شعبي بهذه الطريقة، و عندما فشلت المحاولة أشعر بأنني مدين لكل من شاركوني، و أنني يجب أن أرد لهم الفضل، و أن أساعدهم في تضحياتهم
- أنت رجل غريب سيد شبر...!
- أعرف نفسي إنني غريب، ليس في عملي فقط، بل في شخصيتي، و آرائي و نظرتي إلى المبادئ.
- ستطرد سيد شبر من أمريكا.
- و أي أمريكا هي التي تعدني بها ...؟ ديمقراطيتها...؟ أم إنسانيتها....؟ أم مساندتها للظالمين و القتلة في العالم...؟
- ستتغير يوماً.
- أن تغيرت سيكون هنالك حديث لي معك.

سألته: و هل تعتقد أنهم سيقتلونني إن بقيت هنا؟

- و هل ستواصل عملك كما كنت تعمل الآن....؟ قال المحامي (سالنك)
- لا أدري و لكن لا أعدك بعكسها، لأنني يجب أن أعمل بكل جهدي لإسقاط النظام الديكتاتوري في العراق أو تغييره
- أنت تثأر لعائلتك سيد شبر: أبيك، و أخويك و والدتك...!!
- كل العراق هم أبي و أهلي و إخوتي و أمي.
- خائف أنا عليك سيد شبر.
- من أي شيء..؟
- من الشياطين
- هكذا هو الصراع في العالم، و على مدى آلاف القرون، أنظر كم ضحى موسى و عيسى (عليهما السلام) (و كان المحامي يهودياً) و محمد (ص) و بقية العظماء في التاريخ و الصراع قائم و لن ينتهي
- صحيح ما تقوله، ثم قال: فكر إلى غدٍ فأمامنا 48 ساعة لكي تتخذ قرارك الأخير
- لقد اتخذت قراري، فنحن خسرنا سقوط الصنم، فكل شيء بعده لا قيمة له.
- غداً ستوقع إذن.....؟
- سيكون ذلك.

ثم ودعته و غادرت.

و في اليوم الثاني وقعت على الاتفاق أمامه ثم خرجت من دائرة المحامي بعد أن أخبرني بأنه سوف أستلم رسالة بالحضور إلى المحكمة التي ستنظر بالقضية وتتم الموافقة على الاتفاق الذي حصل بيني و بين الحكومة الأمريكية.

قبل يوم المحكمة سلمت الحكومة الأمريكية قرارها بشأن الدكتور حسان و أخويه ببراءتهم (Dismissed Charges) و هو الشرط الأول من شروط الاتفاق، و عندها عقد مؤتمراً صحفياً في بيته بحضور المحامي الخاص نقلته كل صحف فلوريدا يظهر د. حسان جالساً و معه إخوته و هم يشرحون ظروف تبرئتهم من التهم.[1]

---

[1] **Cleared Suspects Deny Terrorism Link:** October 16، 1985|By Justine Gerety، Staff Writer: After his brother was executed and family members were kicked out of Iraq without a penny or a

بعد ثلاثة أسابيع كانت المحكمة الأخرى التي ستعقد للنظر في التصديق على الاتفاق الذي جرى بيني و بين الحكومة، حيث ذهبت قبل الموعد بساعة واحدة و كأنني شخص عادي أتمشى حول البناية فوجدت الصحافة بأجمعها، و التلفزيون و الراديو و قد أحتشدوا أمام البناية منتظرين وصولي إلى هناك. و كانوا يعتقدون بأنني سأدخل المحكمة مع المحامي.

صارت الساعة العاشرة صباحاً و صل المحامي أولاً بعد أن رأيته يعبر الشارع ليدخل بناية المحكمة، فدخلت أنا من الباب الخلفي فالتقينا معاً داخل البناية.

كانت إجرآءات المحكمة أن يقرأ المدعي العام التهم الموجهة لي، ثم يسأل القاضي إن توصلت الحكومة إلى قرار معي للتنازل عن العقوبات أمام الاعتراف بالذنب ثم مغادرة القطر، و كما جاء في نص الاتفاق، و قال المحامي لي إن القاضي يملك الحق في نقض هذه الشروط و يأمر بك إلى السجن، و بعد مداولات قانونية سألني القاضي هل عرفت ما قاله المدعي...؟
قلت نعم :
سألني السؤال الجوهري الرئيس .
هل أنت مذنب....؟
أجبت: نعم مذنب.
قال: إذن يتوجب الآن أن أرسلك إلى السجن حسب المادة كذا و كذا، قلت: نعم
قال: و لكن الاتفاق الذي جرى بين محاميك و بين الحكومة هو الذي سينفذ. وعليك بمغادرة القطر خلال (15) يوماً من هذا التاريخ.
قلت: نعم.

و انتهت المحكمة، و خرج أول شخص إلى الخارج و إذا بضجة الصحفيين تملأ القاعة الخارجية فأخبرني المحامي أنه من العقل أن لا تواجه الصحفيين

---

passport، Dr. Redha Hassan wanted to help others similarly dispossessed، he says......But the efforts backfired and Hassan، a naturalized U.S. citizen، and his brothers، Nouri and Ali، were arrested May 7 on charges of conspiring to manufacture 2،000 bogus Iraqi passports. Federal officials speculated then on a link with Mideast terrorists.

فهم قد يشوهوا الصورة و يغيروا من أقوالك. و عندها ستنعكس سلبياً على وضعك المستقبلي، لذلك عليك أن تخرج من الباب الخلفي، و فعلاً سحبت نفسي من الخلف و ناديت على سيارة تاكسي للرجوع من حيث أتيت.[1]

---

[1] **Brothers Released، 1 Held In Iraqi Passport Scheme**، May 9، 1985|By Kathleen Pellegrino، Staff Writer.....A Fort Lauderdale physician and his two brothers، accused of taking part in a conspiracy to manufacture Iraqi passports، were released from federal custody Wednesday. But a fourth man was held in lieu of $2 million bail.....Redha Hassan، 38، an anesthesiologist، left the courthouse with his younger brothers and was told by his attorney to make no comments about the case

③③

◖ الفصل الثالث والثلاثون ◗

الطرد الى المنافي



كل أرض هي أرضي إلاّ العراق... رجعت إلى "لويزيانا" محاولاً جمع ما يمكن جمعه للخروج من الولايات المتحدة خلال مدة الأسبوعين التي أعطيت لي، و لكن لم أتمكن من ذلك فطالبت بتمديدها إلى شهر ففعلوا.

و لكن أين أذهب...؟ و إلى أي بلد سيكون قصدي....؟ أنا و زوجتي و طفلتاي إذ ولدت لنا بنت أخرى قبل شهر من المغادرة.
فالولايات المتحدة لا ترتبط بحدود برية إلاّ مع المكسيك و كندا، فمن المستحيل الخروج من الولايات المتحدة إلى أي قطر إلاّ أن يملك الشخص جوازاً نافذاً لقبوله في ذك البلد، إلاّ إلى بلده الأصلي، لذلك لم يكن أمامي إلاّ الهروب باتجاه الشمال أي الى كندا و هو المنفذ الوحيد الذي يُقبل فيه اللاجئون العراقيون...؟

حملت ما أتمكن حمله من بعض الافرشة و الأغطية ثم بعض الوثائق، و ركبنا سيارة بعد أن وضعنا الجزء الكبير من كتبي عند أحد الأصدقاء، ثم أخذت الحاجات الرئيسة و اقتربت من الحدود الكندية عند مدينة (ديترويت)، و من هنالك حجزت تذاكر طائرة، و كان أنذاك لا يتطلب العبور إلى كندا أن تقدم جواز سفرك من الأرض الأمريكية، بل تتمكن أن تظهره عند الأرض الكندية.

ركبنا الطائرة في يوم من أشد أيام السنة برودة. و ذلك في يوم 18 نوفمبر من عام 1985 فوصلت في نفس اليوم إلى مطار (تورنتو) و هنالك في المطار طالبت باللجوء السياسي.

و في المطار أجري معي تحقيق موسع شرحت إلى السلطات الكندية واقع الإجراءات التي مررت بها في أمريكا، متصوراً أن هذا البلد سوف يتفهمني، و يتفهم خلفيات قضيتي و يفتح ذراعية لاستقبالي، لأنّ كندا معروفة في واقع مسامحتها في استقبال المضطهدين في العالم، و مع أنهم سمحوا لي بالدخول إلى كندا حيث استقبلني أحد الأخوة الأعزاء، و لكن الحكومة الكندية اعتبرت موضوع اعترافي بالذنب في أمريكا من القضايا الخطرة جداً، و أن عقوباتها قاسية، بل كبيرة بدرجة أصدرت دائرة الهجرة الكندية قراراً بطردي من كندا و رفض معاملة تقديم اللجوء لي و لعائلتي، لأنّ القانون الكندي يرفض كل من يملك ماضياً إجرامياً في أي مكان في العالم، لأنّ ذلك لو كان ممكناً

لامتلأت كندا بكل المجرمين و من كل أنحاء العالم[1] لكن الحكومة الكندية غالباً لا تنفذ الطرد الفعلي، و إنما تبقي الإنسان معلقاً ليس لديه أي وثائق أو مستندات لممارسة حياة طبيعية عادية، أو بعبارة أخرى فإن القوانين الكندية تقول أن يعود الشخص من حيث أتى في حالة رفض دخوله إلى الأرض الكندية، و لكن الأمر في حالتي معقّد جداً، فالولايات المتحدة هي التي طردتني من أراضيها على ضوء أمر المحكمة الذي كنت أحمل نسخة منه، و هو ما عقّد القضية بصورة كبيرة، و اضطرت كندا في السماح لي بدخول الأرض الكندية، لحين إيجاد بلد من بلدان العالم يقبلني، لكي يتم طردي من كندا ثانية.

وقف معي بعض الإخوة الأعزاء موقفاً مشرفاً أعتّز به في هذه الأيام، و بدأت منذ ذلك اليوم الثامن عشر من نوفمبر معركة قضائية حامية الوطيس، و لكنها الآن مع الحكومة الكندية، و ليس مع المخابرات الأمريكية...... و هذا معناه إنني يجب أن أهئ نفسي الى صراع مضن و مصيري مع كل القوى الكندية الهجرة و المخابرات بشقيها الداخلي (RCMP) (Royal Canadian Mountain Police) و الخارجي (CISC) (Canadian Intelligence Security Services) بالإضافة إلى الأمن الخاص بالجاليات. فقضيتي انتشرت كما هي اللهب في حقل من القش في يوم عاصف، ما بين صانعي القرار الكندي و الصحافة و مراكز المخابرات، و كان الأمر مفاجئاً جداً إلى المخابرات الكندية من أن يجدوني بين عشية و ضحاها و إذا أنا بين ظهرانيهم، و عليهم اليوم أن يتحملوا عبئي و أن يتحملوا عبء طلبات المخابرات الأمريكية في مراقبتي و تقديم التقارير إليهم عن كل ما يتعلق بي.

إنها قضية كما شعرت بأنها أكبر من حجم المخابرات الكندية و أكبر من قدراتها، فكندا لا تريد أن تورط نفسها في صراعات، لا مع دول العالم الثالث و لا مع الولايات المتحدة الأمريكية، و ليست هي بالأرض التي ستكون مكاناً للعمل السياسي المعقد، إنه قطر يميل إلى الهدوء و إلى أن تظهر كندا بطابع الدولة الحضارية التي تحتل مكاناً وسطياً في ما بين العالم الرأسمالي المتمثل بأمريكا و بين دول العالم الثالث، و لذلك فإن نظامها يميل إلى النظام الاجتماعي الذي يرمي خدمة المواطنين في توفير خدماتهم و حاجاتهم.

---

[1] هكذا ينص القانون الكندي و قد أصدرت كندا ربما أكثر من عشرة أوامر من تلك المذكرة الخاصة بالطرد التي يصدرها الوزير فقط. و كنت أنا أحد أولئك العشرة في التاريخ الكندي

قمة الصراع القانوني و الطرد ثانية: كانت تماماً رؤانا مختلفة في تشخيص معنى (المذنب) (Guilty) و جوهرها، إنني إنسان و لي الحق أن أعيش، و مجاهد و صاحب قضية، و من حقي أن أعيش لتلك القضية، أما الحكومة الكندية فإنها تقول: نعم لا بأس بذلك فبلدنا مفتوح لكل هارب و طريد و خائف و مضطهد، و لكن بشروط أن لا يكون ذلك الطريد من المجرمين و خصوصاً أولئك الذين اعترفوا بجريمتهم مثل السيد شبر، فبلدنا ليس مرتعاً للمجرمين الهاربين الدوليين.

فقضية التجريم التي أحملها ليست صادرة من جهات أمريكية أولاً. إنها صادرة مني، إنه اعتراف بجرمه و لذلك فليس أمامنا إلاّ طرده مع عائلته من كندا للحفاظ على سمعة كندا أو نظامها في اللجوء و الهجرة..... إذن دخلت الآن معركة كبرى، و قد تكون أقوي و أشرس من المعركة الأولى، لأنها معقدة الآن، بل فيها من الأقوال و من المشاهد ما يجعلها تظهر بشكل فريد في نوعها، لأنني في هذه القضية سوف يتعاملون معي إنساناً يحمل صفة (الجنحة) بغض النظر عما هي طبيعة تلك الصفة، المهم إنها صفة لا يمكن لأي شخص النقاش فيها أو تبريرها، و الكنديون -و لم أتوقعها منهم- وجدتهم ذيول سياسية لا يملكون من الشيء إلاّ التبعيّة و الضعف. و كأنهم يريدون أن يحققوا نقصاً في سياستهم أو في دولتهم و هو موقف غريب بالنسبة لي.

لقد وجدت مواقف بعيدة جداً عن القيم في سلوك القادة السياسيين، و المخابرات الكندية مما حدى بي في أن أشد العزم و أفكر بأن أدخل صراعاً دامياً مع هذا النوع من الضعف و الذل.
ففي الولايات المتحدة الأمريكية كانت المخابرات هنالك تصارع في قضية تهمهم. فمن الأجدر أن يظهروا تشدداً في التعامل مع الطرف الذي يهدد وجودهم، أما في كندا فالأمر مختلف فإنني لا أملك هنالك من نية أو إشارة في معاداتي لهم، لأنهم دولة ربما هي أقرب إلى العالم الثالث في مواقفها السياسية، و هو ما يستدعي إحترام قوانينها و مواقفها، و لكنها مع الأسف كانت ملكيّة أكثر من الملك نفسه.
قررت عندئذ و منذ تلك اللحظة أن لا أضعف، و لا أتردد، فأنا صاحب أعدل قضية فليس أمامي إلاّ أن أواصل الطريق الذي بدأته منذ أن فتحت عيني على صراع الأفكار الذي يرجع تأريخه الى سنة 1968.

بدأت أضع لنفسي خطة عمل لكي أواصل المسيرة مع ضخامة المصاعب و جسامتها، فحالتي الصحية و بسبب التفكيرالمستمر بدأت بالتدهور، و

خصوصاً آلام قرحة المعدة. و كنت أستيقظ ليلاً والآلام قد أخذت مني كل مأخذ لأحتسي كوباً من الحليب و شيئاً من الخبز لأخفف الآلام المبرحة.

كانت الأيام الأولى قاسية صعبة. فالبرد في (تورنتو) لا يكاد يحتمل، فلم أواجه في حياتي جواً بهذه القسوة من زمهرير البرد و كثرة الثلوج.... إستقبلني أحد الإخوة في كندا، و أبقاني عنده أسبوعين أو أكثر، ثم غادر أخ آخر شقته ليعطيها لي و لعائلتي لشهرين آخرين.

في تلك الفترة كانت فرصة إيجاد مكان للسكن و بالسعر المحدد الذي في ذهني صعوبة بالغه، و بعد التعب و العناء تمكنت أن أحصل على شقة بغرفة واحدة دفعت الشهر الأول و الشهر الأخير، و لم يبق عندي إلاّ النزر القليل جداً من احتياط المعيشة، إلى أن أشار عليّ أحد الإخوة أن أستعين بالمساعدات الحكومية التي تقدمها الحكومة الكندية للمحتاجين، و هنالك ذهبت إلى دائرة المساعدات و أنا في منتهي الخجل، فطالبوني بأوراق الإقامة، و لكن الحكومة و دائرة الهجرة لم تعطني الأوراق، و لم توضح فيها نوعية إقامتي. و لهذا رفضوني أول الأمر، و بعد محاولات مستمرة تمكنت من أن أحصل على بعض المساعدات.
و لم تمنحني الحكومة الكندية تصريحاً بالسماح بالعمل بادئ الأمر، و قالوا إن الحكومة سوف تصرف لك هذا التصريح إذا حصلت على عمل ما... و هكذا و بعد محاولات مستمرة تمكنت من الحصول على عمل و على تصريح و الذي كان عليّ فعله أن أقوم بتجديد ذلك التصريح سنوياً، قررت عندئذ أن أصرف جهدي و طاقتي في عدم الرضوخ لما أراد لنا حاكم بلدنا الذي شردنا و جعلنا في الأرض مشتتين متفرقين.
كانت أولى الأشياء التي اتخذتها و صممت في الالتزام بها و منذ اليوم الذي حططت به رحالي في كندا هو أن أعيد لجسمي صحته، لأنني إن فقدت العافية فلا يمكن لي أن أقوى على المواجهة[1]

---

[1] فالقوه الجسمية هي جزء من القوه العقلية و النفسية، و هكذا بدأت منذ ذلك اليوم في ممارسة الرياضة، و بعد أن وجدت حديثاً عظيماً في نهج البلاغة للإمام علي (ع) في قوله: (إياك و الكسل و الضجر، فان كسلت لا تصبرعلى حق، و إن ضجرت لا تقاوم باطلاً) و لكي أطرد الكسل و الضجر بدأت في برنامج رياضي بقيت عليه حتى هذه الساعات أسرق من وقت نومي و عملي و راحتي لأذهب إلى النادي الرياضي أمارس لعبة الإسكواش التي أصبحت متمكناً منها لحد ما، و هي من الألعاب المهمة التي اعتبرت في الطب الرياضي من أفضل الألعاب في حرق الطاقة و تمرين العضلات، قاومت بالرياضة آلام المعدة، لأن قرحة الجهاز الهضمي و إن كان أحد أسبابها هو الجانب العضوي، و لكن للجانب النفسي دوراً

كما خططت أيضاً منذ البداية أن أعتبر نفسي أنني مقيم في هذا البلد، و أن أنسي أمر الطرد الذي أصدرته دائرة الهجرة بحقي... بمعنى آخر كان عليّ أن أمارس حياة طبيعية في الحركة و في الحياة و في البيع و الشراء و في مشاريع التجارة و غيرها من الأمور، و هكذا كان حيث نسيت فعلاً أن هنالك امراً حكومياً عالي المستوى بعدم إبقائي في كندا، و الحصول على قبول اللجوء، و أن السبب في إبقائي مؤقتاً هو انتظار الوقت لحين إيجاد قطر يقبلني، و نسيت أيضاً بأنهم من الممكن أن يطرقوا بابي في منتصف الليل لينتزعوني من بين عائلتي ليرموني في البلد الذي يحصلون منه على إذن السفر إليه.
أما النقطة الأخرى التي قررتها في حياتي في كندا هي أن أكون شخصية معطاءة على مستوى الجانب التجاري و المالي، لأنّ المال في الغرب، بل في كل العالم أحد أهم أسباب القوة للشخص، و هكذا دخلت عالم البحث عن عمل و عالم التجارة مع المصاعب التي واجهتها خصوصاً عندما يكتشف رب العمل أو الجانب التجاري إن الرقم الذي أحمله هو رقم يعطى للشخص المقيم مؤقتاً في كندا. و هو رقم الضمان الاجتماعي كما يسمى و هو يبدأ بالرقم (9) بالنسبة إلى مؤقتي الإقامة في كندا[1]

كذلك قررت أيضاً أن أنازل النظام العراقي من خلال ساحة الصحافة و من خلال العمل مع الفئة السياسية الكندية لتقديم وجهة نظرها في موقفنا من النظام الصدامي في العراق، و موقفنا من قضايا الديمقراطية و إنشاء الدولة، و كان السياسيون الكنديون أنذاك لا يحملون في أذهانهم معلومات عن العراق، أو عن الوضع الدكتاتوري أو غيره، و كانوا يعتقدون بأن نظام صداماً حتى و إن كان دكتاتورياً و لكنه جاء لصالح شعبه، و ما المعارضة العراقية إلاّ ترديد للموقف الإيراني في نظرته إلى الغرب، و هكذا بدأنا في

كبيراً في منشئها و في علاجها، أصبحت عندئذ بعد ذلك قادراً على الصوم بعد أن كانت أمراض المعدة قد منعتني من فريضة الصوم لسنين، و كنت أحرص أثناء رمضان و في شدة أوقات الجوع و العطش أن أمارس رياضتي المفضلة لكي تمكنني من الصيام و الاستمرار عليه

[1] لكل شخص يعيش في الغرب سواءاً كان مؤقتاً أم دائمياً عليه أن يحمل الرقم الوطني (S.I.N.) و هو الرقم الذي يعرف به بدلاً من الاسم و تعقيداته، و هذا الرقم يتبدل حسب وضع و نوعية إقامة الشخص. فكل قسم من أقسام الأرقام التسعة (333 222 111) له من معنى و الذي يدل على معلومات مفصلة عن ذلك الشخص عما إذا كان أجنبي المولد أو كندياً أو سنة ولادته و ما إلى ذلك. هذا الرقم يعتبر بمثابة الهوية التي يحملها الإنسان. و من خلالها يتعامل مع الشركات و البنوك و غيرها

عقد لقاءات مع أطراف حكومية و مع ممثلي البرلمان. هدفها توضيح موقف المعارضة من مجمل القضايا السياسية، و كانت تلك القرارات مؤثرة و فاعلة.
كذلك اتخذت قراراً و أنا أحلّ في هذا البلد الجديد أن أستفيد من بعض محاسن القانون الكندي في مساندة الهيئات الخيرية التي ممكن أن تحصل على أموال دافعي الضرائب، و هكذا كان. إذ تمكنت من فتح منظمة خيرية لها كامل صلاحيات جمع الضرائب مما ساعدني على القيام بمشاريع متعددة في الداخل و في الخارج[1].
كذلك قررت أيضاً أن يكون تحركي الإسلامي أكبر من حدود القضية العراقية، مع التركيز على صلب هدفنا و هو الإنفتاح على الجاليات المتعددة الكبيرة من اللغات المختلفة و بشتى مذاهبها. و هو ما جعلني أتجاوز حدوداً كثيرة كانت أنذاك تحددني في الحركة و النشاط مثل حاجز اللغة و حاجز القطر و حاجز المذهب. و هو ما فتح أمامي آفاقاً واسعة للاطلاع على ما خفي عني خلال وجودي في الولايات المتحدة.

أكتشفت طاقتي: و في السنة الأولى من مجيئي إلى كندا كان لنا شرف إصدار أول نشرة عراقية سميناها (Baghdad Times) تصدر باللغة الانكليزية، و كان في إدارة التحرير أنا و أخ آخر له من القدرات الصحفية و الفكرية ما يساعدنا على طرح قضايانا إلى الجاليات غير العربية، صدرت الجريدة و كانت موجهة إلى المسلمين غير العرب الذين كانت بالنسبة إليهم قضية العراق و المعارضة العراقية جهة مشبوهة، كما أن الحاجز الطائفي كان قد لعب دوراً في دفع تلك الجاليات إلى مساندة صدام في حربه ضد إيران.
صدر من الجريدة أعداد قد تصل إلى العشرين عدداً و لكنها توقفت بسبب بدائيّة عملنا و عدم قدرتنا على توفير ما يمكن توفيره من مال لتطوير أجهزتها و طباعتها.

كانت المخابرات الكندية تصول و تجول و تلاحقني أينما حللت و أينما رحلت. كانوا يسألون صاحب العمارة عن شكلي و عن وضعي و عمن يزورني وغير ذلك من الأسئلة التي تدلل بأنهم يلاحقوني يوماً بيوم... و ما عساهم أن يفعلوا بي أكثر مما فعلت المخابرات الأمريكية، و كنت صامد الجانب، واثق النفس ليس هنالك عندي ما افتقده أو أخاف عليه من الفقدان أو

---

[1] إسم المؤسسة المعروفة في عموم كندا هي: Iraqi Brotherly Relief Fund Organization

الضياع، لا أملك من الحياة إلاّ النزر القليل، فقد حاولت مخابرات الدولة الكبرى أن تكسر في نفسي روح الصمود، و لكنها باءت بالفشل. فكيف بهؤلاء الآخرين من الكنديين الذين لا يمثلون شيئاً يذكر في عداد المقارنة، إنهم جدد على هذا الطريق. فمعرفتهم بالشرق الأوسط و بالوضع الإسلامي ضعيف، و لا يملكون من الخبرة إلاّ الشيء القليل.

<u>باكورة لقائي مع المخابرات الكندية:</u> ففي الشهر الأول من وصولي إلى كندا استدعاني المحامي إلى مقابلة مع دائرة الهجرة، لمناقشة شؤون أوراقي في التقديم على اللجوء (المحتمل) فذهبنا معاً إلى دائرة الهجرة، و دخلنا بعد أن دفعت جزءاً من المال و هو المخصص لمن يقدم أوراق اللجوء (حوالي 500 دولار)، وعندما دخلنا معاً وجدنا هنالك ما بين تسعة إلى عشرة أشخاص بانتظارنا في غرفة اجتمعوا للتحقيق معي و بصورة بعيدة عن الذوق و اللياقة السياسية، فالمخابرات المتمدنة هي تلك التي تحترم الإنسان و تحترم الآخرين الذين تحقق معهم و تحترم ذاتها، فليس من المعقول أن استدعاء المقابلة سيكون مع موظف الهجرة، بينما تراهم متلصلصين يبحثون عن جلسة للتحقيق و هو أمر في غاية الضعف، وعدم الدقة في العمل.

جلست و جلس معي المحامي و هو في غاية الاستغراب لما يدور، و بدء الجميع بسيل من الأسئلة موجهة لي عن كل القضية التي حدثت في الولايات المتحدة، و كنت أجيبهم بكل ثقة و هدوء حيث صرت أوزع الأسئلة عليهم ثم أطلب من أحدهم الإنتظار فيما استجيب للشخص الآخر، و حينما يسأل احدهم سؤالاً فيه من الاستفزاز شيئ ما كنت، أغيّر مجرى الحديث مع نكتة بسيطة تنتهي أن يغرق الآخرون بالضحك، ثم بدأت أتحدث عن واقع المعارضة العراقية، وعن جرائم النظام بشكل هادئ، مع لوم مبطن للغرب الذي تستّرعلى جرائم النظام خلال السنوات الطوال، استمرت الجلسة ما يقارب الساعتين و كانت معظم الأسئلة هي تقييمية لواقع شخصيتي و قدراتي و ثقافتي وغيرها من الأمور التي يستلزم من المخابرات الاطلاع على تفاصيلها، و عندما خرجنا من الجلسة التفت إليّ المحامي و كنا في المصعد نازلين إلى الطابق الأرضي قائلاً و موجهاً حديثه لي:

- لقد أبليت بلاءاً حسناً، لقد تعلمت الكثير مما قلته.
- ضحكت و قلت له: و لكن ذلك سيجعلك تدفع استحقاقات من جراء تلك المعلومات
- أجاب ربما.

كانت المخابرات تتحين الفرص لابتزازي و تخويفي، و من ثم تهديدي بالطرد من كندا مع عائلتي، و كانت بالإضافة إلى ذلك في سؤال دائم عني من قبل معظم العرب و العراقيين و كأنني إنسان في قمة القتل و الإجرام، و كانت و في كل مرة تحاول أن تجد سبباً لطردي و التخلص مني.

ففي إحدى المناسبات قتل رجل أسود كان قد جاء من (جامايكا) و بقي في كندا بدون أوراق رسمية رجلاً آخراً، فقامت القيامة و لم تقعد في التأكيد على طرد كل المهاجرين غير الشرعيين، أو الذين تم رفضهم، و أنا من ضمنهم، و كانت تأتي لي المخابرات لابتزازي في ذلك....
كما كانت تواصل على الدوام في إستغلال فرصة و لو بسيطة في الاقتراب مني و الحديث معي و من ثم تهديدي بدون سبب في محاولة منهم لابتزازي و إزعاجي لمغادرة القطر طوعياَ، إذ كانوا يعلمون بأن البلد الذي ممكن أن يقبلني في العالم غير بلدي الأصلي هي سوريا مع أن سوريا لا ترفع ذلك رسمياً، بل إنه أمر ممكن ترتيبه بشكل خاص مع جهات المعارضة، و كانت كندا تحاول من خلال هذه الثغرة أن تضغط على شخصيتي إلى الدرجة التي أغادر فيها الغرب إلى بلد آخر [1]

---

[1] و أتذكر في حادثة عندما كنت أصلح سيارتي في باب كراج بيتي،و رأسي في مقدمة السيارة أبحث عن عطب في الماكينة، و بينما أنا كذلك لمحت سيارة وقفت إلى جنبي و بشكل ابتزازي غير أخلاقي، رفعت رأسي قليلاً فوجدتهم هم المخابرات، نزلوا من السيارة بينما لم أحرك أنا ساكناً، إذ بقي نصف جسمي في ماكينة السيارة يبحث عن العطل و هم واقفون إلى جنبي و يسألون أسئلة عن بعض الأشخاص، وعن علاقتي ببعض الشخصيات السياسية الكندية و غيرها من مواضيع أخرى، و بينما هم يسألون تلك الأسئلة كنت كمن لا يدري من يقف إلى جنبه إلى أن توجهت إليهم و بيدي مفك البراغي و قلت لهم: أتذهبون من محيط بيتي و الاّ ترون ما لا يسركم..؟ (لأنهم يقفون في أرض تابعة لي و بدون موافقتي، و بهذه الحالة لو حدث و أن ضربتهم فان القضاء سوف لا يعتبر ذلك اعتداءاً عليهم، بل اعتداءاً عليّ لأنهم دخلوا إلى منطقة التي لا يسمح لهم بدخولها) عندها انسحبوا إلى سيارتهم التي كانت واقفة في الممر التابع لبيتي، ثم قلت لهم إذا رأيتكم ثانية سترون مني أقسي من ذلك، و في نهاية اليوم اتصل بي أحد الأصدقاء العرب، و طلب مني أن يلتقيني، فسألته: إن كان ذلك بسبب مشكلتي مع المخابرات....؟ قال: نعم، قلت له: ليحترموا أنفسهم لكي أحترمهم، فإن أرادوا الحديث معي فانا موجود. و ليأتوا في الدائرة لنتحدث، و هكذا. و فيما بعد اتصل بي شاب مثقف عليه علائم أصوله من الجزء الشرقي من العالم و قدم نفسه بأنه أمسك الآن ملف العراق و يريد التحدث معي .. فأخبرته بأن يأتي إلى الدائرة لتسوية الأمر، جاء الرجل بعد أن أعطيته موعداَ في الأسبوع الثاني، جاء و جلس و كان شديد التردد و الحذر، فأخبرته: بعدم وجود دواعي لموضوع التردد و الخشية من كل موضوع يهم الأمن الكندي و الاستقرار في البلد، و قررت عندما رأيته رجلاً شاباً ذا أخلاق أن أبني علاقة مستندة على ثوابت الاحترام، و

و بعد بداية حرب الخليج الثانية 1991 بدأت طوابير العراقيين تصل إلى كندا، و كان القانون الكندي أنذاك يعتقل الشخص اللاجئ خصوصاً أولئك الذين يصلون بدون توفر أوراق رسمية للتعريف بهم، كما هي عادة معظم العراقيين اللاجئين الذين كانوا يحملون جوازات سفر من أقطار تسمح لهم بالعبور إلى كندا بدون فيزا مثل دول الخليج و الدول الأوربية. فكانت دائرة الهجرة تعتقل من يصل هنالك لفترة حتى الحصول على كفيل يضمنه لحين انعقاد وقت المحكمة، و كنت أحرص على أن لا أدع الإخوة اللاجئين يقضون وقتاً في السجن، مع أنه ليس سجناً بالمعنى المعروف، و إنما قسم من أحد الفنادق قد حولوه إلى مكان يبقى فيه الإنسان لحين الحصول على كفيل لإخراجه.

نخطط... و تخطط الأقدار.... لم تتحرك معاملة اللجوء بالنسبة لي أبداً، و كانت معظم المقابلات هي مقابلات أمنية تحقيقية، أحياناً استفزازية أو قسرية في انتزاع المعلومات، و كنت و في مثل هذه الحالات أواجههم بثبات مع عدم نسيان الهم الكبير. ذلك هو تعريف القضية العراقية لهم، و كما ذكرت قبلاً كنت قد قررت أن أنسى هذا الجانب في حياتي، و أن أواجهه بأعصاب باردة و هادئة، و لكن المشكلة الكبيرة هي موضوع عائلتي: زوجتي و ابنتي. فهم يعيشون في مشكلة حقيقية خلقتها أنا لهم من جرآء عملي السياسي.

فالكثير من الأعمال و النشاطات كانت تتطلب أن يكون الشخص ذا موقف واضح فيما يخص الهجرة و الإقامة، و كلما تقدم المحامي على شمولي ببرنامج من البرامج الخاصة باللاجئين أرفض أنا و ترفض عائلتي أيضاً، فتبقى العائلة تعاني تماماً كما أعاني. مثل الحرمان من السفر أو الحصول على الدراسة في الجامعات أو غيرها. مما يتمتع بها اللاجئ.
و مع أن العائلة تدرك الوضع الذي تعيشه، و لكنها في نفس الوقت سبّبّ ذلك لها الكثير من الضغوط بسبب فقدان أوراق الإقامة أو اللجوء، و كان أشد ضغطاً على العائلة هو التأمين الصحي الذي لا يعطى إلاّ لمن له صفة اللاجئ، أما أنا و عائلتي فإننا غير مؤمّنين صحياً. و هو أمر فيه الكثير من المتاعب في الوقت الذي كانت طفلتي الصغيرة وعندما وصلت إلى كندا لا تتجاوز عمرها الشهرين.

ثوابت الحدود التي تقام بين طرفين من الناس، و فعلاً بقيت علاقتنا منذ ذلك التاريخ جيدة حتى غادرت كندا

في أثناء مساعدتي للعراقيين و انتقالي بين دوائر الهجرة لتسهيل أمورهم . تمكنت من أن أتعرف على محامي شاب كان قد تخرج تواً من الجامعة، و كان يعمل مساعداً للمحامي الخاص بي[1] وعندما كان غائباً سألته عن مساعده لقضية عاجلة، فجاء هذا المحامي الشاب فطلبت منه أن يرافقني إلى السجن حيث كانت إحدى العوائل العراقية قد وصلت تواً، و كانت دائرة الهجرة قد أودعتهم في مكان الحجز، و كان الوقت متأخراً فطلبت من هذا المحامي الشاب أن يرافقني لنذهب معاً إلى المحتجز.

و فعلاً استجاب لطلبي و ذهبنا و دخلنا السجن معاً ثم هيئنا أمور خروجهم من السجن خلال مدة قصيرة، و تعمقت علاقتي مع هذا المحامي الشاب الذي كان يتصف بأخلاق إسلامية بكل معنى الكلمة، كان رحيماً في منتهى الرحمة ودوداً واسع الثقافة، ممتلئاً بالحيوية. يرفض الظلم و يحب المساكين، و قد ورث هذه الصفات من أبويه اللذين التقيت بهما، فوجدتهما نموذجاً من الأخلاق و في الإلتزام بمبادئ الدين المسيحي السامية.

<u>تخططون.. وتخطط الأقدار:</u> طلبت من المحامي السابق أن يحوّل معاملة اللجوء إلى هذا المحامي الشاب، فبدأ يعمل بجد و إخلاص و ذكاء في سبيل إيجاد مخرج لمساعدتي في الحصول على سمة اللجوء، فأخبرته أن المشكلة الرئيسة ليست مشكلتي، و إنما موضوع عائلتي التي تعاني من ظروف افتقاد سمة اللجوء، حاول الرجل بكل جديّة في أن يجد هنالك ما يخدم طلبي و يحقق ما نصبو إليه في الحصول على أوراق اللجوء، فرجع هذا المحامي يقرأ كل الأوراق و كل ما نشر عني في الصحف، إضافة إلى أوراق المحكمة في أمريكا، ثم استمع إلى آرائي و إلى أقوالي و بعد ثلاثة أسابيع سألني سؤالاً واحداً قائلاً: هل فعلاً أنت كنت قد طلّقت زوجتك التي هي معك الآن، عندما كنت في أمريكا في عام 1982 ...؟ قلت له نعم، قال هل من الممكن أن تأتيني بأوراق ذلك الطلاق ....؟ قلت نعم

اتصلت بالدائرة المعنية بشؤون الأحوال المدنية في أمريكا فأرسلوا لي الأوراق الرسمية التي تثبت طلاقي من زوجتي كما رويتها في هذا الكتاب الفصل التاسع، أخذ هذه الأوراق و خلال أقل من أسبوع تمكن هذا المحامي الشاب من فصل ملف زوجتي و أولادي عن ملفي، فأصبحت العائلة عندئذ ذات وضع خاص تمكن المحامي من خلالها في أن يحصل لهم على الإقامة خلال أقل من شهرين من تاريخ الحصول على أوراق الطلاق التي حصلت تقريباً قبل ثماني سنوات من تأريخه، و قد أدركت حكمة الباري عز و جل

---

[1] المحامي الأصلي إسمه John McCrie، و المحامي الشاب إسمه Gregory James

عندما استخرته في شأن الطلاق و في شأن فصل فيزة زوجتي عن فيزتي عندما كنت في أمريكا في عام 1982 فكانت الإستخارة جيدة و التي قمت بها تيّمناً لما جاء في ما أقدمت عليه..... و أدركت عندئذ قوله عز من قائل: (من كان مع الله كان الله معه)، (إن تنصروا الله ينصركم)، و كانت إلتفاتة المحامي ذكية جداً و قانونية تمكن بها من العمل بشكل لم تتمكن من خلاله الدوائر القانونية الكندية من رفض فصل المعاملتين.

وعندما ذهبت زوجتي و بنتاي لإستلام أوراق الإقامة، الكندية طلبوا منها التوقيع على عدم زواجها لي مرة ثانية، فوقعت على الورقة فأعطوها الإقامة في كندا مع ابنتيّ، و قالوا لها: لو أدركنا بأنك ستقدمين على الزواج ثانية منه فإننا سوف نسحب منك سمة الإقامة فوافقت، كما تم الاتفاق معها قبلاً لانهم كانوا جادين في طردي من كندا..[1]

و كانت و كما يبدو أن دائرة المخابرات الكندية قد قررت ترحيلي و طردي من البلاد في الوقت الذي يسهل لهم ذلك إذا كانت زوجتي الحالية مطلقة رسمياً، و كذلك الحال مع الأطفال الذين يلحقون بأمهم، سعت الحكومة الكندية في ذلك الوقت و بذلت كل ما بوسعها في الحصول على دولة في العالم تقبلني إذا طردوني من كندا، اتصلوا بسوريا و اتصلوا بإيران و اتصلوا بالكويت و بالإمارات، و لكنهم لم يتمكنوا من أن يحصلوا على أية دولة تقبل عرضهم، و

---

[1] مع أن قانون الهجرة الكندي لا يلحق الزوج بالزوجة أو العكس كما هو القانون الأمريكي، و لكن الزواج يساعد في تسهيل قبول الزوج أو الزوجة إذا حصل أحدهما على الإقامة، و لكن ليس بالضرورة، كما أنه لا يؤثر على إيقاف قرار الطرد في حالة رفض معاملة هجرتي كما كان يتوقع أن تكون الأمور و كما خططت دوائر الهجرة مع المخابرات أن تكون، لأن الهجرة الكندية كانت على يقين ربما 95% أن معاملة اللجوء سوف ترفض من قبل المحكمة الكندية أو دوائر الهجرة، فإن حدث ذلك فان زوجتي أو ابنتي سوف لن تتمكن من أن تشفع لي في البقاء في كندا قانونياً، كما لا باس بأن أشير إلى نقطة جوهرية هنا و هي أن العيش مع إمرأة في كندا له عدة سمات قانونية و هي كما يلي، إما أن تكون زوجة مسجلة في دوائر الدولة، و نسبة من يسجل زواجه هم ربما 30% من المتزوجين، أو أن يعيشا بدون تسجيل رسمي و يسمى (Common law) أي بالمعنى العربي (الخليلة) و هذا هو الشائع في الغرب، والقانون يحاسب الخليلة في 60% من الحالات بمعنى الزوجة و خصوصاً إذا كانت تعيش في بيت واحد، و هكذا الكثير من الكنديين، و لكي يتجنبوا تبعات الطلاق و مشاكله وغيرها فإنهم يفضلون النوع الثاني، أما النوع الثالث فهو العيش سوية مع امتلاك عنوانين مختلفين و هذه تسمى صداقة و لا ينطبق القانون الضريبي أو العائلي على هذه النوعية من العلاقة، و الدولة لا تتدخل في فرض التسجيل في الدوائر على الأزواج بل الكثير منهم لا يرغب مع أنهم أزواج بالكنيسة أو الجامع أو المعبد في الواقع الاجتماعي

هكذا عاشت المخابرات الكندية أوقاتاً صعبة بعد ما عرفت أن تلك الدول رفضت طلبهم.

كنت دوماً أناور مع الحكومة الكندية التي غالباً ما تخشى الجانب الإعلامي في موضوع إتهام كندا باضطهادها لحقوق الإنسان. و ذلك كجزء من الحرب النفسية ما بيني و بينهم في التسريع بمعاملة قبولي كلاجئ أو رفضي أو طردي إن سمح لهم القانون.

و هنا استلمت زمام المناورة بيدي، فجئت أطلب من الحكومة الكندية، أن تسمح لي بالرحيل من كندا أو أن تستجيب لطلبي في تقديمي إلى طلب اللجوء، ثم هددُت الحكومة و المخابرات بالذهاب إلى الصحافة.... الصحافة في كندا غالبيتها يسارية التوجه، و معنى يسارية هو تحسسها من سيطرة الولايات المتحدة الأمريكية على الشؤون الكندية و محاولة التحرر من القيود الاقتصادية و السياسية[1]

بدأت اتصل بالصحفيين، و ببعض السياسيين لشرح موضوعي لهم، ثم بدأت الجرائد و بدأت وسائل الإعلام تثير فضائح وزارة الهجرة، و كانت حجتي القوية هي إنكم إذا كنتم تعتبروني شخصاً غير مرغوب فيه فدعوني أغادر أرضكم أو رحلوني إلى حيث تريدون.[2]

و تكمن مشكلة كندا في أن القانون الكندي، و قانون الهجرة ينص على أن يرحل اللاجئ إلى البلد الذي جاء منه، و البلد الذي جئت منه هنا هو أمريكا، و أمريكا طردتني للتخلص مني. فكيف سترجعني كندا ثانيةً إلى حيث كنت...؟ و هو موضوع فيه الكثير من الإثارة إذا تحول إلى الصحافة و

---

[1] هذه الصحافة اليسارية التوجه، و خصوصاً المكتوبة منها تسيطر على الكثير من الواقع الإعلامي الكندي فترة طويلة من الوقت حتى جاء (كونراد بلاك) الرجل المعروف بيمينيّته المتصهينة المتطرفة و مساعدته غير المتناهية للصهيونية العالمية فاخرج جريدته المعروفة (National Post) التي تعمل بخط مائل إلى الجانب الصهيوني، و الجانب اليميني فتخلخل الوضع الصحفي في كندا وقت طويلاً حتى اشتعلت معركة قضائية ما بين السيد بلاك و بين الحكومة الكندية، و التي على أثرها ردت عليه الحكومة برفض معاملة قبول هجرته إلى كندا، فرجع إلى أمريكا، و لكنه واجه فضائح كبرى لا مجال لذكرها الآن ....

[2] موضوع الهجرة في كندا من المواضيع الساخنة سياسياً، و هي إحدى أوراق المساومة السياسية في أوقات الانتخابات، و التي على أثرها يقترب الناس أو يبتعد من انتخاب أو عدم انتخاب الجهة السياسية..نسبة قبول الأجانب في كندا هي 5% سنوياً و هي نسبة كبرى والتي يحدد هؤلاء مصير الكثير من الأحزاب الطامحة في الوصول إلى الحكم

مراكز القرار، كما إن المخابرات الأمريكية و كما يبدو كانت قد حذرت المخابرات الكندية من مغبة الإقدام على السماح للسيد شبر بالعودة لها ثانية مهما كانت الظروف و مهما تعقدت، و هكذا عاش الجميع في مشكلة، و ورطة لا يمكن حلها الآن باللجوء إلى القضاء و الدخول في المعركة القانونية الكبرى.

في هذه الأيام شغل المحامي الصديق الشاب منصباً رفيعاً في الدولة، فأعطى أوراقي إلى محامية كانت تعمل في مكتبه، و التي من خلالها دخلنا معاً ساحة القضاء في معركة حامية الوطيس مع كل أطراف الحكومة.

③④

◖ الفصل الرابع و الثلاثون ◗

محاكم ... و محاكم
المحكمة القضائيّةُ الكبرى أو الطرد



المراهنة الخطرة: ينص القانون الكندي على أن اللاجئ الذي كان قد ارتكب جرائم كبيرة فان الطرد سيكون مصيره، و لا يقبل في نظام الهجرة الكندية بأي حال من الأحوال، و لكن و بسبب ظروف استحالة الطرد إلى أمريكا قررت الحكومة الكندية أن تستدعيني إلى محكمة متخصصة يحضرها قاضيان يمثلان القضاء الكندي، و كذلك يحضر ممثل الهجرة و مهمته تناول جوانب قانون الهجرة و المرافعات الكندية، و يحضر أيضاً طالب اللجوء أنا، و محامي طالب اللجوء و هي المحامية (Marry Tathum) ثم الشيء المهم وهو المدعي العام (Mr. Lout) الذي انتدبته الحكومة الكندية للوقوف أمام قبول الشهود و موقعه كموقع المدعي العام الذي كان في أمريكا الذي ذكرته في الفصول السابقة[1]

تبدأ المحكمة بأن توجه أسئلتها بالإضافة إلى أسئلة محامي الهجرة والاستماع إلى شهاداتي و الدوافع القانونية التي أدافع بها عن نفسي في رد إدعاءات الحكومة في رفض طلبي، و بالتعاون مع المحامي، و لكي يحصل الشخص على حق اللجوء فانه يجب عليه الحصول على صوت واحد من أصوات القضاة الاثنين.

أما في قضيتي فأن الأمر كان مختلف تماماً، بل كان أكثر تعقيداً، و كانت الحكومة و المخابرات قد أعدت الأمر بليل أظلم خطتها هي الانتقام مني، ربما رداً على ما أصاب أمهم المخابرات الأمريكية من ذل على رضوخهم لمطالبنا أو بسبب أن القضية كلها هي قضية مبدئية فكرية إنسانية....

بدأت أولى جلسات المحكمة في أوائل عام 1992 أي بعد ست سنوات على وصولي إلى كندا، و حضر الجميع، و كان القضاة رجلين أحدهما في أواسط السبعينيات و الآخر في بدايتها، بدأت المحكمة في حدود الساعة الثامنة صباحاً و بدأنا بالحديث عن حياتي وعن اضطهادي من قبل النظام العراقي، و أوضحت فيها جميع مراحل حياتي في الاضطهاد و التشريد و القتل للعائلة و غيرها مما عانيتها في مسيرة حياتنا، و لم تنته الجلسة إلاّ في الساعة الرابعة و النصف عصراً حيث أجّلت إلى موعد آخر في خلال موعد أقصاه أربعة أشهر.

---

[1] و الحكومة الكندية غالباً لا تقدم على هذه الخطوة في تعيين مدع عام، لان ذلك يعرضها للنقد و التجريح بسبب خلفيتها السلبية في رفض اللاجئ، و ربما اقل من 1% من اللاجئين ممن تتدخل في قضيتهم الحكومة من خلال المدعي العام، بل اقل من ذلك

جاء موعد الجلسة الثانية و بدأت جلسات الاختلافات حيث أثار محامي الحكومة قائمة ضخمة من الثغرات في إفادتي منها: دقة التواريخ، و منها خطأ إسم الأشخاص مثلاً في (حامد) أو (حميد) مع أن الكتابة باللغة الانكليزية تبدو متشابهة كذلك طول مدة الاعتقال، ثم بدأت المحكمة تتخذ منحاً جديداً، و هو إعادة قضية أمريكا و لماذا أقدمت أنا على تلك الجرأة و المخاطرة الكبرى التي من المستحيل على شخص مثلي أن يقدم عليها ما لم يكن خلفه منظمات أخرى مساندة عالمية أو دولية....؟

و لم تنته المرافعات بالجلسة الثانية، فحددت جلسة أخرى خلال ستة أشهر، ثم جئنا و بدأت المعركة النقاشية و القضائية بيني و بين القاضيين (Mr. Rotman & Mr. Abraham)، و بيني و بين ممثل الحكومة، فقد[1] تمكنوا من أن يحصلوا على بعض الأشياء المتناقضة التي نسيتها في حياتي لأنّ الزمن قد غطى عليها و هي بحدود ربع قرن من ذلك التاريخ، مثلاً كيف يعتقلونك في العراق في سنة 1977 و تتمكن أن تهرب من الاعتقال (أثناء نقلي في السيارة)...؟ و هل أن ذلك جاء بالاتفاق ما بيني و بين حكومة البعث لعمل مسرحية، أو أن القضية مفبركة من قبلي و أن الاعتقال لم يحدث أبداً، و هو تفكير أقل ما أقول عنه إنه غير علمي، وغير دقيق لأنني عندما بدأت المحكمة كانت أقوالي قد قدمت تحت القسم (Under Oath).
فليس أمام الآخرين بالطعن إلاّ إذا ظهر في حديثي ما يخالف ذلك، كما أن أسلوب البحث عن الصغائر في المرافعات قضية لا تعبّرعن فهم و بعد نظر في شؤون المحاكمات، و قد ظهر لي تأخر القضاء الكندي و ضعف أدواته عندما وجدتهم متشنجين حتى في الأمور القانونية و في شروحهم للأحداث، و قد استنتجت بأنهم قد بيتوا مخططاً غبياً ضدي شخصياً مع أن القضاء يجب أن يتجاوز حدود الشخصنة[2]

---

[1] هنالك تفاصيل كثيرة جداً و مناقشات وصلت إلى حوالي 4 آلاف صفحة أو أكثر مع عشرين فلماً مصوراً. فيها معلومات كثيرة لا مجال للخوض فيها هنا

[2] القصة كما وقعت في أحداث خان النصف في سنة 1977كنت ممن اعتقل أثناء انتقالي ما بين النجف و كربلاء بعد أن سمعت بان الحكومة قد طوقت مراكز المتظاهرين فقررت الذهاب إلى كربلاء لمعرفة الأمر بنفسي، ثم توجيه التظاهرة بالاتفاق مع قادتها، و في الطريق اعتقلوني و أنزلوني من السيارة ثم وضعوني مع عدد ربما أربعين شخصاً في سيارة (زيل عسكري) كما تسمى في العراق في محاولة لنقلنا إلى سجن في كربلاء، و أثناء عبور السيارة سكة الحديد قرب المقبرة خففت سرعتها فقفزت من السيارة و هربت إلى المقبرة، و الذي ظهر أن المقبرة كانت مقراً للمخابرات فألقي القبض علي ثانية ثم أرجعت إلى السجن كمرحلة مؤقتة لنقلي إلى السجن رقم واحد العسكري في بغداد ..

لم يصدق القضاة و لا محامي الحكومة هذه الرواية، و طالبوني بمعلومات من منظمة العفو أو غيرها أو من الحكومة العراقية بأنني اعتقلت وعذبت.

كذلك لم يصدقوا بأنني بقيت هارباً في بغداد ما بين مدة الإفراج عني في سنة 1977 و حتى حصولي على مركز أستاذ في جامعة بغداد، و كان محامي الحكومة يؤكد بأن نظام البعث لا يتعامل مع المعارضين بهذه السهولة في السماح لهم في الحصول على أماكن لهم في الجامعة للشخصيات المعارضة للحكومة، وعندما سألوني قلت:هذا ما حدث، و أن المعلومات المخابراتية ما بين أطراف الحكومة ضعيفة. فالكثير من المعارضين كان يهرب إلى بغداد و يبدأ بحياة جديدة بعيداً عن أعين مخابرات البصرة مثلاً، و خصوصاً بين المحافظات مع وجود خيط رفيع في الأمور المهمة جداً، ثم قلت أن جهاز الكومبيوتر كان أنذاك غير متوفر لدى الحكومة لتبادل المعلومات ما بين أجهزة المخابرات، و قلت :أن التهمة لم تثبت عليّ و لذلك أفرج عني، و إلاّ لكنت قد أعدمت الآن، فرد عليّ أحد القضاة قائلاً: هل قلت إن جهاز الكومبيوتر كان غير متوفر في العراق أنذاك ...؟ قلت: نعم، قال هذا تقرير بيدي يتكلم عن عملية تبادل المعلومات ما بين طائرة (الاواكس) الأمريكية و بين محطة أرضية عسكرية عراقية لمراقبة تحركات القوات الإيرانية في بداية الثمانينيات و هذا يعني أن الكومبيوتر كان موجوداً في العراق، ثم أضاف قائلاً: كما إنه من المعروف أن العراق من الدول المتقدمة في عالم التكنولوجيا في البلدان العربية، و كذلك فنحن لا نقبل هذه الحجة في شهادتك، و عليه فإننا لا نصدق روايتك.

و كانت المحكمة و القضاة أناساً غير قانونيين لم يناقشوا الموضوع و إنما ناقشوا الحواشي في محاولة منهم للدخول في صراع عقيم و في مسألة قلت و قلنا و هو أمرغالباً لا يعتبر به في المحاكم الكبرى و في القضايا المهمة، بل إن الأمور هي التي تثبتها الوثائق.

ثم بدأ الضغط يزداد في اكتشاف أمور كثيرة، و كأنهم أناس أذكياء يقيسون أمور العراق على خلفيتهم الغربية منها: كيف سمحت الحكومة العراقية لك بالعودة إلى الجامعة بعد الاعتقال الثاني....؟ و كيف سمحوا لك بأن تتزوج في العراق، مع أن الشخص المعارض لا يسمح له في أن يتقدم على الزواج بسبب قسوة الظروف..؟ ثم كيف تقول إنك لم تنتم إلى حزب البعث في جامعة بغداد، مع أن أساتذة الكلية التي كنت أستاذاً فيها معظمهم من المنتمين إلى الحزب ماعدا ثلاثة أو أربعة كما قلت أنا في شهادتي.....؟ و لكن مع ذلك

تركوني أمارس تدريسي في الجامعة رغم هذه الاعتراضات......؟ ثم أثاروا مسألة عدم قتلي و اغتيالي من قبل أجهزة مخابرات النظام البعثي في العراق، و خصوصاً إنني و عائلتي من المعروفين في معارضتنا للنظام.....؟

ثم أثاروا مسألة حصولي على بعثة لتكملة شهادة الدكتوراه في أمريكا و سمحوا لي بالسفر مع إنني من المعارضين.....؟ و أن نظام البعث كما هو معرف لا يسمح للمعارض بالسفر فضلاً عن منحي بعثة دراسية ؟
و أثاروا أيضاً مسألة الأموال التي جاءتني في أمريكا للقيام بنشاطاتنا، و قالوا إنها ربما جاءت من النظام العراقي....؟ ثم أثاروا مسألة الوثائق و إنها ربما كنت أرمي الجانب الربحي من ورائها.....؟

<u>رخصة المعارض:</u> و هكذا أثيرت المسألة بعد الأخرى و بشكل مكثف في جو لا يمكن للإنسان أن يأتي بمستند مكتوب لإثبات كل ذلك في سبيل إقناعهم بأمور اجتماعية و سياسية تختلف عما ألفوه في حياتهم العادية في الغرب، فالمعارضة للنظام بالنسبة لهم تتضمن مفهوماً مختلفاً عما نفهمه نحن في العراق، و عليه فالسجن بالنسبة لهم يعني جريمة بينما في العراق فان السجون أنذاك لا تضم إلاّ الوطنيين الأحرار، و لم يكن دخولهم إلى السجن إلاّ من أجل خدمة المبدأ..... و نظام صدام بالنسبة لهم نظام مشابه لنظام -مثلاً- حسني مبارك في مصر، و الذي يمكن المعارض السياسي أن يتكلم أو يحتج أو يتظاهر، و أن ما أرويه الآن هو من ضرب الخيال، و أنني أحاول أن أخادع و أكذب لكي أحصل على حق البقاء في كندا.

قلت لهم في جلسات المحكمة المختلفة التي طالت لثلاث سنوات:[1] إنني لست ذلك الشخص الذي يبيع مبادئه من أجل أن أبقى أياماً معدودة في بلد يرتع فيه كل عتاة المجرمين ممن استغلوا النظام و تمكنوا من بناء كيانات مصطنعة لهم...... فقد ذكرت لهم في الجلسة ربما الرابعة: عليكم أيها السادة أن تعرفوا الإنسان، و أن تفرقوا ما بين الغث و السمين، وعليكم أن تحترموا صاحب الفكر، و صاحب المبدأ، و صاحب العقيدة، فالإنسان لم يخلق لكي يأكل و ينام و... بل إن الإنسان مبدأ و موقف و رسالة، ثم قلت لهم: إن كنتم لا تفهمون ما أقول فهذا من حقكم و لكن عليكم أن تسالوا عن أشياء الاختلاف التي بيننا،

---

[1] أكرر ثلاث سنوات و ربما هي أطول محكمة هجرة ليس في التاريخ الكندي فقط، بل في تاريخ الهجرة العالمي و إذا أضفنا لها السنوات الستة التي سبقتها ستكون تسعة، وإذا أضفنا لها السنوات لحين 2004 للحصول على الجنسية ستكون تقريباً تسع عشرة سنة

فأنا لم أمارس عملية المقاومة و المعارضة منذ نعومة أظفاري بسبب أن هنالك مبدأ يصرخ، و هنالك أمة تذبح، و هنالك قيم تهدر..[1]

ثم وجهت كلامي للقاضيين و قلت: أتعرفان -أيها القاضيان- ماذا يعني بالنسبة لي حينما تتهموني بالكذب كما تتهمون الآخرين من المحتالين الذين قدموا طلب اللجوء الى كندا و حصلوا عليه....؟ فانتم تكيلون بمكيالين، إنني صاحب مبدأ و صاحب قضية و صاحب إبآء، وعليكم أن تقدروا معنى الإنسان الذي يقف أمامكم، أتعرفان أن ذلك أوقع على نفسي من الطعن بالسيف....؟

إن كنتما قد استعملتما هذا المعنى مع الآخرين من اللاجئين الروس أو السيرلنكيين أو الصينيين أو المكسيكيين أو الجامايكيين فإننا نختلف تماماً عن أولئك، إننا شعب تربى على المبدأ و تربينا على القيم و جاء الإسلام ليرفعنا و يجعلنا خير الأمم، أنتم الآن تمارسون معي إسلوباً تعذيبياً، و لعله أشد إيلاماً من التعذيب الجسدي الذي تعرضت له في سجون صدام، يا مستر (روتمان) و هو القاضي المسن، قلت له: أنا ربما أعتقد أنك الآن جد أو على الأقل أب، أسألك بالله كيف تتصرف و أنت ترى حفيدك أو ابنك تقطع أعضاوءه و يمارس معه التعذيب أو أن تشاهد أمك و قد تناوشتها أيدي عتاة البشر يضربونها و يهينونها....؟

أراد القاضي أن يتكلم، قلت له: لم انته يا حضرة القاضي بعد، إن الوقت وقتي، تراجع ثم واصلت حديثي و بهجوم صاعق بعد أن كنت جالسا فوقفت و وقفت معي المحامية و جاءت إلى جنبي بعد أن كانت تجلس في الجانب الأيسر مني، ثم قلت: إن هذه المحاكمة هي الآن مسجلة في شريط صوتي و هي وثيقة عليكم و حجة دامغة على عدم إدراككم لمعاني الإنسان المضطهد في العالم، فانتم إذاً لم تفهموا حالة بلداننا، و حالة الدكتاتورية الفاشية فيها، فليس لكم أن تجلسوا حيث انتم جالسون الآن، ثم التفت إلى محامي الحكومة (مستر لاوت) و قلت له: أنا أتفهم موقفك، و أتفهم حرصك على محاربتي (أعني من ذلك أن الحكومة تدفع له مرتباً عالياً)، و لكنني لا أفهم كيف لك -و أنت محامي - أن تدوس على ضميرك، و كيف لك أن تقول بما لا تؤمن به أنت....؟ فأنت تعلم جيداً أنني من المضطهدين، و تعلم جيداً أنني منذ وقت طويل أقارع الطاغية بكل الوسائل الممكنة، وهو من حقي، و لكنك الآن تريد

---

[1] صرت انتقل إلى الصورة التي مررت بها في قاعة المحكمة في أمريكا، و هي أن لساني يتكلم، و لكنني لست أنا الذي أفكر، إن الكلمات بدأت تخرج بحرارة هادرة مسترسلة، و حركات يدي و تقاسيم وجهي تعلوها معاني الألم، و أنا أهاجم الجميع و لكن بأدب

أن تلعب معي لعبة تحليل راتبك (Justify your salary) اهذا هو شرف حرفة المحاماة....؟
أوقفني موظف الهجرة (Mr. Starkmen) و كان له الحق في ذلك قائلا:[1] يا سيد شبر إن مجريات المحكمة لم تنتهي بعد، و لا زلنا في بدايتها وما عليك و علي أنا إلاّ أن نتابع الحوارات القانونية، ثم توجه إلى القاضي، و قال له: يا سيد (روتمان) إن الكلمة التي أطلقتها على السيد شبر[2] فهي التي شنجت الأجواء و جعلته في موضع التحسس من مجريات القضية. و لذلك فنحن من جانبنا في الهجرة نريد أن نتأكد بأن الشاهد يعطى كامل الحق في الدفاع عن نفسه، و بدون إثارة شكوك على أقواله، لأننا لو استعملنا هذا الأسلوب مع اللاجئين الذين يصلون إلى كندا، لكان لنا بأن نرحّلهم كلهم، و لذلك فإننا نحترم أقوال الشاهد لأنه قيلت تحت القسم و معناها بأن على الشخص الرافض لها أن يقدم دليلا أقوى منه.

و ماذا بعد في الصراع القضائي: ثم طلب القاضي بعدها أن نأخذ فترة ساعة و نعود.... عدنا إلى القاعة بعد أن أكلت شيئاً من الطعام و قرر الجميع أن تؤجل الجلسة إلى وقت آخر خمسة أشهر أخرى.
عندما بدأت المحكمة بعد ذلك التاريخ أحضرت المحامية شهوداً متنوعين منهم الكندي و منهم العراقي و منهم المثقف و منهم المسلم غير العربي، و منهم الرجل و المرأة و منهم الأمريكي و هكذا، و كانت ترمي من كل ذلك إلى تغيير مفاهيم القضاة و محامي الحكومة حول شخصيتي.

كان الشهود قد أخذوا وقتاً طويلاً من جلسات المحكمة، و كان على الطرف الآخر أيضاً أن يحضر شهوداً ممن لديه ما يناقض أقوالي و شخصيتي، و كنت آمل أن يقوم به محامي الحكومة أو المدعي العام (السيد لاوت) و لكنه كان أضعف من ذلك تماماً.

بدأت الجلسة و بدأ الشهود بالتواتر، و كان هنالك ثلاثة شهود في كل جلسة، يجلس الشاهد فيسألونه عن إسمه و عمله و شهادته و معرفته بي و كيف

---

[1] موظف الهجرة هذا إنسان جيد و متعاطف. و هو على اطلاع على وضع العراقيين و مشاكل الاضطهاد من قبل النظام
[2] (Naive) كلمة تطلق في اللغة الانكليزية على البسيط أو المغفل أو أحياناً الإنسان اللطيف جداً

يعرفني و ما هي العلاقة التي تربطه و كم عمر تلك العلاقة....؟ و كان القضاة و محامي الحكومة يركزون على ثلاثة مواضيع يسألون بها الشهود.

الموضوع الأول:هل تعتقد أن السيد شبر يخالف القانون...؟
الموضوع الثاني: هل تعتقد أن السيد شبر معارض للحكومة العراقية....؟
الموضوع الثالث: ماذا لو عرفت الآن أن السيد شبر له ماض إجرامي كبير في أمريكا، و أن القانون الأمريكي طرده ثم جاء هنا لكي يتقَّمص شخصية أخرى..؟
هذا بالإضافة إلى أسئلة أخرى متنوعة.

كان جميع الشهود يتكلمون بعفوية بالغة، و كانت كلماتهم و شهاداتهم رائعة حتى بالنسبة للكنديين و غير العرب من المسلمين أيضاً.....

و الذي يبدو أن الحكومة الكندية و مخابراتها كانت تعتقد بأنني من المستحيل أن أكون إنساناً وحيداً في نشاطي الحالي و نشاطي السابق. فهذه الطاقة لابد و أن يكون هنالك دولة ما وراءها. طبعاً هذه كانت آراء المخابرات الأمريكية، و أضاف الكنديون بذكائهم المفرط عمالة أخرى إلى سلسلة العمالات العالمية وهي أنني ربما أكون عميلاً لصدام و حزبه [1]
و كذلك كانوا يبحثون عن تلك العلاقة الخفية مع هذين أو ما بينهما، و هو أمر في غاية الغباء أن يفكر به جهاز مخابراتي لدوله كبرى مثل كندا.[2]

و هكذا بدأت الصورة تهتز أمام التعقيدات التي بدأت تظهر على الأفق، و التي تاهت فيها آراء القاضيين و كذلك محامي الحكومة المدعي العام الذي كان يتكلم بكلام غريب في معناه.
في الوقت الذي بدأ أن المحكمة تحولت من طابع قبول اللجوء إلى محكمة مسيسة غير حرفيّة، وغير متخصصة، فكانت الفرضيات التي تناقشنا حولها و أوصلتها المحكمة إلى المحامية هي: إما أن أكون أنا عميلاً صدامياً متخفياً

---

[1] يا للمهزلة
[2] والذي اعتقده، و كما ظهرت لي الكثير من الحقائق في تعاملي مع المخابرات الكندية هو صفة الغرابة في نظرتها إلى مصادر جمع المعلومات، و الذي يبدو بأنها تعتمد على دولة شرق أوسطية في تزويدها بالمعلومات عن هذا الأمر، أو ذاك، و كأنها تشتري المعلومة من جهاز مخابراتي آخر، و لذلك تظهر تلك المعلومات على إنها متوجهة نحو تضييع المخابرات الكندية في أمور كثيرة، بغية إستفادة تلك الجهة المخابراتية (البائعة) من تلك المعلومة المقدمة لهم، إما بسبب الإنتقام من شخصية ما، أو منع حادثة ما، أو غيرها من الأمور

بزي المعارض و إنني أروي لهم قصص مفبركة لكي أمارس فيما بعد عملية التجسس على المعارضة العراقية في الخارج، أو إنني أتعاون مع النظامين العراقي و الإيراني بأزدواجية باعتبارهما نظامين يعاديان الغرب في سبيل تكوين جبهة عالمية لضرب الغرب عموماً، و أنني بنشاطي هذا أعمل على الجهتين لكي أقرب وجهات نظر العراق مع إيران لكي تحارب تلك الدولتان الامبريالية الأمريكية، و عندما تتوصل المخابرات الكندية إلى هذا الاستنتاج فان ذلك يفتح الطريق أمامهم لمعرفتي و معرفة أعدائهم، و في نفس الوقت يكون أمام دوائر الهجرة أن تتخذ قرارها بشأن رفض معاملة اللجوء، لأنّ قانون الهجرة الكندي يرفض كل شخص يمارس التجسس على أبناء جاليته أو على غيرها...

و هكذا استمرت المحكمة ثماني جلسات إبتدأت من الشهر السادس سنة 1991 و انتهت في الشهر الخامس سنة 1993 و لعلها أطول محكمة في تاريخ اللجوء الكندي تواجهها دائرة الهجرة.
و بعد محاولات و نقاشات و استدعاءات للشهود قال أحد القضاة في الجلسة الثامنة رأياً ما، قال: إننا استمعنا إلى الكثير من الآراء من السيد شبر، و استمعنا إلى الكثير مما قالته المحكمة في شخصية السيد شبر، كما قدم محامي الحكومة آراءاً أخرى معاكسة تظهر السيد شبر شخصية إما سياسية كبيرة، و إما صاحب موقف متميز يخالف التوجه الغربي، و في هذه الحالة فإننا قد أصبنا بالذهول من هذا الأمر، و تركنا في حيرة من الموقف الذي يجب أن نتخذه، و لذلك فنحن لا بد و أن نستدعي شخصية متخصصة بأمور العراق نسأله عن بعض القضايا التي تخص العراق، و من خلالها نعرفإذا كانت شهادة السيد شبر مطابقة للواقع أو غير مطابقة.....؟

نظر الجميع أحدهم إلى وجه الآخر فالأمر الآن ينتقل من مرحلة إلى مرحلة، و قد تعب الجميع من هذه الجلسات الطويلة و بالوثائق الكثيرة التي يجلبها معهم القضاة و التي تصل إلى المحكمة في عربة وضع فيها الأشرطة و الملفات والصور و بقية الوثائق التي تهمني.

ثم إن محامي الحكومة بدأ بتوجيه كلام غير مناسب، و صار انفعالياً، كذلك صارت تكاليف المحامية عالية بشكل كبير، و لا زال القضاة في موقف محرج، فهذه هي المحكمة الأولى في التاريخ الكندي و التي إن تم قبول السيد شبر فيها فستكون الأولى في هذا الأمر، و ستفتح أمام الآخرين من الذين يملكون ماضياً إجرامياً كبيراً في قبول لجوئهم إلى كندا، فإذا تحقق ذلك فانه

يعني فتح الباب للكثير من مجرمي العالم في أن يأتوا إلى كندا و يطلبوا حق اللجوء، و هذا معناه أن تتحول كندا إلى ارض للمجرمين، و هو ما ينعكس في خطورته على مجمل أوضاع البلد، فالجميع يعيش في حيرة و لا أحد يتمكن من الانسحاب أمام هذه المعضلة..... هذا ما قاله أحد القضاة، و على ضوء ذلك قدمت المحامية رأياً آخراً، قالت: نحن نعرف السيد شبر من خلال هذه الجلسات، و أيضاً من خلال ما روته لنا أجهزة المخابرات الأمريكية و الكندية، لماذا لا ننظر إلى الجانب الآخر من شخصيته في حياته و في عمله.....؟

قالوا لها ماذا تعنين ...؟

قالت إنني أحضرت شريطا مصوراً وضعت فيه مقابلات السيد شبر مع الصحافة الكندية و التلفزيون و الراديو، لماذا لا نشاهد هذا الفلم، و نرى واقعية السيد شبر فيماإذا كان متكلفاً أو إنه يرمي في تلك المقابلات إلى خدمة جهة سياسية أو غيرها....؟ إستحسن الجميع الرأي، و قرروا أن يروا الفلم مباشرة..... و في قاعة المحكمةً وضع الفلم في الجهاز و هي المرة الأولى التي أشاهده أنذاك، يحوي الفلم على معظم مقابلاتي التلفزيونية في أيام حرب الخليج في 1991 و ما بعدها، ثم الحديث عن الإسلام في محاربة الإرهاب و عن تعاليمه، و كان ذلك في حدود سنة 1989 في نقاش حول دور الإسلام في محاربة الإرهاب ... الخ، كان الفلم وثائقياً لاقى استحساناً كبيراً من الجميع خصوصاً موظف الهجرة السيد (Starkmen) الذي بدأ عليه التأثر و التفاعل مع قضيتي..... انتهى الفلم، و قبل أن يتكلم الجميع قالت المحامية: أنا أؤيد رأي القاضي السيد (أبراهام) في أن يكون هنا شخص متخصص في قضية العراق يطرح رأيه في وضع الأفكار التي قدمها السيد شبر.

سأل الرئيس السيد (روتمان) القاضي الآخر و هل هنالك من أحد ؟

قالت إنها تعرف الدكتور عثمان علي[1] و هو حائز على شهادة الدكتوراه من جامعة (تورنتو) و متخصص بالشأن العراقي، و هو كردي و سني و

---

[1] د. عثمان علي عراقي كردي متخصص في الشؤون الكردية، خريج جامعة تورنتو، و يعمل الآن أستاذا في جامعة صلاح الدين في اربيل، و يرأس مركزاً للبحوث العراقية الكردية، و هو رجل أكاديمي له أكثر من كتاب و بحث في الشؤون السياسية في المنطقة، بالإضافة إلى ذلك فهو صديق حميم، عملنا معه في المعارضة العراقية و أصدرنا أكثر من منشور في الشأن العراقي منها المجلة المعروفة التي كان الاتحاد الإسلامي الكردستاني للطلبة الأكراد يصدرونها. و هي المسماة (آلاي إسلام)... و هو شخصية رائعة عمل معي في كندا منذ مجيئي إلى تورنتو و قد أسسنا أنذاك الكثير من جمعيات المعارضة، و تعاوننا

بالإضافة إلى أكاديميته التي لا يمكن له أن يتعاطف مع السيد شبر فيماإذا كان يشاركه ببعض أفكاره.

سألوها .... أين هو ؟
قالت: إنه يعمل أحياناً مترجماً للمهاجرين ولديّ تلفونه... وافق الجميع على الفكرة على شرط أن يكون حضوره الى المحكمة مباشرة و بدون أن يكون له إجتماع مسبق مع المحامية..... و هكذا اتصلت المحامية به تلفونياً بينما نحن في وقت المرافعة.

الشاهد الأخير: قالت المحامية لهم إن د. علي سيصل الى القاعة و بدون سابق علمه في مجريات الموضوع، و الذي حينئذ سيتم استجوابه فيما يخص تأريخ السيد شبر، رحب الجميع بذكاء المحامية، واستعدوا حتى وصل د. علي في الساعة الثانية من بعد الظهر، و دخل القاعة فوجدني هناك، و وجد القضاة، و وجد الآخرين بانتظاره.

كل ما في الأمر كان الاعتقاد السائد لدى د. علي هو أن الإستدعاء كان للترجمة كما هي الحال في كل استدعاء من قبل نفس المحامية، لأنه يحسن اللغة الانكليزية و العربية والكردية و ربما الفارسية أحياناً، و عندما رآني تعجب، و سأل عن معنى هذه الجلسة...؟

ابتدأ القاضي معه[1]
- إسمك....؟
- د. عثمان علي.
- شهادتك...؟
- دكتوراه في تاريخ العراق خصوصاً القضية الكردية.
- أنت معارض للنظام في العراق.....؟
- نعم.
- هل تعرف السيد شبر....؟
- نعم أعرفه
- منذ متى ...؟

معاً في تقديم الإسلام المنفتح على الصحافة و في التظاهرات، وهو قريب من أفكاري مع الاختلاف في نظرتنا إلى بعض الرؤى القومية و الرؤى التاريخية
[1] أنقل هنا مختصر الحوار و ليس كله، لان ذلك قد يكلف الكثير من الكتابة و الصفحات

- سبعة سنوات على الأقل.
- و آخر مرة التقيت معه...؟
- ربما قبل ستة أشهر أو أكثر.
- لماذا لم تره خلال تلك المدة...؟
- هو مشغول، و أنا مشغول.
- هل اتصل بك السيد شبر تلفونياً حديثاً...؟
- لا
- و هل اتصلت بك المحامية (ماري) حديثاُ..؟
- لا، ماعدا الآن
- هل تعرف لماذا جئت إلى هنا.....؟
- لا أعرف، و لكن أعتقد للترجمة، و لا أدري ما علاقة السيد شبر بالترجمة فهو متمكن من اللغة الانكليزية و العربية بالإضافة إلى لغات أخرى.
- أنت جئت الآن كشاهد على السيد شبر، فهل هنالك من مانع لذلك؟
-لا أبداً، إنه ليسرني أن أشارككم الرأي، و أن أنقل لكم ما فيه الواقع مع إنني لا أعرف أصل القضية
-حدثنا عن السيد شبر...؟
- نعم سأكون مسروراً، السيد شبر من الأشخاص القلائل الذين رأيت من أمثالهم في حياتي.... رجل متدين، مبدأي، مثابر، إنساني، لا يفرق بين طائفة و أخرى بين سني و شيعي[1] بين عربي و كردي، و بين مسلم و مسيحي، مساعد للآخرين، يحبه الناس، لا يبخل في مساعدة المحتاجين، رمز من رموز المعارضة في الخارج، مثقف، كاتب... الخ
- هل تعلم أن السيد شبر قد حصل على بعثة من حكومة صدام.....؟ و هل ذلك ممكن في النظام العراقي مع المعارضين..... ؟
-أعرف ذلك من زمن، و لا أرى غرابة في هذا الأمر، لأنّ هنالك نوعين من البعثات في العراق... هنالك بعثات تقدم إلى البعثيين أولئك الذين يحتلون مراكز حساسة في الجامعة في الاختصاصات الأدبية عموماً، و هنالك نوع آخر من البعثات و هي البعثات العلمية والطبية و الهندسية و هذه ممكن أن

---

[1] كان أحد الإخوة الأكراد الذي وصل إلى كندا شاباً مثقفاً بقي معنا لمدة أكثر من سنين يتناول من ثقافتنا و يحضر دروسنا وعندها ما أراد أن يحول انتماءه المذهبي فجاء لي و استشارني في ذلك، فقلت له: أنا كأخ كبير لك أفضل أن تبقى كما أنت عليه، لان الدين هو براءة ذمة العبد، أما إذا كنت تريد أن تغير مذهبك لشيء آخر غير الجانب الفكري و الجانب المبدئي فان السؤال لا يجب أن يوجه لي، و كان د. عثمان و بقية الإخوة على اطلاع بهذه الحادثة تماماً و كان ذلك الشاب يروي لهم الواقعة لكي يشيع روح الانفتاح

تعطى للآخرين غير البعثيين، ثم أضاف: إنني لم أكن بعثياً، و لكن مع ذلك أعطتني الحكومة منحة دراسية... كان الجميع أثناء حديثه يهزون رؤوسهم علامة الاقتناع و علامة الموافقة و كان د. علي يتكلم بكل هدوء و حرفية، و بشكل واثق مما يقوله.

سألوه: هل سمعت بقضية السيد شبر في أمريكا التي كان من جوانبها طبع وثائق عراقية لتزويرها ثم إرسالها إلى أهله في العراق لإنقاذهم من صدام كما يقول هو......؟ و هل ذلك ممكن من شخصية كما تصفها أنت........؟

- أجاب: .... سمعت عموماً بالقضية و لكنني لا أعرف التفاصيل، و لم أسأل السيد شبر عن ذلك.

-و هل تعتقد أن السيد شبرإذا كان بهذا القدر من العقلية التخطيطية، و العلمية أن يقدم على عملية خطرة جداً كهذه العملية التي فيها من المجازفات ما لا تعد و لا تحصى...؟ و هل تعتقد أنه قام بذلك من أجل المال.... ؟ أو أنه و كما يقول هو بأنه كانت نيته مساعدة الشعب العراقي على إنقاذه من جحيم صدام.....؟

-أجاب: عليكم أن تدركوا إن العراقيين الذين عاشوا في العراق، و لاحظوا بأم أعينهم كيف تهدر أرواح الإنسان في الشوارع، و كيف يقتل البشر في الزنزانات، و كيف تنتهك الحرمات في كل زاوية من زوايا العراق،إذا عشتم تلك الحالة فان المعارض لهذا النظام أتوقع منه أن يقوم بأي عمل ضد الطاغية. سواء أكان ذلك العمل أحمقا أم غير أحمق، ثم أضاف: أنا أعلم أن والدة السيد شبر كانت معتقلة، فإذا كان كذلك فنحن العراقيون ممكن أن نقوم بأي عمل و لا نفكر بعواقبه أمام محاربة النظام الدكتاتوري، و أنا أعرف هنالك معارضين أقدموا على أعمال تكاد تكون جنونية في عرفنا نحن هنا في كندا حيث الراحة و الرفاهية، و لذلك فإننا نفكر اليوم بعقلية أخرى مختلفة عما يفكر به الإنسان العراقي.

ثم بدأ يشرح لهم ما صنع صدام بحلبجة و بالأنفال و الشيعة في الجنوب، ثم ما قالت منظمات حقوق الإنسان حتى طفح الكيل و واصل الجميع هز رؤوسهم علامة القبول و الاستحسان.

ثم سأله القاضي أيضاً: هل سمعت بعائلة السيد شبر...؟ و هل هي عائلة معروفة في العراق....؟

قال: أجل، إن عائلة آل شبر هي من العوائل المعروفة، و مشهود لها في الأصالة، و لها باع طويل في التاريخ كما هي عائلة آل الحكيم و آل الصدر و آل بحر العلوم و هذه العوائل تتوارث الاحترام جيلا ً عن جيل.

سأل القاضي: يعني أفهم من حديثك أن عائلة السيد شبر محترمة، و معروفة في داخل العراق و في خارجه، أو في داخل العراق فقط...؟
قال د.علي: لا إن اسم العائلة له من الاحترام سواء أكان في الداخل أم في الخارج، فانا لم أزر الجنوب في حياتي، و أنا كردي و سني و لكنني أعرف هذه العائلة، و عرفتها هنا في كندا من خلال بحوثي التي أجريتها، فإذا ذهبتم اليوم إلى مكتبة جامعة تورنتو ستجدون هنالك الكثير من المؤلفات كتبت من قبل هذه العائلة و من قبل والد السيد شبر بالذات.
تغيرت وجوه الجميع، بينما بقيت أنا أركز نظري على الأرض غير مكترث بما ستؤول إليه النتيجة، كل ما يهمني هو مصداقية القضية التي نعيش لأجلها.

سأل القاضي: أنت الآن يا د. علي تقول انك تحترم و تقدر السيد شبر في كندا، و أنت تعيش في الظروف الكندية، ماذا سيكون موقفك لو علمت الآن بأن السيد شبر متزوج من إمرأة أخرى أمريكية بالإضافة إلى زوجته العراقية الموجودة حالياً......؟ هل سيبقى على نفس المصداقية في عينك ...؟
أجاب: نعم لن تتغير فقضية الزواج شخصية بحتة، كما إنها عادية في بلدنا خصوصاً من ذوي أصحاب الجاه الذين لا يعتبرون أن الزواج من ثانية هو تنكيل بالأولى، و مع إنني لم أعرف ذلك من قبل و لكنني أعتبرها قضية شخصية، و ليست ذات قيمة تذكر.
سأل القاضي: إلاّ يعني هذا بالنسبة لك نوعاً من التحايل على القانون أو نوعاً من الانفعال.......؟
أجاب: لا أعتقد ذلك، و لكنني شخصياً لا أمانع ذلك لنفسي لأننا ننظر إلى الزواج بمنظار آخر غير المنظار الغربي، و كذلك الحال بالنسبة إلى زوجاتنا، لذلك فأنا مطمئن لو جئتم الآن بزوجة السيد شبر إلى هنا لقالت لكم كما قلت أنا الآن، و لوجدتم أنها غير متحسسة من الزواج الثاني.
سأل القاضي: و لكن هل يضر ذلك بسمعة السيد شبر أمام جاليتكم باعتباره يمثل الرمز ؟
قال: أبداً، ليست بقضية مهمة إطلاقا.

ساد صمت مطبق، و كأن الجميع يريد أن يذهب إلى بيته بعد جلسات طويلة يلحق فيها أولها بآخرها، و لكن قبل أن نتحرك سأل القاضي محامي الحكومةإذا كان عنده سؤال ل د. علي، و الذي كنت أتوقع أن يتناوله بالهجوم في تسفيه آرائه، أجاب المحامي و بكل سهولة ....لا شكراً.

سألت المحامية السؤال الأكبرإذا كان هنالك متسع من الوقت لمزيد من الشهود في هذه المحكمة....؟ أجاب الجميع أن ذلك يكفي.... صافحني الجميع، و شدوا على يدي قائلين ستصلكم النتيجة بالبريد.

خرجنا من القاعة، و نحن واثقون من أنفسا تماماً بأن الرياح تسير لصالحنا.
و لكن المحامية كانت متخوفة من الحكومة لأنّ لها الحق في الاستئناف[1]، و أنها ربما ترفض الموافقة على قرار القضاة، و فيما لو كان إيجابياً لصالحي خشية من أن يكون ذلك باباً لقبول أصحاب السوابق، و لكنني أخبرتها بما معناه من كان مع الله كان الله معه....
فارقت تلك البناية و تلك الوجوه و قاعة المحكمة آملاً أن لا أرجع إليها ثانية.

و لم يمر أكثر من شهرين وإذا بالتلفون يرن في مكتبي و صوت المحامية على الخط و كأنها مجنونة و هي تصيح لقد قبلت.. لقد قبلوك....!! My God my God
سألتها ببرود و كأنني لست المعني بالأمر
- أين قبلوني ...؟
- قالت: قبلوا معاملة لجوئك ....
- قلت: لم أتفاجأ
- صاحت هل أنت مجنون....؟ إلاّ تعلم ماذا يعني ذلك...؟
- لا عليك (ياماري) هدئي من روعك و سأتصل بك خلال ساعة
تركتها ترتاح حتى زال عنها الانفعال، و اتصلت بها، وعندما رفعت السماعة قلت لها:
- إنها مكرمة لك و ليس لي، فلولا هدوئك لم أحصل على هذه النتيجة.....
كانت لا زالت المحامية منفعلة، و قالت بالحرف الواحد إنها أول قضية في تاريخ كندا أن يقبل شخص بتلك السوابق التي تملكها كلاجئ....
قلت لها: ألم اقل لك (ياماري) بأن هنالك عدل.... [2]

---

[1] لو استأنفت الحكومة القرار في حالة قبولي كلاجئ فان ذلك يعني بأنني يجب أن انتظرلثلاث سنين أخرى
[2] هناك ثلاث مراحل للحصول على الجنسية الكندية، الأولى قبول اللجوء وبعدها يحق لهذا اللاجئ أن يقدم في الحصول على الإقامة، وبعدها بثلاث سنين يحق له قبول تقديمه على الجنسية الكندية

جائت النتيجة في الشهر العاشر من سنة 1993، و صار علينا الحصول على الإقامة من خلال الإثبات إلى الحكومة بأنني قد تعافيت من الصفة الإجرامية التي (لصقتها بي المخابرات الأمريكية) و علينا لكي يتم ذلك فيجب أن نباشر بمعاملة (التأهيل) (Rehabilitation) و هو ما يعني أنني أصبحت منذ صدور الحكم في أمريكا بتجريمي قد تغيرت و أنني لست من الان عنصراً مضراً بالمجتمع.

و هكذا رفعت القضية ثانية إلى مجلس البرلمان للمصادقة عليها لأنها قضية فريدة و تحتاج إلى مصداقية الجهة التشريعية، بقيت القضية من الشهر العاشر 1993 و لحد سنة 2001 الشهر الخامس ثمان سنوات بين ردٍ و بدل مع مقابلات متنوعة مع الجهات الأمنية الكندية المختصة، يرسلون رسالة بأسم الهجرة للحضور، و عندما أحضر أجد أن الذي يقابلني هم عناصر من المخابرات الكندية، و تبدأ الأسئلة من جديد عن رأيي في كذا و رأيي في كذا حتى صرت أعرف كل أولئك الذين يعملون في سلك المخابرات، و عندما كنت أسألهم عن مصير معاملة الهجرة كانوا يجيبون بأنهم لا يعلمون عنها شيئاً و لا يعلمون ما ستكون النتيجة، حتى وصلت إلى مرحلة اليأس بأن هؤلاء سوف لا أحصل منهم خيراً أبداً[1]

و في فترة الانتظار الطويلة هذه وجدت انه لمن دواعي الوفاء لوالدتي أن أستدعيها إلى كندا و أحصل لها على الجنسية الكندية لأنها المضحية الكبيرة و الإنسانة الوفيّة ليست لي باعتباري ابنها، و إنما للقضية الكبرى التي ضحت من أجلها و دخلت سجون صدام إلى أن أطلق سراحها بعد سنة و نصف من السجن القاسي و في سجن محافظة النجف.

و في سنة 1994 تمكنت من أن أنقل والدتي بعد أن هيأت لها طريقاً معيناً في الوصول إلى كندا بصحبة أحد الإخوة جزاهم الله خيراً فوصلت إلى كندا، و قدمت كلاجئة مضطهدة.[2]

---

[1] الحصول على سمة اللجوء لا يعني كثيراً بالنسبة لي، لأن ذلك يعني عدم إمكانية السفر و الحصول على جواز، و كذلك الأمر بالنسبة إلى إجراءات أخرى

[2] و خلال أربع سنوات حصلت لها على الجنسية الكندية، و على أثرها وجدت أن تسافر و تستقر في الشرق الأوسط متمتعة بما تملكه من وثيقة سفر و جواز كندي حيث ساعدها ذلك في الحصول على رواتب التقاعد و التي تمنحها الحكومة الكندية لكبار السن بالإضافة إلى سهولة التنقل بين أقطار العالم لأداء مناسك الحج و الزيارة و غيرها من الأمور

و في يوم 2001/5/30 إتصلت بي دائرة الهجرة في دائرتي طالبين مني الحضور للحصول على وثيقة الإقامة الدائمة بعد انتظار دام 16 سنة من حين وصولي إلى كندا إلى الآن.

و بعد ثلاث سنوات حصلت على الجنسية الكندية في شهر مايو من سنة 2004 حيث تكتمل مدة 19 سنة في صراع مع المحاكم و الجهات المخابراتية.

③⑤

◗ الفصل الخامس و الثلاثون ◖

عشرون سنة في كندا
ما هي هذه الدولة؟



كندا عبارة عن دولة مصطنعة تتكون من مجموعة مقاطعات اتحدت لتكون دولة كبرى، و لعلها ثاني أكبر دول العالم مساحة، و تعيش فيما بينها ضمن دولة فدرالية مترامية الأطراف، (إليزابيث) الثانية ملكة بريطانيا هي أيضاً ملكة كندا، و رئيس الوزراء هو الشخصية التي تحكم البلاد من خلال انتخاب حزبه في دورة انتخابية لا تزيد عن الخمس سنوات، هنالك إحدى عشرة مقاطعة في كندا، أهمها هي (اونتاريو) حيث تضم تقريباً ثلث سكان كندا البالغ 30 مليون نسمة، و الثلثان الباقيان يتوزعان ما بين (كيبك) المقاطعة الفرنسية و (بريتش كولومبيا) على ساحل المحيط الهادئ المنطقة الأجمل في العالم.

مقاطعات كندا عبارة عن ولايات قد تنفصل عن بعضها البعض كما أراد أن يحدث في انتخابات كيبك في أواسط التسعينيات، و لكن الجامع الكبير لهذه المقاطعات هو المنفعة المتبادلة التي تتأتى من هذا النظام الفدرالي، الأحزاب الرئيسة[1]

المهاجرين يمثلون ما نسبته 5 % من مجموع السكان، أي إن الحكومة الكندية لا تزيد نسبة قبول المهاجرين في السنة الواحدة عن ذلك الرقم، أما المسلمون فيمثلون ما نسبة 3-5 % من مجموع نفوس القطر، معظمهم من الآسيويين من الهند و الباكستان.

كندا تعتبر نموذجاً لتجربة التعايش ما بين الجاليات، فريدة من نوعها في العالم و هي تفتخر بأنها كانت الرائدة في هذا المجال بين دول العالم أجمع، و لذلك فإن الحكومة الكندية قد قدمت تسهيلات كبيرة للجاليات.

من أقوي الجاليات هي الايطالية و اليونانية و الصينية، و بالتأكيد قد تكون اليهودية أنظمها و أقواها، من الجاليات الإسلامية العربية قد يكون الصوماليون أفضل الجاليات العربية تنظيماً وعدداً، أما الجالية العراقية فإنها حديثة جداً و مفرقة و متناثرة في أرجاء كندا مع أن العدد الأكبر من الجالية العراقية تعيش في تورونتو و في مونتريال.

مؤسسات الجالية العراقية مختلفة، أهمها المساجد و مراكز الجاليات، و لكن الجالية العراقية تتميز بالنوعية في الشخصيات مقارنة بالنماذج في الجاليات

---

[1] الأحزاب الممثلة في مجلس العموم (House of Commence) هي حزب الأحرار الكندي، حزب الخضر الكندي، الحزب الديمقراطي الجديد، الكتلة الكيبيكية، حزب المحافظين الكندي، أما الأحزاب التي لم تمثل في مجلس العموم هي: الحزب الشيوعي الكندي، العمل الكندي، التراث المسيحي، حزب وحيد القرن، الحزب التقدمي الكندي

الأخرى، لهذه النماذج دور كبير و مؤثر على مستوى الإعلام، و على مستوى السياسة و ذلك من خلال العلاقات، و من خلال نوعية الأعمال.

كانت جهود الجالية العراقية خلال حقبة ما قبل سقوط النظام البائد منصبةً على معارضة النظام في تنظيم المظاهرات و المؤتمرات و إصدار المنشورات، و غيرها، و كان الكثير من أعضاء الجالية يعيشون حالة من التردد بسبب وحشية النظام في التعامل مع عوائلهم في العراق، و لذلك فإن الكثير منهم كان يخشى من الظهور العلني في النشاطات المناهضة للحكم البعثي في العراق.

من الناحية السياسية تعتبر كندا مركزاً وسطياً ما بين الدول الكبرى بغطرستها و بين الدول المتوسطة الحال و الفقيرة، و لذلك فإن كندا تعتبر الرائد الأول في عدد جنود حفظ السلام في العالم تحت مظلة الأمم المتحدة، و لذلك فان الدور الكندي في الأمم المتحدة مؤثر و فعال، و لا يقتصر هذا الدور على جانب الأمم المتحدة و إنما لكندا أيضاً أذن صاغية لدى جارتها الكبرى الولايات المتحدة في الكثير من القضايا، لهذا فقد صار من المألوف أن أول من يستقبل في البيت الأبيض عند انتخاب الرئيس الأمريكي هو رئيس الوزراء الكندي، و ربما العكس.

الطاقم السياسي الكندي طاقم جيد و مثقف تغلب عليه صفة التعامل الواقعي. و هنالك شخصيات مثقفة جداً و ذات قابليات كبيرة مثل (لويس اوكسوورثي) وزير الخارجية السابق و (بروستنماننك) زعيم المحافظين الجدد و (بل كراهام) و (بول مارتن) الاقتصادي الكبير.
هذه الشخصيات تفهمت منذ وقت طويل حقيقة النظام العراقي البائد، و تفهمت أوضاعنا نحن العراقيين و ساندتنا في الكثير من المحافل الدولية.

جهاز المخابرات الكندي يتكون من فرعين أحدهما الداخلي، و هو ما يرمز له (RCMP) و الآخر خارجي لأمور سلامة البلد و يسمى (CISC) و حسب رأييّ الشخصي فإن الجهاز الأخير ليس له وجود حقيقي لو قارناه بما عند ال(CIA) و إنما يستعين ذلك الجهاز بأجهزة أخرى لتزويده بالمعلومات عن الأمور الخارجية التي تهم البلد، و في اعتقادي أن الجهاز المعتمد الذي تستعين به أجهزة الاستخبارات الكندية هو جهاز المخابرات الأمريكية و جهاز دولة شرق أوسطية أخرى ليس من صالحنا ذكرها هنا، و هما الجهازان اللذان ينوبان عن الجهاز الخارجي لعملهم، قد أسأل و أقول من أين

جاء هذا الاستنتاج... ؟ يمكن لي أن أقول أن هنالك شواهد كثيرة لا مجال لذكرها في هذه الصفحات...
معاملات الهجرة بأكملها يجب أن تمر بطريقة أو بأخرى بجهاز المخابرات. بالإضافة إلى معاملات أخرى تتعلق بالمهاجرين أو بالخطوط السياسية في العالم، و كأن كندا بلد للتجارب لواقع الحركات السياسية الإسلامية عموماً.

تتقاسم الجاليات في كندا حصص الأعمال. فالجالية الانكليزية الأصل صار من حصتها جهاز القضاء، و البناء، و الإنشاءات صارت للجالية الايطالية، و الغذاء صار للجالية اليونانية، أما الجالية اليهودية فهي سيدة المال في شارع (باي).
العمل السياسي في كندا مثمر جداً و فعال على مستوى الوضع الكندي، و على الوضع الأمريكي، فالأجواء السياسية خصبة جداً للعمل، و الصحافة كما ذكرت سابقاً تميل أن تكون يسارية في توجهاتها....
و الجالية العربية الإسلامية تجدها في الكثير من المراكز و الوظائف على شكل أشخاص و ليس لهم من قوة تذكر إلاّ بعض الجاليات الإسلامية التي أتت من شرق إفريقيا.

كانت تراودني منذ بداية حلولي في كندا أن أكرر تجربة فتح مركز سياسي للقضية العراقية في العاصمة (أوتاوا) يتعامل مع سياسيي البلد و يكون بمثابة مصدر المعلومات للصحافة و للسياسيين، ولكن الطلب لم يستجب له الإخوة العاملون على الساحة، و وجدوا فيه ثقلاً كبيراً على اللاجئين من العراقيين الذين قد يتهيبون في التعامل معه، و لم يثن عزمنا هذا الإحباط في إنشاء المشروع، و إنما تحركنا بصورة نشطة على شتى المستويات. كان أبرزها هو إصدار صحيفة باسم (كل شيء) صدرت في سنة 1993 و استمرت في الصدور خمس سنوات، و كانت الصحيفة تتعامل مع العرب عموماً و ليس على مستوى الجالية العراقية فقط، مع وجود لمسات العراقيين على كتاباتها[1]

---

[1] كانت (كل شيء) ذات انفتاح على الجميع تناقش قضايا أساسية في عالم الغرب، و عالم العرب مثل الاهتمام بتربية الأولاد، و الاهتمام بتوجيههم، ثم إرشاد الآباء إلى طريقة التعامل مع الجيل الجديد من أبنائهم، كما تضم مواضيع سياسية مهمة مثلاً ملف (التعذيب في العالم والعالم العربي) و هو خمسون حلقة قدمت في أعداد متتالية تتناول فيها عمليات التعذيب ضد المعارضين السياسيين في ذلك القطر حسب ما قدمته تقارير هيئات حقوق الإنسان، كذلك الحال كانت (كل شي) تتعامل مع أحداث كندية تهم العرب و تهم الجالية العربية مثل مواقف الحكومة الكندية تجاه فلسطين، و تجاه مساندتها إلى بعض مواقف الحكام العرب

كان الأمل يحدوني و أنا أعيش في كندا أن نؤسس حزباً فدرالياً يدعو إلى الفضائل في الحياة، و هو ما تتفق معظم الجاليات و الأحزاب على أهميته، يدعو إلى رفض الغش، الابتعاد عن الخمور، الانفتاح على الجميع، دفع الضرائب، التآخي و غيرها من المفاهيم التي تتفق معظم الجاليات على أهميتها، كنا نعتقد أن هذا الحزب سينفتح على الغالبية العظمى من الجاليات في كندا بالإضافة إلى الآخرين من الكنديين المتدينين أو العقلائيين، و هذه الخطوة حتى و إن كانت ضعيفة النجاح في الوقت الحالي كما نتوقع لها أن تكون، و لكن أبناء الجيل الجديد سوف يأخذ على عاتقة تطوير التجربة و إنجاحها و تحويلها إلى حقيقة على مدى السنوات المقبلة.

و كنت شخصياً مهتماً بالشكل و التنظيم و الشخصيات على مستوى الفكر الحزبي البراغماتي الانتخابي، و هي الفكرة التي تحدد إيمان أو انتماء المواطن على أساس البرنامج الانتخابي لذلك الحزب أو التنظيم، لا على أساس الانتماءات الطائفية أو الفكرية أو القومية، و قد عملنا الكثير باتجاه هذا الأمر، و بدأنا نتناول أدبيات أحزاب كندا و تأسيسها، ثم قوانين التنظيم، وغيرها من الأمور المهمة التي تلتزم في بناء هذا التنظيم....
و لكن الذي حدث هو السقوط في 9 نيسان 2003 و هو ما دفعني أنا شخصياً الى التهيؤ للعودة إلى الوطن و بناء تلك الأرض الطيبة لتكون نبراساً لأمم المنطقة، و لكن قبل أن أعود قررت أن أكتب هذه المذكرات التي انتهيت منها في شهر أبريل من عام 2005 [1] و سألت الله لي التوفيق، و لكل أجزاء العالم، و لكل من ساهم في بناء البشرية من عوامل الخير، و قد وضعت فيها بعضاً من التنقيحات على ضوء التغيرات الأخيرة في العالم المهمة منها و الضرورية و التي ارتأيت أن لا أهملها.

و في الختام أشكر كل القراء، و كل المهتمين بحالة الإنسان، و حالة العقل متمنياً لنفسي و للأمة الكبرى أمة الإنسان الخير في كل زمان و مكان.

---

[1] في معظمها و لذلك تجد فيها توجهاً ربما يبدو أنه التوجه ما قبل التحرير في طريقة التحليل



◖ الفهرس ◗

طبع على مطابع
Jawad Press
Beirut – Lebanon
961 1 557624
961 3 890119
JawadPrinting@yahoo.com